

الإمامة والسياسة

ابن قتيبة الدينوري

To PDF: www.al-mostafa.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

قال أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة رحمه الله تعالى: نفتح كلامنا بحمد الله تعالى، ونقدس ربنا بذكره والثناء عليه، لا الله إلا هو لا شريك له، الذي اتخذ الحمد لنفسه ذكراً، ورضي به من عباده شكراً وصلى الله على سيدنا محمد الذي أرسله بالهدى، وختم به رسل الله السعداء، صلاة زاكية، وسلم تسليمًا كثيرًا أبدًا.

فضل أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما:

حدثنا بن أبي مریم، قال: حدثنا أسد بن موسى، قال: حدثنا وكيع، عن يونس بن أبي إسحاق عن الشعبي، عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، قال: كنت جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقبل أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فقال عليه الصلاة والسلام: "هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين عليهم السلام ولا تخبرهما يا علي".

حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحماني رضي الله عنه، حدثنا أحمد بن حواش الحنفي، قال: حدثنا بن المبارك، عن عمر بن سعيد، عن أبي مليكة، قال: سمعت بن عباس رضي الله عنه يقول: وضع عمر رضي الله عنه على سريره فتكنفه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع، فلم يرعني إلا رجل قد أخذ بمنكي من ورائي، فالتفت فإذا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يترحم على عمر رضي الله عنه، وقال: والله ما خلفت أحداً أحب إلي أن ألقى الله تعالى بمثل عمله منك يا عمر، وأيم الله إن كنت لأرجو أن يجعلك الله مع صاحبك، وذلك أني كنت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ذهبت أنا وأبو بكر وعمر، وكنت أنا وأبو بكر وعمر، وإن كنت لأظن أن يجعلك الله تعالى معهما". وأخبرنا بن أبي شيبه، قال: حدثنا يزيد بن الحباب، عن موسى بن عبيد، قال: أخبرني أبو معاذ وأبو الخطاب، عن علي رضي الله عنه، قال: بينما أنا جالس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبل أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فقال: "يا علي: هذان سيدا كهول أهل الجنة، إلا ما كان من الأنبياء عليهم السلام، ولا تخبرهما".

حدثنا الوليد بن مسلم، عن عبد الله بن عبد العلي عن القاسم بن أبي عبد الرحمن رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لقد هممت أن أبعث إلى الأمم رجالاً يدعوهم إلى الإسلام

ويرغبونهم في الدين، فأبعث أبي بن كعب، وسالماً مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، كما فعل عيسى بن مريم عليهما السلام، فقالوا: يا رسول الله أفلا تبعث أبا بكر وعمر رضي الله عنهما؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "هما لا بد لي منهما، هما مني بمنزلة السمع والبصر".

سؤال عمر بن عبد العزيز عن استخلاف الرسول لأبي بكر

وحدثنا، قال: أخبرنا بن المبارك، قال: أخبرنا محمد بن الزبير، قال: أرسلني عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصري، رحمهما الله تعالى، أسأله إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم استخلف أبا بكر رضي الله عنه، فأتيته فاستوى جالساً، وقال: إي والذي لا إله إلا هو، استخلفه، وهو كان أعلم بالله تعالى، وأتقى الله تعالى، من أن يتوثن عليهم لو لم يأمره.

استخلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضي الله عنه:

عن ابن أبي مريم، قال: حدثنا العرياني، عن أبي عون بن عمرو بن تميم الأنصاري رضي الله عنه، وحدثنا سعيد بن كثير، عن عفير بن عبد الرحمن قال: حدثنا بقصة استخلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر، وشأن السقيفة، وما جرى فيها من القول، والتنازع بين المهاجرين والأنصار وبعضهم يزيد على بعض في الكلام، فجمعت ذلك وألفته على معنى حديثهم، ومجاز لغتهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج في مرضه الذي قبض فيه، متوكئاً على الفضل بن العباس رضي الله عنهما، و غلام يقال له ثوبان، رضي الله عنه، ثم رجع صلى الله عليه وسلم فدخل منزله، وقال ل غلامه: "اجلس على الباب ولا تحجب أحداً من الأنصار رضي الله عنهم"، فأحدقوا بالباب، وقالوا للغلام: ائذن لنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: عنده نساؤه رضي الله تعالى عنهن، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بكاءهم، فقال: من هؤلاء؟ فقليل له الأنصار رضي الله عنهم ييكون، فخرج صلى الله عليه وسلم متوكئاً على علي والعباس رضي الله عنهما فدخل المسجد واجتمع الناس إليه، فقال صلى الله عليه وسلم: "إنه لم يمت نبي قط إلا خلف وراءه تركة وإن تركتي فيكم الأنصار رضي الله عنهم، وهم كرشني التي آوي إليها، أوصيكم بتقوى الله تعالى، والإحسان إليهم، فقد علمتم أنهم شاطروكم وواسوكم في العسر واليسر نصروكم في النشاط والكسل، فاعرفوا لهم حقهم، واقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم". ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله وهو معصوب الرأس شديد الوجع، فلما كانت الصلاة أتى بلال المؤذن رضي الله عنه يدعو إلى الصلاة، ففتح صلى الله عليه وسلم عينيه، وقال للنساء:

"ادعون لي حبيبي"، فعرفت عائشة رضي الله عنها أنه يريد أبا بكر، فقالت: أرسل إلى عمر، فإن أبا بكر رجل رقيق، وإن قام مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم افتضح من البكاء، وعمر أقوى منه، فأرسلت إلى عمر رضي الله عنه، فأتى فسلم، ففتح رسول الله صلى الله عليه وسلم عينيه، فرد السلام، ثم أطرق عنه، فعرف عمر أنه لم يرده، فلما خرج أقبل صلى الله عليه وسلم عليهن وقال: "ادعون لي حبيبي" فقالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله، إن أبا بكر رجل رقيق، أمرت عمر يصلي بالناس، فقال صلى الله عليه وسلم: "إنكن صواحبات يوسف عليه السلام، ادعون لي حبيبي إنما أفعل ما أؤمر" فدعي أبو بكر رضي الله تعالى عنه.

استخلاف أبي بكر رضي الله عنه في الصلاة بالناس

فلما جاء قال له: اذهب مع المؤذن، فصل بالناس، فلم يزل أبو بكر رضي الله عنه يصلي بالناس حتى كان اليوم الذي مات فيه رسول الله وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين.

اختلاف الصحابة على موضع دفنه صلى الله عليه وسلم:

فأتمروا فقال قائل: يدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كان يصلي في مقامه، فقال أبو بكر رضي الله عنه: معاذ الله أن نجعله وثناً نعبده! وقال قائل: ندفنه صلى الله عليه وسلم في البقيع، حيث دفن إخوانه من المهاجرين والأنصار. فقال أبو بكر: إنا نكره أن نخرج قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين أظهرنا إلى البقيع، قالوا: فما ترى يا أبا بكر؟ قال: سمعته صلى الله عليه وسلم يقول: "ما قبض نبي قط إلا دفن جسده حيث قبض روحه". قالوا: فأنت والله رضا ومقنع. وكان العباس بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه قد لقي علياً كرم الله وجهه، فقال: إن النبي صلى الله عليه وسلم يقبض، فاسأله إن كان الأمر لنا بينه وإن كان لغيرنا أوصى بنا خيراً.

محاولة العباس مبايعة الإمام علي

فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قال العباس لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه: أبسط يدك أبايعك، فيقال: عم رسول الله بايع بن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويبايعك أهل بيتك، فإن هذا الأمر إذا كان لم يقل، فقال له علي كرم الله وجهه: ومن يطلب هذا الأمر غيرنا؟ وقد كان العباس رضي الله عنه لقي أبا بكر فقال: هل أوصاك رسول الله بشيء؟ قال: لا. ولقي العباس أيضاً عمر، فقال له مثل ذلك. فقال عمر: لا. فقال العباس لعلي رضي الله عنه: ابسط يدك أبايعك ويبايعك أهل بيتك.

ذكر السقيفة وما جرى فيها من القول

وحدثنا، قال: حدثنا بن عفير عن أبي عون، عن عبد الله بن عبد الرحمن الأنصاري رضي الله عنه: أن النبي عليه الصلاة والسلام لما قبض، اجتمعت الأنصاري رضي الله عنهم إلى سعد بن عباد، فقالوا له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قبض. فقال سعد لابنه قيس رضي الله عنهما: إني لا أستطيع أن أسمع الناس كلاماً لمرضي، ولكن تلق مني قولي فأسمعهم، فكان سعد يتكلم، ويحفظ ابنه رضي الله عنهما قوله، فيرفع صوته، لكي يسمع قومه، فكان مما قال رضي الله عنه، بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه: يا معشر الأنصار إن لكم سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث في قومه بضع عشرة سنة، يدعوهم إلى عبادة الرحمن، وخلع الأوثان، فما آمن به من قومه إلا قليل؟ والله ما كانوا يقدر أن يمنعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يعرفوا دينه، ولا يدفعوا عن أنفسهم، حتى أراد الله تعالى لكم الفضيلة، وساق إليكم الكرامة، وخصكم بالنعمة، ورزقكم الإيمان به وبرسوله صلى الله عليه وسلم، والمنع له ولأصحابه والإعزاز له ولدينه، والجهد لأعدائه، فكنتم أشد الناس على من تخلف عنه منكم، وأثقله على عدوكم من غيركم، حتى استقاموا لأمر الله تعالى طوعاً وكرهاً، وأعطى البعيد المقادة صاغراً داحراً حتى أنحن الله تعالى لنبيه بكم الأرض، ودانت بأسيا فكم له العرب، وتوفاه الله تعالى وهو راض عنكم وبكم، قرير العين، فشدوا أيديكم بهذا الأمر، فإنكم أحق الناس وأولاهم به.

فأجابوه جميعاً: أن قد وفقت في الرأي، وأصبت في القول، ولن نعدو ما رأيت توليتك هذا الأمر، فأنت مقنع ولصالح المؤمنين رضا. قال فأثنى الخبر إلى أبي بكر رضي الله عنه، ففرع أشد الفرع، وقام معه عمر رضي الله عنهما، فخرجا مسرعين إلى سقيفة بني ساعدة، فلقياً أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه فانطلقوا رضي الله عنهم جميعاً، حتى دخلوا سقيفة بني ساعدة، وفيها رجال من الأشراف، معهم سعد بن عبادة رضي الله عنه، فأراد عمر رضي الله عنه أن يبدأ بالكلام، وقال: خشيت أن يقصر أبو بكر رضي الله عنه عن بعض الكلام. فلما تيسر عمر للكلام، تجهز أبو بكر رضي الله عنه وقال له: على رسلك، فستكفي الكلام، فتشهد أبو بكر رضي الله عنه، وانتصب له الناس، فقال: إن الله جل ثناؤه بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق، فدعا إلى الإسلام، فأخذ الله تعالى بنواصينا وقلوبنا إلى ما دعا إليه، فكنا معشر المهاجرين أول الناس إسلاماً، والناس لنا فيه تبع، ونحن عشرة رسول الله صلى الله عليه

وسلم، ونحن مع ذلك أوسط العرب أنساباً، ليست قبيلة من قبائل العرب إلا ولقریش فيها ولادة. وأنتم أيضاً والله الذين آووا ونصروا، وأنتم وزرأونا في الدين، ووزراء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنتم إخواننا في كتاب الله تعالى وشركاؤنا في دين الله عزوجل وفيما كنا فيه من سراء وضراء، والله ما كنا في خير قط إلا كنتم معنا فيه، فأنتم أحب الناس إلينا، وأكرمهم علينا، وأحق الناس بالرضا بقضاء الله تعالى، والتسليم لأمر الله عز وجل ولما ساق لكم وإخوانكم المهاجرين رضي الله عنهم، وهم أحق الناس فلا تحسدوهم، وأنتم المؤثرون على أنفسهم حين الخصاصة، والله ما زلتم مؤثرين إخوانكم من المهاجرين، وأنتم أحق الناس ألا يكون هذا الأمر واختلافه على أيديكم، و بعد أن لا تحسدوا إخوانكم على خير ساقه الله تعالى إليهم، وإنما أدعوكم إلى أبي عبدة أو عمر، وكلاهما قد رضيت لكم ولهذا الأمر، وكلاهما له أهل. فقال عمر وأبو عبدة رضي الله عنهما: ما ينبغي لأحد من الناس أن يكون فوقك يا أبا بكر أنت صاحب الغار ثاني اثنين، وأمرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة فأنتم أحق الناس بهذا الأمر. فقال الأنصار: والله ما نحسدكم على خير ساقه الله إليكم، وإننا لكما وصفت يا أبا بكر والحمد لله، ولا أحد من خلق الله تعالى أحب إلينا منكم، ولا أرضى عندنا ولا أئمن ولكننا نشفق مما بعد اليوم، ونحذر أن يغلب على هذا الأمر من ليس منا ولا منكم، فلو جعلتم اليوم رجلاً منا ورجلاً منكم بايعنا ورضينا، على أنه إذا هلك اخترنا آخر من الأنصار فإذا هلك اخترنا آخر من المهاجرين أبداً ما بقيت هذه الأمة، كان ذلك أجدر أن يعدل في أمة محمد صلى الله عليه وسلم وأن يكون بعضنا يتبع بعضاً، فيشفق القرشي أن يزيغ فيقبض عليه الأنصاري، ويشفق الأنصاري أن يزيغ فيقبض عليه القرشي. فقام أبو بكر، فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال: إن الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم رسولاً إلى خلقه، وشهيداً على أمته ليعبدوا الله ويوحده وهم إذ ذاك يعبدون آلهة شتى، يزعمون أنها لهم شافعة، وعليهم بالغة نافعة، وإنما كانت حجارة منحوتة، وخشباً منجورة، فاقرأوا إن شئتم "إنكم وما تعبدون من دون الله" يونس: 18، "ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله"، وقالوا: "ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى" الزمر: 3، فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم، فخص الله تعالى المهاجرين الأولين رضي الله عنهم بتصديقه، والإيمان به، والمواساة له والصبر معه على الشدة من قومهم، وإذلالهم وتكذيبهم إياهم وكل الناس مخالف عليهم، زار لهم، فلم يستوحشوا لقلة عددهم وإزراء الناس بهم واجتماع قومهم عليهم، فهم أول من عبد الله في الأرض، وأول من آمن بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهم أولياؤه وعشيرته، وأحق الناس بالأمر من بعده لا ينازعهم فيه إلا ظالم، وأنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم ولا النعمة العظيمة لهم في الإسلام، رضيكم الله تعالى أنصاراً لدينه ورسوله، وجعل إليكم مهاجرته فليس بعد المهاجرين الأولين أحد عندنا بمثلتكم، فنحن الأمراء، وأنتم الوزراء، لا

نفتات دونكم بمشورة، ولا تنقضي دونكم الأمور.

فقام الحباب بن المنذر بن زيد بن حرام رضي الله عنه، فقال: يا معشر الأنصار: املكوا عليكم أيديكم، فإنما الناس في فيئكم وظلالكم، ولن يجير مجير على خلافكم، ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم، أنتم أهل العز والثروة وأولو العدد والنجدة، وإنما ينظر الناس ما تصنعون، فلا تختلفوا، فيفسد عليكم رأيكم، وتقطع أموركم، أنتم أهل الإيواء والنصرة، وإليكم كانت الهجرة، ولكم في السابقين الأولين مثل ما لهم، وأنتم أصحاب الدار والإيمان من قبلهم، والله ما عبدوا الله علانية إلا في بلادكم، ولا جمعت الصلاة إلا في مساجدكم، ولا دانت العرب للإسلام إلا بأسيا فكم، فأنتم أعظم الناس نصيباً في هذا الأمر، وإن أبي القوم، فمننا أمير ومنهم أمير.

فقام عمر رضي الله عنه، فقال: هيهات لا يجتمع سيفان في غمد واحد، إنه والله لا يرضى العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم، ولكن العرب لا ينبغي أن تولي هذا الأمر إلا من كانت النبوة فيهم، وأولو الأمر منهم، لنا بذلك على من خالفنا من العرب الحجة الظاهرة، والسلطان المبين، من ينازعنا سلطان محمد وميراثه، ونحن أولياؤه وعشيرته، إلا مدل بباطل، أو متجائف لإثم، أو متورط في هلكة.

فقام الحباب بن المنذر رضي الله عنه، فقال: يا معشر الأنصار: املكوا على أيديكم، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه، فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر، فإن أبوا عليكم ما سألتهم فأجلوهم عن بلادكم، وتولوا هذا الأمر عليهم، فأنتم والله أولى بهذا الأمر منهم، فإنه دان لهذا الأمر ما لم يكن يدين له بأسيا، أما والله إن شئتم لتعيدن جذعة، والله لا يرد علي أحد ما أقول إلا حطمت أنفه بالسيف. قال عمر بن الخطاب: فلما كان الحباب هر الذي يجيني، لم يكن لي معه كلام، لأنه كان بيني وبينه منازعة في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنهاني عنه، فحلفت أن لا أكلمه كلمة تسوؤه أبداً. ثم قام أبو عبيدة، فقال: يا معشر الأنصار أنتم أول من نصر وآوى، فلا تكونوا أول من يبدل ويغير.

مخالفة بشير بن سعد ونقضه لعهدهم

قال: وإن بشيراً لما رأى ما اتفق عليه قومه من تأمير سعد بن عباد، قام حسداً لسعد، وكان بشير من سادات الخرج، فقال: يا معشر الأنصار، أما والله لئن كنا أولى الفضيلة في جهاد المشركين، والسابقة في الدين، ما أردنا إن شاء الله غير رضا ربنا، وطاعة نبينا، والكرم لأنفسنا، وما ينبغي أن نستطيل بذلك على الناس، ولا نبتغي به عوضاً من الدنيا فإن الله تعالى ولي النعمة والمنة علينا بذلك. ثم إن محمداً رسول

الله صلى الله عليه وسلم رجل من قريش، وقومه أحق بميراثه، وتولي سلطانه، وأيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبداً فاتقوا الله ولا تنازعوهم ولا تخالفوهم.

بيعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

قال: ثم إن أبا بكر قام على الأنصار، فحمد الله تعالى، وأثنى عليه، ثم دعاهم إلى الجماعة، ونهاهم عن الفرقة، وقال: إني ناصح لكم في أحد هذين الرجلين: أبي عبيدة بن الجراح، أو عمر فبايعوا من شئتم منهما، فقال عمر: معاذ الله أن يكون ذلك وأنت بين أظهرنا، أنت أحقنا بهذا الأمر، وأقدمنا صحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأفضل منا في المال، وأنت أفضل المهاجرين وثاني اثنين، وخليفته على الصلاة، والصلاة أفضل أركان دين الإسلام، فمن ذا ينبغي أن يتقدمك، ويتولى هذا الأمر عليك؟ أبسط يدك أبايعك. فلما ذهب يبايعانه سبقهما إليه بشير الأنصاري فبايعه، فناداه الحباب بن المنذر: يا بشير بن سعد، عُقُك عُقَاقُ ما اضطرك إلى ما صنعت؟ حسدت بن عمك على الإمارة. قال: لا والله، ولكني كرهت أن أنازع قوماً حقاً لهم.

فلما رأت الأوس ما صنع قيس بن سعد وهو من سادات الخزرج، وما دعوا إليه المهاجرين من قريش، وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة، قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير رضي الله عنه: لئن وليتموها سعداً عليكم مرة واحدة، لا زالت لهم بذلك عليكم الفضيلة، ولا جعلوا لكم نصيباً فيها أبداً، فقوموا فبايعوا أبا بكر رضي الله عنه، فقاموا إليه فبايعوه؟ فقام الحباب بن المنذر إلى سيفه فأخذه، فبادروا إليه فأخذوا سيفه منه، فجعل يضرب بثوبه وجوههم، حتى فرغوا من البيعة، فقال: فعلتموها يا معشر الأنصار، أما والله لكأني بأبنائكم على أبواب أبنائهم، قد وقفوا يسألونهم بكفهم ولا يسقون الماء. قال أبو بكر: أمتنا تخاف يا حباب؟ قال: ليس منك أخاف، ولكن ممن يجيء بعدك. قال أبو بكر: فإذا كان ذلك كذلك، فالأمر إليك وإلى أصحابك، ليس لنا عليك طاعة، قال الحباب: هيهات يا أبا بكر، إذا ذهبت أنا وأنت، جاءنا بعدك من يسومنا الضيم.

تخلف سعد بن عبادة رضي الله عنه عن البيعة

فقال سعد بن عبادة: أما والله لو أن لي ما أقدر به على النهوض، لسمعت مني في أقطارها زئيراً يخرجك أنت وأصحابك، ولألحقتك بقوم كنت فيهم تابعاً غير متبوع، حاملاً غير عزيز، فبايعه الناس جميعاً حتى كادوا يطئون سعداً. فقال سعد: قتلتموني. ف قيل: اقتلوه قتله الله، فقال سعد: احمّلوني من هذا المكان،

فحملوه فأدخلوه داره وترك أياماً، ثم بعث إليه أبو بكر رضي الله عنه: أن أقبل فبايع، فقد بايع الناس، وبايع قومك، فقال: أما والله حتى أرميكم بكل سهم في كنانتي من نبل، وأخضب منكم سناني ورمحي، وأضربكم بسيفي ما ملكت يدي، وأقاتلكم بمن معي من أهلي وعشيرتي، ولا والله لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتى أعرض على ربي، وأعلم حساي. فلما أتى بذلك أبو بكر من قوله، قال عمر: لا تدعه حتى يبايعك، فقال لهم بشير بن سعد: إنه قد أبى ولج، وليس يبايعك حتى يقتل، وليس بمقتول حتى يقتل ولده معه، وأهل بيته وعشيرته، ولن تقتلوه حتى تقتل الخزرج، ولن تقتل الخزرج حتى تقتل الأوس، فلا تفسدوا على أنفسكم أمراً قد استقام لكم، فاتركوه فليس تركه بضاركم، وإنما هو رجل واحد، فتركوه وقبلوا مشورة بشير بن سعد، واستنصحوه لما بدا لهم منه. فكان سعد لا يصلي بصلاتهم، ولا يجمع بجمعتهم، ولا يفيض بإفاضتهم، ولو يجد عليهم أعواناً لصال بهم، ولو بايعه أحد على قتالهم لقاتلهم، فلم يزل كذلك حتى توفي أبو بكر رحمه الله، وولي عمر بن الخطاب، فخرج إلى الشام، فمات بها، ولم يبايع لأحد، رحمه الله. وإن بني هاشم اجتمعت عند بيعة الأنصار إلى علي بن أبي طالب، ومعهم الزبير بن العوام رضي الله عنه، وكانت أمه صفية بنت عبد المطلب، وإنما كان يعد نفسه من بني هاشم، وكان علي كرم الله وجهه يقول: ما زال الزبير منا حتى نشأ بنوه، فصرفوه عنا، واجتمعت بنو أمية على عثمان، واجتمعت بنو زهرة إلى سعد وعبد الرحمن بن عوف، فكانوا في المسجد الشريف مجتمعين، فلما أقبل عليهم أبو بكر وأبو عبيدة وقد بايع الناس أبا بكر قال لهم عمر: مالي أراكم مجتمعين حلقاً شتى، قوموا فبايعوا أبا بكر، فقد بايعته وبايعه الأنصار، فقام عثمان بن عفان ومن معه من بني أمية فبايعوه، وقام سعد وعبد الرحمن بن عوف ومن معهما من بني زهرة فبايعوا. وأما علي والعباس بن عبد المطلب ومن معهما من بني هاشم فأنصرفوا إلى رحالهم ومعهم الزبير بن العوام، فذهب إليهم عمر في عصابة فيهم أسيد بن حضير وسلمة بن أسلم، فقالوا: انطلقوا فبايعوا أبا بكر، فأبوا، فخرج الزبير بن العوام رضي الله عنه بالسيف، فقال عمر رضي الله عنه: عليكم بالرجل فخذوه فوثب عليه سلمة بن أسلم، فأخذ السيف من يده؛ فضرب به الجدار، وانطلقوا به فبايع وذهب بنو هاشم أيضاً فبايعوا.

إبائة علي كرم الله وجهه بيعة أبي بكر رضي الله عنهما:

ثم إن علياً كرم الله وجهه أتى به إلى أبي بكر وهو يقول: أنا عبد الله وأخو رسوله، فقبل له بايع أبا بكر، فقال: أنا أحق بهذا الأمر منكم، لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي، أخذتم هذا الأمر من الأنصار، واحتججتم عليهم بالقرابة من النبي صلى الله عليه وسلم، وتأخذونه منا أهل البيت غصباً؟ أستم زعمتم

للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد منكم، فأعطوكم المقادة، وسلموا إليكم الإمارة، وأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتكم به على الأنصار نحن أولى برسول الله حياً وميتاً فأنصفونا إن كنتم تؤمنون وإلا فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون. فقال له عمر: إنك لست متروكاً حتى تبائع، فقال له علي: احلب حلباً لك شطره، واشدد له اليوم أمره يردده عليك غداً. ثم قال: والله يا عمر لا أقبل قولك ولا أبياعه. فقال له أبو بكر: فإن لم تبائع فلا أكرهك، فقال أبو عبيدة بن الجراح لعلي كرم الله وجهه: يا بن عم إنك حديث السن وهؤلاء مشيخة قومك، ليس لك مثل تجربتهم، ومعرفتهم بالأمر، ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك، وأشد احتمالاً واضطلاعاً به، فسلم لأبي بكر هذا الأمر، فإنك إن تعش ويطل بك بقاء، فأنت لهذا الأمر خليف وبه حقيق، في فضلك ودينك، وعلمك وفهمك، وسابقتك ونسبك وصهرك. فقال علي كرم الله وجهه: الله الله يا معشر المهاجرين، لا تخرجوا سلطان محمد في العرب عن داره وقعر بيته، إلى دوركم وقبور بيوتكم، ولا تدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه، فوالله يا معشر المهاجرين، لنحن أحق الناس به. لأننا أهل البيت، ونحن أحق بهذا الأمر منكم ما كان فينا القارئ لكتاب الله، الفقيه في دين الله، العالم بسنن رسول الله، المضطلع بأمر الرعية، المدافع عنهم الأمور السيئة، القاسم بينهم بالسوية، والله إنه لفينا، فلا تتبعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله، فتزدادوا من الحق بعداً. فقال بشير بن سعد الأنصاري: لو كان هذا الكلام سمعته الأنصار منك يا علي قبل بيعتها لأبي بكر، ما اختلف عليك اثنان. قال: وخرج علي كرم الله وجهه يحمل فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم على دابة ليلاً في مجالس الأنصار تسألهم النصرة، فكانوا يقولون: يا بنت رسول الله، قد مضت بيعتنا لهذا الرجل، ولو أن زوجك وابن عمك سبق إلينا قبل أبي بكر ما عملنا به، فيقول علي كرم الله وجهه: أفكنت أدع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته لم أدفنه، وأخرج أنازع الناس سلطانه؟ فقالت فاطمة: ما صنع أبو الحسن إلا ما كان ينبغي له، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم.

كيف كانتبيعة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:

قال: وإن أبا بكر رضي الله عنه تفقد قوماً تخلفوا عن بيعته عند علي كرم الله وجهه، فبعث إليهم عمر، فجاء فناداهم وهم في دار علي، فأبوا أن يخرجوا فدعا بالحطب وقال: والذي نفس عمر بيده. لتخرجن أو لأحرقنها على من فيها، ففيل له: يا أبا حفص، إن فيها فاطمة؟ فقال: وإن، فخرجوا فبايعوا إلا علياً فإنه زعم أنه قال: حلفت أن لا أخرج ولا أضع ثوبي على عاتقي حتى أجمع القرآن، فوقفت فاطمة رضي الله عنها على بابها، فقالت: لا عهد لي بقوم حضروا أسوأ محضر منكم، تركتم رسول الله صلى الله عليه

وسلم جنازة بين أيدينا، وقطعتم أمركم بينكم، لم تستأمرونا، ولم تردوا لنا حقاً. فأتى عمر أبا بكر، فقال له: ألا تأخذ هذا المتخلف عنك بالبيعة؟ فقال أبو بكر لقنفذ وهو مولى له: اذهب فادع لي علياً، قال: فذهب إلى علي فقال له: ما حاجتك؟ فقال: يدعوك خليفة رسول الله، فقال علي: لسريع ما كذبتهم على رسول الله. فرجع فأبلغ الرسالة، قال: فبكى أبو بكر طويلاً. فقال عمر الثانية: لا تمهل هذا المتخلف عنك بالبيعة، فقال أبو بكر رضي الله عنه لقنفذ: عد إليه، فقل له: خليفة رسول الله يدعوك لتبايع، فجاءه قنفذ، فأدى ما أمر به، ورفع علي صوته فقال: سبحان الله؟ لقد ادعى ما ليس له، فرجع قنفذ، فأبلغ الرسالة، فبكى أبو بكر طويلاً، ثم قام عمر، فمشى معه جماعة، حتى أتوا باب فاطمة، فدقوا الباب، فلما سمعت أصواتهم نادى بأعلى صوتها: يا أبت يا رسول الله، ماذا لقينا بعدك من بن الخطاب وابن أبي قحافة، فلما سمع القوم صوتها وبكاءها، انصرفوا باكين، وكادت قلوبهم تنصدع، وأكبادهم تنفطر، وبقي عمر ومعه قوم، فأخرجوا علياً، فمضوا به إلى أبي بكر، فقالوا له: بايع، فقال: إن أنا لم أفعل فمه؟ قالوا: إذا والله الذي لا الله إلا هو نضرب عنقك، فقال: إذا تقتلون عبد الله وأخا رسوله، قال عمر: أما عبد الله فنعم، وأما أخو رسوله فلا، وأبو بكر ساكت لا يتكلم، فقال له عمر: ألا تأمر فيه بأمرك؟ فقال: لا أكرهه على شيء ما كانت فاطمة إلى جنبه، فلحق علي بقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم يصيح ويكي، وينادي: يا بن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني. فقال عمر لأبي بكر، رضي الله عنهما: انطلق بنا إلى فاطمة، فإننا قد أغضبناها، فانطلقا جميعاً، فاستأذنا على فاطمة، فلم تأذن لهما، فأتيا علياً فكلما، فأدخلهما عليها، فلما قعدا عندها، حولت وجهها إلى الحائط، فسلما عليها، فلم ترد عليهما السلام، فتكلم أبو بكر فقال: يا حبيبة رسول الله! والله إن قرابة رسول الله أحب إلي من قرابتي، وإنك لأحب إلي من عائشة ابنتي، ولو ددت يوم مات أبوك أي مت، ولا أبقى بعده، أفتراني أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله، إلا أني سمعت أباك رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا نورث، ما تركنا فهو صدقة"، فقالت: رأيتهما إن حدثكما حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرفانه وتفعلان به؟ قالوا: نعم. فقالت: نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول: "رضا فاطمة من رضاي، وسخط فاطمة من سخطي، فمن أحب فاطمة ابنتي فقد أحبني، ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني؟" قالوا: نعم سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت: فإني أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتماني وما أرضيتماني، ولئن لقيت النبي لأشكونكما إليه. فقال أبو بكر: أنا عائد بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة؛ ثم انتحب أبو بكر يبكي، حتى كادت نفسه أن تزهد، وهي تقول: والله لأدعون الله عليك في كل صلاة أصليها، ثم خرج باكياً فاجتمع إليه الناس، فقال لهم: يبست كل رجل منكم معانقاً حليلته، مسروراً بأهله، وتركتهموني وما أنا فيه، لا حاجة

لي في بيعتكم، أقبِلوني بيعتي. قالوا: يا خليفة رسول الله، إن هذا الأمر لا يستقيم، وأنت أعلمنا بذلك، إنه إن كان هذا لم يقيم الله دين، فقال: والله لولا ذلك وما أخافه من رخاوة هذه العروة ما بت ليلة ولي في عنق مسلم بيعة، بعدما سمعت ورأيت من فاطمة. قال: فلم يبايع علي كرم الله وجهه حتى ماتت فاطمة رضي الله عنهما، ولم تمكث بعد أبيها إلا خمساً وسبعين ليلة. قال: فلما توفيت أرسل علي إلى أبي بكر: أن أقبِل إلينا، فأقبل أبو بكر حتى دخل على علي وعنده بنو هاشم فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد يا أبا بكر: فإنه لم

يمنعنا أن نبايعك إنكاراً لفضيلتك، ولا نفاسة عليك، ولكننا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقاً، فاستبددت علينا، ثم ذكر علي قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يزل يذكر ذلك حتى بكى أبو بكر. فقال أبو بكر رضي الله عنه: لقراية رسول الله أحب إلي من قرابتي، وإني والله لا أدع أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعتُه إن شاء الله تعالى. فقال علي: موعذك غداً في المسجد الجامع للبيعة إن شاء الله. ثم خرج فأتى المغيرة بن شعبة، فقال: الرأي يا أبا بكر أن تلقوا العباس، فتجعلوا له في هذه الإمرة نصيباً؛ يكون له ولعقبه، وتكون لكما الحجة على علي وبني هاشم، إذا كان العباس معكم.

قال: فانطلق أبو بكر وعمر وأبو عبيدة والمغيرة حتى دخلوا على العباس رضي الله عنه. فحمد الله أبو بكر، وأثنى عليه، ثم قال: إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم نبياً وللمؤمنين ولياً، فمن الله تعالى بمقامه بين أظهرنا، حتى اختار له الله ما عنده، فخلى على الناس أمرهم، ليختاروا لأنفسهم في مصلحتهم، متفقين غير مختلفين، فاختاروني عليهم والياً، ولأمرهم راعياً، وما أخاف بعون الله وهناً ولا حيرة ولا جبناً، وما توفيقي إلا بالله العلي العظيم، عليه توكلت وإليه أنيب. وما أزال يبلغني عن طاعن يطعن بخلاف ما اجتمعت عليه عامة المسلمين، ويتخذكم لجأ، فتكونون حصنه المنيع، فيما دخلتم فيما دخل فيه العامة، أو دفعتموهم عما مالوا إليه، وقد جئناك ونحن نريد أن نجعل لك في هذا الأمر نصيباً، يكون لك ولعقبك من بعدك، إذ كنت عم رسول الله، وإن كان الناس قد رأوا مكانك ومكان أصحابك، فعدلوا الأمر عنكم وعلى رسلكم بني عبد المطلب، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم منا ومنكم، ثم قال عمر: إي والله، وأخرى أنا لم نأتكم حاجة منا إليكم، ولكننا كرهنا أن يكون الطعن منكم فيما اجتمع عليه العامة، فيتفاقم الخطب بكم وبهم، فانظروا لأنفسكم ولعامتكم.

فتكلم العباس، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: إن الله بعث محمداً كما زعمت نبياً، وللمؤمنين ولياً، فمن الله بمقامه بين أظهرنا حتى اختار له ما عنده، فخلى على الناس أمرهم ليختاروا لأنفسهم، مصيبين للحق، لا مائلين عنه بزيغ الهوى، فإن كنت برسول الله طلبت فحقنا أخذت، وإن كنت بالمؤمنين طلبت فنحن منهم متقدمون فيهم، وإن كان هذا الأمر إثماً يجب لك بالمؤمنين فما وجب إذ كنا كارهين؛ فأما ما

بذلت لنا فإن يكن حقاً لك فلا حاجة لنا فيه وإن يكن حقاً للمؤمنين فليس لك أن تحكم عليهم، وإن كان حقنا لم نرض عنك فيه ببعض دون بعض. وأما قولك إن رسول الله منا ومنكم، فإنه قد كان من شجرة نحن أغصانها، وأنتم جيرانها.

قال: ثم خرج أبو بكر إلى المسجد الشريف، فأقبل على الناس، فعذر علياً بمثل ما اعتذر عنه، ثم قال علي فاعظم حق أبي بكر، وذكر فضيلته وسابقتها، ثم مضى فبايعه، فأقبل الناس على علي، فقالوا: أصبت يا أبا الحسن وأحسن. قال: فلما تمت البيعة لأبي بكر أقام ثلاثة أيام يقلب الناس ويستقبلهم، يقول قد أقلتكم في بيعتي، هل من كاره؟ هل من مبغض؟ فيقوم علي في أول الناس فيقول: والله لا نقيلك ولا نستقيلك أبداً، قد قدمك رسول الله صلى الله عليه وسلم لتوحيد ديننا، من ذا الذي يؤخرك لتوجيه دنيانا؟.

خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

قال: ثم إن أبا بكر قام خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إن الله الجليل الكريم العليم الحكيم الرحيم الخليم، بعث محمداً بالحق، وأنتم معشر العرب كما قد علمتم، من الضلالة والفرقة، ألفت بين قلوبكم ونصركم به وأيدكم، ومكن لكم دينكم، وأورثكم سيرته الراشدة المهديّة، فعليكم بحسن الهدى ولزوم الطاعة، وقد استخلف الله عليكم خليفة ليجمع به ألفتكم، ويقيم به كلمتكم، فأعينوني على ذلك بخير، ولم أكن لأبسط يداً ولا لساناً على من لم يستحل ذلك إن شاء الله، وأتم الله ما حرصت عليها لئلاً ولا نهاراً، ولا سألتها الله قط في سر ولا علانية، ولقد قلدت أمراً عظيماً، مالي به طاقة ولا يد، ولوددت أني وجدت أقوى الناس عليه مكاني، فأطيعوني ما أطعت الله، فإذا عصيت فلا طاعة لي عليكم، ثم بكى وقال: اعلّموا أيها الناس أني لم أجعل لهذا المكان أن أكون خيركم، ولوددت أن بعضكم كفانيه، ولئن أخذتموني بما كان الله يقيم به رسوله من الوحي ما كان ذلك عندي، وما أنا إلا كأحدكم، فإذا رأيتموني قد استقمتم فاتبعوني، وإن زغت فقوموني، واعلموا أن لي شيطاناً يعتريني أحياناً، فإذا رأيتموني غضبت فاجتنبوني، لا أؤثر في أشعاركم وأبشاركم، ثم نزل. ثم دعا عمر والأوجاه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ما ترون لي من هذا المال؟ فقال عمر: أنا والله أخبرك مالك منه. أما ما كان لك من ولد قد بان عنك وملك أمره، فسهمه كرجل من المسلمين، وأما ما كان من عيالك وضعفه أهلك، فتقوت منه بالمعروف وقوت أهلك. فقال: يا عمر إني لأخشى ألا يحل لي أن أطعم عيالي من فيء المسلمين. فقال عمر: يا خليفة رسول الله، إنك قد شغلت بهذا الأمر عن أن تكسب لعيالك. قال: ولما تمت البيعة لأبي بكر، واستقام له الأمر، اشترأب النفاق بالمدينة، وارتدت العرب، فنصب لهم أبو

بكر الحرب، وأراد قتالهم، فقالوا: نصلي ولا نؤدي الزكاة. فقال الناس: اقبل منهم يا خليفة رسول الله، فإن العهد حديث، والعرب كثير، ونحن شرذمة قليلون، لا طاقة لنا بالعرب، مع أنا قد سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا الله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله" فقال أبو بكر: هذا من حقها، لا بد من القتال. فقال الناس لعمر: اخل به فكلمه لعله يرجع عن رأيه هذا، فيقبل منهم الصلاة، ويعفيهم من الزكاة؛ فخلا به عمر فماره أجمع، فقال: والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه، ولو لم أجد أحداً أقاتلهم به لقاتلتهم وحدي، حتى يحكم الله بيني وبينهم، وهو خير الحاكمين، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "أمرت أن أقاتل الناس على ثلاث: شهادة أن لا الله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة" فوالله الذي لا الله إلا هو لا أقصر دونهن، فضرب منهم من أدبر بمن أقبل، حتى دخل الناس في الإسلام طوعاً وكرهاً. وحموا رأيه، وعرفوا فضله.

قال أبو رجاء العطاردي: رأيت الناس مجتمعين وعمر يقبل رأس أبي بكر ويقول: أنا فداؤك، لولا أنت لهلكنا. فحمد له رأيه في قتال أهل الردة.

مرض أبي بكر واستخلافه عمر رضي الله عنهما:

قال: ثم إن أبا بكر عمل سنتين وشهوراً، ثم مرض مرضه الذي مات فيه، فدخل عليه أناس من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، فيهم عبد الرحمن بن عوف، فقال له: كيف أصبحت يا خليفة رسول الله، فإني أرجو أن تكون بارئاً؟ قال: أترى ذلك؟ قال: نعم؛ قال أبو بكر: والله إني لشديد الوجع، ولما ألقى منكم يا معشر المهاجرين أشد علي من وجعي، إني وليت أمركم خيركم في نفسي، فكلكم ورم أنفه إرادة أن يكون هذا الأمر له. وذلك لما رأيتم الدنيا قد أقبلت. أما والله لتتخذن نضائد الدياج، وستور الحرير، ولتألمن النوم على الصفوف الأذري، كما يألم أحدكم النوم على حسك السعدان، والله لأن يقدم أحدكم فضرب عنقه في غير حدث خير له من أن يخوض غمرات الدنيا. فقال له عبد الرحمن بن عوف: خفض عليك من هذا يرحمك الله، فإن هذا يهيبك على ما بك، وإنما الناس رجالان: رجل رضي ما صنعت، فرأيه كراييك، ورجل كره ما صنعت، فأشار عليك برأيه، ما رأينا من صاحبك الذي وليت إلا خيراً، وما زلت صالحاً مصلحاً، ولا أراك تأسى على شيء من الدنيا فاتك. قال: أجل، والله ما آسى إلا على ثلاث فعلتھن، ليتني كنت تركتھن، وثلاث تركتھن ليتني فعلتھن، وثلاث ليتني سألت رسول الله عنھن، فأما اللاتي فعلتھن وليتني لم أفعلھن، فليتني تركت بيت علي وإن كان أعلن علي الحرب، وليتني

يوم سقيفة بني ساعدة كنت ضربت على يد أحد الرجلين أبي عبيدة أو عمر فكان هو الأمير وكنت أنا الوزير، وليتي حين أتيت بذى الفجاءة السلمي أسيراً أي قتلته ذبيحاً أو أطلقته نجيحاً، ولم أكن أحرقتة بالنار. وأما اللاتي تركتهن وليتي كنت فعلتهن، ليتني حين أتيت بالأشعث بن قيس أسيراً أي قتلته ولم أستحيه، فإني سمعت منه، وأراه لا يرى غياً ولا شراً إلا أعان عليه، وليتي حين بعثت خالد بن الوليد إلى الشام، أي كنت بعثت عمر بن الخطاب إلى العراق، فأكون قد بسطت يدي جميعاً في سبيل الله. وأما اللاتي كنت أود أي سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهن، فليتني سألته لمن هذا الأمر من بعده؟ فلا ينازعه فيه أحد، وليتي كنت سألته: هل للأنصار فيها من حق؟ وليتي كنت سألته عن ميراث بنت الأخ والعمة، فإن في نفسي من ذلك شيئاً.

ثم دخل عليه أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا خليفة رسول الله، ألا ندعو لك طبيباً ينظر إليك؟ فقال: قد نظر إلي. قالوا: فماذا قال؟ قال: إني فعال لما أريد، ثم قال لهم: انظروا ماذا أنفقت من بيت المال، فنظروا فإذا هو ثمانية آلاف درهم، فأوصى أهله أن يؤدوها إلى الخليفة بعده. ثم دعا عثمان بن عفان فقال: اكتب عهدي، فكتب عثمان وأملى عليه:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة آخر عهده في الدنيا نازحاً عنها، وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها: إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن تروه عدل فيكم، فذلك ظني به ورجائي فيه، وإن بدل وغير فالخير أردت، ولا أعلم الغيب، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. ثم ختم الكتاب ودفعه، فدخل عليه المهاجرون والأنصار حين بلغهم أنه استخلف عمر، فقالوا: نراك استخلفت علينا عمر، وقد عرفته، وعلمت بوائقه فينا وأنت بين أظهرنا، فكيف إذا وليت عنا وأنت لاق الله عز وجل فسائلك، فما أنت قائل؟ فقال أبو بكر: لئن سألتني الله لأقولن: استخلفت عليهم خيرهم في نفسي. قال: ثم أمر أن تجتمع له الناس، فاجتمعوا، فقال: أيها الناس قد حضرني من قضاء الله ما ترون، وإنه لا بد لكم من رجل يلي أمركم، ويصلي بكم، ويقا تل عدوكم، فيأمركم، فإن شئتم اجتهدت لكم رأيي، ووالله الذي لا الله إلا هو لا آلوكم في نفسي خيراً، قال: فبكى وبكى الناس، وقالوا: يا خليفة رسول الله، أنت خيرنا وأعلمنا، فاختر لنا، قال: سأجتهد لكم رأيي، وأختار لكم خيركم إن شاء الله. قال: فخرجوا من عنده، ثم أرسل إلى عمر فقال: يا عمر، أحبك محب، وأبغضك مبغض، وقديماً يحب الشر، ويبغض الخير. فقال عمر: لا حاجة لي بها، فقال أبو بكر: لكن بها إليك حاجة، والله ما حبوتك بها، ولكن حبوتها بك. ثم قال: خذ هذا الكتاب واخرج به إلى الناس، وأخبرهم أنه عهدي، وسلمهم عن سمعهم وطاعتهم. فخرج عمر بالكتاب وأعلمهم، فقالوا: سمعاً وطاعة، فقال له رجل: ما في الكتاب يا أبا

حفص؟ قال: لا أدري، ولكني أول من سمع وأطاع. قال: لكني والله أدري ما فيه: أمرته عام أول، وأمرك العام.

ولاية عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

قال: ولما توفي أبو بكر وولي عمر وقعد في المسجد مقعد الخلافة، أتاه رجل، فقال: يا أمير المؤمنين، أدنو منك فإن لي حاجة؟ قال عمر: لا. قال الرجل: إذا أذهب فيغنيني الله عنك، فولى ذاهباً، فاتبعه عمر ببصره، ثم قام فأخذه بثوبه، فقال له: ما حاجتك؟ فقال الرجل: بغضك الناس، وكرهك الناس، قال عمر: ولم ويحك؟ قال الرجل: للسانك وعصاك، قال: فرفع عمر يديه، فقال: اللهم حببهم إلي وحببي إليهم. قال الرجل: فما وضع يديه حتى ما على الأرض أحب إلي منه.

وكان أهل الشام قد بلغهم مرض أبي بكر، واستبطأوا الخبر، فقالوا: إنا لنخاف أن يكون خليفة الله قد مات وولي بعده عمر، فإن كان عمر هو الوالي فليس لنا بصاحب، وإنا نرى خلعه. قال بعضهم: فابعثوا رجلاً ترضون عقله، قال: فانتخبوا لذلك رجلاً، فقدم على عمر، وقد كان عمر استبطأ خبر أهل الشام، فلما أتاه قال له: كيف الناس؟ قال: سالمون صالحون، وهم كارهون لولايتك، ومن شرك مشفقون، فأرسلوني أنظر: أحلو أنت أم مر؟ قال: فرفع عمر يديه إلى السماء وقال: اللهم حببي إلي الناس، وحببهم إلي.

قال: فعمل عمر عشر سنين بعد أبي بكر، فوالله ما فارق الدنيا حتى أحب ولايته من كرهها. لقد كانت إمارته فتحاً، وإسلامه عزاً ونصراً، اتبع في عمله سنة صاحبيه وآثارهما، كما يتبع الفصيل أثر أمه، ثم اختار الله له ما عنده.

قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

قال عمرو بن ميمون: شهدت عمر بن الخطاب يوم طعن، فما منعي أن أكون في الصف الأول إلا هيئته، فكنت في الصف الذي يليه، وكان عمر لا يكبر حتى يستقبل الصف المتقدم بوجهه، فإن رأى رجلاً متقدماً من الصف أو متأخراً ضربه بالدرّة، فذلك الذي منعي من التقدم. قال: فأقبل لصلاة الصبح، وكان يغلس بها، فعرض له أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، فطعنه ثلاث طعنات، فسمعت عمر وهو يقول: دونكم الكلب، فإنه قد قتلني، وماج الناس، فجرح ثلاثة عشر رجلاً، وصاح بعضهم ببعض: دونكم الكلب، فشد عليه رجل من خلفه، فاحتضنه، وماج الناس، فقال قائل: الصلاة عباد الله، طلعت

الشمس. فدفعت عبد الرحمن بن عوف، فصلى بأقصر سورتين في القرآن، واحتمل عمر، ومات من الذين جرحوا ستة أو سبعة، وجرى الناس إلى عمر، فقال: يا بن عباس، اخرج فناد في الناس أعن ملاً ورضى منهم كان هذا؟ فخرج فنادى، فقالوا: معاذ الله، ما علمنا ولا اطلعنا؛ قال: فأتاه الطبيب فقال: أي الشراب أحب إليك؟ قال: النبيذ فسقوه نبيذاً، فخرج من بعض طعناته. فقال الناس: صديد، اسقوه لبناً، فخرج اللبن؛ فقال الطبيب: لا أرى أن تمسي، فما كنت فاعلاً فافعل، فقال لابنه عبد الله: ناولني الكتف، فلو أراد الله أن يمضي ما فيه أمضاه، فمحاها بيده، وكان فيها فريضة الجدد. ثم دخل عليه كعب الأحبار، فقال: يا أمير المؤمنين، الحق من ربك فلا تكونن من الممترين، قد كنت أنبأتك أنك شهيد، قال: ومن أين لي بالشهادة وأنا بجزيرة العرب؟ ثم جعل الناس يشنون عليه، ويذكرون فضله. فقال: إن من غررقوه لمغرور، إني والله وددت أن أخرج منها كفافاً كما دخلت فيها، والله لو كان لي اليوم ما طلعت عليه الشمس لافتديت به من هول المطلاع، فقالوا: يا أمير المؤمنين، لا بأس عليك، فقال: إن يكن القتل بأساً، فقد قتلتني أبو لؤلؤة، قالوا: فإن يكن ذلك فجزاك الله عنا خيراً. فقال: لا أراكم تغبطوني بها، فوالذي نفس عمر بيده ما أدري علام أهجم، ولوددت أني نجوت منها كفافاً لا لي ولا علي، فيكون خيراً بشرها، ويسلم لي ما كان قبلها من الخير. ودخل علي بن أبي طالب فقال: يا علي، أعن ملاً منكم ورضى كان هذا؟ فقال علي: ما كان عن ملاً منا ولا رضى، ولوددنا أن الله زاد من أعمارنا في عمرك. قال: وكان رأسه في حجر ابنه عبد الله، فقال له: ضع خدي بالأرض، فلم يفعل؟ فلحظه وقال: ضع خدي بالأرض لا أم لك، فوضع خده بالأرض، فقال: الويل لعمر ولأم عمر إن لم يغفر الله لعمر، ثم دعا عبد الله بن عباس وكان يحبه ويدنيه ويسمع منه، فقال له: يا بن عباس، إني لأظن أن لي ذنباً، ولكن أحب أن تعلم لي أعن ملاً منهم ورضى كان هذا؟ فخرج بن عباس، فجعل لا يرى ملاً من الناس إلا وهم ييكون، كأنما فقدوا اليوم أنصارهم، فرجع إليه فأخبره بما رأى. قال: فمن قتلتني؟ قال: أبو لؤلؤة المجوسي غلام المغيرة بن شعبه. قال عبد الله: فرأيت البشر في وجهه، فقال: الحمد لله الذي لم يقتلني رجل يحتاجني بلا الله إلا الله يوم القيامة. ثم قال: يا عبد الله، ألا لو أن لي ما طلعت عليه الشمس وما غربت لافتديت به من هول المطلاع، وما ذاك والحمد لله أن أكون رأيت إلا خيراً، فقال له بن عباس: فإن يك ذاك يا أمير المؤمنين، فجزاك الله عنا خيراً، أليس قد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعز الله بك الدين والمسلمون محبسون بمكة؟ فلما أسلمت كان إسلامك عزاً أعز الله به الإسلام، وظهر النبي وأصحابه، ثم هاجرت إلى المدينة، فكانت هجرتك فتحاً، ثم لم تغب عن مشهد شاهده رسول الله من قتال المشركين، وقال فيك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم كذا وكذا، ثم قبض رسول الله وهو عنك راضٍ، ثم ارتد الناس بعد رسول الله عن الإسلام، فوازرت الخليفة على منهاج رسول الله، وضربتم من

أدبر بمن أقبل، حتى دخل الناس في الإسلام طوعاً وكرهاً، ثم قبض الخليفة وهو عنك راضٍ، ثم وليت بخير على ما يلي أحد من الناس. مصر الله بك الأمصار، وجبى بك الأموال، ونفى بك العدو، وأدخل الله على أهل كل بيت من المسلمين توسعة في دينهم، وتوسعة في أرزاقهم، ثم ختم الله لك بالشهادة، فهنيئاً لك، فصب الله الثناء عليك صباً، فقال: أتشهد لي بهذا يا عبد الله عند الله يوم القيامة؟ قال: نعم، فقال عمر: اللهم لك الحمد.

تولية عمر بن الخطاب الستة الشورى وعهده إليهم

قال: ثم إن المهاجرين دخلوا على عمر رضي الله عنه وهو في البيت من جراحه تلك، فقالوا: يا أمير المؤمنين، استخلف علينا، قال: والله لا أحملكم حياً وميتاً، ثم قال: إن استخلفت فقد استخلف من هو خير مني، يعني أبا بكر؛ وإن أدع فقد ودع من هو خير مني يعني النبي عليه الصلاة والسلام فقالوا: جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين، فقال: ما شاء الله راغباً، وورث أن أنجو منها لا لي ولا علي.

فلما أحس بالموت قال لابنه: اذهب إلى عائشة، واقْرئها مني السلام، واستأذنها أن أقبر في بيتها مع رسول الله ومع أبي بكر، فأثاها عبد الله بن عمر، فأعلمها، فقالت: نعم وكرامة ثم قالت: يا بني أبلغ عمر سلامي، وقل له: لا تدع أمة محمد بلا راعٍ، استخلف عليهم، ولا تدعهم بعدك هملاً، فإني أخشى عليهم الفتنة، فأتى عبد الله فأعلمه، فقال: ومن تأمري أن أستخلف؟ لو أدركت أبا عبيدة بن الجراح باقياً استخلفته ووليته، فإذا قدمت على ربي فسألني وقال لي: من وليت على أمة محمد؟ قلت: إي ربي، سمعت عبدك ونبيك يقول: لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح، ولو أدركت معاذ بن جبل استخلفته، فإذا قدمت على ربي فسألني: من وليت على أمة محمد؟ قلت: إي ربي، سمعت عبدك ونبيك يقول: إن معاذ بن جبل يأتي بين يدي العلماء يوم القيامة. ولو أدركت خالد بن الوليد لوليته، فإذا قدمت على ربي فسألني: من وليت على أمة محمد؟ قلت: إي ربي، سمعت عبدك ونبيك يقول: خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سله على المشركين، ولكني سأستخلف النفر الذين توفي رسول الله وهو عنهم راضٍ، فأرسل إليهم فجمعهم، وهم علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف رضوان الله عليهم وكان طلحة غائباً، فقال: يا معشر المهاجرين الأولين، إني نظرت في أمر الناس، فلم أجد فيهم شقاقاً ولا نفاقاً، فإن يكون بعدي شقاق ونفاق فهو فيكم، تشاوروا ثلاثة أيام. فإن جاءكم طلحة إلى ذلك، وإلا فأعزم عليكم بالله أن لا

تتفرقوا من اليوم الثالث حتى تستخلفوا أحدكم، فإن أشرتم بها إلى طلحة، فهو لها أهل، وليصل بكم صهيب هذه الثلاثة أيام التي تشاورون فيها، فإنه رجل من الموالي لا ينازعكم أمركم، وأحضروا معكم من شيوخ الأنصار، وليس لهم من أمركم شيء، وأحضروا معكم الحسن بن علي وعبد الله بن عباس، فإن لهما قرابة، وأرجو لكم البركة في حضورهما، وليس لهما من أمركم شيء، ويحضر ابني عبد الله مستشاراً، وليس له من الأمر شيء. قالوا: يا أمير المؤمنين إن فيه للخلافة موضعاً فاستخلفه، فإننا راضون به فقال: حسب آل الخطاب تحمل رجل منهم الخلافة، ليس له من الأمر شيء. ثم قال: يا عبد الله إياك ثم إياك لا تتلبس بها، ثم قال: إن استقام أمر خمسة منكم وخالف واحد فاضربوا عنقه، وإن استقام أربعة واختلف اثنان فاضربوا أعناقهما، وإن استقر ثلاثة واختلف ثلاثة فاحتكموا إلى ابني عبد الله، فلائي الثلاثة قضى فالخليفة منهم وفيهم، فإن أبي الثلاثة الآخرون ذلك فاضربوا أعناقهم؟ فقالوا: قل فينا يا أمير المؤمنين مقالة نستدل فيها برأيك ونقتدي به. فقال: والله ما يمنعني أن أستخلفك يا سعد إلا شدتك وغلظتك، مع أنك رجل حرب. وما يمنعني منك يا عبد الرحمن إلا أنك فرعون هذه الأمة. وما يمنعني منك يا زبير إلا أنك مؤمن الرضا، كافر الغضب. وما يمنعني من طلحة إلا نخوته وكبره، ولو وليها وضع خاتمه في إصبع امرأته. وما يمنعني منك يا عثمان إلا عصبيتك وحبك قومك وأهلك، وما يمنعني منك يا علي إلا حرصك عليها، وإنك أحرى القوم إن وليتها أن تقيم على الحق المبين. والصراط المستقيم. أوصي الخليفة منكم بتقوى الله العظيم، وأحذره مثل مضجعي هذا، وأخوفه يوماً تبيض فيه وجوه وتسود وجوه، يوم تعرضون على الله لا تخفى منكم خافية، ثم غشي عليه حتى ظنوا أنه قد قضى فجعلوا ينادونه ولا يفيق من إغمائه، فقال قائل: إن كان شيء ينبيه فالصلاة، فقالوا: يا أمير المؤمنين الصلاة، ففتح عينيه فقال: الصلاة هأنذا، ولا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة، فصلى وجرحه يشعب دماً، ثم التفت إليهم وقال: قد قومت لكم الطريق فلا تعوجوه، ثم التفت إلى علي بن أبي طالب، فقال: لعل هؤلاء القوم يعرفون لك حقك وشرفك وقرابتك من رسول الله، وما آتاك الله من العلم والفقہ والدين فيستخلفوك، فإن وليت هذا الأمر فاتق الله يا علي فيه، ولا تحمل أحداً من بني هاشم على رقاب الناس، ثم التفت إلى عثمان فقال: يا عثمان، لعل هؤلاء القوم يعرفون لك صهرك من رسول الله وسنك وشرفك وسابقتك فيستخلفوك، فإن وليت هذا الأمر فلا تحمل أحداً من بني أمية على رقاب الناس. ثم دعا صهيباً فقال: يا صهيب، صل بالناس ثلاثة أيام، ويجتمع هؤلاء نفر ويتشاورون بينهم. اخرجوا عني، اللهم ألفهم واجمعهم على الحق، ولا تردهم على أعقابهم، وول أمر أمة محمد خيرهم. فخرجوا من عنده، وتوفي رحمه الله تعالى من يومه ذلك، ودفن وصلى عليه صهيب.

ذكر الشورى وبيعة عثمان بن عفان رضي الله عنه:

ثم إنه بعد موت عمر اجتمع القوم فحلوا في بيت أحدهم، وأحضروا عبد الله بن عباس، والحسن بن علي، وعبد الله بن عمر، فتشاوروا ثلاثة أيام، فلم يبرموا شيئاً، فلما كان في اليوم الثالث قال لهم عبد الرحمن بن عوف: أتدرون أي يوم هذا؟ هذا يوم عزم عليكم صاحبكم أن لا تتفرقوا فيه حتى تستخلفوا أحداً، قالوا: أجل. قال: فإني عارض عليكم أمراً، قالوا: وما تعرض؟ قال: أن تولوني أمركم، وأهب لكم نصيبي فيها، وأختار لكم من أنفسكم، قالوا: قد أعطيناك الذي سألت، فلما سلم القوم قال لهم عبد الرحمن اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم، فجعل الزبير أمره إلى علي، وجعل طلحة أمره إلى عثمان، وجعل سعد أمره إلى عبد الرحمن بن عوف.

قال المسور بن مخرمة: فقال لهم عبد الرحمن: كونوا مكانكم حتى آتيكم. وخرج يتلقى الناس في أنقاب المدينة مثلثاً لا يعرفه أحد، فما ترك أحداً من المهاجرين والأنصار وغيرهم من ضعفاء الناس ورعايهم إلا سألهم، واستشارهم. أما أهل الرأي فأتاهم مستشيراً، وتلقى غيرهم سائلاً، يقول: من ترى الخليفة بعد عمر؟ فلم يلق أحداً يستشير ولا يسأله إلا ويقول عثمان، فلما رأى اتفاق الناس واجتماعهم على عثمان. قال المسور: جاءني رضي الله عنه عشاء فوجدني نائماً فخرجت إليه فقال: ألا أراك نائماً، فوالله ما اكتحلت عيني بنوم منذ هذه الثلاثة، ادع لي فلاناً وفلاناً - نفرأ من المهاجرين - فدعوتهم له، فناجهم في المسجد طويلاً، ثم قاموا من عنده، فخرجوا. ثم دعا علياً فناجاه طويلاً ثم قام من عنده على طمع، ثم قال: ادع لي عثمان، فدعوته، فناجاه طويلاً حتى فرق بينهما أن أنت صلاة الصبح، فلما صلوا جمعهم، فأخذ على كل واحد منهم العهد والميثاق: لئن بايعتك لتقيم لنا كتاب الله وسنة رسوله، وسنة صاحبك من قبلك؛ فأعطاه كل واحد منهم العهد والميثاق على ذلك، وأيضاً لئن بايعت غيرك لترضين ولتسلمن، وليكونن سيفك معي على من أبى فأعطوه ذلك من عهودهم ومواثيقهم، فلما تم ذلك أخذ بيد عثمان، فقال له: عليك عهد الله وميثاقه لئن بايعتك لتقيم لنا كتاب الله وسنة رسوله وسنة صاحبك، وشرط عمر أن لا تجعل أحداً من بني أمية على رقاب الناس، فقال عثمان: نعم. ثم أخذ بيد علي، فقال له: أبايك على شرط عمر أن لا تجعل أحداً من بني هاشم على رقاب الناس، فقال علي عند ذلك: مالك ولهذا إذا قطعها في عنقي؟ فإن علي الاجتهاد لأمة محمد حيث علمت القوة والأمانة استعنت بها، كان في بني هاشم أو غيرهم؛ قال عبد الرحمن: لا والله حتى تعطيني هذا الشرط؛ قال علي: والله لا أعطيكه أبداً، فتركه، فقاموا من عنده؛ فخرج عبد الرحمن إلى المسجد، فجمع الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إني نظرت في أمر الناس، فلم أرهم يعدلون بعثمان، فلا تجعل يا علي سبيلاً إلى نفسك، فإنه السيف

لا غير. ثم أخذ بيد عثمان فبايعه وبايع الناس جميعاً؛ قال: فكان عثمان رضي الله عنه ست سنين في ولايته، وهو أحب إلى الناس من عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وكان عمر رجلاً شديداً قد ضيق على قريش أنفاسها، لم ينل أحد معه من الدنيا شيئاً عظيماً له وإجلالاً، وتأسياً به واقتداءً، فلما وليهم عثمان ولى رجل لين.

قال الحسن البصري: شهدت عثمان وهو يخطب وأنا يومئذ قد راهقت الحلم، فما رأيت قط ذكراً ولا أنثى أصبح وجهاً ولا أحسن نضرة منه. فسمعتة يقول: أيها الناس، اغدوا على أعطياتكم فيأخذونها وافية، أيها الناس اغدوا على كسوتكم، فيغدون فيجاء بالحلل فتقسم بينهم، حتى والله سمعت أذناي: يا معشر المسلمين اغدوا على السمن والعسل فيغدون فيقسم بينهم السمن والعسل، ثم يقول: يا معشر المسلمين اغدوا على الطيب، فيغدون فيقسم بينهم الطيب من المسك والعنبر وغيره، والعدوان والله منفي، والأعطيات دارة والخير كثير، وما على الأرض مؤمن يخاف مؤمناً، من لقي في أي البلدان فهو أخوه وأليفه، وناصره ومؤدبه فلم يزل المال متوفراً، حتى لقد بيعت الجارية بوزنها ورقاً، وبيع الفرس بعشرة آلاف دينار وبيع البعير بألف، والنخلة الواحدة بألف. ثم أنكر الناس على عثمان أشياء أشراً وبطراً. قال بن عمر: لقد عيب عليه أشياء لو فعلها عمر ما عيب عليه.

ذكر الإنكار على عثمان رضي الله عنه:

قال عبد الله بن مسلم: حدثنا بن أبي مريم وابن عفير قالا: حدثنا بن عون، قال: أخبرنا المخول بن إبراهيم وأبو حمزة الثمالي وبعضهم يزيد على بعض والمعنى واحد، فجمعته وألفته على قولهم، ومعنى ما أرادوا عن علي بن الحسين، قال: لما أنكر الناس على عثمان بن عفان صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإن لكل شيء آفة، ولكل نعمة عاهة، وإن آفة هذا الدين وعاهة هذه الملة، قوم عيابون طعانون، يرونكم ما تحبون، ويسرون ما تكرهون. أما والله يا معشر المهاجرين والأنصار، لقد عبت علي أشياء ونقمت أموراً قد أقررت لابن الخطاب مثلها، ولكنه وقمكم وقمعكم، ولم يجترئ أحد يملأ بصره منه ولا يشير بطرفه إليه، أما والله لأننا أكثر من بن الخطاب عدداً، وأقرب ناصراً وأجدر. إلى أن قال لهم: أنفقدون من حقوقكم شيئاً؟ فما لي لا أفعل في الفضل ما أريد، فلم كنت إماماً إذا؟ أما والله ما عاب علي من عاب منكم أمراً أجهله، ولا أتيت الذي أتيت إلا وأنا أعرفه.

قال: وقدم معاوية بن أبي سفيان على أثر ذلك من الشام، فأتى مجلساً فيه علي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وعمار بن ياسر، فقال لهم: يا

معشر الصحابة، أو صيكم بشيخي هذا خيراً، فوالله لئن قتل بين أظهركم لأملأها عليكم خيلاً ورجالاً، ثم أقبل على عمار بن ياسر فقال: يا عمار، إن بالشام مئة ألف فارس، كل يأخذ العطاء، مع مثلهم من أبنائهم وعبدانهم، لا يعرفون علياً ولا قرابته، ولا عماراً ولا سابقته، ولا الزبير ولا صحابته، ولا طلحة ولا هجرته، ولا يهابون بن عوف ولا ماله، ولا يتقون سعداً ولا دعوته، فإياك يا عمار أن تقعد غداً في فتنه تنجلي، فيقال: هذا قاتل عثمان، وهذا قاتل علي. ثم أقبل على بن عباس فقال: يا بن عباس، إنا كنا وإياكم في زمان لا نرجو فيه ثواباً، ولا نخاف عقاباً، وكنا أكثر منكم، فوالله ما ظلمناكم ولا قهرناكم ولا أحرناكم عن مقام تقدمناه، حتى بعث الله رسوله منكم، فسبق إليه صاحبكم، فوالله ما زال يكره شركنا، ويتغافل به عنا حتى ولي الأمر علينا وعليكم، ثم صار الأمر إلينا وإليكم فأخذ صاحبنا على صاحبكم لسنة، ثم غير فنطق ونطق على لسانه، فقد أوقدتم ناراً لا تطفأ بالماء، فقال بن عباس: كنا كما ذكرت حتى بعث الله رسوله منا ومنكم، ثم ولي الأمر علينا وعليكم، ثم صار الأمر إلينا وإليكم، فأخذ صاحبكم على صاحبنا لسنة، ولما هو أفضل من سنه، فوالله ما قلنا إلا ما قال غيرنا، ولا نطقنا إلا بما نطق به سوانا، فتركتكم الناس جانباً، وصيرتمونا بين أن أقمنا متهمين أو نزعنا معتبين وصاحبنا من قد علمتم، والله لا يهجهج مهجهج إلا ركبته، ولا يرد حوضاً إلا أفرطه وقد أصبحت أحب منك ما أحببت، وأكره ما كرهت؛ ولعلي لا ألقاك إلا في خير.

ذكر القول والمجادلة لعثمان ومعاوية رضي الله عنهما:

قال: وذكروا أن بن عباس قال: خرجت إلى المسجد فإني لجالس فيه مع علي حين صليت العصر، إذ جاء رسول عثمان يدعو علياً، فقال علي: نعم؛ فلما أن ولى الرسول أقبل علي فقال: لم تراه دعاني؟ قلت له: دعاك ليكلمك؟ فقال: انطلق معي، فأقبلت فإذا طلحة والزبير وسعد وأناس من المهاجرين، فجلسنا فإذا عثمان عليه ثوبان أبيضان، فسكت القوم، ونظر بعضهم إلى بعض، فحمد الله عثمان، ثم قال: أما بعد، فإن بن عمي معاوية هذا قد كان غائباً عنكم وعما نلت مني، وما عاتبتكم عليه وعاتبتموني، وقد سألتني أن يكلمكم وأن يكلمه من أراد؛ فقال سعد بن أبي وقاص: وما عسى أن يقال لمعاوية أو يقول إلا ما قلت أو قيل لك؟ فقال علي: ذلكم تكلم يا معاوية، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد يا معشر المهاجرين وبقية الشورى وإياكم عني وإياكم أريد، فمن أجابني بشيء فمنكم واحد، فإني لم أرد غيركم، توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايع الناس أحد المهاجرين التسعة، ثم دفنوا نبيهم، فأصبحوا سالماً أمرهم، كأن نبيهم بين أظهرهم؛ فلما أيس الرجل من نفسه بايع رجلاً من بعده أحد المهاجرين؛ فلما

احتضر ذلك الرجل شك في واحد أن يختاره، فجعلها في ستة نفر بقية المهاجرين، فأخذوا رجلاً منهم لا يألون عن الخير فيه، فبايعوه وهم ينظرون إلى الذي هو كائن من بعده، لا يشكون ولا يمترون، مهلاً مهلاً معشر المهاجرين، فإن وراءكم من إن دفعتموه اليوم اندفع عنكم، ومن إن فعلتم الذي أنتم فاعلوه دفعكم بأشد من ركنكم وأعد من جمعكم، ثم استن عليكم بسنتكم، ورأى أن دم الباقي ليس بممتنع بعد دم الماضي، فسددوا وارفقوا، لا يغلبكم على أمركم من حذرتكم، فقال علي بن أبي طالب: كأنك تريد نفسك يا بن اللخناء لست هنالك، فقال معاوية: مهلاً عن شتم بنت عمك، فإنها ليست بشر نساءك. يا معشر المهاجرين، وولادة هذا الأمر، ولاكم الله إياه فأنتم أهله، وهذان البلدان مكة والمدينة مأوى الحق ومنتهاه، إنما ينظر التابعون إلى السابقين، والبلدان إلى البلدين فإن استقاموا استقاموا، وأيم الله الذي لا الله إلا هو لئن صفقت إحدى اليدين على الأخرى لا يقوم السابقون للتابعين، ولا البلدان للبلدين، وليسلبن أمركم ولينقلن الملك من بين أظهركم، وما أنتم في الناس إلا كالشامة السوداء في الثور الأبيض فإني رأيتمكم نشبتم في الطعن على خليفتمكم، وبطرتهم معيشتكم وسفهتكم أحلامكم، وما كل نصيحة مقبولة، والصبر على بعض المكروه خير من تحمله كله.

قال: ثم خرج القوم وأمسك عثمان بن عباس، فقال له عثمان: يا بن عمي ويا بن خالتي، فإنه لم يبلغني عنك في أمري شيء أحبه ولا أكرهه علي ولا لي، وقد علمت أنك رأيت بعض ما رأى الناس، فمنعك عقلك وحلمك من أن تظهر ما أظهروا، وقد أحببت أن تعلمني رأيك فيما بيني وبينك فأعترض؛ قال بن عباس: فقلت يا أمير المؤمنين، إنك قد ابتليتني بعد العافية، وأدخلتني في الضيق بعد السعة، ووالله إن رأيي لك أن يجلّ سنك، ويعرف قدرك، وسابقتك، والله لو ددت أنك لم تفعل ما فعلت مما ترك الخليفتان قبلك، فإن كان شيئاً تركاه لما رأيا أنه ليس لهما علمت أنه ليس لك كما لم يكن لهما، وإن كان ذلك لهما فتركاه خيفة أن ينال منهما مثل الذي نيل منك تركته لما تركاه له، ولم يكونا أحق بإكرام أنفسهما منك بإكرام نفسك؛ قال: فما منعك أن تشير علي بهذا قبل أن أفعل ما فعلت؟ قال: وما علمي أنك تفعل ذلك قبل أن تفعل؟ قال: فهب لي صمتاً حتى ترى رأيي. قال: فخرج بن عباس، فقال عثمان لمعاوية: ما ترى، فإن هؤلاء المهاجرين قد استعجلوا القدر، ولا بد لهم مما في أنفسهم، فقال معاوية: الرأي أن تأذن لي فأضرب أعناق هؤلاء القوم. قال: من؟ قال: علي وطلحة والزبير، قال عثمان: سبحان الله! أقتل أصحاب رسول الله بلا حدث أحدثوه، ولا ذنب ركبوه؟ قال معاوية: فإن لم تقتلهم فإنهم سيقتلونك. قال عثمان: لا أكون أول من خلف رسول الله في أمته بإهراق الدماء. قال معاوية: فاختر مني إحدى ثلاث خصال؟ قال عثمان: وما هي؟ قال معاوية: أرتب لك ها هنا أربعة آلاف فارس من خيل

أهل الشام، يكونون لك رداءً وبين يديك يداً، قال عثمان: أرزقهم من أين؟ قال: من بيت المال، قال عثمان: أرزق أربعة آلاف من الجند من بيت مال المسلمين لحرز دمي؟ لا فعلت هذا. قال: فثانية، قال: وما هي؟ قال: فرقهم عنك فلا يجتمع منهم اثنان في مصر واحد، واضرب عليهم البعوث والندب، حتى يكون دبر بعير أحدهم أهم عليه من صلاته؛ قال عثمان: سبحان الله؟ شيوخ المهاجرين وكبار أصحاب رسول الله، وبقية الشورى أخرجهم من ديارهم وأفرق بينهم وبين أهلهم وأبنائهم؟ لا أفعل هذا. قال معاوية فثالثة، قال: وما هي؟ قال: اجعل لي الطلب بدمك إن قتلت، قال عثمان: نعم هذه لك إن قتلت فلا يطل دمي.

قال: ثم خرج عثمان فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد أيها الناس، إن نصيحتي كذبتني، ونفسي منتني، وقد سمعت رسول الله يقول: لا تتماذوا في الباطل فإن الباطل يزداد من الله بعداً، من أساء فليتب، ومن أخطأ فليتب، وأنا أول من اتعظ، والله لئن ردي الحق عبداً لأنتسين نسب العبيد، ولأكونن كالمرقوق الذي إن ملك صبر، وإن أعتق شكر، ثم نزل، فدخل على زوجته نائلة بنت الفرافصة، ودخل معه مروان بن الحكم، فقال: يا أمير المؤمنين، أتكلم أو أسكت؟ فقالت له نائلة: بل اسكت فوالله لئن تكلمت لتغرنه ولتوبقنه. فالتفت إليها عثمان مغضباً، فقال: اسكتي، تكلم يا مروان، فقال مروان: يا أمير المؤمنين والله لو قلت الذي قلت وأنت في عز ومنعة لتابعتك، ولكنك قلت الذي قلت وقد بلغ السيل الزبي، وجاوز الحرام الطبيين، فانقض التوبة ولا تقر بالخطيئة.

ما أنكر الناس على عثمان رحمه الله:

قال: وذكروا أنه اجتمع ناس من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، فكتبوا كتاباً ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان من سنة رسول الله وسنة صاحبيه، وما كان من هبته خمس أفريقية لمروان وفيه حق الله ورسوله، ومنهم ذوو القربى واليتامى والمساكين، وما كان من تطاوله في البنيان، حتى عدوا سبع دور بناها بالمدينة: داراً لنائلة، وداراً لعائشة وغيرهما من أهله وبناته، وبنان مروان القصور بني خشب، وعمارة الأموال بها من الخمس الواجب لله ولرسوله، وما كان من إفشائه العمل والولايات في أهله وبني عمه من بني أمية أحداث وغلمة لا صحبة لهم من الرسول ولا تجربة لهم بالأمر، وما كان من الوليد بن عقبة بالكوفة إذ صلى بهم الصبح وهو أمير عليها سكران أربع ركعات ثم قال لهم: إن شئتم أزيدكم صلاة زدتكم، وتعطيله إقامة الحد عليه، وتأخير ذلك عنه، وتركه المهاجرين والأنصار لا يستعملهم على شيء ولا يستشيرهم، واستغنى برأيه عن رأيهم، وما كان من الحمى الذي حمى حول المدينة، وما كان

من إداره القطائع والأرزاق والأعطيات على أقوام بالمدينة ليست لهم صحبة من النبي عليه الصلاة والسلام، ثم لا يغزون ولا يذبون، وما كان من مجاوزته الخيزران إلى السوط، وأنه أول من ضرب بالسياط ظهور الناس، وإنما كان ضرب الخليفتين قبله بالدرة والخيزران.

ثم تعاهد القوم ليدفعن الكتاب في يد عثمان، وكان ممن حضر الكتاب عمار بن ياسر والمقداد بن الأسود، وكانوا عشرة؛ فلما خرجوا بالكتاب ليدفعوه إلى عثمان والكتاب في يد عمار، جعلوا يتسللون عن عمار حتى بقي وحده، فمضى حتى جاء دار عثمان، فاستأذن عليه، فأذن له في يوم شاتٍ، فدخل عليه وعنده مروان بن الحكم وأهله من بني أمية، فدفع إليه الكتاب فقراه، فقال له: أنت كتبت هذا الكتاب؟ قال: نعم، قال: ومن كان معك؟ قال: كان معي نفر تفرقوا فرقاً منك، قال: من هم؟ قال: لا أخبرك بهم.

قال: فلم اجترأت علي من بينهم؟ فقال مروان: يا أمير المؤمنين إن هذا العبد الأسود - يعني عماراً - قد جرأ عليك الناس، وإنك إن قتلته نكلت به من وراءه، قال عثمان: اضربوه، فضربوه وضربه عثمان معهم حتى فتقوا بطنه، فغشي عليه، فجروه حتى طرحوه على باب الدار، فأمرت به أم سلمة زوج النبي عليه الصلاة والسلام، فأدخل منزلها، وغضب فيه بنو المغيرة وكان حليفهم، فلما خرج عثمان لصلاة الظهر، عرض له هشام بن الوليد بن المغيرة، فقال: أما والله لئن مات عمار من ضربه هذا لأقتلن به رجلاً عظيماً من بني أمية، فقال عثمان: لست هناك.

قال: ثم خرج عثمان إلى المسجد، فإذا هو بعلي وهو شاك معصوب الرأس، فقال له عثمان: والله يا أبا الحسن ما أدري: أشتهي موتك أم أشتهي حياتك؟ فوالله لئن مت ما أحب أن أبقى بعدك لغيرك، لأني لا أجد منك خلفاً، ولئن بقيت لا أعدم طاعياً يتخذك مسلماً وعضداً، ويعدك كهفاً وملجأً، لا يمنعني منه إلا مكانه منك، ومكانك منه، فأنا منك كالأبن العاق من أبيه: إن مات فجعه، وإن عاش عقه. فإذا سلم فنسلم، وإما حرب فنحارب، فلا تجعلني بين السماء والأرض، فإنك والله إن قتلتني لا تجد مني خلفاً، ولئن قتلتك لا أجد منك خلفاً، ولن يلي أمر هذه الأمة بادئ فتنة. فقال علي: إن فيما تكلمت به لجواباً، ولكني عن جوابك مشغول بوجعي. فأنا أقول كما قال العبد الصالح: "فصبر جميل، والله المستعان على ما تصفون" يوسف: 18، قال مروان: إنا والله إذاً لنكسرن رماحنا، ولنقطعن سيوفنا، ولا يكون في هذا الأمر خير لمن بعدنا. فقال له عثمان: أسكت، ما أنت وهذا؟ فقام إليه رجل من المهاجرين، فقال له: يا عثمان، أرايت ما حميت من الحمى "الله أذن لكم أم على الله تفترون" يونس: 59، فقال عثمان: إنه قد حمى الحمى قبلي عمر لإبل الصدقة، وإنما زادت فزدت، فقام عمرو بن العاص فقال: يا عثمان، إنك ركبت بالناس نهايير من الأمر، فتب إلى الله يتوبوا، ورفع عثمان يديه وقال: توبوا إلى الله من كل ذنب،

اللهم إني أول تائب إليك. ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا عثمان: ما بال هؤلاء نفر من أهل المدينة يأخذون العطايا ولا يغزون في سبيل الله. وإنما هذا المال لمن غزا فيه وقاتل عليه، إلا من كان من هذه الشيوخ من أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام، فقال عثمان: فاستغفر الله وأتوب إليه. ثم قال: يا أهل المدينة، من كان له منكم ضرع فليحرق بضرعه ومن كان له زرع فليحرق بزرعه فإننا والله لا نعطي مال الله إلا لمن غزا في سبيله، إلا من كان من هذه الشيوخ من الصحابة. قال: فما بال هذا القاعد الشارب لا تقيم عليه الحد؟ - يعني الوليد بن عقبة -، فقال عثمان لعلي: دونك بن عمك فأقم عليه الحد. فقال علي للحسن: قم فاجلده. فقال الحسن ما أنت وذاك؟ هذا لغيرك، قال علي: لا، ولكنك عجزت وفشلت، يا عبد الله بن جعفر، قم فاجلده. فقام فضربه وعلي يعد، فلما بلغ أربعين أمسك وقال: جلد رسول الله أربعين، وأبو بكر أربعين. وكملها عمر ثمانين. وكل سنة.

حصار عثمان رضي الله عنه:

قال: وذكروا أنه لما اشتد الطعن على عثمان، استأذنه علي في بعض بواديه ينتحي إليها! فأذن له. واشتد الطعن على عثمان بعد خروج علي. ورجا الزبير وطلحة أن يميلا إليهما قلوب الناس، ويغلبا عليهم، واغتنما غيبة علي، فكتب عثمان إلى علي إذ اشتد الطعن عليه أما بعد فقد بلغ السيل الزبي! وجاوز الحزام الطبيين. وارتفع أمر الناس في شأني فوق قدره! وزعموا أنهم لا يرضون دون دمي. وطمع في من لا يدفع عن نفسه.

ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

وإنك لم يفخر عليك كفاخر

وقد كان يقال: أكل السبع خير من افتراس الثعلب فأقبل علي أولى.

وإلا فأدركني ولما أمزق

فإن كنت مأكولاً فكن خير أكل

قال حويطب بن عبد العزى: أرسل إلي عثمان حين اشتد حصاره، فقال: قد بدا لي أن اتهم نفسي هؤلاء، فأت علياً وطلحة والزبير، فقل لهم: هذا أمركم تولوه، واصنعوا فيه ما شئتم فخرجت حتى جئت علياً، فوجدت على بابه مثل الجبال من الناس، والباب مغلق، لا يدخل عليه أحد، ثم انصرفت، فأتيت الزبير، فوجدته في منزله ليس ببابه أحد، فأخبرته بما أرسلني به عثمان، فقال: قد والله قضى ما عليه أمير المؤمنين، هل جئت علياً؟ قلت: نعم، فلم أخلص إليه، فقمنا جميعاً، فأتينا طلحة بن عبيد الله فوجدناه في داره وعنده ابنه محمد، فقصصنا عليه ما قال عثمان، فقال: قد والله قضى ما عليه أمير المؤمنين، هل جئت علياً؟

قلنا: نعم، فلم نخلص إليه. فأرسل طلحة إلى الأشتر، فأتاه فقال لي: أخبره، فأخبرته بما قال عثمان، فقال طلحة وقد دمت عيناه: قد والله قضى ما عليه أمير المؤمنين، فقام الأشتر فقال: تبعثون إلينا وجاءنا رسولكم بكتابكم، وها هو ذا، فأخرج كتاباً فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من المهاجرين الأولين وبقية الشورى، إلى من بمصر من الصحابة والتابعين، أما بعد، أن تعالوا إلينا وتداركوا خلافة رسول الله قبل أن يسلبها أهلها، فإن كتاب الله قد بدل، وسنة رسوله قد غيرت، وأحكام الخليفين قد بدلت، فننشد الله من قرأ كتابنا من بقية أصحاب رسول الله والتابعين بإحسان، إلا أقبل إلينا، وأخذ الحق لنا، وأعطاناه، فأقبلوا إلينا إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، وأقيموا الحق على المنهاج الواضح الذي فارقتم عليه نبيكم، وفارقتكم عليه الخلفاء، غلبنا على حقنا واستولى على فيئنا، وحيل بيننا وبين أمرنا، وكانت الخلافة بعد نبينا خلافة نبوة ورحمة، وهي اليوم ملك عضوض. من غلب على شيء أكله. أليس هذا كتابكم إلينا؟ فبكى طلحة، فقال الأشتر: لما حضرنا أقبلتم تعصرون أعينكم، والله لا نفارقه حتى نقتله، وانصرف. قال: ثم كتب عثمان كتاباً بعثه مع نافع بن طريف إلى أهل مكة ومن حضر الموسم يستغيثهم فوافى به نافع يوم عرفة بمكة، وابن عباس يخطب، وهو يومئذ على الناس كان قد استعمله عثمان على الموسم، فقام نافع ففتح الكتاب، فقرأه، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عثمان أمير المؤمنين، إلى من حضر الحج من المسلمين، أما بعد: فإني كتبت إليكم كتابي هذا وأنا محصور، أشرب من بئر القصر، ولا أكل من الطعام ما يكفي، خيفة أن تنفذ ذخيرتي. فأموت جوعاً أنا ومن معي، لا أدعى إلى توبة أقبلها، ولا تسمع مني حجة أقولها، فأنشد الله رجلاً من المسلمين بلغه كتاب إلا قدم علي، فأخذ الحق في، ومنعني من الظلم والباطل. قال: ثم قام ابن عباس، فأتم خطبته، ولم يعرض لشيء من شأنه. وكتب إلى أهل الشام عامة، وإلى معاوية وأهل دمشق خاصة: أما بعد فإني في قوم طال فيهم مقامي، واستعجلوا القدر في، وقد خيروني بين أن يحملوني على شارف من الإبل إلى دخل. وبين أن أنزع لهم رداء الله الذي كساني. وبين أن أقيدهم ممن قتل. ومن كان على سلطان يخطئ ويصيب، فياغوثاه يا غوثاه، ولا أمير عليكم دوني، فالعجل العجل يا معاوية، وأدرك ثم أدرك، وما أراك تدرك.

تولية محمد بن أبي بكر على مصر:

قال: وذكروا أن أهل مصر جاؤوا يشكون بن أبي سرح عاملهم، فكتب إليه عثمان كتاباً يتهده فيه، فأبى بن أبي سرح أن يقبل ما نهاه عنه عثمان، وضرب بعض من أتاه به من قبل عثمان من أهل مصر حتى قتله، فخرج من أهل مصر سبعمائة رجل فزلوا المسجد وشكوا إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في مواقيت الصلاة ما صنع بهم بن أبي سرح، فقام طلحة فتكلم بكلام شديد وأرسلت عائشة إلى

عثمان فقالت له: قد تقدم إليك أصحاب رسول الله وسألوك عزل هذا الرجل، فأبيت إلا واحدة، فهذا قد قتل منهم رجلاً فأنصفهم من عاملك. ودخل عليه علي وكان متكلم القوم، فقال له: إنما يسألونك رجلاً مكان رجل، وقد ادعوا قبله دماً، فاعزله عنهم واقض بينهم فإن وجب لهم عليه حق، فأنصفهم منه، فقال: اختاروا رجلاً أوليه عليهم.

فقالوا: استعمل محمد بن أبي بكر، فكتب عهده وولاه، وخرج معه عدد من المهاجرين والأنصار، ينظرون فيما بين بن أبي سرح وأهل مصر، فخرج محمد ومن معه حتى إذا كانوا على مسيرة ثلاث ليال من المدينة، إذا هم بغلام أسود على بعير يخبط البعير، كأنه رجل يطلب أو يُطلب، فقال له أصحاب محمد: ما قصتك وما شأنك! كأنك طالب أوهارب؟ فقال: أنا غلام أمير المؤمنين وجهني إلى عامل مصر، فقال له رجل: هذا عامل مصر معنا، قال: ليس هذا أريد، فأخبر محمد بأمره فبعث في طلبه رجلاً، فجاء به إليه، فقال له، غلام من أنت؟ فأقبل مرة يقول أنا غلام مروان ومرة يقول أنا غلام أمير المؤمنين، حتى عرفه رجل به لعثمان. فقال له محمد: إلى من أرسلك؟ قال: إلى عامل مصر؛ قال: بماذا؟ قال: برسالة. قال: أما معك كتاب؟ قال: لا، ففتشوه فلم يجدوا معه كتاباً، قال وكانت معه إداوة قد ييست، فيها شيء يتقلقل، فحركوه ليخرج فلم يخرج فشقوا إداوته فإذا فيها كتاب من عثمان إلى عبد الله بن أبي سرح، فجمع محمد من كان معه من المهاجرين والأنصار، ثم فك الكتاب بمحضر منهم، فقرأه، فإذا فيه: إذا أتاك محمد بن أبي بكر وفلان وفلان فاقتلهم، وأبطل كتابهم، وقر على عملك حتى يأتيك رأيي. فلما رأوا الكتاب فزعوا منه، ورجعوا إلى المدينة.

رجوع محمد بن أبي بكر إلى المدينة:

وختم محمد الكتاب بخواتم النفر الذين كانوا معه، ودفعه إلى رجل منهم، ثم قدموا المدينة، فجمعوا طلحة والزبير وعلياً وسعداً، ومن كان من أصحاب رسول الله، ثم فكوا الكتاب بمحضر منهم، وأخبرهم بقصة الغلام: وأقرأهم الكتاب، فلم يبق أحد من أهل المدينة إلا حنق على عثمان. وقام أصحاب النبي فلحقوا بمنازلهم؛ وحضر الناس عثمان، وأحاطوا به، ومنعوه الماء والخروج، ومن كان معه، وأجلب عليه محمد بن أبي بكر.

حصار أهل مصر والكوفة عثمان رحمه الله:

قال: وذكروا أن أهل مصر أقبلوا إلى علي، فقالوا: ألم تر عدو الله ماذا كتب فينا؟ قم معنا إليه، فقد أحل الله دمه، فقال علي: لا والله، لا أقوم معكم. قالوا: فلم كتبت إلينا؟ قال علي: لا والله ما كتبت إليكم كتاباً قط. فنظر بعضهم إلى بعض. ثم أقبل الأشر النخعي من الكوفة في ألف رجل، وأقبل بن أبي حذيفة من مصر في أربع مئة رجل، فأقام أهل الكوفة وأهل مصر بباب عثمان ليلاً ونهاراً، وطلحة يحرض الفريقين جميعاً على عثمان. ثم إن طلحة قال لهم: إن عثمان لا يبالي ما حصرتموه؟ وهو يدخل إليه الطعام والشراب فامنعوه الماء أن يدخل عليه.

مخاطبة عثمان من أعلى القصر طلحة وأهل الكوفة وغيرهم:

قال: وذكروا أن عثمان لما منع الماء صعد على القصر، واستوى في أعلاه شم نادى: أين طلحة. فأتاه، فقال: يا طلحة، أما تعلم أن بئر رومة كانت لفلان اليهودي، لا يسقي أحداً من الناس منها قطرة إلا بشمن، فاشتريتها بأربعين ألفاً، فجعلت رشائي فيها كرشاء رجل من المسلمين، استأثر عليهم؟ قال: نعم. قال: فهل تعلم أن أحداً يمنع أن يشرب منها اليوم غيري؟ لم ذلك؟ قال: لأنك بدلت وغيّرت. قال: فهل تعلم أن رسول الله قال: من اشترى هذا البيت وزاده في المسجد فله به الجنة، فاشتريته بعشرين ألفاً، وأدخلته في المسجد؟ قال طلحة: نعم. قال: فهل تعلم اليوم أحداً يمنع فيه من الصلاة غيري؟ قال: لا. قال: لم؟ قال: لأنك غيرت وبدلت. ثم انصرف عثمان وبعث إلى علي يخبره أنه منع من الماء، ويستغيث به، فبعث إليه علي ثلاث قرب مملوءة ماء، فما كادت تصل إليه، فقال طلحة: ما أنت وهذا؟ وكان بينهما في ذلك كلام شديد، فبينما هم كذلك إذ أتاهم آت فقال لهم: إن معاوية قد بعث من الشام يزيد بن أسيد مدداً لعثمان، في أربعة آلاف من خيل الشام، فاصنعوا ما أنتم صانعون، وإلا فانصرفوا وكان معه في الدار مئة رجل ينصرونه منهم عبد الله بن الزبير، ومروان بن الحكم، والحسن بن علي، وعبد الله بن سلام، وأبو هريرة، فلما سمع القوم إقبال أهل الشام، قاموا فألهبوا النار بباب عثمان، فلما نظر أهل الدار إلى النار، نصبوا للقتال وتهيؤوا، فكره ذلك عثمان وقال: لا أريد أن تهراق في محجمة دم، وقال لجميع من في الدار: أنتم في حل من بيعتي، لا أحب أن يقتل في أحد، وكان فيهم عبد الله بن عمر، فقال: يا أمير المؤمنين، مع من تأمرني أن أكون إن غلب هؤلاء القوم عليك؟ قال: عليك بلزوم الجماعة. قلت: فإن كانت الجماعة هي التي تغلب عليك؟ قال: عليك بلزوم الجماعة حيث كانت. قال: ثم دخل عليه الحسن بن علي، فقال: مربي بما شئت، فإني طوع يدك. فقال له عثمان: ارجع يا بن أخي، اجلس في بيتك حتى يأتي الله بأمره. ثم دخل عليه أبو هريرة متقلداً سيفه، فقال: طاب الضراب يا أمير المؤمنين، قد

قتلوا منا رجلاً، وقد ألهبوا النار، فقال عثمان: عزمت عليك يا أبا هريرة إلا ألقيت سيفك، قال أبو هريرة: فألقيته فلا أدري من أخذه. قال:، ودخل المغيرة بن شعبه، فقال له: يا أمير المؤمنين إن هؤلاء قد اجتمعوا عليك، فإن أحببت فالحق بمكة، وإن أحببت أن نخرق لك باباً من الدار فتلحق بالشام ففيها معاوية وأنصارك من أهل الشام، وإن أبيت فاخرج ونخرج، ونحاكم القوم إلى الله تعالى. فقال عثمان: أما ما ذكرت من الخروج إلى مكة، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يلحد بمكة رجل من قريش، عليه نصف عذاب هذه الأمة من الإنس والجن"، فلن أكون ذلك الرجل إن شاء الله، وأما ما ذكرت من الخروج إلى الشام، فإن المدينة دار هجري، وجوار قبر النبي عليه الصلاة والسلام، فلا حاجة لي في الخروج من دار هجري، وأما ما ذكرت من محاكمة هؤلاء القوم إلى الله، فلن أكون أول من خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمته بإهراق الدم.

رؤية عثمان أبا بكر وعمر في المنام:

ثم قال: إني رأيت أبا بكر وعمر أتيا لي الليلة فقالا لي: صم فإنك مفطر عندنا الليلة. وإني أصبحت صائماً، وإني أعزم على من كان يؤمن بالله واليوم الآخر إلا أخرج من الدار سالماً. فقالوا: إنا إن خرجنا لم نأمن على أنفسنا منهم، فأذن لنا فنكون في موضع من الدار فلما رأى ذلك علي بعث إلى طلحة والزبير وسعد وعمار ونفر من أصحاب محمد، كلهم بدري، ثم دخلوا على عثمان ومعهم الكتاب والغلام والبعر، فقال علي: الغلام غلامك، والبعر بعيرك؟ فقال: نعم. قال: فأنت كتبت هذا الكتاب؟ قال: لا، وحلف بالله ما كتبت، ولا أمرت، ولا علمت. فقال له: فالخاتم خاتمك؟ قال: نعم. قال: فكيف يخرج غلامك ببعيرك وكتاب عليه خاتمك لا تعلم به؟ فحلف بالله ما كتبت هذا الكتاب، ولا وجهت، ولا أمرت. فشك القوم في أمر عثمان، وعلموا أنه لا يحلف بباطل. فقال قوم منهم: لا يبرأ عثمان عن قلوبنا إلا أن يدفع إلينا مروان، حتى نعرف كيف يأمر بقتل رجال من أصحاب رسول الله، وقطع أيديهم بغير حق، فإن كان عثمان كتبه عزلناه، وإن كان مروان كتبه نظرنا في أمره، وما يكون في أمر مروان، فانصرف القوم عنه، ولزموا بيوتهم، وأبى عثمان أن يخرج إليهم مروان، وخشي عليه القتل. فبلغ علياً أن عثمان يراد قتله، فقال: إنا أردنا مروان، فأما قتل عثمان فلا، ثم قال للحسن والحسين: اذهبا بسيفكما حتى تقوما على باب عثمان، ولا تدعا أحداً يصل إليه، وبعث الزبير ابنه على كره، وبعث طلحة ابنه كذلك، وبعث عدة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أبناءهم، يمنعون الناس أن يدخلوا على عثمان. ويسألوه أن يخرج مروان، فأشرف عليهم عثمان من أعلى القصر، فقال: يا معشر المسلمين، أذكركم الله، أستم تعلمون أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم طلب دار بني فلان، ليوسع بها للمسلمين في مسجدهم. فاشتريتها من خالص مالي. وأنتم اليوم تمنعوني أن أصلي فيه. أذكركم الله يا معشر المسلمين. أليست تعلمون أن بئر رومة كانت تباع القربة منها بدرهم. فاشتريتها من خالص مالي، فجعلت رشائي كرشاء واحد من المسلمين، وأنتم تمنعوني أن أشرب من مائها، وأنا اشتريتها، حتى إني ما أفطر إلا على ماء البحر؟ أليست تعلمون أنكم نعمتم علي أشياء، فاستغفرت الله وتبت إليه منها، وتزعمون أي غيرت وبدلت، فابعثوا علي شاهدين مسلمين، وإلا فأحلف بالله الذي لا الله إلا هو ما كتبت الكتاب، ولا أمرت به، ولا اطلعت عليه، يا قوم: "لا يجرمنكم شقاقني أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح" هود: 89، يا قوم لا تقتلوني فإنكم إن قتلتموني كنتم هكذا، وشبك بين أصابعه، يا قوم إن الله رضي لكم السمع والطاعة، وحذركم المعصية والفرقة، فاقبلوا نصيحة الله، واحذروا عقابه، فإنكم إن فعلتم الذي أنتم فاعلون، لا تقوم الصلاة جميعاً، ويسلط عليهم عدوكم، وإني أخبركم أن قوماً أظهروا للناس أنهم إنما يدعونني إلى كتاب الله تعالى والحق؟ فلما عرض عليهم الحق رغبوا عنه وتركوه، وطال عليهم عمري، واستعجلوا القدر بي، وقد كانوا كتبوا إليكم، أنهم قد رضوا بالذي أعطيتهم، ولا أعلم أي تركت من الذي عاهدتهم عليه شيئاً، وكانوا زعموا أنهم يطلبون الحدود، وترك المظالم، وردها إلى أهلها، فرضيت بذلك، وقال: يؤمر عمرو بن العاص، وعبد الله بن قيس، ومثلهما من ذوي القوة والأمانة، وكل ذلك فعلت، فلم يرضوا، وحالوا بيني وبين المسجد، فابتزوا ما قدروا عليه بالمدينة وهم يخبروني بين إحدى ثلاث: إما أن يقيدوني بكل رجل أصبت خطأ أو عمدًا، وإما أن أعترل عن الأمر، فيؤمروا أحداً، وإما أن يرسلوا إلى من أطاعهم من الجنود وأهل الأمصار، فأرسلوا إليكم فأتيتم لتبتزوني من الذي جعل الله لي عليكم من السمع والطاعة، فسمعتهم منهم، وأطعتموهم والطاعة لي عليكم دونهم، فقلت لهم: أما إقادة من نفسي فقد كان قبلي خلفاء، ومن يتول السلطان يخطئ ويصيب، فلم يستقد من أحد منهم، وقد علمت أنهم يريدون بذلك نفسي، وأما أن أتبرأ من الأمر، فإن يصلبوني أحب إلي من أن أتبرأ من جنة الله تعالى وخلافته بعد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لي: "يا عثمان، إن الله تعالى سيقمصك قميصاً بعدي، فإن أراذك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني"، ولم أكن استكرهتهم من قبل على السمع والطاعة، ولكن أتوها طائعين، يبتغون بذلك مرضاة الله، وصلاح الأمة، ومن يكن منهم يبتغي الدنيا فلن ينال منها إلا ما كتب له، فاتقوا الله، فإني لا أَرْضَى لكم أن تنكثوا عهد الله، وإني أنشدكم الله والإسلام ألا تأخذوا الحق ولا تعطوه مني: "وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء، إلا ما رحم ربي" وإني عاقبت أقواماً، وما أبتغي بذلك إلا الخير، وإني أتوب إلى الله من كل عمل عملته، وأستغفره، أما والله لقد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا يحل دم امرئ مسلم

إلا في إحدى ثلاث: الردة عن الإسلام، والزنا بعد الإحصان، ولا والله ما كان ذلك مني في جاهلية ولا إسلام، أو رجل قتل رجلاً فيقاده به". فقال بعضهم: إنه ليقول مقالاً. وقال آخر: لئن سمعتم منه ليصرفنكم، فأبوا، ورموه بالسهم، واستقبلوه بما لا يستقبل به مثله، ثم أشرف عليهم عبد الله بن سلام، وكان من أهل الدار، فقال: يا معشر من حاصر دار عثمان من المهاجرين والأنصار، ممن أنعم الله عليهم بالإسلام، لا تقتلوا عثمان فوالله إن حقه على كل مؤمن لحق الوالد على ولده، ووالله إن على حوائط المدينة اثني عشر ألف ملك منذ أن أمد الله بهم نبيكم صلى الله عليه وسلم، ووالله لئن قتلتموه ليسخطن عليكم ربكم، ولتفرقن ملائكته عنكم وليقتلن بقتله أقواماً هم في الأصلاب وما خلقوا في الأحارم وإني لأجده في التوراة التي أنزل الله على موسى عليه السلام، وكتب بيده عز وجل إليكم بالعبراني والعربي: خليفتمكم المظلوم الشهيد والذي نفسي بيده لئن قتلتموه لا تؤدي بعده طاعة إلا عن مخافة، ولا توصل رحم إلا عن مكافأة، وليقتلن به الرجال ومن في الأصلاب. فقالوا له: أيا يهودي، أشبع بطنك، وكسا ظهرك والله لا ينتطح فيه شاتان، ولا يتنافر فيه ديكان، فقال: أما الشاتان والديكان فصدقتم، ولكن التيسان الأكبران يتناطحان فيه فحصبوه ورموه حتى شجوه. فالتفت إلى عثمان، فقال له: زعموا أنك أشبعت بطني وكسوت ظهري، فاصبر يا أمير المؤمنين، فوالذي نفسي بيده إني أجذك في كتاب الله تعالى المنزل: الخليفة المظلوم الشهيد، فرميت بالسهم من كل جانب، وكان الحسن بن علي حاضراً، فأصابه سهم، فحصبه بالدم، وأصاب مروان سهم، وهو في الدار، وخضب محمد بن طلحة، وشج قنبر مولى علي فخشى محمد بن أبي بكر أن يغضب بنو هاشم للحسن فيثيروها فتنه.

قتل عثمان رضي الله عنه وكيف كان

قال: وذكروا أن محمد بن أبي بكر لما خرج الحسن بن علي أخذ بيد رجلين، فقال لهما: إن جاءت بنو هاشم، فأروا الدماء على وجه الحسن، كشفوا الناس عن عثمان، وبطل ما تريدون ولكن قوموا حتى نتصور عليه، فنقلته من غير أن يعلم أحد، فتصور هو وصاحبه من دار رجل من الأنصار، حتى دخلوا على عثمان، وما يعلم أحد ممن كان معه، لأن كل من معه كان فوق البيت، ولم يكن معه إلا امرأته، فدخل عليه محمد بن أبي بكر فصرعه، وقعد على صدره، وأخذ بلحيته، وقال: يا نعثل ما أغنى عنك معاوية، وما أغنى عنك بن عامر وابن أبي سرح. فقال له عثمان: لو رأي أبيك رضي الله عنه لبكائي، ولساءه مكانك مني، فتراخت يده عنه، وقام عنه وخرج فدعا عثمان بوضوء فتوضأ، وأخذ مصحفاً، فوضعه في حجره، ليتحرم به ودخل عليه رجل من أهل الكوفة بمشقص في يده، فوجأ به منكبه مما يلي

الترقوة، فأدماه ونضح الدم على ذلك المصحف، وجاء آخر فضربه برجله، وجاء آخر فوجأه بقائم سيفه، فغشي عليه، ومحمد بن أبي بكر لم يدخل مع هؤلاء، فتصايح نساؤه، ورش الماء على وجهه فأفاق، فدخل محمد بن أبي بكر وقد أفاق فقال له: أي نعثل، غيرت وبدلت وفعلت. ثم دخل رجل من أهل مصر، فأخذ بلحيته، فنتف منها خصلة، وسل سيفه، وقال: افرجوا لي، فعلاه بالسيف، فتلقيه عثمان بيده، فقطعها، فقال عثمان: أما والله إنها أول يد خطت المفصل، وكتبت القرآن، ثم دخل رجل أزرق قصير مجدر، ومعه جرز من حديد، فمشى إليه فقال: على أي ملة أنت يا نعثل؟ فقال: لست بنعثل، ولكني عثمان بن عفان، وأنا على ملة إبراهيم حنيفاً وما أنا من المشركين. قال: كذبت. وضربه بالجرز على صدغه الأيسر فغسله الدم، وخر على وجهه، وحالت نائلة بنت الفرافصة زوجته بينه وبينه، وكانت جسيمة، وألقت بنت شيبه نفسها عليه، ودخل عليه رجل من أهل مصر، ومعه سيف مصلت، فقال: والله لأقطعن أنفه، فعالج امرأته عنه، فكشف عنها درعها. فلما لم يصل إليه أدخل السيف بين قرطها ومنكبها، فضربت على السيف، فقطع أناملها، فقالت: يا رباح، غلام لعثمان أسود ومعه سيف، أعن عني هذا، فضربه الأسود فقتله، ثم دخل آخر معه سيف فقال: افرجوا لي، فوضع ذباب السيف في بطن عثمان، فأمسكت نائلة زوجته السيف، فحز أصابعها، ومضى السيف في بطن عثمان فقتله، فخرجت امرأته وهي تصيح، وخرج القوم هاربين من حيث دخلوا، فلم يسمع صوت نائلة، لما كان في الدار من الجلبة، فصعدت امرأته إلى الناس، فقالت: إن أمير المؤمنين قد قتل. فدخل الحسن والحسين ومن كان معهما، فوجدوا عثمان مقتولاً قد مثل به فأكبوا عليه ليكون وخرجوا فدخل الناس فوجدوه مقتولاً فبلغ علياً الخبر وطلحة والزبير وسعداً ومن كان بالمدينة فخرجوا وقد ذهبت عقولهم، فدخلوا عليه واسترجعوا، وأكبوا عليه ليكون ويُعولون حتى غشي على علي ثم أفاق، فقال لابنيه: كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب. فرفع يده فضرب الحسن والحسين، وشتم محمد بن طلحة، ولعن عبد الله بن الزبير وخرج علي وقد سلب عقله، لا يدري ما يستقبل من أمره؛ فقال طلحة. مالك يا أبا الحسن ضربت الحسن والحسين؟ فقال: يا طلحة، يقتل أمير المؤمنين ولم نقم عليه بينة ولا حجة، فقال طلحة: لو دفع مروان لم يقتل. فقال علي: لو دفع مروان قتل قبل أن تقوم عليه حكومة. فخرج علي فأتى منزله وأغلق الباب، وكتبت نائلة بنت الفرافصة إلى معاوية تصف دخول القوم على عثمان، وأخذه المصحف ليتحرم به، وما صنع محمد بن أبي بكر وأرسلت بقميص عثمان مضرراً بالدم ممزقاً، وبالخصلة التي تنفها الرجل المصري من لحيته، فعددت الشعر في زر القميص، ثم دعت نعمان بن بشير الأنصاري، فبعثته إلى معاوية، ومضى بالقميص حتى أتى على يزيد بن أسيد ممدداً لعثمان بعنه معاوية في أربعة آلاف، فأخبرهم بقتل عثمان فانصرفوا إلى الشام. قال: ثم دخل أهل مصر الدار؛ فلما رأوا عثمان مقتولاً ندموا واستحيوا وكره

أكثرهم ذلك، وثار أهل الدار في وجوههم، فأخرجوهم منها. ثم اقتتلوا عند الباب، فضرب مروان بالسيف فصرع.

دفن عثمان بن عفان رضي الله عنه

قال: وذكروا أن عبد الرحمن بن أزهر، قال: لم أكن دخلت في شيء من أمر عثمان، لا عليه ولا له، فإني لجالس بفناء داري ليلاً بعدما قتل عثمان بليلة إذ جاءني المنذر بن الزبير، فقال: بن أخي يدعوك فقممت إليه، فقال لي: إنا أردنا أن ندفن عثمان، فهل لك؟ قلت: والله ما دخلت في شيء من شأنه، وما أريد ذلك، فانصرفت عنه، ثم اتبعته، فإذا هو في نفر فيهم جبير بن مطعم، وأبو الجهم بن حذيفة، والمسور بن مخرمة، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن الزبير، فاحتملوه على باب وإن رأسه ليقول: طق طق، فوضعه في موضع الجنائز، فقام إليهم رجال من الأنصار، فقالوا لهم: لا والله لا تصلون عليه. فقال أبو الجهم: ألا تدعوننا نصلي عليه، فقد صلى الله تعالى عليه وملائكته. فقال له رجل منهم: إن كنت فأدخلك الله مدخله، فقال له: حشرتني الله معه. فقال له: إن الله حاشرك مع الشياطين، والله إن تركناكم به لعجز منا. فقال القوم لأبي الجهم: اسكت عنه وكف، فسكت، فاحتملوه، ثم انطلقوا مسرعين كأني أسمع وقع رأسه على اللوح، حتى وضعوه في أدنى البقيع فأتاهم جبلة بن عمر الساعدي من الأنصار، فقال: لا والله لا تدفنوه في بقيع رسول الله، ولا تترككم تصلون عليه، فقال أبو الجهم: انطلقوا بنا، إن لم نصل عليه فقد صلى الله عليه، فخرجوا ومعهم عائشة بنت عثمان، معها مصباح في حق، حتى إذا أتوا به حش كوكب حفروا له حفرة، ثم قاموا يصلون عليه، وأمهم جبير بن مطعم، ثم دلوه في حفرة؛ فلما رأته ابنته صاحت، فقال بن الزبير: والله لئن لم تسكتي لأضربن الذي فيه عينيك، فدفنوه، ولم يلحدوه بلبن، وحثوا عليه التراب حثواً.

بيعة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وكيف كانت:

قال: وذكروا أنه لما كان في الصباح اجتمع الناس في المسجد، وكثر الندم والتأسف على عثمان رحمه الله، وسقط في أيديهم، وأكثر الناس على طلحة والزبير واتهموهما بقتل عثمان، فقال الناس لهما: أيها الرجال، قد وقعتما في أمر عثمان، فخليا عن أنفسكما؛ فقام طلحة فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنا والله ما نقول اليوم إلا ما قلناه أمس، إن عثمان خلط الذنب بالتوبة. حتى كرهنا ولايته وكرهنا

أن نقتله وسرنا أن نُكفاه، وقد كثر فيه اللجاج، وأمره إلى الله، ثم قام الزبير فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إن الله قد رضي لكم الشورى، فأذهب بها الهوى، وقد تشاورنا فرضينا علياً فبايعوه، وأما قتل عثمان فإننا نقول فيه إن أمره إلى الله، وقد أحدث أحداثاً والله وليه فيما كان، فقام الناس، فأتوا علياً في داره، فقالوا: نبايعك، فمد يدك، لا بد من أمير، فأنت أحق بها، فقال: ليس ذلك إليكم، إنما هو لأهل الشورى وأهل بدر، فمن رضي به أهل الشورى وأهل بدر فهو الخليفة، فاجتمع ونظر في هذا الأمر فأبى أن يبايعهم، فانصرفوا عنه، وكلم بعضهم بعضاً فقالوا: يمضي قتل عثمان في الآفاق والبلاد فيسمعون بقتله، ولا يسمعون أنه ببيع لأحد بعده، فيثور كل رجل منهم في ناحية، فلا نأمن أن يكون في ذلك الفساد فارجعوا إلى علي، فلا تركوه حتى يبايع، فيسير مع قتل عثمان بيعة علي، فيطمئن الناس ويسكنون فرجعوا إلى علي، وترددوا إلى الأشر النخعي، فقال لعلي: أبسط يدك نبايعك، أو لنعصرن عينيك عليها ثلاثة، ولم يزل به يكلمه، ويخوفه الفتنة، ويذكر له أنه ليس أحد يشبهه، فمد يده، فبايعه الأشر ومن معه، ثم أتوا طلحة، فقالوا له: اخرج فبايع، قال: من؟ قالوا: علياً. قال: تجتمع الشورى وتنتظر، فقالوا: اخرج فبايع، فامتنع عليهم. فجاؤوا به يلبونه، فبايعه بلسانه ومنع يده، فقال أبو ثور: كنت فيمن حاصر عثمان فكنت آخذ سلاحي وأضعه، وعلي ينظر إلي لا يأمرني ولا ينهاني، فلما كانت البيعة له، خرجت في أثره؛ والناس حوله يبايعونه، فدخل حائطاً من حيطان بني مازن، فألجأوه إلى نخلة، وحالوا بيني وبينه، فنظرت إليهم وقد أخذت أيدي الناس ذراعه، تختلف أيديهم على يده ثم أقبل إلى المسجد الشريف، وكان أول من صعد المنبر طلحة فبايعه بده، وكانت أصابعه شلاء، فتطير منها علي، فقال: ما أخلقها أن تنكث، ثم بايعه الزبير وسعد وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم جميعاً، ثم نزل فدعا الناس، وأمر مروان، فهرب منه، وطلب نفرًا من بني أمية وابن أبي معيط فهربوا، وخرجت عائشة باكية تقول قتل عثمان رحمه الله، فقال لها عمار: بالأمس تحرضين عليه الناس، واليوم تبكينه، ثم جاء علي إلى امرأة عثمان فقال لها: من قتل عثمان؟ قالت: لا أدري، دخل عليه رجال لا أعرفهم إلا أن أرى وجوههم، وكان معهم محمد بن أبي بكر، فدعا علي محمداً، فسأله عما ذكرت امرأة عثمان، فقال محمد: صدقت، قد والله دخلت عليه، فذكر لي أبي، فقامت عنه، وأنا تائب إلى الله تعالى، والله ما قتلته، ولا أمسكتة، فقالت: صدق، ولكن هو أدخلهم. قال: ثم خرج طلحة، فلقي عائشة، فقالت له: ما صنع الناس؟ قال: قتلوا عثمان. قالت: ثم ما صنعوا؟ قال: بايعوا علياً، ثم أتوني فأكرهوني ولبيوني حتى بايعت. قالت: وما لعلي يستولي على رقابنا، لا أدخل المدينة ولعلي فيها سلطان، فرجعت. وكان الزبير خارجاً لم يشهد قتل عثمان، وكان عمرو بن العاص بفلسطين يوم قتل عثمان، فطلع عليه راكب من الحجاز، فقال له: ما وراءك؟ قال تركت عثمان محصوراً، قال عمرو: قد يضطر العير والمكواة في النار، ثم لبث أياماً،

فطلع عليه راكب آخر، فقال له عمرو: ما الخبر؟ قال: قتل عثمان. قال: فما فعل الناس. فقال: بايعوا علياً. قال: فما فعل علي في قتلة عثمان؟ قال: دخل عليه الوليد بن عقبة فسأله عن قتله، فقال: ما أمرت ولا نهيته، ولا سري ولا ساءني. قال: فما فعل بقتلة عثمان! فقال: آوى ولم يرض، وقد قال له مروان: إن لا تكن أمرت فقد توليت الأمر، وإلا تكن قتلت فقد أويت القاتلين، فقال عمرو بن العاص: خلط والله أبو الحسن، قال: ثم كتب عمرو بن العاص إلى سعد بن أبي وقاص يسأله عن قتل عثمان، ومن قتله، ومن تولى كبره؟ فكتب إليه سعد: إنك سألتني من قتل عثمان؟ وإني أخبرك أنه قتل بسيف سلته عائشة، وصقله طلحة، وسمه بن أبي

طالب، وسكت الزبير وأشار بيده، وأمسكنا نحن، ولو شئنا دفعنا عنه، ولكن عثمان غير وتغير، وأحسن وأساء، فإن كنا أحسنا فقد أحسنا، وإن كنا أسأنا فنستغفر الله، وأخبرك أن الزبير مغلوب بغلبة أهله وبطلبه بذنبه، وطلحة لو يجد أن يشق بطنه من حب الإمارة لشقه. قال: وكان بن عباس غائباً بمكة المشرفة، فأقبل إلى المدينة وقد بايع الناس علياً. قال بن عباس: فوجدت عنده المغيرة بن شعبه، فجلست حتى خرج، ثم دخلت عليه، فسألني وسألتني. ثم قلت له: ما قال لك الخارج من عندك آنفاً؟ قال: قال لي قبل هذه الدخلة، أرسل إلى عبد الله بن عامر بعهدته على البصرة، وإلى معاوية بعهدته على الشام، فإنك تهدئ عليك البلاد، وتسكن عليك الناس. ثم أتاني الآن، فقال لي: إني كنت أشرت عليك برأي لم أتعبه، فلم أر ذلك رأياً، وإني أرى أن تنبذ إليهما العداوة، فقد كفاك الله عثمان، وهما أهون موتة منه. فقال له بن عباس: أما المرة الأولى فقد نصحك فيها، وأما الثانية فقد غشك فيها؛ قال: فإني قد وليتك الشام فسر إليها؛ قال: قلت: ليس هذا برأي، أترى معاوية وهو بن عم عثمان مخلياً بيني وبين عمله، ولست آمن إن ظفر بي أن يقتلني بعثمان، وأدنى ما هو صانع أن يحبسني ويحكم علي، ولكن اكتب إلى معاوية، فمنه وعده، فإن استقام لك الأمر فابعثني؛ قال: ثم أرسل بالبيعة إلى الآفاق، وإلى جميع الأمصار! فجاءته البيعة من كل مكان إلا الشام، فإنه لم يأتها منها بيعة. فأرسل إلى المغيرة بن شعبه، فقال له: سر إلى الشام فقد وليتكها. قال: تبعني إلى معاوية وقد قتل بن عمه؟ ثم أتته والياً، فيظن أي من قتلة بن عمه؟ ولكن إن شئت أبعث إليه بعده، فإنه بالحرى إذا بعثت له بعهدته أن يسمع ويطيع. فكتب علي إلى معاوية: أما بعد فقد وليتك ما قبلك من الأمر والمال، فبايع من قبلك؛ ثم أقدم إلي في ألف رجل من أهل الشام. فلما أتى معاوية كتاب علي دعا بطومار فكتب فيه: من معاوية إلى علي، أما بعد، فإنه:

غير طعن الكلى وضرب الرقاب

ليس بيني وبين قيس عتاب

فلما أتى علياً الكتاب، ورأى ما فيه، وما هو مشتمل عليه، وكره ذلك، وقام فأتى منزله فدخل عليه الحسن ابنه، فقال له: أما والله كنت أمرتك فعصيتني، فقال له علي: وما أمرتني به فعصيتك فيه؟ قال: أمرتك أن تركب رواحلك، فتلحق بمكة المشرفة، فلا تتهم به، ولا تحل شيئاً من أمره فعصيتني، وأمرتك حين دعيت إلى البيعة أن لا تبسط يدك إلا على بيعة جماعة، فعصيتني، وأمرتك حين خالف عليك طلحة والزبير أن لا تكرههما على البيعة، وتحلي بينهما وبين وجههما، وتدع الناس يتشاورون عاماً كاملاً، فوالله لو تشاوروا عاماً ما زويت عنك، ولا وجدوا منك بداً، وأنا أمرك اليوم أن تقيلهما بيعتهما، وترد إلى الناس أمرهم، فإن رفضوك رفضتهم، وإن قبلوك قبلتهم، فإني والله قد رأيت الغدر في رؤوسهم، وفي وجوههم النكت والكراهية. فقال له علي: أنا إذاً مثلك، لا والله يا بني، ولكن أقاتل بمن أطاعني من عصائي، وأيم الله يا بني ما زلت مبيعاً علي منذ هلك جدك، فقال له الحسن: وأيم الله يا أبت ليظهرن عليك معاوية، لأن الله تعالى قال: "ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً" الإسراء: 33، فقال علي: يا بني، وما علينا من ظلمه، والله ما ظلمناه، ولا أمرنا ولا نصرنا عليه، ولا كتبت فيه إلى أحد سواداً في بياض، وإنك لتعلم أن أباك أبرأ الناس من دمه ومن أمره. فقال له الحسن: دع عنك هذا، والله إني لا أظن، بل لا أشك أن ما بالمدينة عاتق ولا عذراء ولا صبي إلا وعليه كفل من دمه. فقال: يا بني إنك لتعلم أن أباك قد رد الناس عنه مراراً أهل الكوفة وغيرهم، وقد أرسلتكم جميعاً بسيفيكما لتنصره وتموتا دونه، فنهاكما عن القتال، ونهى أهل الدار أجمعين. وأيم الله لو أمرني بالقتال لقاتلت دونه، أو أموت بين يديه. قال الحسن: دع عنك هذا، حتى يحكم الله بين عباده يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون.

قال: ثم دخل المغيرة بن شعبة، فقال له علي: هل لك يا مغيرة في الله؟ قال: فأين هو يا أمير المؤمنين؟ قال: تأخذ سيفك، فتدخل معنا في هذا الأمر، فتدرك من سبقك، وتسبق من معك، فإني أرى أموراً لا بد للسيوف أن تشحذ لها، وتقطف الرؤوس بها، فقال المغيرة: إني والله يا أمير المؤمنين ما رأيت عثمان مصيباً، ولا قتله صواباً، وإنها لظلمة تتلوها ظلمات، فأريد يا أمير المؤمنين - إن أذنت لي - أن أضع سيفي وأنام في بيتي حتى تنجلي الظلمة ويطلع قمرها، فنسري مبصرين، نقفو آثار المهتدين، ونتقي سبيل الجائرين. قال علي: قد أذنت لك، فكن من أمرك على ما بدا لك. فقام عمار فقال: معاذ الله يا مغيرة تقعد أعمى بعد أن كنت بصيراً. يغلبك من غلبته، ويسبقك من سبقته، انظر ما ترى وما تفعل، فأما أنا فلا أكون إلا في الرعيل الأول. فقال له المغيرة: يا أبا اليقظان، إياك أن تكون كقاطع السلسلة، فر من الضحل فوق في الرمضاء. فقال علي لعمار: دعه، فإنه لن يأخذ من الآخرة إلا ما خالطته الدنيا، أما والله يا مغيرة إنها المثوبة المؤدية، تؤدي من قام فيها إلى الجنة، ولما اختار بعدها، فإذا غشيناك فم في بيتك. فقال

المغيرة: أنت والله يا أمير المؤمنين أعلم مني، ولئن لم أقاتل معك لا أعين عليك، فإن يكن ما فعلت صواباً فإياه أردت، وإن يكن خطأ فمنه نجوت، ولي ذنوب كثيرة، لا قبل لي بها إلا الاستغفار منها.

خطبة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:

قال: وذكروا أن البيعة لما تمت بالمدينة، خرج علي إلى المسجد الشريف، فصعد المنبر، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ووعد الناس من نفسه خيراً، وتألفهم جهده، ثم قال: لا يستغني الرجل وإن كان ذا مال وولد عن عشيرته، ودفاعهم عنه بأيديهم وألسنتهم. هم أعظم الناس حيلة من ورائه، وإليهم سعيه وأعطفهم عليه إن أصابته مصيبة، أو نزل به بعض مكاره الأمور، ومن يقبض يده عن عشيرته فإنه يقبض عنهم يداً واحدة، وتقبض عنه أيدٍ كثيرة، ومن بسط يده بالمعروف ابتغاء وجه الله تعالى، يخلف الله له ما أنفق في دنياه، ويضاعف له في آخرته، واعلموا أن لسان صدق يجعله الله للمرء في الناس، خير له من المال، فلا يزدادن أحدكم كبرياء، ولا عظمة في نفسه، ولا يغفل أحدكم عن القرابة أن يصلها، بالذي لا يزيده إن أمسكه، ولا ينقصه إن أهلكه. واعلموا أن الدنيا قد أدبرت، والآخرة قد أقبلت، ألا وإن المضمار اليوم، والسبق غداً. ألا وإن السبقة الجنة. والغاية النار، ألا إن الأمل يشهي القلب، ويكذب الوعد، ويأتي بغفلة، ويورث حسرة فهو غرور، وصاحبه في عناء، فافزعوا إلى قوام دينكم، وإتمام صلاتكم، وأداء زكاتكم، والنصيحة لإمامكم، وتعلموا كتاب الله، واصدقوا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأوفوا بالعهد إذا عاهدتم، وأدوا الأمانات إذا ائتمتم وارغبوا في ثواب الله، وارهبوا عذابه، واعملوا الخير تجزوا خيراً يوم يفوز بالخير من قدم الخير.

اختلاف الزبير وطلحة على علي كرم الله وجهه:

قال: وذكروا أن الزبير وطلحة أتيا بعد فراغ البيعة، فقالا: هل تدري علي ما بايعناك يا أمير المؤمنين؟ قال علي: نعم، على السمع والطاعة، وعلى ما بايعتم عليه أبا بكر وعمر وعثمان، فقالا: لا، ولكننا بايعناك على أنا شريكاك في الأمر، قال علي: لا، ولكنكما شريكان في القول والاستقامة والعون على العجز والأولاد، قال: وكان الزبير لا يشك في ولاية العراق، وطلحة في اليمن، فلما استبان لهما أن علياً غير موليهما شيئاً، أظهرتا الشكاة، فتكلم الزبير في ملأ من قريش، فقال: هذا جزاؤنا من علي، قمنا له في أمر عثمان، حتى أثبتنا عليه الذنب، وسبنا له القتل، وهو جالس في بيته وكفي الأمر. فلما نال بنا ما أراد، جعل دوننا غيرنا، فقال طلحة: ما اللوم إلا أنا كنا ثلاثة من أهل الشورى، كرهه أحدنا وبايعناه،

وأعطيناه ما في أيدينا، ومنعنا ما في يده، فأصبحنا قد أخطأنا ما رجونا. قال: فانتهى قولهما إلى علي فدعا عبد الله بن عباس وكان استوزره، فقال له: بلغك قول هذين الرجلين؟ قال: نعم، بلغني قولهما. قال: فما ترى؟ قال: أرى أنهما أحبا الولاية. فول البصرة الزبير، وول طلحة الكوفة، فإلهما ليسا بأقرب إليك من الوليد وابن عامر من عثمان، فضحك علي، ثم قال: ويحك، إن العراقيين بهما الرجال والأموال، ومتى تملك رقاب الناس يستميلا السفه بالطمع، ويضربا الضعيف بالبلاء، ويقويا على القوي بالسلطان، ولو كنت مستعملاً أحداً لضره ونفعه لاستعملت معاوية على الشام، ولولا ما ظهر لي من حرصهما على الولاية، لكان لي فيهما رأي. قال: ثم أتى طلحة والزبير إلى علي، فقالا: يا أمير المؤمنين، ائذن لنا في العمرة، فإن تقم إلى انقضائها رجعنا إليك، وإن تسر نتبعك. فنظر إليهما علي، وقال: نعم، والله ما العمرة تريدان، وإنما تريدان أن تمضيا إلى شأنكما، فمضيا.

خلاف عائشة رضي الله عنها على علي:

قال: وذكروا أن عائشة لما أتتها أنه ببيع لعلي. وكانت خارجة عن المدينة؛ فقبل لها: قتل عثمان. وباع الناس علياً. فقالت: ما كنت أبالي أن تقع السماء على الأرض، قتل والله مظلوماً، وأنا طالبة بدمه، فقال لها عبيد: إن أول من طعن عليه وأطمع الناس فيه لأنت، ولقد قلت: اقتلوا نحتلاً فقد فجر، فقالت عائشة: قد والله قلت وقال الناس، وآخر قولي خير من أوله، فقال عبيد: عذر والله ضعيف يا أم المؤمنين. ثم قال:

منك البداء ومنك الغير	ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام	وقلت لنا إنه قد فجر
فهبنا أطعناك في قتله	وقاتله عندنا من أمر

قال: فلما أتى عائشة خبر أهل الشام أنهم ردوا بيعة علي، وأبوا أن يبايعوه، أمرت فعمل لها هودج من حديد، وجعل فيه موضع عينيها، ثم خرجت ومعها الزبير وطلحة وعبد الله بن الزبير ومحمد بن طلحة.

اعتزال عبد الله بن عمر وسعد بن أي وقاص ومحمد بن مسلمة عن مشاهدة علي وحروبه:

قال: وذكروا أن عمار بن ياسر قام إلى علي، فقال: يا أمير المؤمنين، ائذن لي أتى عبد الله بن عمر فأكلمه، لعله يخف معنا في هذا الأمر، فقال علي: نعم، فأتاه، فقال له: يا أبا عبد الرحمن، إنه قد بايع علياً المهاجرون والأنصار، ومن إن فضلناه عليك لم يسخطك، وإن فضلناك عليه لم يرضك، وقد أنكرت السيف في أهل الصلاة، وقد علمت أن على القاتل القتل، وعلى المحصن الرجم، وهذا يقتل بالسيف،

وهذا يقتل بالحجارة، وأن علياً لم يقتل أحداً من أهل الصلاة، فيلزمه حكم القاتل. فقال بن عمر: يا أبا اليقظان، إن أبي جمع أهل الشورى، الذين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض، فكان أحقهم بها علي، غير أنه جاء أمر فيه السيف ولا أعرفه، ولكن والله ما أحب أن لي الدنيا وما عليها وأني أظهرت أو أضمرت عداوة علي؟ قال: فانصرف عنه، فأخبر علياً بقوله، فقال علي: لو أتيت محمد بن مسلمة الأنصاري، فأتاه عمار، فقال له محمد: مرحباً بك يا أبا اليقظان على فرقة ما بيني وبينك، والله لولا ما في يدي من رسول الله صلى الله عليه وسلم لباعيت علياً، ولو أن الناس كلهم عليه لكنت معه، ولكنه يا عمار كان من النبي أمر ذهب فيه الرأي، فقال عمار: كيف؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا رأيت المسلمين يقتتلون أو إذا رأيت أهل الصلاة". فقال عمار: فإن كان قال لك: "إذا رأيت المسلمين" فوالله لا ترى مسلمين يقتتلان بسيفيهما أبداً، وإن كان قال لك: "أهل الصلاة"، فمن سمع هذا معك، إنما أنت أحد الشاهدين، فتريد من رسول الله قولاً بعد قوله يوم حجة الوداع: "دماؤكم وأموالكم عليكم حرام إلا بحدث"، فتقول: يا محمد، لا نقاتل المحدثين. قال: حسبك يا أبا اليقظان. قال: ثم أتى سعد بن أبي وقاص فكلمه، فأظهر الكلام القبيح، فانصرف عمار إلى علي، فقال له علي: دع هؤلاء الرهط، أما بن عمر فضعيف، وأما سعد فحسود، وذني إلى محمد بن مسلمة أي قتلت أخاه يوم خيبر، مرحب اليهودي.

هروب مروان بن الحكم من المدينة المنورة:

قال: وذكروا أن مروان بن الحكم لما بويع علي هرب من المدينة، فلحق بعائشة بمكة. فقالت له عائشة: ما وراءك؟ فقال مروان: غلبنا على أنفسنا. فقال له رجل من أهل مكة: إياك وعلياً فقد طلبك، ففر من بين يديه. فقال مروان: لم؟ فوالله ما يجد إلى سبيلاً. أما هو فقد علمت أنه لا يأخذني بظن، ولا ينصب إلا على اليقين، وأيم الله ما أبالي إذا قصر علي سيفه ما طال علي من لسانه. فقال الرجل: إذا أطال الله عليك لسانه طال سيفه. قاذ مروان: كلا إن اللسان أدب، والسيف حكم.

خروج علي من المدينة

قال: وذكروا أن علياً تردد بالمدينة أربعة أشهر، ينتظر جواب معاوية، وقد كان كتب إليه كتاباً بعد كتاب يمينه ويعدده أولاً، ثم كتاباً يخوفه ويتواعده فحبس معاوية جواب كتابه ثلاثة أشهر، ثم أتاه جوابه على غير ما يجب، فلما أتاه ذلك شخص من المدينة في تسعمائة راكب من وجوه المهاجرين والأنصار من

أهل السوابق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعهم بشر كثير من أخلاط الناس، واستخلف على المدينة قثم بن عباس، وكان له فضل وعقل، وأمره أن يشخص إليه من أحب الشخصوس، ولا يحمل أحداً على ما يكره، فخفف الناس إلى علي بعده، ومضى معه من ولده الحسن والحسين ومحمد، فلما كان في بعض الطريق، أتاه كتاب أخيه عقيل بن أبي طالب، وفيه: بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد يا أخي، كلاك الله، والله جائر من كل سوء، وعاصمك من كل مكروه على كل حال، وإني خرجت معتمراً، فلقيت عائشة معها طلحة والزبير وذووهما، وهم متوجهون إلى البصرة، قد أظهروا الخلاف، ونكثوا البيعة، وركبوا عليك قتل عثمان، وتبعهم على ذلك كثير من الناس، من طغاهم وأوباشهم، ثم مر عبد الله بن أبي سرح، في نحو من أربعين راكباً، من أبناء الطلقاء، من بني أمية، فقلت لهم وعرفت المنكر في وجوههم: أئمة تلحقون؟ عداوة والله إنها منكم ظاهرة غير مستنكرة، تريدون بها إطفاء نور الله، وتغيير أمر الله. فأسمعي القوم وأسمعتهم ثم قدمت مكة، فسمعت أهلها يتحدثون أن الضحاك بن قيس أغار على الحيرة واليمامة، فأصاب ما شاء من أموالهما، ثم انكفأ راجعاً إلى الشام، فأف الحياة في زهو جرأ عليك الضحاك، وما الضحاك إلا فقع بقرقره فظننت حين بلغني ذلك أن أنصارك خذلوك، فاكتب إلي يا بن أمي برأيك وأمرك، فإن كنت الموت تريد، تحملت إليك ببني أخيك، وولد أبيك، فعشنا ما عشت ومتنا معك إذا مت، فوالله ما أحب أن أبقى بعدك، فوالله الأعز الأجل إن عيشاً أعيشه بعدك في الدنيا لغير هنيء، ولا مريء، ولا نجيع، والسلام.

فكتب إليه علي كرم الله وجهه: أما بعد يا أخي، فكلارك الله كلاءة من يخشاه، إنه حميد مجيد. قدم علي عبد الرحمن الأزدي بكتابك، تذكر فيه أنك لقيت بن أبي سرح، في أربعين من أبناء الطلقاء من بني أمية، متوجهين إلى المغرب، وابن أبي سرح يا أخي طال ما كاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصد عن كتابه وسنته وبغاه عوجاً، فدع بن أبي سرح وقريشاً وتركاظهم في الضلال، فإن قريشاً قد اجتمعت على حرب أخيك، اجتماعها على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل اليوم، وجهلوا حقي، وجحدوا فضلي، ونصبوا لي الحرب، وجحدوا في إطفاء نور الله، اللهم فأجز قريشاً عني بفعالها، فقد قطعت رحمي، وظهرت علي، وسلبتني سلطان بن عمي، وسلمت ذلك لمن ليس في قرابتي، وحقي في الإسلام، وسابقتي التي لا يدعي مثلها مدع، إلا أن يدعي ما لا أعرف، ولا أظن الله يعرفه، والحمد لله على ذلك كثيراً. وأما ما ذكرت من غارة الضحاك على الحيرة واليمامة، فهو أذل وألأم من أن يكون مر بها، فضلاً عن الغارة، ولكن جاء في خيل جريدة فسرحت إليه جنداً من المسلمين، فلما بلغه ذلك ولى هارباً، فاتبعوه فلحقوه ببعض الطريق، حين همت الشمس للإياب، فاقتتلوا، وقتل من أصحابه بضعة عشر رجلاً، ونجا هارباً، بعد أن أخذ منه بالمخنق، فلولا الليل ما نجا. وأما ما سألت أن أكتب إليك فيه برأيي، فإن رأيي

جهاد المحلين حتى ألقى الله، لا يزيدني كثرة الناس حولي عزة، ولا تفرقهم عني وحشة لأني محق، والله مع الحق، وما أكره الموت على الحق لأن الخير كله بعد الموت لمن عقل ودعا إلى الحق. وأما ما عرضت به من مسيرك إلي ببنيك وبني أبيك، فلا حاجة لي في ذلك، فذرهم راشداً مهدياً، فوالله ما أحب أن تهلكوا معي إن هلكت، وأنا كما قال أخو بني سليم:

فإن تسأليني كيف صبري فإنني صبور على ريب الزمان صليب
عزير علي أن أرى بكآبة فيشمت واش أو يساء حبيب

كتاب أم سلمة إلى عائشة:

قال: وذكروا أنه لما تحدث الناس بالمدينة بمسير عائشة مع طلحة والزبير، ونصبهم الحرب لعلّي، وتألفهم الناس كتبت أم سلمة إلى عائشة أما بعد: فإنك سُدّة بين رسول الله وبين أمتّه، وحجابك مضروب على حرمته، قد جمع القرآن الكريم ذيلك، فلا تندحيه، وسكن عقيرتك، فلا تصحريها، الله من وراء هذه الأمة، قد علم رسول الله مكانك، لو أراد أن يعهد إليك، وقد علمت أن عمود الدين لا يثبت بالنساء إن مال، ولا يرأب بهن إن انصدع، حماديات النساء غص الأبصار وضم الذیول، ما كنت قائلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لو عارضك بأطراف الجبال والفلوات، على قعود من الإبل، من منهل إلى منهل، إن بعين الله مهواك، وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تردّين، وقد هتكت حجابها الذي ضرب الله عليك، وتركت عهدها. ولو أتيت الذي تريد، ثم قيل لي ادخلي الجنة لاستحييت أن ألقى الله هاتكة حجاباً قد ضربه علي، فاجعلي حجابك الذي ضرب عليك حصنك، فابغيه منزلاً لك حتى تلقيه، فإن أطوع ما تكونين إذا ما لزمته، وأنصح ما تكونين إذا ما قعدت فيه، ولو ذكرت كلاً ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم لنهشتني نهش الحية، والسلام. فكتبت إليها عائشة: ما أقبلني لوعظك، وأعلمني بنصحك، وليس مسيري على ما تظنين، ولنعم المطلع مطلع فرعت فيه إلي ففتان متناجرتان، فإن أقدر ففي غير حرج، وإن أخرج مالي ما لا غنى بي عن الزدياد منه، والسلام.

استنفار عدي بن حاتم قومه لنصرة علي رضي الله عنه:

قال: وذكروا أن بن حاتم قام إلى علي، فقال: يا أمير المؤمنين، لو تقدمت إلى قومي أخبرهم بمسيرك وأستنفرهم، فإن لك من طيء مثل الذي معك. فقال علي: نعم، فافعل، فتقدم عدي إلى قومه، فاجتمعت إليه رؤساء طيء، فقال لهم: يا معشر طيء، إنكم أمسكنم عن حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم في

الشرك، ونصرتهم الله ورسوله في الإسلام على الردة، وعليّ قادم عليكم، وقد ضمنت له مثل عدة من معه منكم، فحفوا معه، وقد كنتم تقتاتلون في الجاهلية على الدنيا، فقاتلوا في الإسلام على الآخرة، فإن أردتم الدنيا فعند الله مغام كثيرة، وأنا أدعوكم إلى الدنيا والآخرة، وقد ضمنت عنكم الوفاء، وباهيت بكم الناس، فأجيبوا قولي، فإنكم أعز العرب داراً، لكم فضل معاشكم وخيلكم، فاجعلوا أفضل المعاش للعيال وفضول الخيل للجهاد، وقد أظلكم علي والناس معه، من المهاجرين والبدرين والأنصار، فكونوا أكثرهم عدداً، فإن هذا سبيل للحى فيه الغنى والسرور، وللقبيل فيه الحياة والرزق، فصاحت طيء: نعم نعم، حتى كاد أن يصم من صياحهم. فلما قدم على طيء أقبل شيخ من طيء قد هرم من الكبر، فرفع له من حاجبيه، فنظر إلى عليّ، فقال له: أنت بن أبي طالب؟ قال: نعم. قال: مرحباً بك وأهلاً، قد جعلناك بيننا وبين الله، وعدياً بيننا وبينك، ونحن بينه وبين الناس، لو أتيتنا غير مبايعين لك لنصرناك، لقربتك من رسوك الله صلى الله عليه وسلم، وأيامك الصالحة، ولئن كان كما يقال فيك من الخير حقاً إن في أمرك وأمر قریش لعجباً، إذ أخرجوك وقدموا غيرك. سر، فوالله لا يتخلف عنك من طيء إلا عبد أو دعي إلا بإذنك. فشخص معه من طيء ثلاثة عشر ألف راكب.

استنفار زفر بن زيد قومه لنصرة علي:

قال: وذكروا أن زفر بن زيد بن حذيفة الأسدي، وكان من سادة بني أسد قام إلى علي فقال: يا أمير المؤمنين، إن طيئاً إخواننا وجيراننا قد أجابوا عدياً. ولي في قومي طاعة، فأذن لي فأتهم. قال: نعم، فأتاهم فجمعهم وقال: يا بني أسد، إن عدي بن حاتم ضمن لعلي قومه فأجابوه، وقضوا عنه ذمامه، فلم يعتل الغني بالغني، ولا الفقير بالفقر، وواسى بعضهم بعضاً، حتى كأنهم المهاجرون في الهجرة، والأنصار في الأثرة؛ وهم حيرانكم في الديار، وخلطائكم في الأموال، فأنشدكم الله لا يقول الناس غداً: نصرت طيء وخذلت بنو أسد، وإن الجار يقاس بالجار، كالنعل بالنعل، فإن خفتهم فتوسعوا في بلادهم، وانضموا إلى جبلهم، وهذه دعوة لها ثواب من الله في الدنيا والآخرة. فقام إليه رجل منهم، فقال له: يا زفر، إنك لست كعدي، ولا أسد كطيء، ارتدت العرب، فثبتت طيء على الإسلام، وجاد عدي بالصدقة، وقاتل بقومه قومك، فوالله لو نفرت طيء بأجمعها لمنعت رعاؤها دارها، ولو أن معنا أضعافنا لحننا على دارنا، فإن كان لا يرضيك منا إلا ما أرضى عدياً من طيء، فليس ذلك عندنا، وإن كان يرضيك قدر ما يرد عنا عذر الخذلان، وإثم المعصية، فلك ذلك منا. فسارمعه من أسد جماعة ليست كجماعة طيء، حتى قدم بها على عليّ.

توجه عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة:

قال: وذكروا أنه لما اجتمع طلحة والزبير وذووهما مع عائشة، وأجمعوا على المسير من مكة، وأتاهم عبد الله بن عامر، فدعاهم إلى البصرة، ووعدهم الرجال والأموال، فقال سعيد بن العاصي لطلحة والزبير: إن عبد الله بن عامر كلمه إلى البصرة، وقد فر من أهلها فرار العبد الآبق، وهم في طاعة عثمان، ويريد أن يقاتل بهم علياً، وهم في طاعة علي، وخرج من عندهم أميراً، ويعود إليهم طريداً، وقد وعدكم الرجال والأموال، فأما الأموال فعنده، وأما الرجال فلا رجل. فقال مروان بن الحكم: أيها الشيخان، ما يمنعكما أن تدعوا الناس إلى بيعة مثل بيعة علي، فإن أجابوا كما عارضتماه ببيعة كبيعته، وإن لم يجيبوكما عرفتما ما لكم في أنفس الناس. فقال طلحة: يمنعنا أن الناس يابعوا علياً بيعة عامة، فبم ننقضها؟ وقال الزبير: ويمنعنا أيضاً من ذلك تناقلنا عن نصره عثمان، وخفتنا إلى بيعة علي. فقال الوليد بن عقبة: إن كنتما أسأتما فقد أحسنتما، وإن كنتما أخطأتما فقد أصبتما، وأنتما اليوم خير منكما أمس. فقال مروان: أما أنا فهوأي الشام، وهو كما البصرة، وأنا معكم وإن كانت الهلكة. فقال سعيد بن العاصي: أما أنا فراجع إلى منزلي. فلما استقام أمرهم، واجتمعت كلمتهم على المسير، قال طلحة للزبير: إنه ليس شيء أنفع ولا أبلغ في استمالة أهواء الناس من أن نشخص لعبد الله بن عمر، فأتياه فقالا: يا أبا عبد الرحمن، إن أئنا عائشة خفت لهذا الأمر، رجاء الإصلاح بين الناس، فاشخص معنا، فإن لك بها أسوة، فإن بايعنا الناس فأنت أحق بها. فقال بن عمر: أيها الشيخان، أتريدان أن تخرجاني من بيتي، ثم تلقاني بين مخالف بن أبي طالب؟ إن الناس إنما يخدعون بالدينار والدرهم. وإني قد تركت هذا الأمر عياناً في عافية أناها. فانصرفا عنه. وقدم يعلى بن منبه عليهم من اليمن، وكان عاملاً لعثمان، فأخرج أربع مئة بعير، ودعا إلى الحملان، فقال الزبير: دعنا من إبلك هذه، وأقرضنا من هذا المال، فأقرض الزبير ستين ألفاً، وأقرض طلحة أربعين ألفاً، ثم سار القوم، فقال الزبير: الشام بها الرجال والأموال، وعليها معاوية، وهو بن عم الرجل، ومتى نجتمع يولنا عليه، وقال عبد الله بن عامر: البصرة، فإن غلبتم علياً فلکم الشام، وإن غلبكم علي كان معاوية لكن جنة، وهذه كتب أهل البصرة إلي، فقال يعلى بن منبه، وكان داهياً: أيها الشيخان، قدرا قبل ن ترحلا أن معاوية قد سبقكم إلى الشام وفيها الجماعة، وأنتم تقدمون عليه غداً في فرقة وهو بن عم عثمان دونكم، أرأيتم إن دفعكم عن الشام، أو قال: اجعلها شوري، ما أنتم صانعون؟ أتقاتلونه أم تجعلونها شوري فتخرجوا منها؟ وأقبح من ذلك أن تأتي رجلًا في يديه أمر قد سبقكم إليه، وتريدا أن تخرجاه منه، فقال القوم: فإلى أين؟ قال: إلى البصرة، فقال الزبير لعبد الله بن عامر: من رجال البصرة؟ قال: ثلاثة، كلهم

سيد مطاع، كعب بن سور في اليمن، والمنذر بن ربيعة في ربيعة، والأحنف بن قيس في مضر. فكتب طلحة والزبير إلى كعب بن سور: أما بعد، فإنك قاضي عمر بن الخطاب، وشيخ أهل البصرة، وسيد أهل اليمن، وقد كنت غضبت لعثمان من الأذى، فاغضب له من القتل، والسلام. وكتب إلى الأحنف بن قيس: أما بعد، فإنك وافد عمر وسيد مضر، وحليم أهل العراق، وقد بلغك مصاب عثمان، ونحن قادمون عليك، والعيان أشفى لك من الخبر، والسلام. وكتب إلى المنذر: أما بعد، فإن أباك كان رئيساً في الجاهلية، وسيداً في الإسلام، وإنك من أبيك بمثالة المصلي من السابق. يقال: كاد أو لحق، وقد قتل عثمان من أنت خير منه، وغضب له من هو خير منك، والسلام. فلما وصلت كتبهما إلى القوم، قام زياد بن مضر، والنعمان بن شوال، وغزوان، فقالوا: ما لنا ولهذا الحي من قريش؟ أيريدون أن يخرجونا من الإسلام بعد أن دخلنا فيه؟ ويدخلونا في الشرك بعدما خرجنا منه؟ قتلوا عثمان، وبايعوا علياً، لهم ما لهم، وعليهم ما عليهم. وكتب كعب بن سور إلى طلحة والزبير: أما بعد، فإننا غضبنا لعثمان من الأذى والغير باللسان، فجاء أمر الغير فيه بالسيف، فإن يك عثمان قتل ظالماً، فما لكما وله؟ وإن كان قتل مظلوماً فغير كما أولى به، وإن كان أمره أشكل على من شاهده، فهو على من غاب عنه أشكل. وكتب الأحنف إليهما: أما بعد، فإنه لم يأتنا من قبلكم أمر لا نشك فيه إلا قتل عثمان، وأنتم قادمون علينا، فإن يكن في العيان فضل، نظرنا فيه ونظرتم، وإلا يكن فيه فضل فليس في أيدينا ولا في أيديكم ثقة، والسلام. وكتب المنذر: أما بعد، فإنه لم يلحقني بأهل الخير إلا أن أكون خيراً من أهل الشر، وإنما أوجب حق عثمان اليوم حقه أمس، وقد كان بين أظهركم فخذلتموه، فمتى استنبطتم هذا العلم، وبدا لكم هذا الرأي؟ فلما قرأ كتب القوم ساءلهم ذلك وغضبوا. ثم غدا مروان إلى طلحة والزبير، فقال لهما: عاودا بن عمر، فلعله ينيب، فعاوداه، فتكلم طلحة، فقال: يا أبا عبد الرحمن، إنه والله لرب حق ضيعناه وتركناه؛ فلما حضر العذر قضينا بالحق، وأخذنا بالخط، إن علياً يرى إنفاذ بيعته، وإن معاوية لا يرى أن يبايع له، وإننا نرى أن نردها شورى، فإن سرت معنا ومع أم المؤمنين صلحت الأمور، وإلا فهي الهلكة. فقال بن عمر: إن يكن قولكما حقاً ففضلاً ضيعت، وإن يكن باطلاً فشر منه نجوت، واعلما أن بيت عائشة خير لها من هودجها، وأنتم المدينة خير لكما من البصرة، والذل خير لكما من السيف، ولن يقاتل علياً إلا من كان خيراً منه، وأما الشورى فقد والله كانت، فقدم وأخرتما، ولن يردها إلا أولئك الذين حكموا فيها، فاكفياي أنفسكما، فانصرفا. فقال مروان: استعينا عليه بحفصة، فأتيا حفصة؛ فقالت: لو أطاعني أطاع عائشة، دعاه، فاتركاه وتوجهنا إلى البصرة. وأتاهما عبد الله بن خلف، فقال لهما: إنه ليس أحد من أهل الحجاز كان منه في عثمان شيء إلا وقد بلغ أهل العراق، وقد كان منكما في عثمان من التحليب والتأليب ما لا يدفعه جحود، ولا ينفعكما فيه عذر، وأحسن الناس فيكما قولاً من أزال عنكما القتل

وألزمكما الخذل، وقد بايع الناس علياً بيعة عامة، والناس لاقوكمما غداً، فما تقولان؟ فقال طلحة: ننكر القتل، ونقر بالخذل، ولا ينفع الإقرار بالذنب إلا مع الندم عليه، ولقد ندمنا على ما كان منا. وقال الزبير: بايعنا علياً والسيف على أعناقنا، حيث تواب الناس بالبيعة إليه دون مشورتنا، ولم نصب لعثمان خطأ فتجب علينا الدية، ولا عمداً فيجب علينا القصاص. فقال عبد الله بن خلف: عذر كما أشد من ذنبكما، قال: فتهيأ القوم للمسير، فقال طلحة والزبير: أسرعوا السير، لعننا نسبق علياً من خلاف طريقه إلى البصرة. قال: وكتب قثم بن عباس إلى علي يخبره أن طلحة والزبير وعائشة قد خرجوا من مكة، يريدون البصرة، وقد استنفروا الناس، فلم يخف معهم إلا من لا يعتد بمسيره، ومن خلفت بعدك فعلى ماتحب. فلما قدم على علي كتابه غمه ذلك، وأعظمه الناس، وسقط في أيديهم، فقام قيس بن سعد بن عبادق، فقال: يا أمير المؤمنين، إنه والله ما غمنا بهذين الرجلين كغمنا بعائشة، لأن هذين الرجلين حلالا الدم عندنا، لبيعتهما ونكثهما، ولأن عائشة من علمت مقامها في الإسلام، ومكانها من رسول الله، مع فضلها ودينها وأمومتها منا ومنك، ولكنهما يقدمان البصرة، وليس كل أهلها لهما، وتقدم الكوفة، وكل أهلها لك، وتسير بحقك إلى باطلهم، ولقد كنا نخاف أن يسيرا إلى الشام، فيقال: صاحب رسول الله وأم المؤمنين، فيشتد البلاء، وتعظم الفتنة، فأما إذا أتيا البصرة وقد سبقت إلى طاعتك، وسبقوا إلى بيعتك، وحكم عليهم عاملك، ولا والله ما معهما مثل ما معك، ولا يقدمان على مثل ما تقدم عليه، فسر فإن الله معك، وتتابع الأنصار فقالوا وأحسنوا.

قال: ولما نزل طلحة والزبير وعائشة بأوطاس، من أرض خير، أقبل عليهم سعيد بن العاصي على نجيب له، فأشرف على الناس، ومعه المغيرة بن شعبه، فترل وتوكل على قوس له سوداء، فأتى عائشة، فقال لها: أين تريدان يا أم المؤمنين؟ قالت: أريد البصرة، قال: وما تصنعين بالبصرة؟ قالت: أطلب بدم عثمان. قال: فهؤلاء قتلة عثمان معك. ثم أقبل على مروان فقال له: وأنت أين تريد أيضاً؟ قال: البصرة. قال: وما تصنع بها؟ قال: أطلب قتلة عثمان، قال: فهؤلاء قتلة عثمان معك، إن هذين الرجلين قتلا عثمان - طلحة والزبير -، وهما يريدان الأمر لأنفسهما، فلما غلبا عليه قالوا: نغسل الدم بالدم، والحوبة بالتوبة. ثم قال المغيرة بن شعبه: أيها الناس، إن كنتم إنما خرجتم مع أمكم، فارجعوا بها خيراً لكم، وإن كنتم غضبتم لعثمان، فرؤساؤكم قتلوا عثمان، وإن كنتم نقمتم على علي شيئاً، فبينوا ما نقمتم عليه، أنشدكم الله فنتين في عام واحد، فأبوا إلا أن يعضوا بالناس، فلحق سعيد بن العاصي باليمن، ولحق المغيرة بالطائف، فلم يشهدا شيئاً من حروب الحمل ولا صفين، فلما انتهوا إلى ماء الحوآب في بعض الطريق ومعهم عائشة، نبحها كلاب الحوآب، فقالت لمحمد بن طلحة: أي ماء هذا؟ قال: هذا ماء الحوآب، فقالت: ما

أراني إلا راجعة، قال: ولم؟ قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لنسائه: كأني بإحداكن قد نبحها كلاب الحوآب، وإياك أن تكوني أنت يا حميراء. فقال لها محمد بن طلحة: تقمي رحمك الله، ودعي هذا القول. وأتى عبد الله بن الزبير، فحلف لها بالله لقد خلفته أول الليل، وأتاها بيينة زور من الأعراب، فشهدوا بذلك، فزعموا أنها أول شهادة زور شهد بها في الإسلام، فلما انتهى إقبالهم على أهل البصرة، ودنوا منها، قام عثمان بن حنيف عامل البصرة لعلي بن أبي طالب فقال: يا أيها الناس، إنما بايعتم الله "يد الله فوق أيديهم، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً" الفتح: 10، والله لو علم علي أن أحداً أحق بهذا الأمر منه ما قبله، ولو بايع الناس غيره لباع من بايعوا، وأطاع من ولوا، وما به إلى أحد من صحابة رسول الله حاجة، وما بأحد عنه غنى، ولقد شاركهم في محاسنهم، وما شاركوه في محاسنهم، ولقد بايعه هذان الرجلان وما يريدان الله، فاستعجلا الفطام قبل الرضاع، والرضاع قبل الولادة، والولادة قبل الحمل، وطلبوا ثواب الله من العباد، وقد زعما أنهما بايعا مستكرهين. فإن كانا استكرها قبل بيعتهما كانا رجلين من عرض قريش لهما أن يقولوا ولا يأمرأ، ألا وإن المهدي ما كانت عليه العامة، والعامة على بيعة علي، فما ترون أيها الناس؟ فقام حكم بن جبل العبدى، فقال: نرى إن دخلا علينا قاتلناهما، وإن وقفا تلقيناهما والله ما أبالي أن أقاتلتهما وحدي، وإن كنت أحب الحياة، وما أخشى في طريق الحق وحشة، ولا غيره ولا غشاً ولا سوء منقلب إلى بعث، وإنما لدعوة قتيلها شهيد، وحيها فائز، والتعجيل إلى الله قبل الأجر خير من التأخير في الدنيا، وهذه ربيعة معك.

نزول طلحة والزبير وعائشة البصرة:

قال: وذكروا أن طلحة والزبير لما نزلا البصرة، قال عثمان بن حنيف: نعذر إليهما برجلين، فدعا عمران بن الحصين صاحب رسول الله، وأبا الأسود الدؤلي، فأرسلهما إلى طلحة والزبير، فذهبا إليهما فناديا: يا طلحة فأجابهما، فتكلم أبو الأسود الدؤلي، فقال: يا أبا محمد، إنكم قتلتم عثمان غير مؤمرين لنا في قتله وبايعتم علياً غير مؤمرين في بيعته، فلم نغضب لعثمان إذ قتل، ولم نغضب لعلي إذ بويع، ثم بدا لكم، فأردتم خلع علي، ونحن على الأمر الأول، فعليكم المخرج مما دخلتم فيه. ثم تكلم عمران، فقال: يا طلحة، إنكم قتلتم عثمان ولم نغضب له إذا لم تغضبوا، ثم بايعتم علياً وبايعنا من بايعتم، فإن كان قتل عثمان صواباً فمسيركم لماذا؟ وإن كان خطأ فحظكم منه الأوفر، ونصيبيكم منه الأوفى. فقال طلحة: يا هذان إن صاحبكما لا يرى أن معه في هذا الأمر غيره، وليس على هذا بايعناه، وأيم الله ليسفكن دمه. فقال أبو الأسود: يا عمران، أما هذا فقد صرح أنه إنما غضب للملك. ثم أتيا الزبير فقالا: يا أبا عبد الله،

إنّا أتينا طلحة، قال الزبير: إن طلحة وإيّاي كروح في جسدين، وإنه والله يا هذان، قد كانت منا في عثمان فلتات، احتجنا فيها إلى المعاذير، ولو استقبلنا من أمرنا ما استدبرنا نصرناه، ثم أتيا فدخلّا على عائشة، فقالا: يا أم المؤمنين، ما هذا المسير؟ أمعك من رسول الله به عهد؟ قالت: قتل عثمان مظلوماً، غضبنا لكم من السوط والعصا، ولا نغضب لعثمان من القتل؟ فقال أبو الأسود: وما أنت من عصانا وسيفنا وسوطنا؟ فقالت: يا أبا الأسود، بلغني أن عثمان بن حنيف يريد قتالي. فقال أبو الأسود: نعم والله قتالاً أهونه تنذر منه الرؤوس. وأقبل غلام من جهينة إلى محمد بن طلحة، فقال له: حدثني عن قتلة عثمان، قال: نعم، دم عثمان على ثلاثة أثلاث، ثلث على صاحبة الهودج، وثلث على صاحب الحمل الأحمر، وثلث على علي بن أبي طالب. فضحك الجهني، ولحق بعلي بن أبي طالب، وبلغ طلحة قول ابنه محمد، وكان محمد من عباد الناس، فقال له: يا محمد، أتزعم عنا قولك إني قاتل عثمان، كذلك تشهد على أبيك؟ كن كعبد الله بن الزبير، فوالله ما أنت بخير منه، ولا أبوك بدون أبيه، كف عن قولك، وإلا فارجع فإن نصرتك نصرة رجل واحد، وفسادك فساد عامة. فقال محمد: ما قلت إلا حقاً، ولن أعود.

نزول علي بن أبي طالب الكوفة

قال: وذكروا أن علياً لما نزل قريباً من الكوفة بعث عمار بن ياسر، ومحمد بن أبي بكر إلى أبي موسى الأشعري، وكان أبو موسى عاملاً لعثمان على الكوفة، فبعثهما علي إليه وإلى أهل الكوفة يستفزه، فلما قدما عليه قام عمار بن ياسر، ومحمد بن أبي بكر، فدعوا الناس إلى النصرة لعلي، فلما أمسوا دخل رجال من أهل الكوفة على أبي موسى، فقالوا: ما ترى؟ أخرج مع هذين الرجلين إلى صاحبهما، أم لا؟ فقال أبو موسى: أما سبيل الآخرة ففي أن تلزموا بيوترك، وأما سبيل الدنيا فالخروج مع من أتاكم، فأطاعوه، فنبأوا الناس على علي، وبلغ عماراً ومحمداً ما أشار به أبو موسى على أولئك الرهط، فأتياه فأغلظا له في القول، قال أبو موسى: إن بيعة عثمان في عنقي وعنق صاحبيكم، ولئن أردنا القتال ما لنا إلى قتال أحد من سبيل، حتى نفرغ من قتلة عثمان.

خطبة أبي موسى الأشعري:

ثم خرج أبو موسى فصعد المنبر، ثم قال: أيها الناس: إن أصحاب رسول الله الذين صحبوه في المواطن أعلم بالله ورسوله ممن لم يصحبه، وإن لكم حقاً علي أؤديه إليكم، إن هذه الفتنة النائم فيها خير من اليقظان، والقاعد خير من القائم، والقائم خير من الساعي، والساعي خير من الراكب، فأغمدوا سيوفكم حتى تنجلي هذه الفتنة.

خطبة عمار بن ياسر:

فقام عمار بن ياسر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إن أبا موسى ينهاكم عن الشخوص إلى هاتين الجماعتين، ولعمري ما صدق فيما قال، وما رضي الله من عباده بما ذكر. قال عز وجل: "وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا" الحجرات: 9، وقال: "وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله" الأنفال: 39، فلم يرض من عباده بما ذكر أبو موسى من أن يجلسوا في بيوتهم ويخلوا بين الناس، فيسفك بعضهم دماء بعض، فسيروا معنا إلى هاتين الجماعتين واسمعوا من حججهم، وانظروا من أولى بالنصرة فاتبعوه، فإن أصلح الله أمرهم رجعتهم مأجورين وقد قضيتم حق الله، وإن بغى بعضهم على بعض نظرتم إلى الفئة الباغية، فقاتلتموها حتى تفيء إلى أمر الله، كما أمركم الله، وافترض عليكم ثم قعد. فلما انصرفا إلى علي من عند أبي موسى وأخبراه بما قال أبو موسى، بعث إليه الحسن بن علي، وعبد الله بن عباس، وعمار بن ياسر، وقيس بن سعد، وكتب معهم إلى أهل الكوفة.

كتاب علي إلى أهل الكوفة:

أما بعد، فإني أخبركم عن أمر عثمان حتى يكون سامعه كمن عاينه، إن الناس طعنوا على عثمان، فكنت رجلاً من المهاجرين أقل عيبه وأكثر استعتابه، وكان هذان الرجلان طلحة والزبير أهون سيرهما فيه اللهجة والوجيف، وكان من عائشة فيه قول على غضب، فانتحى له قوم فقتلوه، وبايعني الناس غير مستكرهين، وهما أول من بايعني على ما بويع عليه من كان قبلي، ثم استأذنا إلى العمرة، فأذنت لهما، فنقضا العهد، ونصبا الحرب، وأخرجنا أم المؤمنين من بيتها، ليتخذها فتنة، وقد سارا إلى البصرة، اختياراً لأهلها، ولعمري ما إياي تحييون، ما تحييون إلا الله. وقد بعثت ابني الحسن، وابن عمي عبد الله بن عباس، وعمار بن ياسر، وقيس بن سعد، فكونوا عند ظننا بكم، والله المستعان.

فسار الحسن ومن معه، حتى قدموا الكوفة على أبي موسى، فدعاه إلى نصرة علي، فبايعهم، ثم صعد أبو موسى المنبر، وقام الحسن أسفل منه، فدعاهم إلى نصرة علي، وأخبرهم بقرابته من رسول الله، وسابقته، وبيعة طلحة والزبير إياه، ونكثهما عهده، وأقرأهم كتاب علي، فقام شريح بن هانئ، فقال:

خطاب شريح بن هانئ:

لقد أردنا أن نركب إلى المدينة، حتى نعلم قتل عثمان، فقد أتانا الله به في بيوتنا، فلا تخالفوا عن دعوته، والله لو لم يستنصر بنا لنصرناه سماعاً وطاعة، ثم قام الحسن بن علي، فقال: أيها الناس، إنه قد كان من مسير أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ما قد بلغكم، وقد أتيناكم مستنفرين، لأنكم جبهة الأنصار، ورؤوس العرب، وقد كان من نقض طلحة والزبير بعد بيعتهما وخروجهما بعائشة ما بلغكم، وتعلمون أن وهن النساء وضعف رأيهن إلى التلاشي، ومن أجل ذلك جعل الله الرجال قوامين على النساء، وأيم الله لو لم ينصره منكم أحد لرجوت أن يكون فيمن أقبل معه من المهاجرين والأنصار كفاية، فانصروا الله ينصركم. ثم قام عمار بن ياسر فقال: يا أهل الكوفة، إن كان غاب عنكم أنباؤنا فقد انتهت إليكم أمورنا، إن قتلة عثمان لا يعتذرون من قتله إلى الناس، ولا ينكرون ذلك، وقد جعلوا كتاب الله بينهم وبين محاجيهم، فيه أحيا الله من أحيا، وأمات من أمات. وإن طلحة والزبير كانا أول من طعن، وآخر من أمر، وكانا أول من بايع علياً، فلما أخطأهما ما أملاه نكثا بيعتهما، من غير حدث. وهذا بن بنت رسول الله الحسن قد عرفتموه. وقد جاء يستنفركم، وقد أظلكم علي في المهاجرين والبدرين والأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان. فانصروا الله ينصركم.

ثم قام قيس بن سعد، فقال: أيها الناس، إن الأمر لو استقبل به هل الشورى كان علي أحق بها، وكان قتال من أبي ذلك حلالاً، فكيف والحجة على طلحة والزبير، وقد بايعاه رغبة، وخالفاه حسداً، وقد جاءكم المهاجرون والأَنْصار.

دخول طلحة والزبير وعائشة البصرة:

قال: وذكروا أنه لما نزل طلحة والزبير وعائشة البصرة، اصطف لها الناس في الطريق، يقولون: يا أم المؤمنين، ما الذي أخرجك من بيتك؟ فلما أكثروا عليها تكلمت بلسان طلق، وكانت من أبلغ الناس، فحمدت الله، وأثنت عليه، ثم قالت:

خطبة عائشة رضي الله عنها:

أيها الناس، والله ما بلغ من ذنب عثمان أن يستحل دمه، ولقد قتل مظلوماً، غضبنا لكم من السوط والعصا، ولا نعضب لعثمان من القتل، وإن من الرأي أن تنظروا إلى قتلة عثمان، فيقتلوا به، ثم يرد هذا الأمر شوري، على ما جعله عمر بن الخطاب.

فمن قائل يقول: صدقت، وآخر يقول: كذبت، فلم يبرح الناس يقولون ذلك حتى ضرب بعضهم وجوه

بعض، فبينما هم كذلك أتاهم رجل من أشراف البصرة بكتاب كان كتبه طلحة في التأليب على قتل عثمان، فقال لطلحة: هل تعرف هذا الكتاب؟ قال: نعم. قال: فما ردك على ما كنت عليه؟ وكنت أمس تكتب إلينا تؤلبنا على قتل عثمان، وأنت اليوم تدعونا إلى الطلب بدمه، وقد زعمتما أن علياً دعاكما إلى أن تكون البيعة لكما قبله، إذ كنتما أسن منه، فأبيتما إلا أن تقدماه لقرابته وسابقتها، فبايعتماه، فكيف تنكثان بيعتكما بعد الذي عرض عليكما؟ قال طلحة: دعانا إلى البيعة بعد أن اغتصبها وبايعه الناس، فعلمنا حين عرض علينا أنه غير فاعل، ولو فعل أبي ذلك المهاجرون والأنصار، وخفنا أن نرد بيعته فنقتل، فبايعناه كارهين. قال: فما بدا لكما في عثمان؟ قالا: ذكرنا ما كان من طعننا عليه، وخذلاننا إياه، فلم نجد من ذلك مخرجاً إلا الطلب بدمه. قال: ما تأمراني به؟ قالا: بايعنا على قتال علي، ونقض بيعته، قال: أرايتما إن أتانا بعدكما من يدعونا إلى ما تدعوان إليه، ما نصنع؟ قالا: لا تبايعه. قال: ما أنصفتما، تأمراني أن أقاتل علياً وأنقض بيعته وهي في أعناقكما، وتنهياني عن بيعة من لا بيعة له عليكما؟ أما إننا قد بايعنا علياً، فإن شئتما بايعناكما ببسار أيدينا. قال: ثم تفرق الناس، فصارت فرقة مع عثمان بن حنيف، وفرقة مع طلحة والزبير. ثم جاء جارية بن قدامة، فقال: يا أم المؤمنين، لقتل عثمان كان أهون علينا من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون، إنه كانت لك من الله تعالى حرمة وستر فهتكت سترك، وأبحت حرمتك إنه من رأى قتالك فقد رأى قتلك، فإن كنت يا أم المؤمنين أتيتنا طائعة فارجعي إلى منزلك، وإن كنت أتيتنا مستكرهة فاستعطي الله.

قتل أصحاب عثمان بن حنيف عامل عليّ على البصرة:

قال: وذكروا أنه لما اختلف القوم اصطلحوا على أن لعثمان بن حنيف دار الإمارة ومسجدها وبيت المال، وأن يتزل أصحابه حيث شأؤوا من البصرة، وأن يتزل طلحة والزبير وأصحابهما حيث شأؤوا حتى يقدم علي، فإن اجتمعوا دخلوا فيما دخل فيه الناس، وإن يتفرقوا يلحق كل قوم بأهوائهم، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه، وذمة نبيه، وأشهدوا شهوداً من الفريقين جميعاً. فانصرف عثمان، فدخل دار الإمارة، وأمر أصحابه أن يلحقوا بمنزلهم، ويضعوا سلاحهم وافترق الناس، وكنتموا ما في أنفسهم، غير بني عبد القيس، فإنهم أظهروا نصرة علي، وكان حكيم بن جبل رئيسهم، فاجتمعوا إليه، فقال لهم: يا معشر عبد القيس: إن عثمان بن حنيف دمه مضمون، وأمانته مؤداة، وأثم الله لو لم يكن علي أميراً لمنعاه، لمكانته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكيف وله الولاية والجوار، فاشخصوا بأنصاركم، وجاهدوا العدو، فيما أن تموتوا كراماً وإما أن تعيشوا أحراراً. فمكث عثمان بن حنيف في الدار أياماً، ثم إن طلحة والزبير ومروان بن الحكم أتوه نصف الليل في جماعة معهم، في ليلة مظلمة سوداء مطيرة وعثمان نائم، فقتلوا أربعين

رجلاً من الحرس، فخرج عثمان بن حنيف، فشد عليه مروان فأسره، وقتل أصحابه، فأخذه مروان، فنتف لحيته ورأسه وحاجبيه، فنظر عثمان بن حنيف إلى مروان فقال: أما إنك إذ تفتني بها في الدنيا، لم تفتني بها في الآخرة.

تعبئة الفتنين للقتال:

وذكروا أنه لما تعبأ القوم للقتال، فكانت الحرب للزبير، وعلى الخيل طلحة، وعلى الرحالة عبد الله بن الزبير، وعلى القلب محمد بن طلحة، وعلى المقدمة مروان، وعلى رجال الميمنة عبد الرحمن بن عباد، وعلى الميسرة هلال بن وكيع، فلما فرغ الزبير من التعبئة قال: أيها الناس، وطنوا أنفسكم على الصبر، فإن يلقاكم غداً رجل لا مثل له في الحرب ولا شبيهه، ومعه شجعان الناس. فلما بلغ علياً تعبئة القوم عبأ الناس للقتال، فاستعمل على المقدمة عبد الله بن عباس، وعلى الساقة هنداً المرادي، وعلى جميع الخيل عمار بن ياسر، وعلى جميع الرحالة محمد بن أبي بكر.

ثم كتب إلى طلحة والزبير: أما بعد، فقد علمتما أنني لم أرد الناس حتى أرادوني، ولم أبايعهم حتى بايعوني، وإنكما لمن أراد وبايع، وإن العامة لم تبايعني لسلطان خاص، فإن كنتما بايعتماي كارهين، فقد جعلتما لي عليكما السبيل، بإظهاركما الطاعة، وإسراركما المعصية، وإن كنتما بايعتماي طائعين، فارجعا إلى الله من قريب. إنك يا زبير لفارس رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه، وإنك يا طلحة لشيخ المهاجرين، وإن دفاعكما هذا الأمر قبل أن تدخلوا فيه، كان أوسع عليكما من خروجكما منه إقراركما به، وقد زعمتما أنني قتلت عثمان فبيني وبينكما فيه بعض من تخلف عني وعنكما من أهل المدينة، وزعمتما أنني آويت قتلة عثمان، فهؤلاء بنو عثمان، فليدخلوا في طاعتي، ثم يخاصموا إلي قتلة أبيهم، وما أنتما وعثمان إن كان قتل ظالماً أو مظلوماً؟ وقد بايعتماي وأنتما بين خصلتين قبيحتين نكث بيعتكما، وإخراجكما أمكما.

كتاب علي إلى عائشة

وكتب إلى عائشة: أما بعد، فإنك خرجت غاضبة لله ولرسوله، تطلين أمراً كان عنك موضوعاً، ما بال النساء والحرب والإصلاح بين الناس؟ تطالين بدم عثمان، ولعمري لمن عرّضك للبلاء، وحملك على المعصية، أعظم إليك ذنباً من قتلة عثمان وما غضبت حتى أغضبت، وما هجت حتى هيجت، فاتقي الله، وارجعي إلى بيتك.

فأجابه طلحة والزبير: إنك سرت مسيراً له ما بعده، ولست راجعاً وفي نفسك منه حاجة، فامض لأمرك، أما أنت فلست راضياً دون دخولنا في طاعتك، ولسنا بداخلين فيها أبداً، فاقض ما أنت قاض. وكتبت عائشة: جل الأمر عن العتاب، والسلام.

قال: ورجعت رسل علي من البصرة. فمنهم من أجابه وأتاه، ومنهم من لحق بعائشة وطلحة والزبير، وبعث الأحنف بن قيس إلى علي: إن شئت أتيتك في مائتي رجل من أهل بيتي، وإن شئت كففت عنك أربعة آلاف سيف، فأرسل إليه علي: بل كف عني أربعة آلاف سيف، وكفى بذلك ناصراً. فجمع الأحنف بني تميم، فقال: يا معشر بني تميم، إن ظهر أهل البصرة فهم إخوانكم وإن ظهر علي فلن يهيجكم، وكنتم قد سلمتم. فكف بنو تميم، ولم يخرجوا إلى أحد الفريقين. قال: ولما كتب علي إلى طلحة والزبير أتى زمعة بن الأسود إلى طلحة والزبير. فقال لهما: إن علياً قد أكثر إليكما الرسل، كأنه طمع فيكما، وأطمعتماه في أنفسكما، فاتقيا الله إن كنتما بايعتماه طائعين، واتقيا الله علينا وعلى أنفسكما، فإن اللبن في الضرع، ومتى يحلب لا يرجع، وإن كنتما بايعتماه مكرهين فاحرقا هذا الوط، وادفعا هذا اللبن، فما أغنانا عن هذه الكتب والرسل. قال: فخرج طلحة والزبير وعائشة، وهي على جمل عليه هودج، قد ضرب عليه صفائح الحديد، فبرزوا حتى خرجوا من الدور ومن أفنية البصرة، فلما توافقوا للقتال، أمر علي منادياً ينادي من أصحابه لا يرمين أحد سهماً ولا حجراً، ولا يطعن برمح حتى أعذر إلى القوم، فأتخذ عليهم الحجة. قال: فكلم علي طلحة والزبير قبل القتال، فقال لهما: استحلفا عائشة بحق الله وبحق رسوله على أربع خصال أن تصدق فيها: هل تعلم رجلاً من قريش أولى مني بالله ورسوله، وإسلامي قبل كافة الناس أجمعين وكفايتي رسول الله كفار العرب بسيفي ورمحي، وعلى براءتي من دم عثمان، وعلى أي لم أستكره أحداً على أي لم أكن أحسن قولاً في عثمان منكما. فأجابه طلحة جواباً غليظاً، ورق له الزبير، ثم رجع علي إلى أصحابه فقالوا: يا أمير المؤمنين، بم كلمت الرجلين؟ فقال علي: إن شأنهما لمختلف أما الزبير فقاده اللجاج، ولن يقاتلكم، وأما، طلحة فسألته عن الحق فأجابني بالباطل، ولقيته باليقين، ولقيني بالشك، فوالله ما نفعه حقي، ولا ضربي باطله، وهو مقتول غداً في الرعي الأول. قال: ثم خرج علي على بغلة رسول الله الشهباء بين الصفين، وهو حاصر، فقال: أين الزبير؟ فخرج إليه، حتى إذا كانا بين الصفين اعتنق كل واحد منهما صاحبه وبكيا، ثم قال علي: يا عبد الله ما جاء بك هاهنا؟ قال: جئت أطلب دم عثمان. قال علي: تطلب دم عثمان، قتل الله من قتل عثمان، أنشدك الله يا زبير، هل تعلم أنك مررت بي وأنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهومتكئ على يدك فسلم علي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وضحك إلي، ثم التفت إليك، فقال لك: يا زبير، إنك تقاتل علياً وأنت

له ظالم؟ قال: اللهم نعم. قال علي: فعلام تقتلني؟ قال الزبير: نسيتها والله، ولو ذكرت ما خرجت إليك، ولا قاتلتك فانصرف علي إلى أصحابه، فقالوا: يا أمير المؤمنين مررت إلى رجل في سلاحه وأنت حاسر، قال علي: أتدرون من الرجل؟ قالوا: لا. قال: ذلك الزبير بن صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم. أما إنه قد أعطى الله عهداً أنه لا يقاتلكم، إني ذكرت له حديثاً قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: لو ذكرته ما أتيتك. فقالوا: الحمد لله يا أمير المؤمنين، ما كنا نخشى في هذا الحرب غيره. ولا نتقي سواه. إنه لفارس رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه، ومن عرفت شجاعته وبأسه ومعرفته بالحرب، فإذا قد كفناه الله فلا نعد من سواه إلا صرعى حول الهودج.

رجوع الزبير عن الحرب

قال: وذكروا أن الزبير دخل على عائشة، فقال: يا أمه، ما شهدت موطناً قط في الشرك ولا في الإسلام إلا ولي فيه رأي وبصيرة غير هذا الموطن، فإنه لا رأي لي فيه، ولا بصيرة، وإني لعلی باطل. قالت عائشة: يا أبا عبد الله، خفت سيوف بني عبد المطلب؟ فقال: أما والله إن سيوف بني عبد المطلب طوال حداد، يحملها فتية أنجاد. ثم قال لابنه عبد الله: عليك بحزبك، أما أنا فراجع إلى بيتي. فقال له ابنه عبد الله: الآن حين التقت حلقتا البطان، واجتمعت الفتتان؟ والله لا نغسل رؤوسنا منها، فقال الزبير لابنه: لا تعد هذا مني جبناً. فوالله ما فارقت أحداً في جاهلية ولا إسلام، قال: فما يردك؟ قال: يردني ما إن علمته كسرك. فقام بأمر الناس عبد الله بن الزبير.

قتل الزبير بن العوام:

قال: وذكروا أن الزبير لما انصرف راجعاً إلى المدينة أتاه بن جرموز، فتزل به، فقال: يا أبا عبد الله، أحبيت حرباً ظالماً أو مظلوماً ثم تنصرف؟ أتاب أنت أم عاجز؟ فسكت عنه، ثم عاود، فقال له: يا أبا عبد الله، حدثني عن خصال خمس أسألك عنها. فقال: هات. قال: خذلك عثمان، وبيعتك علياً، وإخراجك أم المؤمنين. وصلاتك خلف ابنك، ورجوعك عن الحرب. فقال الزبير: نعم أخبرك، أما خذلي عثمان فأمر قدر الله فيه الخطيئة وأخر التوبة. وأما بيعتي علياً فوالله ما وجدت من ذلك بداً، حيث بايعه المهاجرون والأنصار وخشيت القتل، وأما إخراجنا أمنا عائشة فأردنا أمر وأراد الله غيره، وأما صلاتي خلف ابني فإنما قدمته عائشة أم المؤمنين ولم يكن لي دون صاحبي أمر، وأما رجوعي عن هذه الحرب فظن بي ما شئت غير الجبن. فقال بن جرموز: والهفاه على بن صفية، أضرمها ناراً ثم أراد أن يلحق بأهله، قتلتني

الله إن لم أقتله، ثم أتاه فقال له: يا أبا عبد الله كالمستنصح له، إن دون أهلك فيافي، فخذ نجيبى هذا، وخل فرسك ودرعك، فإلهما شاهدتان عليك بما تكره. فقال الزبير: أنظر في ذلك ليلتي، ثم ألح عليه في فرسه ودرعه فلم يزل حتى أخذهما منه، وإنما أراد بن جرموز أن يلقاه حاسراً، لما علم بأسه، ثم أتى بن جرموز الأحنف بن قيس، فساره بمكان الزبير عنده وبقوله، فقال له الأحنف: اقتله قتله الله مخادعاً، وأتى الزبير رجل من كلب، فقال له: يا أبا عبد الله، أنت لي صهر، وابن جرموز لم يعتزل هذه الحرب مخافة الله، ولكنه كره أن يخالف الأحنف، وقد ندم الأحنف على خذله علياً، ولعله أن يتقرب بك إليه، وقد أخذ منك درعك وفرسك، وهذا تصديق ما قلت لك، فبت عندي الليلة ثم أخرج بعد نومه، فإني أن فتهم لم يطلبوك. فتهاون بقوله، ثم بدا له فقال له: فما ترى يا أبا كلب؟ قال: أرى أن ترجع إلى فرسك ودرعك فتأخذهما، فإن أحداً من الناس لا يقدم عليك وأنت فارس أبداً، فأصبح الزبير غادياً، وسار معه بن جرموز وقد كفر على الدرع فلما انتهى إلى وادي السباع استغفله فطعنه، ثم رجع برأسه وسلبه إلى قومه، فقال له رجل من قومه: يا بن جرموز، فضحت والله اليمن بأسرها، قتلت الزبير رأس المهاجرين، ورأس رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحواريه، وابن عمته، والله لو قتلت في حرب لعز ذلك علينا، ولمسنا عارك، فكيف في جوارك وذمتك؟ والله ليزيدنك على أن ييشرك بالنار. فغضب بن جرموز وقال: والله ما قتلت إلا له، ووالله ما أخاف ما أخاف فيه قصاصاً، ولا أرهب فيه قرشياً، وإن قتله علي لهين.

مخاطبة علي لطلحة بين الصفين:

قال: وذكروا أن علياً نادى طلحة بعد انصراف الزبير، فقال له: يا أبا محمد ما جاء بك؟ قال: أطلب دم عثمان. قال علي: قتل الله من قتله، قال طلحة: فحل بيننا وبين من قتل عثمان، أما تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إنما يحل دم المؤمن في أربع خصال، زان فيرجم، أو محارب لله، أو مرتد عن الإسلام، أو مؤمن يقتل مؤمناً عمداً. فهل تعلم أن عثمان أتى شيئاً من ذلك؟ فقال علي: لا. قال طلحة: فأنت أمرت بقتله. قال علي: اللهم لا. قال طلحة: فاعتزل هذا الأمر ونجعله شورى بين المسلمين، فإن رضوا بك دخلت فيما دخل فيه الناس، وإن رضوا غيرك كنت رجلاً من المسلمين. قال علي: أو لم تباعني يا أبا محمد طائعاً غير مكره؟ فما كنت لأترك بيعتي. قال طلحة: بايعتك والسيوف في عنقي. قال: ألم تعلم أني ما أكرهت أحداً على البيعة، ولو كنت مكرهاً أحداً لأكرهت سعداً وابن عمر ومحمد بن مسلمة، أبوا البيعة، واعتزلوا. فتركتهم. قال طلحة: كنا في الشورى ستة، فمات اثنان وقد كرهناك، ونحن ثلاثة، قال علي: إنما كان لكما ألا ترضيا قبل الرضى وقبل البيعة. وأما الآن فليس لكما غير ما رضيتما به، إلا أن تخرجا مما بويعت عليه بحدث، فإن كنت أحدث حدثاً فسموه لي. وأخرجتم أمكم

عائشة، وترككم نساءكم، فهذا أعظم الحدث منكم أرضى هذا لرسول الله أن تهتكوا سترًا ضربه عليها، وتخرجوها منه؟ فقال طلحة: إنما جاءت للإصلاح. قال علي: هي لعمر الله إلى من يصلح لها أمرها أحوج، أيها الشيخ اقبل النصح وارض بالتوبة مع العار. قبل أن يكون العار والنار.

التحام الحرب

قال: وذكروا أنه بينما الناس وقوف إذ رُمي رجل من أصحاب علي، فجيء به إلى علي، فقالوا: يا أمير المؤمنين، هذا أخونا قد قتل. فقال علي: أعذروا إلى القوم. فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: إلى متى؟ قد والله أعذرنا وأعذرت إن كنت تريد الإعذار، والله لتأذن لنا في لقاء القوم أو لنصرفن إلى متى تستهدف نحورنا للقتال والسلاح، يقتلوننا رجالاً رجالاً؟ فقال علي: قد والله أرانا أعذرنا. أين محمد ابني؟ فقال: هأنذا. فقال: أي بني، خذ الراية، فابتدر الحسن والحسين ليأخذاها، فأخرهما عنها، كان علي يؤخرهما شفقة عليهما، فأخذ محمد الراية، ثم قام علي، فركب بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم دعا بدرع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلبسها، ثم قال: أحزموني، فحزم بعمامة أسفل من سترته، ثم خرج وكان عظيم البطن، فقال لابنه: تقدم وتضعض الناس حين سمعوا به قد تحرك، فبينما هم كذلك إذ سمعوا صوتاً، فقال علي: ما هذا؟ فقيل: عائشة تلعن قتلة عثمان. فقال علي ورفع بصره إلى السماء: لعن الله قتلة عثمان في السهل والجبل، وقد كان علي عباً الناس أثلاثاً، فجعل مصر قلب العسكر، واليمن ميمنته، وربيعه ميسرته، وعباً أهل البصرة مثل ذلك، فاقتتل القوم قتالاً شديداً، فهزمت يمن البصرة يمن علي، وهزمت ربيعة البصرة ربيعة علي، قال حية بن جهم: نظرت إلى علي وهو يخفق نعاساً فقلت له: تالله ما رأيت كالיום قط، إن بإزائنا لمائة ألف سيف، وقد هزمت ميمنتك وميسرتك، وأنت تخفق نعاساً، فانتبه ورفع يديه، وقال: اللهم إنك تعلم أي ما كتبت في عثمان سواداً في بياض، وأن الزبير وطلحة ألبا وأجلبا علي الناس، اللهم أولانا بدم عثمان فخذ اليوم. ثم تقدم علي فنظر إلى أصحابه يهزمون ويقتلون فلما نظر إلى ذلك صاح بابنه محمد ومعه الراية، أن اقتحم، فأبطأ وثبت، فأثنى علي من خلفه، فضربه بين كتفيه، وأخذ الراية من يده، ثم حمل، فدخل عسكرهم وإن الميمنتين والميسرتين تضطربان، في إحداها عمار، وفي الأخرى عبد الله بن عباس، ومحمد بن أبي بكر، قال: فشق علي في عسكر القوم يطعن ويقتل، ثم خرج وهو يقول: الماء الماء، فأتاه رجل يداوئها عسل فقال له: يا أمير المؤمنين، أما الماء فإنه لا يصلح لك في هذا المقام، ولكن أذوقك هذا العسل فقال: هات، فحسا منه حسوة، ثم قال: إن عسلك لطائفي، قال الرجل: لعجباً منك والله يا أمير المؤمنين، لمعرفتك الطائفي من غيره في هذا اليوم، وقد بلغت

القلوب الحناجر. فقال له علي: إنه والله يا بن أخي ما ملأ صدر عمك شيء قط، ولا هابه شيء ثم أعطى الراية لابنه، وقال: هكذا فاصنع، فتقدم محمد بالراية ومعه الأنصار حتى انتهى إلى الجمل والهودج وهزم ما يليه، فاقتتل الناس ذلك اليوم قتالاً شديداً حتى كانت الواقعة والضرب على الركب وحمل الأشر النخعي وهو يريد عائشة، فلقى عبد الله بن الزبير، فضربه، واعتنقه عبد الله فصرعه، وقعد على صدره، ثم نادى عبد الله: اقتلوني ومالكاً. فلم يدر الناس من مالك فانفلت الأشر منه، فلما رأى كعب بن سور الهزيمة، أخذ بخطام البعير، ونادى: أيها الناس، الله الله، فقاتل وقتل الناس معه، وعطفت الأزد على الهودج، وأقبل علي وعمار والأشر والأنصار معهم يريدون الجمل فاقتتل القوم حوله، حتى حال بينهم الليل، وكانوا كذلك يروحون ويغدون على القتال سبعة أيام، وإن علياً خرج إليهم بعد سبعة أيام فهزمهم، فلما رأى طلحة ذلك رفع يديه إلى السماء. وقال: اللهم إن كنا قد داهنا في أمر عثمان وظلمناه فخذ له اليوم منا حتى ترضى، قال: فما مضى كلامه حتى ضربه مروان ضربة أتى منها على نفسه، فخر وثبتت عائشة، وحماها مروان في عصابة من قيس ومن كنانة وبني أسد، فأحرق بهم علي بن أبي طالب، ومال الناس إلى علي، وكلما وثب رجل يريد الجمل ضربه مروان بالسيف، وقطع يده، حتى قطع نحو عشرين يداً من أهل المدينة والحجاز والكوفة، حتى أتى مروان من خلفه، فضرب ضربة فوقع، وعرقب الجمل الذي عليه عائشة. وانهمز الناس، وأسرت عائشة، وأسر مروان بن الحكم وعمرو بن عثمان، وموسى بن طلحة، وعمرو بن سعيد بن العاص، فقال عمار لعلي: يا أمير المؤمنين، اقتل هؤلاء الأسرى. فقال علي: لا أقتل أسير أهل القبلة إذا رجع ونزع. فدعا علي بموسى بن طلحة، فقال الناس: هذا أول قتيل يقتل، فلما أتى به علي قال: تباع وتدخل فيما

دخل فيه الناس؟ قال: نعم فباع وباع الجميع وحلى سبيلهم، وسأل الناس علياً ما كان عرض عليهم قبل ذلك فأعطاه، ثم أمر المنادي فنادى: لا يقتلن مدبر، ولا يجهز على جريح، ولكم ما في عسكرهم وعلى نسائهم العدة، وما كان لهم من مال في أهليهم فهو ميراث على فرائض الله، فقام رجل فقال: يا أمير المؤمنين، كيف تحل لنا أموالهم، ولا تحل لنا نساؤهم ولا أبناؤهم؟ فقال: لا يحل ذلك لكم. فلما أكثروا عليه في ذلك. قال: اقترعوا، هاتوا بسهامكم ثم قال: أيكم يأخذ أمكم عائشة في سهمه؟ فقالوا: نستغفر الله. فقال: وأنا أستغفر الله. قال: ثم إن علياً مر بالقتلى، فنظر إلى محمد بن طلحة وهو صريع في القتلى، وكان يسمى السجاد، لما بين عينيه من أثر السجود. فقال: رحمك الله يا محمد، لقد كنت في العبادة مجتهداً آناء الليل قواماً، وفي الحرور صواماً، ثم التفت إلى من حوله فقال: هذا رجل قتله بر أبيه فاختلفوا في طلحة وابنه محمد أيهما قتل قبل؟ فشهدت عائشة لمحمد أنها رآته بعد قتل أبيه، فورثوا ولده في مال طلحة. قال: وأتى محمد بن أبي بكر، فدخل على أخته عائشة رضي الله عنها، قال لها: أما سمعت رسول

الله صلى الله عليه وسلم يقول: علي مع الحق، والحق مع علي؟ ثم خرجت تقاتلينه بدم عثمان، ثم دخل عليهما علي فسلم وقال: يا صاحبة اليهودج، قد أمرك الله أن تقعي في بيتك، ثم خرجت تقاتلين. أترحلين؟ قالت: أرتحل. فبعث معها علي رضي الله عنه أربعين امرأة، وأمرهن أن يلبسن العمائم، ويتقلدن السيوف، وأن يكن من الذين يلينها، ولا تطلع على أنهن نساء، فجعلت عائشة تقول في الطريق فعل الله في بن أبي طالب وفعل، بعث معي الرجال، فلما قدمنا المدينة وضعن العمائم والسيوف، ودخلن عليها. فقالت: جزى الله بن أبي طالب الجنة. قال: ودفن طلحة في ساحة البصرة، فأتى عائشة في المنام. فقال: حوليني من مكاني، فإن البرد قد آذاني فحولته. وقال عبد الله بن الزبير: أمسيت يوم الجمل وفي بضع وثلاثون بين ضربة وطعنة، وما رأيت مثل يوم الجمل قط، ما ينهزم منا أحد ولا يأخذ أحد منا بخطام الجمل الا قتل أو قطعت يده، حتى ضاع الخطام من يد بني ضبة، فعقر الجمل. قال: دخل موسى بن طلحة على علي، فقال له علي: إني لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله فيهم: "ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين" الحجر: 47، وأمسى علي بالبصرة ذلك اليوم الذي أتاه فيه موسى بن طلحة، فقال بن الكواء: أمسيت بالبصرة يا أمير المؤمنين؟ فقال: كان عندي بن أخي. قال: ومن هو؟ قال: موسى بن طلحة. فقال بن الكواء: لقد شقينا إن كان بن أخيك. فقال علي: ويحكم، إن الله قد اطلع على أهل بدر، فقال: "اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم". ثم قال بن الكواء: يا أمير المؤمنين، من أخبرك بمسيرك هذا الذي سرت فيه، تضرب الناس بعضهم ببعض، وتستولي بالأمر عليهم؟ أراي رأيته حين تفرقت الأمة، واختلفت الدعوة، فرأيت أنك أحق بهذا الأمر منهم لقربتك؟ فإن كان رأياً رأيته أجبنك فيه، وإن كان عهداً عهدته إليك رسول الله فأنت الموثوق به، المأمون على رسول الله فيما حدثت عنه. فقال علي: أنا أول من صدقه فلا أكون أول من كذب عليه. أما أن يكون عندي عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا والله، ولكن لما قتل الناس عثمان نظرت في أمري، فإذا الخليفان اللذان أخذاهما من رسول الله قد هلكا ولا عهد لهما، وإذا الخليفة الذي أخذاهما بمشورة المسلمين قد قتل، وخرجت ربقة من عنقي، لأنه قتل ولا عهد له، قال بن الكواء: صدقت وبررت، ولكن ما بال طلحة والزبير؟ ولم استحللت قتالهما وقد شاركاك في الهجرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي الشورى مع عمر بن الخطاب؟ قال علي: بايعاني بالحجاز، ثم خالفاني بالعراق، فقاتلتهم على خلافهما، ولو فعلا ذلك مع أبي بكر وعمر لقاتلتهما.

مبايعة أهل الشام معاوية بالخلافة

قال: وذكروا أن النعمان بن بشير لما قدم على معاوية بكتاب زوجة عثمان، تذكر فيه دخول القوم عليه، وما صنع محمد بن أبي بكر من نتف لحيته، في كتاب قد رقت فيه وأبلغت، حتى إذا سمعه السامع بكى حتى يتصدع قلبه، وبقميص عثمان مخضباً بالدم ممزقاً، وعقدت شعر لحيته في زر القميص. قال: فصعد المنبر معاوية بالشام، وجمع الناس، ونشر عليهم القميص، وذكر ما صنعوا بعثمان، فبكى الناس وشهقوا، حتى كادت نفوسهم أن تزهق، ثم دعاهم إلى الطلب بدمه، فقام إليه أهل الشام، فقالوا: هو بن عمك، وأنت وليه، ونحن الطالبون معك بدمه، فبايعوه أميراً عليهم، وكتب وبعث الرسل إلى كور الشام، وكتب إلى شرحبيل بن السمط الكندي وهو بحمص، يأمره أن يبايع له بحمص كما بايع أهل الشام، فلما قرأ شرحبيل كتاب معاوية دعا أناساً من أشرف أهل حمص، فقال لهم: ليس من قتل عثمان بأعظم جرماً ممن يبايع لمعاوية أميراً، وهذه سقطة، ولكننا نبايع له بالخلافة، ولا نطلب بدم عثمان مع غير خليفة. فبايع لمعاوية بالخلافة هو وأهل حمص، ثم كتب إلى معاوية: أما بعد: فإنك أخطأت خطأ عظيماً، حين كتبت إلي أن أبايع لك بالإمرة، وأنت تريد أن تطلب بدم الخليفة المظلوم وأنت غير خليفة، وقد بايعت ومن قبلي لك بالخلافة. فلما قرأ معاوية كتابه سره ذلك، ودعا الناس، وصعد المنبر، وأخبرهم بما قال شرحبيل، ودعاهم إلى بيعته بالخلافة. فأجابوه، ولم يختلف منهم أحد، فلما بايع القوم له بالخلافة، واستقام له الأمر، كتب إلى علي:

كتاب معاوية إلى علي

سلام الله على من اتبع الهدى. أما بعد، فإننا كنا نحن وإياكم يداً جامعة، وألفة أليفة، حتى طمعت يا بن أبي طالب فتغيرت، وأصبحت تعد نفسك قوياً على من عاداك. بطعام أهل الحجاز، وأوباش أهل العراق وحمقى الفسباط وغوغاء السواد وأيم الله لينجلين. عنك حمقاها، ولينقشعن عنك غوغاؤها انقشاع السحاب عن السماء. قتلت عثمان بن عفان، ورقيت سلماً أطلعك الله عليه مطلع سوء عليك لا لك. وقتلت الزبير وطلحة، وشردت بأموك عائشة، ونزلت بين المصريين فمנית وتمنيت، وخيل لك أن الدنيا قد سخرت لك بخيلها ورجلها وإنما تعرف أمنتك لو قد زرتك في المهاجرين من أهل الشام بقية الإسلام، فيحيطون بك من ورائك، ثم يقضي الله علمه فيك، والسلام على أولياء الله.

رد الإمام علي على معاوية

فأجابه علي: أما بعد، فقدرد الأمور تقدير من ينظر لنفسه دون جند، ولا يشتغل بالهزل من قوله، فلعمري لمن كانت قوتي بأهل العراق، أوثق عندي من قوتي بالله ومعرفتي به فليس عنده بالله تعالى يقين. من كان

على هذا، فناج نفسك مناجاة من يستغني بالجد دون الهزل، فإن في القول سعة، ولن يعذر مثلك فيما طمح إليه الرجال. وأما ما ذكرت من أنا كنا وإياكم يداً جامعة فكنا كما ذكرت، ففرق بيننا وبينكم أن الله بعث رسوله منا، فآمنا به وكفرتم، ثم زعمت أي قتلت طلحة والزبير، فذلك أمر غبت عنه ولم تحضره، ولو حضرته لعلمته، فلا عليك، ولا العذر فيه إليك، وزعمت أنك زائري في المهاجرين، وقد انقطعت الهجرة حين أسر أخوك، فإن يك فيك عَجَل فاسترفه وإن أزرك فجدير أن يكون الله بعثني عليك للنقمة منك، والسلام.

قدوم عقيل بن أبي طالب على معاوية

قال: وذكروا أن عقيل بن أبي طالب قدم على أخيه علي بالكوفة، فقال له علي: مرحباً بك وأهلاً. ما أقدمك يا أخي؟ قال: تأخر العطاء عنا، وغلاء السعر ببلدنا، وركبني دين عظيم، فجئت لتصلي. فقال علي: والله مالي مما ترى شيئاً إلا عطائي، فإذا خرج فهو لك. فقال عقيل: وإنما شخوصي من الحجاز إليك من أجل عطائك؟ وماذا يبلغ مني عطاؤك؟ وما يدفع من حاجتي؟ فقال علي: فمه! هل تعلم لي مالاً غيره؟ أم تريد أن يحرقني الله في نار جهنم في صلتك بأموال المسلمين؟ فقال عقيل: والله لأخرجن إلى رجل هو أوصل لي منك: يريد معاوية، فقال له علي: راشداً مهدياً. فخرج عقيل! حتى أتى معاوية. فلما قدم عليه، قال له معاوية: مرحباً وأهلاً بك يا بن أبي طالب، ما أقدمك علي؟ فقال: قدمت عليك لدين عظيم ركبني، فخرجت إلى أخي ليصلي، فزعم أنه ليس له مما يلي إلا عطاؤه، فلم يقع ذلك مني موقعاً، ولم يسد مني مسداً، فأخبرته أنني سأخرج إلى رجل هو أوصل منه لي، فجئتكم. فازداد معاوية فيه رغبة، وقال: يا أهل الشام هذا سيد قريش، وابن سيدها، عرف الذي فيه أخوه من الغواية والضلالة، فأثاب إلى أهل الدعاء إلى الحق، ولكني أزعم أن جميع ما تحت يدي لي، فما أعطيت فقرية إلى الله، وما أمسكت فلا جناح علي فيه فأغضب كلامه عقيلاً لما سمعه ينتقص أخاه، فقال: صدقت خرجت من عند أخي على هذا القول، وقد عرفت من في عسكره، لم أفقد والله رجلاً من المهاجرين والأنصار، ولا والله ما رأيت في عسكر معاوية رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم. فقال معاوية عند ذلك: يا أهل الشام، أعظم الناس من قريش عليكم حقاً بن عم النبي صلى الله عليه وسلم، وسيد قريش، وها هو ذا تبرأ إلى الله مما عمل به أخوه. قال: وأمر له معاوية بثلاث مئة ألف دينار، قال له: هذه مئة ألف تقضي بها ديونك، ومئة ألف تصل بها رحمك، ومئة ألف توسع بها على نفسك.

نعي عثمان بن عفان إلى معاوية

قال عبد الله بن مسلم: وذكر بن عفير، عن عون بن عبد الله بن عبد الرحمن الأنصاري، قال: قدم الحجاج بن خزيمة الشام بكتاب معاوية: بعد قتل عثمان بأيام، فقال له: أتعرفني؟ قال: نعم. أنت الحجاج بن خزيمة، فما وراءك؟ فقال الحجاج: أنا النذير العريان. أنعي إليك أمير المؤمنين عثمان. ثم قال: إني كنت ممن خرج معي لعثمان مع يزيد بن أسد، فتقدمت إلى الربرة فلقينا بها رجلاً حدثنا عن قتل عثمان، وزعم أنه ممن قتله. فقتلناه. وإني أخبرك يا معاوية أنك تقوى على علي بحون ما يقوى به عليث، لأن من معك لا يقولون إذا قلت. ولا يسألون إذا أمرت، ولأن من مع علي يقولون إذا قال، ويسألون إذا أمر، فقليل من معك خير من كثير ممن معه. واعلم أن علياً لا يرضيه إلا الرضى، وإن رضاه يسخطك، ولست وعلي بالسوء، لا يرضى علي بالعراق دون الشام، ورضاءك بالشام دون العراق. قال: وذكروا أنه لما فرغ من وقعة الجمل بايع له القوم جميعاً، وبايع له أهل العراق، واستقام له الأمر بها فكتب إلى معاوية: أما بعد، فإن القضاء السابق، والقدر النافذ، يتزل من السماء كقطر المطر، فتضمضي أحكامه عز وجل، وتنفذ مشيئته بغير تحاب المخلوقين، ولا رضا الآدميين، وقد بلغك ما كان من قتل عثمان رحمه الله، وبيعة الناس عامة إياي، ومصارع الناكثين لي فادخل فيما دخل الناس فيه، وإلا فأنا الذي عرفت، وحولي من تعلمه، والسلام.

فلما قدم على معاوية كتاب علي مع الحجاج بن عدي الأنصاري، ألفاه وهو يخطب الناس بدمشق، فلما قرأه اغتم بذلك، وأسرّه عن أهل الشام، ثم قام الحجاج بن عدي خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا أهل الشام، إن أمر عثمان أشكل على من حضره، المخبر عنه كالأعمى، والسميع كالأصم، عابه قوم فقتلوه، وغدره قوم فلم ينصروه، فكذبوا الغائب واتهموا الشاهد وقد بايع الناس علياً على منير رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة عامة، من رغب عنها رد إليها صاغراً داحراً، فانظروا في ثلاث وثلاث، ثم افضوا على أنفسكم: أين الشام من الحجاز؟ وأين معاوية من علي؟ وأين أنتم من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بالإحسان؟ قال: فغضب معاوية لقوله وقال: يا حجاج، أنت صاحب زيد بن ثابت يوم الدار؟ قال: نعم، فإن كان بلغك وإلا أحدثك، قال: هات. قال: أشرف علينا زيد بن ثابت، وكان مع عثمان في الدار، وقال: يا معشر الأنصار، انصروا الله مرتين، فقلت: يا زيد، إنا نكره أن نلقى الله فنقول كما قال القوم: "ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلاً"، فقال معاوية: انصرف إلى علي، وأعلمه أن رسولي على إثرك.

ثم إن معاوية انتخب رجلاً من عبس، وكان له لسان، فكتب معاوية إلى علي كتاباً عنوانه: "من معاوية إلى علي، وداخله: بسم الله الرحمن الرحيم لا غير". فلما قدم الرسول دفع الكتاب إلى علي، فعرف علي ما فيه، وأن معاوية محارب له، وأنه لا يجيبه إلى شيء مما يريد، وقام رسول معاوية خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: هل هاهنا أحد من أبنا قيس عيلان، وبني عبس وذبيان؟ قالوا: نعم، هم حولك، قال: فاسمعوا ما أقول لكم، يا معشر قيس؛ إني أحلف بالله لقد خلفت بالشام خمسين ألف شيخ، خاضبين لحاهم من دموع أعينهم تحت قميص عثمان، رافعيه على الرماح مخضوباً بدمائه، قد أعطوا الله عهداً أن لا يغمدوا سيوفهم، ولا يغمضوا جفونهم؛ حتى يقتلوا قتلة عثمان، يوصي به الميت الحي، ويرثه الحي من الميت، حتى والله نشأ عليه الصبي، وهاجر عليه الأعراي، وترك القوم تعس الشيطان، وقالوا: تعساً لقتلة عثمان، وأحلف بالله ليأتينكم من خضر الخيل اثنا عشر ألفاً، فانظروا كم الشهب وغيرها؟ فقال له علي: ما يريدون بذلك؟ قال: يريدون بذلك والله حبط رقبته. فقال علي: تربت يداك، وكذب فوك، أما والله لو أن رسولاً قتل لقتلتك. فقام الصلت بن زفر فقال: بئس وافد أهل الشام أنت ورائد أهل العراق، ونعم العون لعلي، وبئس العون لمعاوية، يا أخا عبس أتخوف المهاجرين والأنصار بخضر الخيل، وغضب الرجال؟ أما والله ما نخاف غضب رجالك، ولا خضر خيلك، فأما بكاء أهل الشام على قميص عثمان، فوالله ما هو بقميص يوسف ولا بحزن يعقوب، ولئن بكوا عليه بالشام، لقد خذلوه بالحجاز، وأما قتالهم علياً، فإن الله يصنع في ذلك ما أحب. قال: وإن العبسي أقام بالعراق عند علي، حتى اتهمه معاوية، ولقيه المهاجرون والأنصار فأشربوه حب علي؟ وحدثوه عن فضائله، حتى شك في أمره.

قدوم بن عم عدي بن حاتم الشام:

قال: وذكروا أن عدي بن حاتم قدم إلى علي بالكوفة، قبل أن يسير إلى البصرة، فقال: يا أمير المؤمنين، لسنا نخاف أحداً إلا معاوية؛ وعندني رجل من قومي يريد أن يزور بن عم له بالشام، يقال له حابس بن سعد، فلو أمرناه أن يلقي معاوية لعله أن يكسره ويكسر أهل الشام؟ فقال له علي: افعل، فأغرره بذلك، فلما قدم على بن عمه، وكان سيد طيء بالشام، سأله فأخبره أنه شهد قتل عثمان بالمدينة المنورة، وسار مع علي إلى الكوفة، وكان له لسان وهيبة، فغدا به حابس إلى معاوية، فقال: هذا بن عمي، قدم من الكوفة، وكان مع علي، وشهد قتل عثمان بالمدينة، وهو ثقة، فقال له معاوية: حدثنا عن أمر عثمان، قال: نعم وليه محمد بن أبي بكر، وعمار بن ياسر، وتجرد في أمره ثلاثة نفر، عدي بن حاتم، والأشتر النخعي، وعمر بن الحصين. ودب في أمره رجلان: طلحة والزبير. وأبرأ الناس منه علي بن أبي طالب، ثم

تخافت الناس على علي بالبيعة تخافت الفراش، حتى ضلت النعل، وسقط الرداء، ووطئ الشيخ. ولم يذكر عثمان، ولم يذكره، ثم تقياً للمسير، فخف معه المهاجرون والأنصار، وكره القتال معه ثلاثة نفر: عبد الله بن عمر، وسعد بن أبي وقاص، وحمد بن مسلمة، فلم يستكره أحداً، واستغنى بمن خف عمن ثقل، ثم سار حتى انتهى إلى جبل طيء، فأتاه منهم جماعة عظيمة، حتى إذا كان في بعض الطريق أتاه مسير طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة، فسرح رسله إلى الكوفة، فأجابوا دعوته، ثم قدمها، فحملوا إليه الصبي ودبت إليه العجوز، وخرجت إليه العروس، فرحاً به وسروراً وشوقاً إليه، ثم سار إلى البصرة، فبرز إليه القوم، طلحة والزبير وأصحابهما، فلم يلبثوا إلا يسيراً، حتى صرعهم الله، وأبرزهم إلى مضاجعهم، ثم صارت البصرة وما حولها في كفة، قال: وتركته وليس له هم إلا أنت والشام. فانكسر معاوية لقوله، وقال: والله ما أظنه إلا عيناً لعلي، أخرجوه لا يفسد أهل الشام. ثم قال معاوية: وكيف لا يضيع عثمان ويقتل وقد خذله أهل ثقافته، وأجمعوا عليه؟ أما والله لئن بقينا لهم لندرسنهم درس الجمال هشيم اليبس.

استعمال علي عبد الله بن عباس على البصرة:

قال: وذكروا أن علياً لما صار من البصرة بعد فراغه من أصحاب الجمل، استعمل عليها عبد الله بن عباس، وقال له: أوصيك بتقوى الله عز وجل، والعدل على من ولاك الله أمره، اتسع للناس بوجهك وعلمك وحكمك، وإياك والإحن، فإنها تميم القلب والحق؛ واعلم أن ما قربك من الله بعدك من النار، وما قربك من النار بعدك من الله. اذكر الله كثيراً ولا تكن من الغافلين. فلم يلبث علي حين قدم الكوفة، وأراد المسير إلى الشام، أن انضم إليه بن عباس، واستعمل على البصرة زياد بن أبي سفيان.

ما أشار به الأحنف بن قيس على علي:

قال: وذكروا أن الأحنف بن قيس قام إلى علي فقال: يا أمير المؤمنين، إنه إن يك بنو سعد لم ينصروك يوم الجمل، فلن ينصروا عليك غيرك، وقد عجبوا من نصرك يومئذ، وعجبوا اليوم من خذلك، لأنهم شكوا في طلحة والزبير، ولم يشكوا في عمرو ومعاوية، وإن عشيرتنا بالبصرة فلو بعثنا إليهم فقدموا علينا، فقاتلنا بهم العدو، وانتصفنا بهم من الناس، وأدركوا اليوم ما فاتهم أمس، وهذا جمع قد حشره الله عليك بالتقوى، لم نستكره شاخصاً، ولم نشخص فيه مقيماً، ومن كان معك نافعك، ورب مقيم خير من شاخص. وإنما نشوب الرجاء بالمخافة، والله لوددنا أن أمواتنا رجعوا إلينا، فاستعنا بهم على عدونا،

وليس لك إلا من كان معك، ولنا من قومنا عدد، ولا نلقى بهم عدواً أعدى من معاوية، ولا نسد بهم ثغراً أشد من الشام.

كتاب الأحنف إلى قومه يدعوهم به إلى نصرته علي:

قال: وذكروا أن علياً قال للأحنف بن قيس: اكتب إلى قومك. قال: نعم. فكتب الأحنف إلى بني سعد: أما بعد، فإنه لم يبق أحد من بني تميم إلا وقد شقوا برأي سيدهم غيركم، وعصمكم الله برأيي، حتى نلت ما رجوت، وأمنت مما خفت، وأصبحت منقطعين من أهل البلاء، لاحقين بأهل العافية، لاني أخبركم أنا قدمنا على تميم بالكوفة، فأخذوا علينا بفضلهم مرتين: مسيرهم إلينا مع علي، وتهيئهم للمسير إلى الشام، ثم انحسروا عنهم، فصرنا كأننا لا نعرف إلا بهم، فأقبلوا إلينا، ولا تتكلوا علينا، فإن لهم أعدادنا من رؤسائهم فلا تبطلوا عنا، فإن من تأخير العطاء حرماناً، ومن تأخير النصر خذلاناً. فحرمان العطاء القلة، وخذلان النصر الإبطاء ولا تنقضي الحقوق إلا بالرضا وقد يرضى المضطر بدون الأمل. فلما انتهى كتاب الأحنف إلى بني سعد، ساروا بجماعتهم، حتى نزلوا الكوفة.

كتاب أهل العراق إلى مصقلة:

قال: وذكروا أنه قام إلى علي بعد انصرافه من البصرة إلى الكوفة، وجوه بكر بن وائل، فقالوا: يا أمير المؤمنين، إن نعيماً أخوا مصقلة يستحي منك، لما صنع مصقلة، وقد أتانا اليقين أنه لا يمنع مصقلة من الرجوع إليك إلا الحياء، ولم ييسط منذ فارقنا لسانه ولا يده، فلو كتبنا إليه كتاباً، وبعثنا من قبلنا رسولاً، فإننا نستحي أن يكون فارقنا مثل مصقلة من أهل العراق إلى معاوية، فقال علي: اكتبوا. فكتبوا: أما بعد، فقد علمنا أنك لم تلحق بمعاوية رضاً بدينه، ولا رغبة في دنياه، ولم يعطفك عن علي طعن فيه، ولا رغبة عنه، ولكن توسطت أمراً فقويت فيه الظن، وأضعفت فيه الرجاء، فكان أولاهما عندك أن قلت: أفوز بالمال، وألحق بمعاوية. ولعمرنا ما استبدلت الشام بالعراق، ولا السكاسك بريعة، ولا معاوية بعلي، ولا أصبت دنياً قهناً بها، ولا حظاً تحسد عليه، وإن أقرب ما تكون مع الله، أبعد ما تكون مع معاوية، فارجع إلى مصر، فقد اغتفر أمير المؤمنين الذنب، واحتمل الثقل، واعلم أن رجعتك اليوم خير منها غداً، وكانت أمس خيراً منها اليوم، وإن كان عليك حياء من أبي الحسن، فما أنت فيه أعظم، فقبح الله أمراً ليس فيه دنيا ولا آخرة. فلما انتهى كتابهم إلى مصقلة، وكان لرسولهم عقل ولسان، قال الرسول: يا مصقلة، انظر فيما خرجت منه، وفيما صرت إليه، وانظر من أخذت، ومن تركت، وانظر من جاورت،

ومن زايلت، ثم اقض بعقلك دون هواك. قال: وإن مصقلة مضى إلى معاوية بالكتاب، فأقرأه إياه، فقال معاوية: يا مصقلة إنك عندي غير ظنين، فإذا أتاك شيء فاستره عني، فانصرف مصقلة إلى منزله، فدعا الرسول فقال: يا أخا بكر، إنما هربت بنفسي من علي، ولا والله ما يطول لساني بغيبته، ولا قلت فيه قط حرفاً بسوء اذهب بكتابي هذا إلى قومي.

جواب مصقلة إلى قومه:

قال: وذكروا أن مصقلة كتب إلى قومه: أما بعد، فقد جاعني كتابكم، وإني أخبركم أنه من لم ينفعه القليل لم ينفعه الكثير، وقد علمتم الأمر الذي قطعني من عليّ، وأضافني إلى معاوية، وقد علمت أني لو رجعت إلى علي وإليكم لكان ذنبي مغفوراً، ولكني أذنبت إلى علي، وصحبت معاوية، فلر رجعت إلى علي أحدثت عيباً، وأحييت عاراً، وكنت بين لائمين، أولهما خيانة، وآخرهما غدر، ولكني أقيم بالشام، فإن غلب معاوية فداري العراق، وإن غلب علي فداري أرض الروم. فأما الهوى فإليكم طائر، وكانت فرقتي علياً على بعض العذر أحب إلي من فرقتي معاوية ولا عذر لي. ثم قال للرسول: يا بن أخي، استعرض الناس عن قولي في علي. فقال: قد سألت، فقالوا خيراً. قال: فإني والله عليه حتى أموت. فرجع الرسول بالكتاب، فأقرأه علياً، فقال: كفوا عن صاحبكم، فليس براجع حتى يموت. فقال حصين: أما والله ما به إلا الحياء.

لحق عبد الله بن عامر بالشام:

قال: وذكروا أن عبد الله بن عامر لحق بالشام، ولم يأت معاوية، وخاف يوماً كيوم الجمل، فبعث إليه معاوية أن يأتيه، وألح عليه. فكتب بن عامر؛ أما بعد: فإني أخبرك أني أقحمت طلحة والزبير إلى البصرة، وأنا أقول إذا رأى الناس أم المؤمنين مالوا إليها، وإن فر الناس لم يفرّ الزبير، وإن غدر الناس لم يغدر مروان، فغضبت عائشة، ورجع الزبير، وقتل مروان طلحة، وذهب مالي بما فيه، والناس أشباه، واليوم كأمس، فإن أتبعني هواي، وإلا أرتحل عنك والسلام. فكتب معاوية إليه: أما بعد، فإنك قلدت أمر دينك قتلة عثمان، وأنفقت مالك لعبد الله بن الزبير، وآثرت العراق على الشام، فأخرجك الله من الحرب صفر اليدين، ليس لك حظ الحق، ولا ثار القتل. فلما انتهى كتابه إلى بن عامر أتاه، فغمس يده معه، وبايعه، ففلاطفه معاوية، وعرف له قرابته من عثمان.

ما أشار به عمار بن ياسر على عليّ:

قال: وذكروا أن عمار بن ياسر قام إلى علي، فقال: يا أمير المؤمنين، إنما بايعناك ولا نرى أحداً يقاتلك، فقاتلك من بايعك، وأعطاك الله فيهم ما وعد في قوله جل وعز: "ثم بُغي عليه لينصرنه الله" الحج: 60، وقوله: "يا أيها الناس إنما بغىكم على أنفسكم" يونس: 23، وقوله: "فمن نكث فإنما ينكث على نفسه" الفتح: 10، وقد كانت الكوفة لنا، والبصرة علينا، فأصبحنا على ما تحب، بين ماض مأجور، وراجع معذور، وإن بالشام الداء العضال، رجلاً لا يسلمها أبداً إلا مقتولاً أو مغلوباً، فعاجله قبل أن يعاجلك، وانبد إليه قبل الحرب.

ما أشار به الأشر على علي:

قال: وذكروا أن الأشر النخعي قام إلى علي، فقال: يا أمير المؤمنين، إنما لنا أن نقول قبل أن تقول، فإذا عزمت فلم نقل، فلو سرت بنا إلى الشام بهذا الحد والجد، لم يلقوك بمثله، فإن القلوب اليوم سليمة، والأبصار صحيحة، فبادر بالقلوب القسوة، وبالأبصار العمى.

كتاب علي إلى جرير بن عبد الله: قال: وذكروا أن علياً كتب إلى جرير بن عبد الله، وكان علي ثغر همدان، كان استعمله عليه عثمان، فكتب علي إليه مع زفر بن قيس: أما بعد، فإن الله "لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له، وما لهم من دونه من والٍ" الرعد: 11. ثم إني أخبرك عنا وعمن سرنا إليهم، من جمع طلحة والزبير، عند نكثهما ببيعتهما، وما صنعا بعاملي عثمان بن حنيف: إني هبطت من المدينة بالمهاجرين والأنصار، حتى إذا كنت ببعض الطريق، بعثت إلى الكوفة الحسن ابني، وعبد الله بن العباس بن عمي، وعمار بن ياسر، وقيس بن سعد بن عباد، فاستنفرتهم بحق الله ورسوله فأجابوا، وسرت بهم، حتى نزلت بظهر البصرة، فأعذرت في الدعاء، وأقلت في العثرة، وناشدتهم عقد بيعتهم، فأبوا إلا قتالي، فاستعنت الله عليهم، فقتل من قتل، وولوا مدبرين إلى مصرهم، فسألوني ما كنت دعوتهم إليه قبل اللقاء، فقبلت العافية، ورفعت عنهم السيف، واستعملت عليهم عبد الله بن عباس، وبعثت إليك زفر بن قيس فأسأله عنا وعنهم.

خطبة زفر بن قيس:

قال: وذكروا أنه لما قدم زفر على جرير بكتاب علي، وقرأه جرير، قام زفر، خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إن علياً كتب إليكم بكتاب لا يقول بعده إلا رجيعاً من القول، إن الناس بايعوا علياً بالمدينة غير محابة ببيعتهم، لعلمه بكتاب الله، ويرى الحق فيه، وإن طلحة والزبير نقضا بيعة علي على غير حدث، ثم لم يرضيا حتى نصبا له الحرب، وألبا عليه الناس. وأخرجنا أم المؤمنين عائشة من حجاب

ضربه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم عليها، فلقيهما فأعذر في الدعاء، وخشي البغي، وحمل الناس على ما يعرفون، فهذا عيان ما غاب عنكم. وإن سألتهم الزيادة زدناكم.

خطبة جرير بن عبد الله البجلي:

قال: وذكروا أن جرير بن عبد الله قام خطيباً. فحمد الله. فقال: أيها الناس. هذا كتاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. وهو المأمون على الدين والدنيا. وكان من. أمره وأمر عدوه ما قد سمعتم، فالحمد لله على أقضيته. وقد بايعه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والتابعون بإحسان، ولو جعل الله هذا الأمر شورى بين المسلمين لكان علي أحق بها، ألا وإن البقاء في الجماعة، والفناء في الفرقة، وعلي حاملكم على الحق ما استقمتم له، فإن ملتئم أقام ميلكم، قال الناس: سمعاً وطاعة، ورضانا رضا من بعدنا.

كتاب علي إلى الأشعث بن قيس:

قال: وذكروا أن علياً كتب إلى الأشعث بن قيس مع زياد بن كعب. والأشعث يومئذ بأذربيجان عاملاً لعثمان، كان استعمله عليها: أما بعد، فلولا هنات كن فيك كنت المقدم في هذا الأمر قبل الناس، فلعل أمراً يحمل بعضه بعضاً إن اتقيت الله، وقد كان من بيعة الناس إياي ما قد بلغك، وكان طلحة والزبير أول من بايعني، ثم نقضاً بيعتي على غير حدث، وأخرجنا أم المؤمنين إلى البصرة، فسرت إليهما في المهاجرين والأنصار، فالتقينا، فدعوتهما إلى أن يرجعا إلى ما خرجا منه، فأبيا. فأبلغت في الدعاء، وأحسنيت في البقاء، وإن عملك ليس لك بطعمة، ولكنه أمانة في عنقك، والمال مال الله، وأنت من خزائي عليه حتى تسلمه إلي إن شاء الله، وعلي أن لا أكون شر ولاتك.

خطبة زياد بن كعب:

قال: وذكروا أن الأشعث بن قيس لما قرأ كتاب علي، قام زياد بن كعب خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنه من لم يكفه القليل لم يكفه الكثير، وإن أمر عثمان لم ينفع فيه العيان، ولم يشف منه الخبر، غير أن من سمعه كمن عاينه، وإن المهاجرين والأنصار بايعوا علياً راضين به، وإن طلحة والزبير نقضاً بيعتي علي، على غير حدث، وأخرجنا أم المؤمنين على غير رضى، فسار إليهم، ولم ينلهم، فتركهم وما في نفسه منهم حاجة، فأورثه الله الأرض، وجعل له عاقبة المتقين.

خطبة الأشعث بن قيس:

قال: فقام الأشعث بن قيس خطيباً، فقال: أيها الناس، إن عثمان رحمه الله ولاي أذربيجان، وهلك وهي في يدي، وقد بايع الناس علياً، وطاعتنا له لازمة، وقد كان من أمره وأمر عدوه ما قد بلغكم، وهو المأمون على ما غاب عنا وعنكم من ذلك.

مشورة الأشعث ثقافته في اللحق بمعاوية إلى الشام:

قال: وذكروا أن الأشعث رجع إلى منزله، فدعا أهل ثقته من أصحابه، فقال لهم: إن كتاب علي جاعني، وقد أوحشني، وهو آخذي بمال أذربيجان وأنا لاحق بمعاوية، فقال القوم: الموت خير لك من ذلك، أتدع مصرك وجماعة قومك، وتكون ذنباً لأهل الشام؟.

كتاب جرير إلى الأشعث:

قال: وذكروا أن جريراً كتب إلى الأشعث: أما بعد. فإنه أتني بيعة علي فقبلتها. ولم أجد إلى دفعها سبيلاً، وإني نظرت فيما غاب عني من أمر عثمان، فلم أجد له يلزمي، وقد شهدته المهاجرون والأنصار، فكان أوثق أمرهم فيه الوقوف، فاقبل بيعته، فإنك لا تلتفت إلى خير منه. واعلم أن بيعة علي خير من مصارع أهل البصرة. وقد تحلب الناقة الضجور. ويجلس العود على البعير الدبر. فانظر لنفسك. والسلام.

إرسال علي جريراً إلى معاوية:

قال: وذكروا أن جريراً لما قدم على علي قال له: يا جرير. انطلق إلى معاوية بكتابي هذا، وكن عند ظني فيك، واعلم يا جرير أنك ترى من حولي من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والبدريين والعقبين. وإني اخترتك عليهم، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خير ذي يمن جرير"، فاذهب إلى معاوية بكتابي هذا ورسالي، فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون، وإلا فانبذ إليه بالحرب، وأعلمه أي لا أرضى به أميراً، والعام لا ترضى به. والياً، فقال جرير: إني لأكره أن أمنعك معونتي، وما أطمع لك في معاوية، ويصنع الله ما يشاء.

كتاب علي إلى معاوية مرة ثانية:

قال: وذكروا أن علياً كتب إلى معاوية مع جرير: أما بعد، فإن بيعتي بالمدينة. لزمك وأنت بالشام، لأنه بايعني الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوا، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يرد،

وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإذا اجتمعوا على رجل فسموه إماماً كان ذلك لله رضا، فإن خرج منهم خارج ردوه إلى ما خرج منه، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين، وأولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم. وساءت مصيراً. وإن طلحة والزبير بايعاني بالمدينة، ثم نقضاً بيعتهما، فكان نقضهما كركبتهما، فجاهدتهما بعدما أعذرت إليهما، حتى جاء الحق، وظهر أمر الله وهم كارهون، فادخل فيما دخل فيه المسلمون، فإن أحب أمورك إلي العافية، فإن تتعرض للبلاء قاتلتك، واستعنت بالله عليك، وقد أكثرت الكلام في قتلة عثمان، فادخل في الطاعة، ثم حاكم القوم إلي أحملك وإياهم على كتاب الله، فأما تلك التي تريدها فهي خدعة الصبي عن اللبن، ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك، لتجدي أبرأ الناس من دم عثمان، واعلم يا معاوية أنك من الطلقاء، الذين لا تحل لهم الخلافة، ولا تعقد معهم الإمامة، ولا تعرض فيهم الشورى، وقد بعثت إليك وإلى من قبلك جرير بن عبد الله، وهو من أهل الإيمان والمهجرة السابقة، فبايع، ولا قوة إلا بالله.

قدوم جرير إلى معاوية:

قال: وذكروا أن جريراً لما قدم على معاوية بكتاب علي قام جرير بالشام خطيباً، فقال: أيها الناس، إن أمر عثمان قد أعيا من شاهده، فما ظنكم بمن غاب عنه، وإن الناس بايعوا علياً، وإن طلحة والزبير كانا ممن بايع، ثم نقضاً بيعته، ألا وإن هذا الدين لا يحتمل الفتنة، ألا وإن هذا الدين لا يحتمل السيف. وقد كانت بالبصرة أمس روعة ملمة، إن يشفع البلاء بمثلها فلا بقاء للناس، وقد بايعت العامة علياً، ولو ملكنا أمرنا لم نختار لها غيره، فمن خالف هذا فقد استعجب فادخل يا معاوية فيما دخل الناس فيه، فإن قلت: إن عثمان ولاي ولم يعزلي، فإن هذا لو كان لم يقيم لله دين، وكان لكل امرئ ما هو فيه.

إشارة الناس على علي بالمقام بالكوفة:

قال: وذكروا أن علياً استشار الناس، فأشاروا عليه بالمقام بالكوفة عامه ذلك، غير الأشر النخعي، وعدي بن حاتم، وشريح بن هانئ، فإنهم قاموا إلى علي، فتكلموا بلسان واحد، فقالوا: إن الذين أشاروا عليك بالمقام، إنما خوفوك بحرب الشام، وليس في حربهم شيء أخوف من الموت ونحن نريده. فقال لهم: إن استعدادي لحرب أهل الشام، وجرير عندهم إغلاق للشام، وصرف لأهله عن خير إن أرادوه، ولكني قد وقت له وقتاً لا يقيم بعده إلا أن يكون مخدوعاً أو عاصياً، ولا أكره لكم الإعداد، وأبطأ جرير على علي بالشام حتى ينس منه، وإن جريراً لما أبطأ عليه معاوية برأيه، استحثه بالبيعة، فقال معاوية لجرير: يا جرير، إن البيعة ليست بخلسة، وإنه أمر له ما بعده. فأبلغني ريق.

مشورة معاوية أهل ثقته:

قال: وذكروا أن معاوية دعا أهل ثقته فاستشارهم، فقال عتبة بن أبي سفيان: استعن على هذا الأمر بعمر بن العاص، فإنه من قد عرفت، وقد اعتزل عثمان في حياته، وهو لأمر أشد اعتزالاً إلا أن ترضيه.

كتاب معاوية إلى عمرو بن العاص:

قال: وذكروا أن معاوية كتب إلى عمرو بن العاص وهو بفلسطين: أما بعد، فقد كان من أمر علي وطلحة والزبير ما قد بلغك، وقد سقط علينا مروان بن الحكم في رافضة من أهل البصرة، وقدم علي جرير بن عبد الله في بيعة علي، وقد حبست نفسي عليك، فاقدم على بركة الله، والسلام.

ما سأل معاوية من علي من الإقرار بالشام ومصر:

قال: وذكروا أن معاوية قال لجرير: إني قد رأيت رأياً. قال جرير: هات. قال: أكتب إلى علي أن يجعل لي الشام ومصر جباية، فإن حضرته الوفاة لم يجعل لأحد من بعده في عنقي بيعة، وأسلم إليه هذا الأمر، وأكتب إليه بالخلافة. قال جرير: أكتب ما شئت. وإنما أراد معاوية في طلبه الشام ومصر ألا يكون لعل في عنقه بيعة، وأن يخرج نفسه مما دخل فيه الناس، فكتب إلى علي يسأله ذلك، فلما أتى علياً كتاب معاوية عرف أنها خدعة منه.

كتاب علي إلى جرير بن عبد الله:

قال: وذكروا أن علياً كتب إلى جرير: أما بعد، فإن معاوية إنما أراد بما طلب ألا يكون لي في عنقه بيعة، وأن يختار من أمره ما أحب، وقد كان المغيرة بن شعبة أشار علي وأنا بالمدينة أن أستعمله على الشام، فأبيت ذلك عليه، ولم يكن الله لي رأي أتخذ المضلين عضداً، فإن بايعك الرجل، وإلا فأقبل.

استشارة عمرو بن العاص ابنه ومواليه:

قال وذكروا أنه لما انتهى إلى عمرو بن العاص كتاب معاوية وهو بفلسطين، استشار ابنه عبد الله ومحمداً، وقال: يا بني، إنه قد كان مني في أمر عثمان فلتات لم أستقبلها بعد، وقد كان من هروبي بنفسي حين ظننت أنه مقتول ما قد احتمله معاوية عني، وقد قدم على معاوية جرير ببيعة علي، وقد كتب إلي معاوية

بالقدوم عليه، فما تريان. فقال عبد الله وهو الأكبر: أرى والله أن نبي الله قبض وهو عنك راضٍ، والخليفان من بعده كذلك. وقتل عثمان وأنت غائب، فأقم في منزلك، فلست بمجوعاً خليفة، ولا تزيد على أن تكون حاشية لمعاوية على دنيا قليلة، أو شكتما أن تهلكا فتستويا فيها جميعاً. وقال محمد: أرى أنك شيخ قريش، وصاحب أمرها، فإن ينصرم هذا الأمر وأنت فيه غافل، يصغر أمرك، فالحق بجماعة أهل الشام، واطلب بدم عثمان، فإنك به تستميل إلى بني أمية. فقال عمرو: أما أنت يا عبد الله فأمرني بما هو خير لي في ديني، وأما أنت يا محمد فقد أمرني بما هو خير لي في دنياي. ثم دعا غلاماً له يقال له وردان، وكان داهياً، فقال له عمرو: يا وردان احطط، يا وردان ارحل، يا وردان احطط، يا وردان ارحل. فقال وردان: أما إنك إن شئت نبأتك بما في نفسك، فقال عمرو: هات يا وردان، فقال: اعتركت الدنيا والآخرة على قلبك، فقلت: مع علي الآخرة بلا دنيا، ومع معاوية الدنيا بغير آخرة، فأنت واقف بينهما. فقال عمرو: ما أخطأت ما في نفسي، فما ترى يا وردان؟ فقال: أرى أن تقيم في منزلك، فإن ظهر أهل الدين عشت في عفو دينهم، وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك، فقال عمرو: الآن حين شهرتني العرب بمسيري إلى معاوية؟

قدوم عمرو إلى معاوية:

قال: وذكروا أن عمرو بن العاص لما قدم إلى معاوية، وعرف حاجته إليه باعده من نفسه، وكايد كل واحد منهما صاحبه، فقال عمرو لمعاوية: أعطني مصر، فتلكأ معاوية وقال: ألم تعلم أن مصر كالشام؟ قال: بلى ولكنها إنما تكون لي إذا كانت لك، وإنما تكون لك إذا غلبت علياً على العراق. وقد بعث أهلها بطاعتهم إلى علي. فدخل عتبة بن أبي سفيان على معاوية، فقال: أما ترضى أن تشتري عمراً بمصر إن هي صفت لك؟ ليتك لا تغلب على الشام. فلما سمع معاوية قول عتبة بعث إلى عمرو، فأعطاه مصر، ولما كتب معاوية لعمرو بمصر، كتب في أسفل الكتاب: ولا ينقض شرط طاعة. وكتب عمرو، ولا تنقض طاعة شرطاً، وكايد كل واحد منهما صاحبه، وكان مع عمرو بن العاص بن أخ له، جاءه من مصر؟ فلما جاء عمرو بالكتاب مسروراً به، عجب بن أخيه من سروره، فقال: يا عمرو ألا تخبرني بأي رأي تعيش في قريش وقد أعطيت دينك غيرك؟ أترى أهل مصر وهم قتلة عثمان يدفعونها إلى معاوية وعلي حي؟ أو تراها إن صارت إلى معاوية لا يأخذك بالجدل الذي قدمه؟ فقال عمرو: يا بن أخي، إنه لأمر الله دون معاوية وعلي. يا بن أخي لو كنت مع علي وسعني بيتي، ولكني مع معاوية. فقال الفتى: إنك لم ترد معاوية، ولكنك تريد دنياه، ويريد دينك. فبلغ معاوية قول الفتى فطلبه فهرب، فلحق بعلي، وحدث علياً بأمر معاوية وعمرو، وما قاله، فسر علي بذلك، وقربه.

مشورة معاوية عمراً رضي الله عنهما:

قال: وذكروا أن معاوية قال لعمر: يا أبا عبد الله، طرقتني في ليلتي هذه ثلاثة أخبار، ليس فيها ورد ولا صكر، منها أن بن أبي حذيفة كسر سجن مصر، ومنها أن قيصر زحف بجماعة الروم ليغلب على الشام، ومنها أن علياً قد تهيأ للمجيء إلينا، فما عندك؟ قال عمرو: كل هذا عظيم، أما بن أبي حذيفة فخرج في أشباهه من الناس، فإن تبعث إليه رجلاً يقتله، وإن يقتل فلا يضرك؟ وأما قيصر فأهد له من وصائف الروم ومن الذهب والفضة، واطلب إليه المودة، تجده إليها سريعاً؟ وأما علي فوالله إن له في الحرب لحظاً ما هو لأحد من الناس، وإنه لصاحب الأمر. قال معاوية: صدقت، ولكني أقاتله على ما بأيدينا، ونلزمه دم عثمان. فقال عمرو: واسوأته، إن أحق الناس ألا يذكر عثمان لأننا ولأنت، قال معاوية: ولم؟ فقال عمرو: أما أنت فخذلته ومعك أهل الشام، واستغاثك فأبطأت عليه، وأما أنا فتركته عياناً، وهربت إلى فلسطين. قال معاوية: دعني من هذا، هلم فبايعني. فقال عمرو: لا والله ولا أعطيك من ديني حتى آخذ من دنياك، قال معاوية: صدقت، سل تعط، قال عمرو: مصر طعمة. فغضب مروان بن الحكم، وقال: ما بالي لا أشتري، فقال معاوية: اسكت يا بن عم، فإنما يشتري لك الرجال. فكتب معاوية لعمر: مصر طعمة.

كتاب معاوية إلى أهل مكة والمدينة وجوابهما:

قال: وذكروا أن معاوية قال لعمر: إني أريد أن أكتب إلى أهل مكة والمدينة كتاباً أذكر فيه قتل عثمان، فيما أن ندرك به حاجتنا، أو نكفهم عن المسير. فقال له عمرو: إلى من تكتب. قال: إلى ثلاثة نفر: رجل لعلي لا يريد غيره، ولا يزيد كتابنا فيه إلا بصيرة، أو رجل يهوى عثمان، فلا يزيد على ما هو عليه، أو رجل معتزل لا يريد القتال. قال عمرو: على ذلك؟ قال: نعم. قال: اكتب، فكتب إلى أهل مكة والمدينة: أما بعد، فإنه مهما غاب عنا فإنه لم يفت علينا أن علياً قتل عثمان، والدليل على ذلك أن قتلته عنده، وإنما نطلب بدمه حتى يدفع إلينا قتلته، فنقتلهم بكتاب الله تعالى، فإن دفعهم إلينا كففنا عنه، وجعلناها شورى بين المسلمين، على ما جعلها عمر بن الخطاب، فأما الخلافة فلسنا نطلبها، فأعينونا يرحمكم الله، وأنهمضوا من ناحيتكم.

جوابهما:

قال: وذكروا أنه لما قرأ عليهم كتابه اجتمع رأيهم على أن يسندوا أمرهم إلى المسور بن مخرمة، فجاوب عنهم، فكتب إليه: أما بعد، فإنك أخطأت خطأ عظيماً، وأخطأت مواضع النصر، وتناولتها من مكان بعيد، وما أنت والخلافة يا معاوية، وأنت طليق، وأبوك من الأحزاب. فكف عنا، فیس لك قبلنا ولي ولا نصير.

كتاب معاوية إلى ابن عمر:

قال: وذكروا أن معاوية كتب إلى بن عمر كتاباً خاصاً، دون كتابه إلى أهل المدينة: أما بعد، فإنه لم يكن أحد من قريش أحب إلي أن يجتمع الناس عليه منك بعد عثمان، فذكرت خذلك إياه، وطعنك على أنصاره، فتغيرت لك، وقد هون ذلك علي خلافتك علي، وطعنك عليه، وردني إليك بعض ما كان منك، فأعنا يرحمك الله على حق هذا الخليفة المظلوم، فإني لست أريد الإمارة عليك، ولكني أريدها لك، فإن أبيت كانت شورى بين المسلمين.

جوابه:

فكتب إليه عبد الله بن عمر: أما بعد، فإن الرأي الذي أطمعك في هذا هو الذي صيرك إلى ما صيرك. تركتُ علياً من المهاجرين والأنصار، وتركت طلحة والزبير، ومائشة، وأتبعك فيمن اتبعك؟! وأما قولك إني طعنت على علي فلعمري ما أنا كعلي في الإسلام والهجرة، ومكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن أحدث أمراً لم يكن إلينا فيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد، ففزعت إلى الوقوف، وقلت: إن كان هذا فضلاً تركته، وإن كان ضلالة فشر منه نجوت، فأغن عن نفسك.

كتاب معاوية إلى سعد بن أبي وقاص:

قال: وذكروا أن معاوية كتب إلى سعد بن أبي وقاص: أما بعد، فإن أحق الناس بنصرة عثمان أهل الشورى، والذين أثبتوا حقه، واختاروه على غيره، وقد نصره طلحة والزبير، وهما شريكاك في الأمر والشورى، ونظيراك في الإسلام، وخفت لذلك أم المؤمنين، فلا تكرهن ما رضوا، ولا تردن ما قبلوا، فإنما نردها شورى بين المسلمين.

جواب سعد بن أبي وقاص لمعاوية:

قال: وذكروا أن سعداً كتب إليه: أما بعد، فإن أهل الشورى ليس منهم أحق بها من صاحبه، غير أن علياً كان من السابقة، ولم يكن فينا ما فيه، فشاركنا في محاسننا، ولم نشاركه في محاسنه، وكان أحقنا كلنا بالخلافة، ولكن مقادير الله تعالى التي صرفتها عنه، حيث شاء لعلمه وقدره. وقد علمنا أنه أحق بها منا، ولكن لم يكن بد من الكلام في ذلك والتشاجر، فدع ذا. وأما أمرك يا معاوية، فإنه أمر كرهنا أوله وآخره. وأما طلحة والزبير فلو لزمنا بيوتهما لكان خيراً لهما. والله تعالى يغفر لعائشة أم المؤمنين.

كتب معاوية إلى محمد بن مسلمة الأنصاري:

وكان فارس الأنصار رضي الله عنهم، وذا النجدة فيهم: أما بعد، فإني لم أكتب إليك وأنا أرجو مبايعتك، ولكني أذكرك النعمة التي خرجت منها، إنك كنت فارس الأنصار، وعدة المهاجرين، فادعيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمراً لم تستطع فيه الإمضاء، فهذا أعني، وعن قتال أهل الصلاة. فهلا نهيته أهل الصلاة عن قتل بعضهم بعضاً. أو ترى أن عثمان وأهل الدار ليسوا بمسلمين. وأما قومك الأنصار فقد عصوا الله تعالى، وخذلوا عثمان، وسائلهم وسائلك الله تعالى عن الذي كان يوم القيامة.

جوابه:

قال: وذكروا أن محمد بن مسلمة كتب إليه: أما بعد، فقد اعتزل هذا الأمر من ليس في يده من رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل الذي في يدي، وقد أخبرت بالذي هو كائن قبل أن يكون، فلما كان كسرت سيفي، ولزمت بيتي، واتهمت الرأي على الدين، إذ لم يصح لي معروف أمر به، ولا منكر أنهى عنه، ولعمري يا معاوية ما طلبت إلا الدنيا، ولا اتبعت إلا الهوى، ولئن كنت نصرت عثمان ميتاً، لقد خذلته حياً، ونحن ومن قبلنا من المهاجرين والأنصار أولى بالصواب.

قال: فلما أجاب القوم معاوية بما أجابوه، من الخلاف إلى ما دعاهم إليه قال له عمرو: كيف رأيت يا معاوية رأيي ورأيك، أخبرتك بالأمر قبل أن يقع، قال معاوية: رجوت ما خفت.

كتاب معاوية إلى علي رضي الله عنه:

قال: وذكروا أن معاوية كتب إلى عليّ. أما بعد، فلعمري لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت بريء من دم عثمان، كنت كأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، ولكنك أغريت بعثمان المهاجرين، وخذلت عنه الأنصار، فأطاعك الجاهل، وقوي بك الضعيف، وقد أبى أهل الشام إلا قتالك، حتى تدفع إليهم قتلة

عثمان، فإذا دفعتهم كانت شورى بين المسلمين، وقد كان أهل الحجاز الحكام على الناس وفي أيديهم الحق، فلما تركوه صار الحق في أيدي أهل الشام، ولعمري ما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة، ولا حجتك على طلحة والزبير، لأن أهل البصرة بايعوك، ولم يبايعك أحد من أهل الشام، وإن طلحة والزبير بايعاك ولم أبايعك. وأما فضلك في الإسلام، وقرابتك من النبي عليه الصلاة والسلام، فلعمري ما أدفعه ولا أنكره.

جواب عليٍّ إلى معاوية:

قالوا: فكتب إليه عليٌّ: أما بعد، فقد جاءني منك كتاب امرئ ليس له بصر يهديه، ولا قائد يرشده، دعاه الهوى فأجابه، وقاده فاستقاده. زعمت أنك إنما أفسد عليك بيعتي خطيئتي في عثمان، ولعمري ما كنت إلا رجلاً من المهاجرين، أوردت كما أوردوا وأصدرت كما أصدروا، وما كان الله ليجمعهم على الضلال، ولا ليضرهم بالعمى، وما أمرت فيلزميني خطيئة عثمان، ولا قتلت فيلزميني قصاص القاتل. أما قولك إن أهل الشام هم الحكام على الناس، فهات رجلاً من قريش الشام يقبل في الشورى، أو تحل له الخلافة، فإن سميت كذبتك المهاجرون والأنصار، وإلا أتيتك به من قريش الحجاز. وأما قولك ندفع إليك قتلة عثمان فما أنت وعثمان؟ إنما أنت رجل من بني أمية، وبنو عثمان أولى بعثمان منك، فإن زعمت أنك أقوى على ذلك، فادخل في الطاعة، ثم حاكم القوم إلي. وأما تمييزك بين الشام والبصرة وذكرك طلحة والزبير، فلعمري ما الأمر إلا واحد، إنها بيعة عامة، لا ينشئ عنها البصير، ولا يستأنف فيها الخيار، وأما ولوعك بي في أمر عثمان، فوالله ما قلت ذلك عن حق العيان ولا عن يقين الخبر، وأما فضلي في الإسلام، وقرابتي من رسول الله عليه الصلاة والسلام، وشرفي في قريش، فلعمري لو استطعت دفعه لدفعته.

قدوم عبيد الله بن عمر على معاوية:

قال: وذكروا أن عبيد الله بن عمر قدم على معاوية الشام، فسر به سروراً شديداً وسر به أهل الشام، وكان أشد قريش سروراً به عمرو بن العاص فقال معاوية لعمرو: ما منع عبد الله أن يكون كعبيد الله؟ فضحك عمرو، وقال: شبهت غير شبيهه، إنما أتاك عبيد الله مخافة أن يقتله علي بقتله الهرمزان، ورأى عبد الله ألا يكون عليك ولا لك، ولو كان معك لنفعلك أو عليك لضرك.

تعبئة معاوية أهل الشام لقتال علي:

قال: وذكروا أن معاوية بعث إلى رؤساء أهل الشام، فجمعهم ثم قال: أنتم أهل الفضل، فليقم كل رجل منكم يتكلم، فقام رجل فقال: أما والله لو شهدنا أمر عثمان، فعرفنا قتلته بأعيانهم لاستغينا عن إخبار الناس، ولكننا نصدقك على ما غاب عنا، وإن أبغض الناس إلينا من يقاتل علي بن أبي طالب لقدمه في الإسلام، وعلمه بالحرب.

ثم قام حوشب فقال: والله ما إياك ننصر، ولا لك نغضب، ولا عنك نحامي، ما ننصر إلا الله، ولا نغضب إلا للخليفة، ولا نحامي إلا عن الشام، فلف الخيل بالخييل، والرجال بالرجال، وقد دعونا قومنا إلى ما دعوتنا إليه أمس، وأمرناهم بما أمرتنا به، فجعلوك بيننا وبين الله، ونحن بينك وبينهم، فمرنا بما تحب، وأنهنما عما تكره.

قال: فلما عزم معاوية على المسير إلى صفين عبأ أهل الشام، فجعل على مقدمته أبا الأعور السلمي، وعلى ساقته بسر بن أرطاة، وعلى الخيل عبيد الله بن عمر، ودفع اللواء إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وعلى الميمنة يزيد العبسي، وعلى الميسرة عبد الله بن عمرو بن العاص، ثم قال: يا أهل الشام، إنكم قد سرتتم لتمنعوا الشام، وتأخذوا العراق، ولعمري ما للشام رجال العراق وأموالها، ولا لأهل العراق بصر أهل الشام ولا بصائرهم، مع أن القوم بعدهم غيرهم مثلهم، وليس بعدكم غيركم، فإن غلبتموهم فلم تغلبوا إلا من قد أتاكم، إن غلبوكم عاقبوا من بعدكم، والقوم لاقوكم ببصائر أهل الحجاز، ورقة أهل اليمن، وقسوة أهل مصر، وكيد أهل العراق، وإنما يبصر غداً من أبصر اليوم، فاستعينوا بالصبر والصلاة، إن الله مع الصابرين.

ثم سار معاوية في ثلاثة آلاف وثمانين ألفاً حتى نزل بصفين، وذلك في نصف محرم، وسبق إلى سهولة الأرض، وسعة المناخ، وقرب الفرات، وكتب إلى علي يخبره بمسيره.

تعبئة أهل العراق للقتال

قال: وذكروا أن علياً لما بلغه تأهب معاوية قال: أيها الناس، إنما بايع معاوية أهل الشام، وليس له غيرهم ولي ولا نصير، وإنكم أهل الحجاز، وأهل العراق، وأهل اليمن، وأهل مصر، وقد جعل القوم معاوية بينهم وبين الله، وليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة، وقد وادع القوم الروم، فإن غلبتموهم استعانوا بهم، ولحقوا بأرضهم، وإن غلبوكم فالغاية الموت، والمفر إلى الله العزيز الحكيم. وقد زعم معاوية أن أهل الشام أهل صبر ونصر، ولعمري لأنتم أولى بذلك منهم، لأنكم المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان، وإنما الصبر اليوم، والنصر غداً.

قال: فجند الناس ونشطوا وتأهبوا، فسار علي بالناس من الكوفة في مئة ألف وتسعين ألفاً، فجعل على

المقدمة الأشتر النخعي، وعلى ساقته شريح بن هانيء، وعلى المهاجرين والأنصار محمد بن أبي بكر، وعلى أهل البصرة عبد الله بن عباس، وعلى الكوفة عبد الله بن جعفر، وعلى جماعة الخيل عمار بن ياسر، وعلى القلب الحسن بن علي، وسار علي حتى نزل صفين، وقد سبقه معاوية إلى سهولة الأرض. وسعة المناخ، وقرب الفرات.

منع معاوية الماء من أصحاب علي:

قال: وذكروا أنه لما نزل معاوية بصفين، بعث أبا الأعور بمن معه، ليحولوا بينهم وبين الفرات، وأن أهل العراق لما نزلوا بعثوا غلمانهم ليستقوا لهم من الفرات، فحالت خيل معاوية بينهم وبين الماء، فانصرفوا، فساروا إلى علي، فأخبروه فقال علي للأشعث: اذهب إلى معاوية، فقل له: إن الذي جئنا له غير الماء، ولو سبقناك إليه لم نحل بينك وبينه، فإن شئت خلعت عن الماء، وإن شئت تناجزنا عليه وتركنا ما جئنا له. فانطلق الأشعث إلى معاوية، فقال له: إنك تمنعنا الماء وأيم الله لنشربنه، فمرهم يكفوا عنه قبل أن تغلب عليه، والله لا نموت عطشاً وسيوفنا على رقابنا. فقال معاوية لأصحابه: ما ترون؟ فقال رجل منهم: نرى أن نقتلهم عطشاً، كما قتلوا عثمان ظلماً. فقال عمرو بن العاص: لا تظن يا معاوية أن علياً يظماً وأعنة الخيل بيده، وهو ينظر إلى الفرات، حتى يشرب أو يموت دونه، خل عن القوم يشربوا. فقال معاوية: هذا والله أول الظفر، لا سقاني الله من حوض الرسول إن شربوا منه، حتى يغلبوني عليه. فقال عمرو: وهذا أول الجور، أما تعلم أن فيهم العبد والأجير والضعيف ومن لا ذنب له؟ لقد شجعت الجبان، وحملت من لا يريد قتالك على قتالك.

غلبة أصحاب علي على الماء:

قال: وذكروا أن معاوية لما غلب على الماء اغتم علي لما فيه الناس من العطش، فخرج ليلاً والناس يشكون بعضهم إلى بعض، مخافة أن يغلب أهل الشام على الماء، فقال الأشعث: يا أمير المؤمنين، أئمنعنا القوم الماء وأنت فينا ومعنا السيوف؟ اخل عنا وعن القوم، فوالله لا أرجع إليك حتى أردده، أو أموت دونه، وأمر الأشتر أن يعلو الفرات في الخيل، حتى أمره بأمره. فقال علي: ذلك لك. فانصرف الأشعث، فنادى في الناس: من كان يريد الماء فميعاده الصبح، فإني ناهض إلى الماء، فأجابه بشر كثير، فتقدم الأشعث في الرحالة، والأشتر في الخيل، حتى وقفا على الفرات، فلم يزل الأشعث في الرحالة يمضي، حتى خالط القوم، ثم حسر عن رأسه، فنادى: أنا الأشعث بن قيس، خلوا عن الماء. فقال أبو الأعور: أما والله

قبل أن تأخذنا وإياكم السيوف فلا. فقال الأشعث: أظنها والله قد دنت منا ومنكم. قال: وبعث الأشعث. إلى الأشر أن أقحم الخيل، فأقحمها الأشر، حتى وضع سنانها في الفرات، وحمل الأشر في الرجالة، فأخذت القوم السيوف فانكشف أبو الأعور وأصحابه، وبعث الأشر إلى علي: هلم يا أمير المؤمنين، قد غلب الله لك على الماء، فلما غلب أهل العراق على الماء، شمت عمرو بن العاص بمعاوية، وقال: يا معاوية، ما ظنك إن منعك علي الماء اليوم كما منعه أمس؟ أترك ضاربهم كما ضربوك؟ فقال: دع ما مضى عنك فإن علياً لا يستحل منك ما استحلت منه، وإن الذي جاء له غير الماء.

دعاء علي معاوية إلى البراز:

قال: وذكروا أن الناس مكثوا بصفين أربعين ليلة: يغدون إلى القتال ويروحون، فأما القتال الذي كان فيه الفناء فثلاثة أيام. فلما رأى علي كثرة القتال والقتل في الناس، برز يوماً من الأيام ومعاوية فوق التل، فنادى بأعلى صوته: يا معاوية فأجابه فقال: ما تشاء يا أبا الحسن؟ قال علي: علام يقتل الناس ويذهبون؟ على ملك إن نلتك كان لك دونهم؟ وإن نلتك أنا كان لي دونهم؟ أبرز إلي ودع الناس، فيكون الأمر لمن غلب. قال عمرو بن العاص: أنصفك الرجل يا معاوية. فضحك معاوية وقال: طمعت فيها يا عمرو، فقال عمرو: والله ما أراه يجمل بك إلا أن تبارزه. فقال معاوية: ما أراك إلا مازحاً، نلقاه بجمعنا.

براز عمرو بن العاص لعلي

قال: وذكروا أن عمراً قال لمعاوية: أتجن عن علي، وتتهمني في نصيحتي إليك؟ والله لأبارزن علياً ولو مت ألف موة في أول لقائه. فبارزه عمرو، فطعنه علي فصرعه، فاتقاه بعورته فانصرف عنه علي، وولى بوجهه دونه. وكان علي رضي الله عنه لم ينظر قط إلى عورة أحد، حياء وتكرماً، وتترهاً ما لا يحل ولا يجمل بمثله، كرم الله وجهه.

قطع الميرة عن أهل الشام:

قال: وذكروا أن علياً دعا زجر بن قيس، فقال له: سر في بعض هذه الخيل إلى القطقطانة، فاقطع الميرة عن معاوية، ولا تقتل إلا من يحل لك قتله، وضع السيف موضعه، فبلغ ذلك معاوية، فدعا الضحاك بن قيس، فأمره أن يلقي زجر بن قيس فيقاتله، فسار الضحاك فلقية زجر فهزمه، وقتل من أصحابه، وقطع الميرة عن أهل الشام، ورجع الضحاك إلى معاوية منهزماً، فجمع معاوية الناس، فقال: أتاني خبر من ناحية

من نواحي، أمر شديد، فقالوا: يا أمير المؤمنين، لسنا في شيء مما أتاك؛ إنما علينا السمع والطاعة، وبلغ علياً قول معاوية وقول أهل الشام، فأراد أن يعلم ما رأي أهل العراق، فجمعهم، فقال: أيها الناس إنه أتاني خبر من ناحية من نواحي. فقال بن الكواء وأصحابه: إن لنا في كل أمر رأياً، فما أتاك فأطلعنا عليه، حتى نشير عليك. فبكى علي، ثم قال: ظفر والله بن هند باجتماع أهل الشام له، واختلافكم علي، والله ليغلبن باطله حقكم، إنما أتاني أن زجر بن قيس ظفر بالضحاك، وقطع الميرة، وأتى معاوية هزيمة صاحبه، فقال: يا أهل الشام، إنه أتاني أمر شديد، فقلدوه أمرهم، واختلفتم علي. فقام قيس بن سعد، فقال: أما والله لنحن كنا أولى بالتسليم من أهل الشام.

قدوم أبي هريرة وأبي الدرداء على معاوية وعلي:

قال: وذكروا أن أبا هريرة وأبا الدرداء قدما على معاوية من حمص، وهو بصفين، فوعظاه وقالاه: يا معاوية، علام تقاتل علياً وهو أحق بهذا الأمر منك في الفضل والسابقة؟ لأنه رجل من المهاجرين الأولين، السابقين بإحسان، وأنت طليق، وأبوك من الأحزاب. أما والله ما نقول لك أن تكون العراق أحب إلينا من الشام، ولكن البقاء أحب إلينا من الفناء، والصلاح أحب إلينا من الفساد. فقال معاوية: لست أزعم أني أولى بهذا الأمر من علي، ولكني أقاتله حتى يدفع إلي قتلة عثمان. فقالا: إذا دفعهم إليك ماذا يكون؟ قال: أكون رجلاً من المسلمين، فأتيا علياً فإن دفع إليكما قتلة عثمان جعلتها شوري. فقدموا على معسكر علي، فأتاهما الأشر، فقال: يا هذان إنه لم يترككما الشام حب معاوية، وقد زعمتما أنه يطلب قتلة عثمان، فعمن أخذتما ذلك فقبلتماه؟ أعمن قتله فصدقتموهما على الذنب، كما صدقتموهما على القتل؟ أم عمن نصره، فلا شهادة لمن جر إلى نفسه، أم عمن اعتزلوا، إذ علموا ذنب عثمان وقد علموا ما الحكم في قتله. أم عن معاوية وقد زعم أن علياً قتله. اتقيا الله، فإننا شهدنا وغبتما، ونحن الحكماء على من غاب. فانصرفا ذلك اليوم، فلما أصبحا أتيا علياً، فقالا له: إن لك فضلاً لا يدفع، وقد سرت مسير فتى إلى سفيه من السفهاء، ومعاوية يسألك أن تدفع إليه قتلة عثمان، فإن فعلت ثم قاتلك كنا معك. قال علي: أتعرفانهم؟ قالوا: نعم. قالوا: فخذاهم، فأتيا محمد بن أبي بكر، وعمار بن ياسر، والأشر، فقالوا: أنتم من قتلة عثمان وقد أمرنا بأخذكم، فخرج إليهما أكثر من عشرة آلاف رجل، فقالوا: نحن قتلنا عثمان، فقالوا: نرى أمراً شديداً ألبس علينا الرجل. وإن أبا هريرة وأبا الدرداء انصرفا إلى مترهما بحمص، فلما قدما حمص لقيهما عبد الرحمن بن عثمان، فسألهم عن مسيرهما، فقصا عليه القصة، فقال: العجب منكما أنكما من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما والله لئن كففتما أيديكما ما كففتما ألسنتكما، أتأتيان علياً وتطلبان إليه قتلة عثمان وقد علمتما أن المهاجرين والأنصار لو حرموا دم عثمان نصره،

وبايعوا علياً على قتلته، فهل فعلوا؟ وأعجب من ذلك رغبتكما عما صنعوا، وقولكما لعلي: اجعلها شوري، واخلعها من عنقك، وإنكما لتعلمان أن من رضي بعلي خير ممن كرهه، وأن من بايعه خير ممن لم يبايعه، ثم صرنا رسولي رجل من الطلقاء، لا تحل له الخلافة، ففشا قوله وقولهما، فهم معاوية بقتله، ثم راقب فيه عشيرته.

وقوع عمرو بن العاص في علي:

وذكروا أن رجلاً من همدان يقال له برد قدم على معاوية، فسمع عمراً يقع في علي، فقال له: يا عمرو، إن أشياخنا سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من كنت مولاه فعلي مولاه، فحق ذلك أم باطل؟ فقال عمرو: حق، وأنا أزيدك أنه ليس أحد من صحابة رسول الله له مناقب مثل مناقب علي، ففرع الفتى، فقال عمرو: إنه أفسدها بأمره في عثمان، فقال برد: هل أمر أو قتل؟ قال: لا، ولكنه آوى ومنع. قال: فهل بايعه الناس عليها؟ قال: نعم. قال: فما أخرجك من بيعته؟ قال: اتهمي إياه في عثمان. قال له: وأنت أيضاً قد اتهمت؟ قال: صدقت فيها خرجت إلى فلسطين، فرجع الفتى إلى قومه فقال: إنا آتيناه قوماً أخذنا الحجة عليهم من أفواههم. علي على الحق فاتبعوه.

كتاب معاوية إلى أبي أيوب الأنصاري:

قال: وذكروا أن معاوية كتب إلى أبي أيوب الأنصاري، وكان أشد الأنصار على معاوية: أما بعد، فإنني ناسيتك ما لا تنسى الشيباء. فلما قرأ كتابه أتى به علياً، فأقرأه إياه، قال علي: يعني بالشيباء المرأة الشمطاء لا تنسى ثكل ابنها، فأنا لا أنسى قتل عثمان. فكتب إليه أبو أيوب: إنه لا تنسى الشيباء ثكل ولدما، وضربتها مثلاً لقتل عثمان، فما نحن وقتلة عثمان؟ إن الذي تربص بعثمان، وثبط أهل الشام عن نصرته لأنت، وإن الذين قتلوه غير الأنصار، والسلام.

ما خاطب به النعمان بن بشير قيس بن سعد:

قال: وذكروا أن النعمان بن بشير الأنصاري وقف بين الصفيين، فقال: يا قيس بن سعد، أما أنصافكم من دعاكم إلى ما رضي لنفسه، إنكم يا معشر الأنصار أخطأتم في خذل عثمان يوم الدار، وقتلكم أنصاره يوم الجمل، وإقحامكم على أهل الشام بصفيين، فلو كنتم إذ خذلت عثمان خذلت علياً، كان هذا بهذا، ولكنكم خذلتهم حقاً، ونصرتهم باطلاً، ثم لم ترضوا أن تكونوا كالناس، حتى أشعلتم الحرب، ودعوتهم إلى

البراز، فقد والله وجدتم رجال الحرب من أهل الشام سراعاً إلى برازكم، غير أنكاس عن حربكم، ثم لم يتزل بعلي أمر قط إلا هونتم عليه المصيبة، ووعدتموه الظفر، وقد والله أخلفتموه، وهان عليكم بأسكم، وما كنتم لتخلوا به أنفسكم، من شدتكم في الحرب، وقدرتكم على عدوكم، وقد أصبحتم أذلاء على أهل الشام، لا يرون حربكم شيئاً، وأنتم أكثر منهم عدداً وممداً، وقد والله كاثروكم بالقلعة، فكيف لو كانوا مثلكم في الكثرة؟ والله لا تزالون أذلاء في الحرب بعدها أبداً، إلا أن يكون معكم أهل الشام، وقد أخذت الحرب منا ومنكم ما قد رأيتم، ونحن أحسن بقية، وأقرب إلى الظفر، فاتقوا الله في البقية. فضحك قيس وقال: والله ما كنت أراك يا نعمان تجترئ على هذا المقام، أما المنصف الحق فلا ينصح أخاه من غش نفسه، وأنت والله الغاش لنفسه، المبطل فيمن انتصح غيره، أما ذكرك عثمان فإن كان الإيجاز يكفيك فخذه، قتل عثمان من لست خيراً منه، وخذله من هو خير منك، وأما أصحاب الجمل فقاتلناهم على النكث، وأما معاوية فلو اجتمعت العرب على بيعته لقاتلتهم الأنصار، وأما قولك: إنا لسنا كالناس، فنحن في هذه الحرب كما كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نتقي السيوف بوجوهنا، والرماح بنحورنا، حتى جاء الحق وظهر أمر الله، وهم كارهون. ولكن انظر يا نعمان: هل ترى مع معاوية إلا طليقاً أعرابياً، أو يمانياً مستدرجاً؟ وانظر أين المهاجرون والأنصار، والتابعون بإحسان، الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه؟ ثم انظر هل ترى مع معاوية غيرك وغير صويجبك، ولستما والله بدريين، ولا عقبيين ولا أحدين، ولا لكما سابقة في الإسلام، ولا آية في القرآن.

كتاب عمرو إلى ابن عباس:

قال: وذكروا أن معاوية قال لعمرو بن العاص: إن رأس أهل العراق مع علي عبد الله بن عباس، فلو ألقيت إليه كتاباً ترفق فيه، فإن قال شيئاً لم يخرج منه علي، وقد أكلتنا هذه الحرب، ولا أرانا نطيق العراق إلا بهلاك الشام. فقال له عمرو: إن بن عباس لا يخذع، ولو طمعت فيه طمعت في علي. قال معاوية: على ذلك. فكتب عمرو إلى بن عباس: أما بعد، فإن الذي نحن وأنت فيه ليس أول أمر قاده البلاء، وساقته العافية، وإنك رأس هذا الجمع بعد علي؛ فانظر فيما بقي بغير ما مضى، فوالله ما أبقت هذه الحرب لنا ولا لكم حياة ولا صبراً. واعلم أن الشام لا تهلك إلا بهلاك العراق، وأن العراق لا تهلك إلا بهلاك الشام، فما خيرنا بعد أعدادنا منكم؟ وما خيركم بعد أعدادكم منا؟ ولسنا نقول: ليت الحرب عادت، ولكننا نقول: ليتها لم تكن. وإن فينا لمن يكره البقاء كما فيكم، وإنما هما ثلاثة: أمير مطاع، أو

مأمور مطيع، أو مشاور مأمون. فأما العاصي السفیه فليس بأهل أن يدعى في ثقات أهل الشورى، ولا خواص أهل النجوى.

جواب عبد الله بن عباس إلى عمرو بن العاص:

قال: وذكروا أنه لما انتهى كتاب عمرو إلى بن عباس، أتى به إلى علي، فأقرأه إياه، فقال علي: قاتل الله بن العاص، أجبته. فكتب إليه: أما بعد، فإني لا أعلم رجلاً أقل حياء منك في العرب، إنك مال بك الهوى إلى معاوية، وبعته دينك بالثمن الأوكس، ثم خبطت الناس في عشواء، طمعاً في هذا الملك، فلما ترامينا، أعظمت الحرب والرماء إعظام أهل الدين، وأظهرت فيها كراهية أهل الورع، لا تريد بذلك إلا تمهيد الحرب، وكسر أهل الدين، فإن كنت تريد الله فذع مصر، وارجع إلى بيتك، فإن هذه حرب ليس فيها معاوية كعلي، بدأها علي بالحق، وانتهى فيها إلى العذر، وبدأها معاوية بالبغي، وانتهى فيها إلى السرف، وليس أهل الشام فيها كأهل العرق، بايع أهل العراق علياً وهو خير منهم، وبايع أهل الشام معاوية وهم خير منه، ولست أنا وأنت فيها سواء، أردتُ الله، وأنت أردتَ مصر، وقد عرفت الشيء الذي باعدك مني، ولا أعرف الشيء الذي قربك من معاوية، فإن ترد شراً لا تفتننا به، وإن ترد خيراً لا تسبقنا إليه.

أمر معاوية مروان بحرب الأشر:

قال: وذكروا أن معاوية دعا مروان بن الحكم، فقال: يا مروان، إن الأشر قد غمني، فاحرج بهذه الخيل، فقاتله بها غداً. فقال مروان: ادع لها عمراً، فإنه شعارك دون دثارك. قال معاوية: وأنت نفسي دون وزير. قال مروان: لو كنت كذلك ألحقتني به في العطاء، وألحقته بي في الحرمان، ولكنك أعطيته ما في يدك، ومنيتني ما في يدي غيرك، فإن غلبت طاب المقام، وإن غلبت خف عليك المهرب. قال معاوية: يغني الله عنك، قال: أما اليوم فلا. فدعا معاوية عمراً، فأمره بأمره، فقال: أما والله لئن فعلت لقد قدمتي كافياً، وأدخلتني ناصحاً، وقد غمك القوم في مصر، فإن كان لا يرضيهم إلا أخذها فخذها، عليها لعنة الله، أما والله يا أمير المؤمنين إن مروان يباعدك منا ويباعدنا منك، ويأبى الله إلا أن يقربنا إليك.

كتاب معاوية إلى بن عباس:

قال: وذكروا أن معاوية كتب إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أما بعد، فإنكم معشر بني هاشم لستم إلى أحد أسرع منكم بالمساءة إلى أنصار عثمان، فإن يك ذلك لسلطان بني أمية، فقد ورثها عدي وتيم، وقد وقع من الأمر ما قد ترى، وأدالت هذه الحرب بعضنا من بعض، حتى استويننا فيها، فما

أطعمكم فينا، وما أيأسكم منا أيأسنا منكم، وقد رجونا غير الذي كان، وخشيننا دون ما وقع، ولستم ملاقين اليوم بأحد من حدكم أمس، وقد منعنا بما كان منا الشام؛ وقد منعتم بما كان منكم العراق، فاتقوا الله في قريش، فما بقي من رجالها إلا ستة: رجلاً بالشام، ورجلاً بالعراق، ورجلاً بالحجاز، فأما اللذان بالحجاز: فسعد، وعبد الله بن عمر، وأما اللذان بالشام: فأنا، وعمرو، وأما اللذان بالعراق، فعلي وأنت. ومن الستة رجلاً ناصبان لك، وآخران واقفان عليك، وأنت رأس هذا الجمع اليوم وغداً، ولو بايع الناس لك بعد عثمان كنا أسرع إليك منا إلى عليّ.

جوابه:

قال: وذكروا أنه لما أتى كتاب معاوية إلى بن عباس ضحك، ثم قال: حتى متى يخطب إلي معاوية عقلي؟ وحتى متى أجمع له عما في نفسي؟ فكتب إليه: أما بعد، فقد جاءني كتابك فأما ما ذكرت من سرعتنا بالمساءة إلى أنصار عثمان لسلطان بني أمية، فلعمري لقد أدركت في عثمان حاجتك، لقد استنصرك فلم تنصره، حتى صرت إلى ما صرت إليه، وبينني وبينك في ذلك بن عمك، وأخو عثمان الوليد بن عقبة، وأما قولك: إنه لم يبق من رجال قريش غير ستة، فما أكثر رجالها، وأحسن بقيتها، وقد قاتلك من خيارها من قاتلك، ولم يخذلنا إلا من خذلك، وأما إغراؤك إيانا بعدي وتيم، فأبو بكر وعمر كانا خيراً منك ومن عثمان، كما أن علياً خير منك، وأما قولك: إنا لن نلقاك إلا بما لقيناك به، فقد بقي لك منا يوم ينسيك ما قبله، وتخاف له ما بعده، وأما قولك: إنه لو بايعني الناس استقمت فقد بايعوا علياً وهو خير مني، فلم تستقم له، وإن الخلافة لا تصلح إلا لمن كان في الشورى، فما أنت والخلافة؟ وأنت طليق الإسلام، وابن رأس الأحزاب، وابن آكلة الأكباد من قتلى بدر.

خطبة علي كرم الله وجهه:

قال: وذكروا أن علياً قام خطيباً فقال: أيها الناس، ألا إن هذا القدر يتزل من السماء كقطر المطر، على كل نفس بما كسبت من زيادة أو نقصان، في أهل أو مال، فمن أصابه نقصان في أهل أو مال فلا يغش نفسه، ألا وإنما المال حرث الدنيا، والعمل الصالح حرث الآخرة، وقد يجمعهما الله لأقوام، وقد دخل في هذا العسكر طمع من معاوية، فضعوا عنكم هم الدنيا بفرافقها، وشدة ما اشتد منها، برحاء ما بعدها، فإن نازعتكم أنفسكم إلى غير ذلك فردوها إلى الصبر، ووطنوها على العزاء، فوالله إن أرحى ما أرجوه الرزق من الله، حيث لا نحتسب، وقد فارقكم مصقلة بن هبيرة، فأثر الدنيا على الآخرة، وفارقكم بشر بن

أرطأة فأصبح ثقیل الظهر من الدماء، مفتضح البطن من المال، وفارقكم زید بن عدي بن حاتم، فأصبح یسأل الرجعة. وأیم الله لوددت رجال مع معاوية أنهم معي، فباعوا الدنيا بالآخرة، ولوورت رجال معي أنهم مع معاوية، فباعوا الآخرة بالدنيا.

قدوم ابن أبي محجن على معاوية:

قال: وذكروا أن عبد الله بن أبي محجن الثقفي قدم على معاوية. فقال: يا أمير المؤمنين، إني أتيتك من عند الغبي الجبان البخيل بن أبي طالب. فقال معاوية: لله أنت! أتدري ما قلت؟ أما قولك الغبي، فو الله لو أن ألسن الناس جمعت فجعلت لساناً واحداً لكفهاها لسان علي، وأما قولك إنه جبان، فثكلتك أمك، هل رأيت أحداً قط بارزه إلا قتله؟ وأما قولك إنه بخيل، فوالله لو كان له بيتان أحدهما من تبر والآخر من تب، لأنفذ تبره قبل تبته. فقال الثقفي: فعلام تقاتله إذا؟ قال: على دم عثمان، وعلى هذا الخاتم، الذي من جعله في يده جادت طينته، وأطعم عياله وادخر لأهله. فضحك الثقفي ثم لحق بعلي، فقال: يا أمير المؤمنين، هب لي يدي بجرمي، لا دنيا أصبت ولا آخرة. فضحك علي، ثم قال: أنت منها على رأس أمرك، وإنما يأخذ الله العباد بأحد الأمرين.

رفع أهل الشام المصاحف

قال: وذكروا أن أهل العسكرين باتوا بشدة من الألم، ونادى علي أصحابه، فأصبحوا على راياتهم ومصافهم، فلما رآهم معاوية وقد برزوا للقتال، قال لعمر بن العاص: يا عمرو، ألم تزعم أنك ما وقعت في أمر قط إلا خرجت منه؟ قال: بلى، قال: أفلا تخرج مما ترى؟ قال: والله لأدعوهم إن شئت إلى أمر أفرق به جمعهم، ويزداد جمعك إليك اجتماعاً، إن أعطوكه اختلفوا، وإن منعوكة اختلفوا. قال معاوية: وما ذلك؟ قال عمرو: تأمر بالمصاحف فترفع ثم تدعوهم إلى ما فيها، فوالله لئن قبله لتفترق عنه جماعته، ولئن رده ليكفرنه أصحابه. فدعا معاوية بالمصحف، ثم دعا رجلاً من أصحابه يقال له بن هند، فنشره بين الصفيين، ثم نادى: الله الله في دماننا ودمائكم الباقية، بينا وبينكم كتاب الله. فلما سمع الناس ذلك ثاروا إلى عليّ، فقالوا: قد أعطاك معاوية الحق، ودعاك إلى كتاب الله، فأقبل منه. ورفع صاحب معاوية المصحف وهو يقول: بيننا وبينكم هذا المصحف، ثم تلا: "ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم، ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون" آل عمران: 23، ثم نادى من لفارس

من الروم؟ فقال الأشعث: والله لا نأتي هذه أبداً، ونرضى معك، أو نقاتل معك وتابعه أشراف أهل اليمن، وركنوا إلى الصلح، وكرهوا القتال.

ما تكلم به عبد الله بن عمرو وأهل العراق:

قال: وذكروا أن معاوية دعا عبد الله بن عمرو بن العاص، فأمره أن يكلم أهل العراق، فأقبل عبد الله بن عمرو، حتى إذا كان بين الصفين نادى: يا أهل العراق، أنا عبد الله بن عمرو بن العاص، إنه قد كانت بيننا وبينكم أمور للدين والدنيا، فإن تك للدين، فقد والله أسرفنا وأسرفتم، وإن تك للدنيا فقد والله أعذرنا وأعذرتم، وقد دعوناكم لأمر لو دعوتونا إليه أجبناكم، فإن جمعنا وإياكم الرضا، فذلك من الله، وإلا فاعتنموا هذه الفرجة، لعل الله أن ينعش بها الحي، وينسى بها القتل، فإن بقاء المقلد بعد المالك قليل. فقال علي لسعد بن قيس: أجب الرجل، وقد كان عبد الله بن عمرو قاتل يوم صفين بسيفين، وكان من حجته أن قال: أمري رسول الله أن أطيع أبي. فتقدم سعد بن قيس، حتى إذا كان بين الصفين نادى: يا أهل الشام إنه كانت بيننا وبينكم أمور حamina فيها على الدين والدنيا، وقد دعوتونا إلى ما قاتلناكم عليه أمس، ولم يكن ليرجع أهل العراق إلى عراقهم، ولا أهل الشام إلى شامهم بأمر أجمل منه، فإن يحكم فيه بما أنزل الله فالأمر في أيدينا، وإلا فنحن نحن، وأنتم أنتم، وإن الناس ثاروا إلى علي عند كلام عبد الله بن عمرو، فقالوا: أجب القوم إلى ما دعوك إليه، فإننا دعونا عثمان إلى ما دعاك القوم إليه، فأبى فقاتلناه. فبعث علي الأشعث إلى أهل الرايات، يأمرهم أن ينقضوها ويرجعوا إلى رحالهم، حتى يرموا رأيهم.

ما خاطب به عتبة بن أبي سفيان الأشعث بن قيس:

قال: وذكروا أن معاوية دعا عتبة، فقال له: أئن إلى الأشعث كلاماً، فإنه إن رضي بالصلح رضيت به العامة، فخرج عتبة حتى إذا وقف بين الصفين نادى الأشعث، فأتاه. فقال عتبة: أيها الرجل، إن معاوية لو كان لاقياً أحداً غيرك وغير علي لقيك، إنك رأس أهل العراق، وسيد أهل اليمن، ومن قد سلف إليه من عثمان ما قد سلف من الصهر والعمل، ولست كأصحابك. أما الأشعث فقتل عثمان، وأما علي فخصص، وأما سعد بن قيس فقلد علياً دينه، وأما شريح بن هانئ وزحر بن قيس فلا يعرفان غير الهوى، وأما أنت فحاميت عن أهل العراق تكرماً، وحاربت أهل الشام حمية وقد والله بلغنا منك ما أردنا، وبلغت منا ما أدت، وإننا لا ندعوك إلى ما لا يكون منك من تركك علياً، ولا نصرة معاوية ولكننا ندعوك إلى البقية، التي فيها صلاحك وصلاحنا.

فتكلم الأشعث فقال: يا عتبة، أما قولك إن معاوية لا يلقي إلا علياً، فلو لقيني ما زاد ولا عظم في عيني،

ولا صغرت عنه، ولئن أحب أن أجمع بينه وبين علي لأفعلن، وأما قولك: إني رأس أهل العراق وسيد أهل اليمن، فالرأس الأمير، والسيد المطاع، وهاتان لعلي، وأما ما سلف إلي من عثمان فوالله ما زادني صهره شرفاً، ولا عمله غنى، وأما عيبك أصحابك، فإن هذا الأمر لا يقربك مني، وأما محاماتي عن العراق، فمن نزل بيننا حميناه، وأما البقية فلسنا بأحوج منها إليكم.

كتاب معاوية إلى علي رضي الله عنهما:

قال: وذكروا أن علياً أظهر أنه مصباح معاوية للقتال، فبلغ ذلك معاوية ففزع أهل الشام، فانكسروا لذلك، فقال معاوية لعمرو: إني قد رأيت رأياً، أن أعيد إلى علي كتاباً أسأله فيه الشام. فضحك عمرو، ثم قال: أين أنت يا معاوية من خدعة علي؟ فقال معاوية: ألسنا بني عبد مناف؟ فقال: بلى ولكن لهم النبوة دونكم، فإن شئت أن تكتب فاكتب. فكتب معاوية إلى علي: أما بعد، فإني أظنك أن لو علمت أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنّها بعضنا على بعض، وإن كنا قد غلبنا على عقولنا، فلنا منها ما ندم به ما مضى، ونصلح ما بقي، وقد كنت سألتك ألا يلزمني لك طاعة ولا بيعة، فأبيت ذلك علي، فأعطاني الله ما منعت، وإني أدعوك إلى ما دعوتك إليه أمس، فإنك لا ترجو من البقاء إلا ما أرجو، ولا تخاف من الفناء إلا ما أخاف. وقد والله رقت الأجناد، وذهبت الرجال، ونحن بنوعبد مناف، ليس لبعضنا على بعض فضل، إلا فضل لا يُستدل به عزيز، ولا يُسترقّ به حر.

جوابه:

فلما انتهى كتابه إلى علي، دعا كاتبه عبيد الله بن رافع، فقال: اكتب: أما بعد، فقد جاءني كتابك، تذكر أنك لو علمت وعلمنا أن الحرب تبلغ ما بلغت لم يجنّها بعضنا على بعض، وأنا وإياك في غاية لم نبلغها بعد، وأما طلبك إلي الشام، فإني لم أكن أعطيك اليوم ما منعتك أمس، وأما استواؤنا في الخوف والرجاء، فإنك لست أمضى على الشك مني على اليقين، وليس أهل الشام بأحرص من أهل العراق على الآخرة، وأما قولك: إنا بنو عبد مناف فكذلك، ولكن ليس أمية كهاشم، ولا حرب كعبد المطلب، ولا أبو سفيان كأبي طالب ولا المهاجر كالتليق، ولا المحق كالمبطل، وفي أيدينا فضل النبوة التي قتلنا بها العزيز، وبعنا بها الحر، والسلام.

فلما أتى معاوية الكتاب أقرأه عمرأ، فشمت به عمرو، ولم يكن أحد أشد تعظيماً لعلي من عمرو بن

العاص بعد يوم مبارزته، فقال معاوية لعمرؤ: قد علمت أن إعظامك لعلي لما فضحك، قال عمرو: لم يفتضح امرؤ بارز علياً، وإنما افتضح من دعاه إلى البراز فلم يجبه.

اختلاف أهل العراق في الموادة

قال: وذكروا أنه لما عظم الأمر، واستحر القتال، قال له رأس من أهل العراق: إن هذه الحرب قد أكلتنا، وأذهبت الرجال، والرأي الموادة. وقال بعضهم: لا بل نقاتلهم اليوم على ما قاتلناهم عليه أمس، وكانت الجماعة قد رضيت الموادة، وجنحت إلى الصلح والمسالمة. فقام علي خطيباً فقال: أيها الناس، إني لم أزل من أمري على ما أحب حتى قدحتكم الحرب، وقد والله أنفت منكم وتركت، وهي لعدوكم أهلك. وقد كنت بالأمس أميراً، فأصبحت اليوم مأموراً، وكنت ناهياً فأصبحت اليوم منهيّاً، فليس لي أن أحملكم على ما تكرهون.

ما رد كردوس بن هانئ على علي:

قال وذكروا أن كردوس بن هانئ قام فقال: أيها الناس، إنه والله ما تولينا معاوية منذ تبرأنا منه، ولا تبرأنا من علي منذ توليناه، وإن قتلنا لشهيد، وإن جينا لفائز، وإن علياً على بينة من ربه، وما أجاب القوم إلا إنصافاً، وكل محق منصف، فمن سلم له نجا، ومن خالفه هوى.

ما قال سفيان بن ثور:

قال: وذكروا أن سفيان بن ثور قال: أيها الناس إنا دعونا أهل الشام إلى كتاب الله، فردوه علينا، فقاتلناهم، وإنهم دعونا إلى كتاب الله، فإن ردناه عليهم، حل لهم منا ما حل لنا منهم، ولسنا نخاف أن يحيف الله علينا ورسوله، وإن علياً ليس بالراجع الناكص، وهو اليوم على ما كان عليه أمس، وقد أكلتنا هذه الحرب، ولا نرى البقاء إلا في الموادة.

ما قال حريث بن جابر البكري:

ثم قام حريث بن جابر، فقال: أيها الناس، إن علياً لو كان خلوّاً من هذا الأمر لكان المرجع إليه، فكيف وهو قائده وسابقه؟ وإنه والله ما قبل من القوم اليوم إلا الأمر الذي دعاهم إليه أمس، ولو رده عليهم كنتم له أعيب ولا يلحد في هذا الأمر إلا راجع على عقبه، أو مستدرج مغرور، وما بيننا وبين من طعن علينا إلا السيف.

ما قال خالد بن معمر السدوسي:

ثم قام خالد بن معمر، فقال: يا أمير المؤمنين، إنا والله ما أحرنا هذا المقام أن يكون أحد أولى به منا، ولكن قلنا: أحب الأمور إلينا ما كفيينا مؤونته، فأما إذا استغينا فإننا لا نرى البقاء إلا فيما دعاك القوم إليه اليوم، إن رأيت ذلك، وإن لم تره فرأيك أفضل.

ما قال الحصين بن المنذر:

ثم قام الحصين بن المنذر، وكان أحدث القوم سنًا، فقال: أيها الناس، إنما بُني هذا الدين على التسليم، فلا تدفعوه بالقياس، ولا تهدموه بالشبهة، وإنا والله لو أنا لا نقبل من الأمور إلا ما نعرف، لأصبح الحق في الدنيا قليلًا، ولو تركنا وما نهوى لأصبح الباطل في أيدينا كثيرًا، وإن لنا راعياً قد حمدنا ورده وصدّره، وهو المأمون على ما قال وفعل، فإن قال: لا، قلنا: لا، وإن قال: نعم، قلنا: نعم.

ما قال عثمان بن حنيف:

ثم قام عثمان بن حنيف، وكان من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان عاملاً لعلي على البصرة، وكان له فضل، فقال: أيها الناس، اتمموا رأيكم، فقد والله كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، بالحديبية يوم أبي جندل وإنا لنريد القتال، إنكاراً للصالح، حتى ردنا عنه رسول الله، وإن أهل الشام دعوا إلى كتاب الله اضطراباً، فأجبناهم إليه إغذاراً، فلسنا والقوم سواء إنا والله ما عدلنا الحي بالحي، ولا القتل بالقتل، ولا الشامي بالعراقي، ولا معاوية بعلي، وإنه لأمر منعه غير نافع، وإعطاه غير ضائر، وقد كلت البصائر التي كنا نقاتل بها، وقد حمل الشك اليقين الذي كنا نؤول إليه، وذهب الحياء الذي كنا نماري به، فاستظلوا في هذا الفيء، واسكنوا في هذه العافية، فإن قلتم: نقاتل على ما كنا نقاتل عليه أمس، هيهات هيهات، ذهب والله قياس أمس، وجاء غد. فأعجب علياً قوله، وافتخرت به الأنصار، ولم يقل أحد بأحسن من مقالته.

ما قال عدي بن حاتم:

ثم قام عدي بن حاتم، فقال: أيها الناس، إنه والله لو غير علي دعانا إلى قتال أهل الصلاة ما أجبناه، ولا وقع بأمر قط إلا ومعه من الله برهان، وفي يديه من الله سبب، وإنه وقف عن عثمان بشبهة، وقاتل أهل الجمل على النكث، وأهل الشام على البغي، فانظروا في أموركم وأمره، فإن كان له عليكم فضل، فليس

لكم مثله، فسلموا له، وإلا فنأزعوأ عليه، والله لئن كان إلى العلم بالكتاب والسنة إنه لأعلم الناس بهما، ولئن كان إلى الإسلام إنه لأخو نبي الله، والرأس في الإسلام؟ ولئن كان إلى الزهد والعبادة، إنه لأظهر الناس زهداً، وأهمكهم عبادة، ولئن كان إلى العقول والنحائز، إنه لأشد الناس عقلاً، وأكرمهم نخيزة، ولئن كان إلى الشرف والنجدة إنه لأعظم الناس شرفاً ونجدة؛ ولئن كان إلى الرضا، لقد رضي به المهاجرون والأنصار في شوري عمر رضي الله عنهم، وبايعوه بعد عثمان، ونصروه على أصحاب الجمل وأهل الشام، فما الفضل الذي قربكم إلى الهدى، وما النقص الذي قرب به إلى الضلال، والله لو اجتمعتم جميعاً على أمر واحد لأتاح الله له من يقاتل لأمر ماض، وكتاب سابق. فاعترف أهل صفين لعدي بن حاتم بعد هذا المقام، ورجع كل من تشعب على علي رضي الله عنه.

ما قال عبد الله بن حجل:

ثم قام عبد الله بن حجل فقال: يا أمير المؤمنين، إنك أمرتنا يوم الجمل بأمر ختلفة، كانت عندنا أمراً واحداً، فقبلناها بالتسليم، وهذه مثل تلك الأمور، ونحن أولئك أصحابك، وقد كثر الناس في هذه القضية، وإيم الله ما المكث المنكر بأعلم بما من المقل المعترف، وقد أختت الحرب بأنفاسنا، فلم يبق إلا رجاء ضعيف، فإن تجب القوم إلى ما دعوك إليه، فأنت أولنا إيماناً، وآخرنا بنبي الله عهداً، وهذه سيوفنا على أعناقنا، وقلوبنا بين جوانحنا، وقد أعطيناك بقيتنا، وشرحت بالطاعة صدورنا، ونفذت في جهاد عدوك بصيرتنا، فأنت الوالي المطاع، ونحن الرعية الأتباع، أنت أعلمنا بربنا وأقربنا بنبينا، وخيرنا في ديننا، وأعظمنا حقاً فينا، فسد رأيك تتبعك، واستخر الله تعالى في أمرك، وأعزم عليه برأيك، فأنت الوالي المطاع، قال: فسر علي كرم الله وجهه بقوله، وأثنى خيراً.

ما قال صعصعة بن صوحان:

ثم قام صعصعة بن صوحان فقال: يا أمير المؤمنين، إنا سبقنا الناس إليك يوم قدوم طلحة والزبير عليك، فدعانا حكيم إلى نصرة عاملك عثمان بن حنيف فأجبناه، فقاتل عدوك، حتى أصيب في قوم من بني عبد قيس، عبدوا الله حتى كانت كفهم مثل أكف الإبل، وجباههم مثل ركب المعز، فأسر الحي وسلب القليل، فكنا أول قتيل وأسير، ثم رأيت بلاءنا بصفين، وقد كلت البصائر، وذهب الصبر، وبقي الحق موفوراً، وأنت بالغ بهذا حاجتك، والأمر إليك، ما أراك الله فمرنا به.

ما قال المنذر بن الجارود:

ثم قام المنذر بن الحارود، فقال: يا أمير المؤمنين، ثي أرى أمراً لا يدين له الشام إلا بهلاك العراق، ولا يدين له العراق إلا بهلاك الشام، ولقد كنا نرى أن ما زادنا نقصهم، وما نقصنا أضرهم، فإذا في ذلك أمران، فإن رأيت غيره ففينا والله ما يفل به الحد، ويرد به الكلب، وليس لنا معك إيراد ولا صدر.

ما قال الأحنف بن قيس:

ثم قام الأحنف بن قيس، فقال: يا أمير المؤمنين، إن الناس بين ماض وواقف، وقائل وساکت، وكل في موضعه حسن، وإنه لو نكل الآخر عن الأول لم يقل شيئاً، إلا أن يقول اليوم ما قد قيل أمس، ولكنه حق يقضى، ولم نقاتل القوم لنا ولا لك، إنما قاتلناهم لله، فإن حال أمر الله دوننا ودونك فاقبله، فإنك أولى بالحق، وأحقنا بالتوفيق، ولا أرى إلا القتال.

ما قال عمير بن عطار:

ثم قام عمير بن ميساء عطار فقال: يا أمير المؤمنين، إن طلحة والزبير وعائشة كانوا أحب الناس إلى معاوية، وكانت البصرة أقرب إلينا من الشام، وكان القوم النين وثبوا عليك من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، خيراً من الذين وثبوا عليك من أصحاب معاوية اليوم، فوالله ما منعنا ذلك من قتل المحارب، وعيب الواقف، فقاتل القوم إنا معك.

ما قال علي رضي الله عنه بعده:

ثم قام علي خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنه قد بلغ بكم وبعدوكم ما قد رأيتم، ولم يبق منهم إلا آخر نفس، وإن الأمور إذا أقبلت اعتبر آخرها بأولها، وقد صبر لكم القوم على غير دين، حتى بلغوا منكم ما بلغوا، وأنا غاد عليهم بنفسي بالغداة فأحاكمهم بسيفي هذا إلى الله.

نداء أهل الشام واستغاثتهم علياً رضي الله عنه:

قال: فلما بلغ معاوية قول علي دعا عمرو بن العاص، فقال له: يا عمرو إنما هي الليلة، حتى يغدو علينا علي بنفسه، فما ترى؟ قال عمرو: إن رجالك لا يقومون لرجالها، ولست مثله، أنت تقاتله على أمر، ويقا تلک على غيره، وأنت تريد البقاء، وعلي يريد الفناء، وليس يخاف أهل الشام من علي ما يخاف منك أهل العراق وإن هلكوا، ولكن ادعهم إلى كتاب الله. فإنك تقضي منه حاجتك، قبل أن ينشب مخلبه

فيك، فأمر معاوية أهل الشام. أن ينادوهم، فنادوا في سواد الليل نداء معه صراخ واستغاثة، يقولون: يا أبا الحسن من لذرارينا من الروح إن قتلتنا؟ الله الله، البقيا، كتاب الله بيننا وبينكم. فأصبحوا وقد رفعوا المصاحف عثرى الرماح، وقلدوها أعناق الخيل، والناس على أياقتهم قد أصبحوا للقتال.

ما أشار به عدي بن حاتم:

فقام علي بن حاتم، فقال: يا أمير المؤمنين، إن أهل الباطل لا تعوق أهل الحق، وقد جزع القوم حين تأهبت للقتال بنفسك، وليس بعد الجزع إلا ما تحب، ناجز القوم.

ما قال الأشتر وأشار به:

ثم قام الأشتر فقال: يا أمير المؤمنين، ما أجبنك لديناً. إن معاوية لا خلف له من رجاله، ولكن بحمد الله الخلف لك، ولو كان له مثل رجالك لم يكن له مثل صبرك ولا نصرتك، فافرج الحديد بالحديد، واستعن بالله.

ما قال عمرو بن الحمق:

ثم قام عمرو بن الحمق، فقال: يا أمير المؤمنين، ما أجبنك لدنيا، ولا نصرناك على باطل، ما أجبنك إلا لله تعالى، ولا نصرناك إلا للحق، ولو دعانا غيرك إلى ما دعوتنا لكثير فيه اللجاج، وطالت له النجوى، وقد بلغ الحق مقطعه، وليس لنا معك رأي.

ما قال الأشعث بن قيس:

ثم قام الأشعث بن قيس، فقال: يا أمير المؤمنين، إنا لك اليوم على ما كنا عليه أمس، ولست أدري كيف يكون غداً. وما القوم الذين كلموك بأحمد لأهل العراق مني، ولا بأوتر لأهل الشام مني، فأجب القوم إلى كتاب الله، فإنك أحق به منهم، وقد أحب الله البقيا.

ما قال عبد الرحمن بن الحارث:

ثم قام عبد الرحمن بن الحارث، فقال: يا أمير المؤمنين، امض لأمر الله، ولا يستخفك الذين لا يوقنون. أحكم بعد حكم؟ وأمر بعد أمر؟ مضت دماؤنا ودماءهم، ومضى حكم الله علينا وعليهم.

ما رآه علي كرم الله وجهه:

قال: فمال علي إلى قول الأشعث بن قيس وأهل اليمن، فأمر رجلاً ينادي: إنا قد أجبنا معاوية إلى ما دعانا إليه، فأرسل معاوية إلى علي: إن كتاب الله لا ينطق، ولكن نبعث رجلاً منا ورجلاً منكم، فيحكمان بما فيه. فقال علي: قد قبلت ذلك.

ما قال عمار بن ياسر:

فلما أظهر علي أنه قبل ذلك قام عمار بن ياسر فقال: يا أمير المؤمنين، أما والله لقد أخرجها إليك معاوية بيضاء، من أقر بها هلك، ومن أنكرها ملك، مالك يا أبا الحسن؟ شككتنا في ديننا! ورددتنا على أعقابنا بعد مئة ألف قتلوا منا ومنهم؟ أفلا كان هذا قبل السيف؟ وقبل طلحة والزبير وعائشة، قد دعوك إلى ذلك فأبيت، وزعمت أنك أولى بالحق وأن من خالفنا منهم ضال حلال الدم، وقد حكم الله تعالى في هذا الحال ما قد سمعت، فإن كان القوم كفاراً مشركين، فليس لنا أن نرفع السيف عنهم، حتى يفئوا إلى أمر الله، وإن كانوا أهل فتنة فليس لنا أن نرفع السيف عنهم حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله، والله ما أسلموا، ولا أدوا الجزية، ولا فاءوا إلى أمر الله، ولا طفت الفتنة، فقال علي: والله إني لهذا الأمر كاره.

قتل عمار بن ياسر:

قال: فلما رد علي على عمار أنه كاره للقضية، وأنه ليس من رأيه، نادى عمار: أيها الناس هل من راح إلى الجنة، فخرج إليه خمس مئة رجل، منهم أبو الهيثم وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، فاستسقى عمار الماء، فأتاه غلام له بإداوة فيها لبن، فلما رآه كبر وقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "آخر زادك من الدنيا لبن"، ثم قال عمار: اليوم ألقى الأحبة: محمداً وحزبه. ثم حمل عمار وأصحابه، فالتقى عليه رجلان فقتلاه، وأقبلا برأسه إلى معاوية يتنازعان فيه، كل يقول أنا قتلته، فقال لهما عمرو بن العاص: والله إن تتنازعان إلا في النار، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "تقتل عماراً الفئة الباغية" فقال معاوية: قبحك الله من شيخ! فما تزال تتزلق في قولك، أو نحن قتلناه؟ إنما قتله الذين جاؤوا به، ثم التفت إلى أهل الشام فقال: إنما نحن الفئة الباغية؟ التي تبغي لدم عثمان. فلما قتل عمار اختلط الناس، حتى ترك أهل الرايات مراكزهم، وأفحم أهل الشام، وذلك من آخر النهار، وتفرق الناس عن علي، فقال عدي بن حاتم: والله يا أمير المؤمنين ما أبقت هذه الواقعة لنا ولا لهم عميداً، فقاتل حتى يفتح الله تعالى لك، فإن فينا بقية، فقال علي: يا عدي، قتل عمار بن ياسر؟ قال: نعم، فبكى علي

وقال: رحمك الله يا عمار، استوجب الحياة والرزق الكريم، كم تريدون أن يعيش عمار، وقد نيف على التسعين؟.

هزيمة أهل الشام

ثم أقبل الأشتر جريحاً، فقال: يا أمير المؤمنين، خيل كخيل، ورجال كرجال، ولنا الفضل إلى ساعتنا هذه، فعد مكانك الذي كنت فيه، فإن الناس إنما يطلبوك حيث تركوك. وإن علياً دعا بفرسه التي كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم دعا ببغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم الشهباء، ثم تعصب بعمامة رسول الله صلى الله عليه وسلم السوداء، ثم نادى: من يبع نفسه اليوم يربح غداً، يوم له ما بعده، وإن عدوكم قد قدح كما قدحتم. فانتدب له ما بين عشرة آلاف إلى اثني عشر ألفاً واضعي سيوفهم على عواتقهم وتقدموا، فحمل علي والناس حملة واحدة، فلم يبق لأهل الشام صف إلا أهدم، حتى أفضى الأمر إلى معاوية، وعلي يضرب بسيفه، ولا يستقبل أحداً إلا ولى عنه. فدعا معاوية بفرسه لينجو عليه، فلما وضع رجله في الركاب نظر إلى عمرو بن العاص، فقال له: يا بن العاص، اليوم صبر، وغداً فخر، قال: صدقت، فترك الركوب، وصبر وصبر القوم معه إلى الليل، فبات الناس يتحارسون، وكرهوا القتال، وهو اليوم الذي فيه البلاء العظيم، يوم قتل عمار، وكل يظن أن الدائرة عليه، وأسرف الفريقان في القتل، ولم يكن في الإسلام بلاء ولا قتل أعظم منه في تلك الثلاثة الأيام، وإن علياً نادى بالرحيل في جوف الليل، فلما سمع معاوية رضي الله عنه رغاء الإبل، دعا عمرو بن العاص، فقال: ما ترى هاهنا؟ قال عمرو: أظن الرجل هارباً، فلما أصبحوا إذا علي وأصحابه إلى جانبهم قد خالطوهم، فقال معاوية: كلا، زعمت يا عمرو أنه هارب، فضحك وقال: من فعلاته والله، فعندها أيقن معاوية بالهلكة، ونادى أهل الشام: كتاب الله بيننا وبينكم، ويومئذ استبان ذل أهل الشام، ورفعوا المصاحف، ثم ارتحلوا فاعتصموا بجبل منيف، وصاحوا: لا ترد كتاب الله يا أبا الحسن فإنك أولى به منا، وأحق من أخذ به.

ما قال الأشعث بن قيس:

قال: فأقبل الأشعث بن قيس في أناس كثير من أهل اليمن، فقالوا لعلي: لا ترد ما دعاك القوم إليه، قد أنصفك القوم، والله لئن لم تقبل هذا منهم لا وفاء معك، ولا نرمي معك بسهم ولا حجر، ولا نقف معك موقفاً.

ما قال الفراء:

قال: فلما سمع علي قول الأشعث ورأى حال الناس قبل القضية، وأجاب إلى الصلح، وقام إلى عليّ أناس، وهم القراء منهم عبد الله بن وهب الراسي في أناس كثير قد اخترطوا سيوفهم، ووضعوها على عواتقهم، فقالوا لعلي: اتق الله، فإنك قد أعطيت العهد وأخذته منا، لنفنين أنفسنا أو لنفنين عدونا، أو يفىء إلى أمر الله، وإنا نراك قد ركبت إلى أمر فيه الفرقة والمعصية لله، والذل في الدنيا، فأنهض بنا إلى عدونا، فلنحاكمه إلى الله بسيوفنا. حتى يحكم الله بيننا وبينهم، وهو خير الحاكمين، لا حكومة الناس.

ما قال عثمان بن حنيف:

ثم قام عثمان بن حنيف، فقال: أيها الناس، اهتموا رأيكم، فإننا والله قد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ولو رأينا قتالاً قاتلنا وذلك في الصلح الذي كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أهل مكة، فامض على القضية، واتهم هذا الصلح.

ما قال الأشتر وقيس بن سعد:

قال: فأنكرها الأشتر وقيس بن سعد وكانا أشد الناس على علي فيها قولاً، فكان الذين عملوا في الصلح الأشعث بن قيس، وعدي بن حاتم وشريح بن هانئ، وعمرو بن الحمق وزحر بن قيس، ومن أهل الشام زيد بن أسد، ومخارق بن الحارث، وحزمة بن مالك. فلما رأى ذلك أبو الأعور قام إلى معاوية، فقال: يا أمير المؤمنين إن القوم لم يجيبوا إلى ما دعوناهم إليه حتى لم يجدوا من ذلك بداً وإنهم إن ينصرفوا العام يعودوا في قابل في سنة يبرأ فيها الجريح، وينسى القتل، وقد أخذت الحرب منا ومنهم، غير أنهم اختلفوا على علي، ولم يختلف عليك أحد والخلاف أشد من القتل، ناجز القوم، فقال بشر بن أرطاة: والله إن الشام خير من العراق لعلي، وما في يدك لك، وما في يد علي لأصحابه دونه، فإنه كنت إنما سألت المدة لإعداد العدة، وانتظار المدد، فنعم؛ وإن كنت سألتها بغض الحرب، وبقياً على أهل الشام، فلا.

ذكر الاتفاق على الصلح وإرسال الحكمين:

قال: وذكروا أن معاوية قال لأصحابه حين استقامت المدة، ولم يسم الحكمان: من ترون علياً يختار؟ فأما نحن فصاحبنا عمرو بن العاص. قال عتبة بن أبي سفيان: أنت أعلم بعلي منا. فقال معاوية: إن لعلي خمسة رجال من ثقاته، منهم عدي بن حاتم، وعبد الله بن عباس، وقيس بن سعد، وشريح بن هانئ، والأحنف بن قيس، وأنا أصفهم لك: أما بن عباس فإنه لا يقوى عليه، وأما عدي بن حاتم فيرد عمراً سائلاً، ويسأله مجيئاً، وأما شريح بن هانئ فلا يدع لعمرو حياضاً، وأما الأحنف بن قيس فبديته كرويته، وأما قيس بن

سعد فلو كان من قريشٍ بايعته العرب. ومع هذا إن الناس قد ملوا هذه الحرب، ولم يرضوا إلا رجلاً له تقية، وكل هؤلاء لا تقية لهم، ولكن انظروا أين أنتم من رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، تأمنه أهل الشام، وترضى به أهل العراق، فقال عتبة: ذلك أبو موسى الأشعري.

اختلاف أهل العراق في الحكمين:

قال: وذكروا أن علياً لما استقام رأيهُ على أن يرسل عبد الله بن عباس مع عمرو بن العاص، قام إليه الأشعث بن قيس، وشريح بن هانئ، وعدي بن حاتم، وقيس بن سعد، ومعهم أبو موسى الأشعري، فقالوا: يا أمير المؤمنين هذا أبو موسى الأشعري وافد أهل اليمن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصاحب مغنم أبي بكر، وعامل عمر بن الخطاب، وقد عرضنا على القوم بن عباس فزعموا أنه قريب القرابة منك، ضنين في أمرك، وأيم الله لو لقيت به عمراً لأخذ بصره، وغم صدره. ولكن الناس قد رضوا برجل يثق أهل العراق وأهل الشام بتقيته. فتكلم شبيب بن ربعي، فقال: إنا والله وإن خفنا على أبي موسى من عمرو ما لا يخافه أهل الشام على عمرو من أبي موسى، فلعل ما خفناه لا يضرنا، ولعل مارجوا لا ينفعهم؛ فإن قلت في أبي موسى ضعف فضعفه وتقاه خير من قوة عمرو وفجوره، فأغلق به البلاء، وافتح به العافية. ثم تكلم بن الكواء فقال: يا أمير المؤمنين، إنك أجبت الله وأجبتك، ولكننا نقول: الله بيننا وبينك، إن كنت تخشى من أبي موسى عجزاً فشر من أرسلت الخائن العاجز، ولست تحتاج من عقله إلا إلى حرف واحد، أن لا يجعل حقك لغيرك، فيدرك حاجته منك. ثم قال لأبي موسى: اعلم أن معاوية طليق الإسلام، وأن أباه رأس الأحزاب، وأنه ادعى الخلافة من غير مشورة، فإن صدقك فقد حل خلعه، وإن كذبتك فقد حرم عليك كلامه، وإن ادعى أن عمر وعثمان استعملاه، فلقد صدق، استعمله عمر وهو الوالي عليه بمثلة الطبيب من المريض، يحميه ما يشتهي، ويوجره ما يكره، ثم استعمله عثمان برأي عمر وما أكثر من استعمال ممن لم يدع الخلافة، واعلم أن لعمر مع كل شيء يسرك خيراً يسوؤك، ومهما نسيت فلا تنس أن علياً بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، وأنها بيعة هدي، وأنه لم يقاتل إلا عاصياً أو ناكثاً. فقال أبو موسى: رحمك الله، أما والله ما لي إمام غير علي، وإني لواقف عندما رأى، ولرضاء الله تعالى أحب إلي من رضاء الناس، وما أنا وأنت إلا بالله تعالى.

ما قال أهل الشام لأهل العراق:

قال: وذكروا أن أهل الشام قالوا لأهل العراق: أعطونا رجالاً نسميهم لكم، يكونوا شهوداً على ما يقوله صاحبنا وصاحبكم، بيننا وبينكم صحيفة، فقال علي: سموا من أحببتم، فسموا بن عباس، والأشعث بن قيس، وزباد بن كعب، وشريح بن هانئ؛ وعدي بن حاتم، وحجر بن عدي، وعبد الله بن الطفيل، وسفيان بن ثور، وعروة بن عامر، وعبد الله بن حجر، وخالد بن معمر؛ وطلب أهل العراق من أهل الشام: عتبة بن أبي سفيان، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، ويزيد بن أسيد، وأبا الأعور، والحصين بن نمير، وحمزة بن مالك، وبسر بن أرطاة، والنعمان بن بشير، ومخارق بن الحارث.

فلما سمى أهل العراق رجال أهل الشام، وسمى أهل الشام رجال أهل العراق، قال معاوية: أين يكون هذان الرجلان؟ فرضي الناس أن يكونا بدومة الجندل.

ما قال الأحنف بن قيس لعلي:

قال: فلما لم يبق إلا الكتاب، قال الأحنف بن قيس لعلي: يا أمير المؤمنين إن أبا موسى رجل يمانى، وقرمه مع معاوية، فابعثني معه، فوالله لا يحل لك عقدة إلا عقدت لك أشد منها، فإن قلت: إني لست من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فابعث بن عباس وابعثني معه.

ما قال علي كرم الله وجهه:

فقال علي: إن الأنصار والقراء أتوني بأبي موسى، فقالوا: ابعث هذا، فقد رضيناه، ولا نريد سواه، والله بالغ أمره.

الاختلاف في كتابة صحيفة الصلح:

قال: فوضع الناس السلاح، والتقوا بين العسكرين، فلما جيء بالكتاب قال علي: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، ومعاوية بن أبي سفيان، فقال معاوية: علام قاتلناك إذا كنت أمير المؤمنين؟ اكتب: علي بن أبي طالب. فقال الأشعث: اطرح هذا الاسم فإنه لا يضررك، فضحك علي، ثم قال: دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، حين صده المشركون عن مكة، فقال: يا علي اكتب: هذا ما تقاضى عليه محمد رسول الله ومشركو قريش، فقال سهيل بن عمرو: لقد ظلمناك إذاً يا محمد إن قاتلناك وأنت رسول الله، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال صلى الله عليه وسلم: اكتب محمد بن عبد الله، وإني رسول الله. وكنت إذا أمرني بشيء رسول الله صلى الله

عليه وسلم أسرع، وإذا قال مشركو قريش أبطأت به، وإذا كتبت شيئاً قال نبي الله، امحها، فتعاضمني ذلك. فدعا بمقراض فقرضه، وكتب: بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان، فقال أبو الأعور: أو معاوية وعليّ، فقال الأشعث: لا لعمر الله، ولكن نبدأ بأولهما إيماناً وهجرة، وأدناهما من الغلبة. فقال معاوية: قدموا أو آخروا، تقاضوا على أن علياً ومن معه من شيعته من أهل العراق، ومعاوية ومن معه من أهل الشام، أنا نزل عند حكم الله وكتابه، من فاتحته إلى خاتمته، ما أحيا القرآن أحييناه، وما ألمات القرآن أمتناه، وما لم يجد عبد الله بن قيس وعمر بن العاص في القرآن حكماً بما يجدان في السنة العادلة، غير المفرقة، وعلى علي ومعاوية، وتبعتها وضع السلاح إلى انقضاء هذه المدة، وهي من رمضان إلى رمضان، وعلى أن عبد الله بن قيس وعمر أماناً على دمائهما وأموالهما وحريمهما والأمة على ذلك أنصار، وعليهما مثل الذي أخذنا أن يقضيا بما في كتاب الله تعالى، وما لم يجد في كتاب الله قضياً بما يجدان في السنة، وعليهما أن لا يؤخرا أمرهما عن هذه المدة، فإن أحبا أن أن يقولوا قبل انقضائها، فلهما أن يقولوا عن تراضٍ منهما، على أن يرجع أهل العراق إلى العراق، وأهل الشام إلى الشام، فيكون الاجتماع إلى دومة الجندل، فإن رضيا أن يجتمعا بغيرهما فلهما ذلك، ولهما ألا يحضرهما إلا من أحبّ، ولا يشهدا إلا من أَراد، وهؤلاء النفر من أهل العراق وأهل الشام ضامنون بالوفاء إلى هذه المدة، فكتب أهل العراق بهذا كتاباً لأهل الشام، وكتب أهل الشام بهذا لأهل العراق، بخط عمرو بن عبادة كاتب معاوية، وشهد شهود أهل الشام على أهل العراق، وشهد شهود أهل العراق على أهل الشام.

فلما كتب الكتابان أقبل رجل من بني يشكر، على فرس له أبلق، حتى وقف بين الصفيين على علي، فقال: يا علي، أكفر بعد إسلام، ونقض بعد توكيد، وردة بعد معرفة؟ أنا من صحيفتيكما بريء، ومن أقر بها بريء، ثم حمل على أصحاب معاوية، فطعن منهم، حتى إذا عطش أتى عسكر علي، فاستسقى فسقي، ثم حمل على عسكر عليّ، فطعن فيهم، حتى إذا عطش أتى عسكر معاوية، فاستسقى فسقي.

ما وصى به شريح بن هانئ أبا موسى:

قال: وذكروا أن شريح بن هانئ أخذ بيد أبي موسى فقال: يا أبا موسى إنك قد نصبت لأمر عظيم لا يُجبر صدعه، ولا تستقال فلتته، ومهما تقل من شيء لك أو عليك، يثبت حقه، ويزيل باطله، إنه لا بقاء لأهل العراق إن ملكها معاوية، ولا بأس بأهل الشام إن ملكها علي، فانظر في ذلك من يعرف هذا الأمر حقاً.

ما وصى به الأحنف بن قيس أبا موسى:

قال: ثم جاء الأحنف بن قيس، فأخذ بيده، ثم قال: يا أبا موسى، اعرف خطب هذا الأمر، واعلم أن له ما بعده، وإنك إن ضيعت العراق، فلا عراق لك، فاتق الله، فإنك تجمع بذلك دنيا وأخرى، وإذا لقيت عمراً غداً فلا تبادره بالسلام، فليس من أهله، ولا تعطه يدك، فإنها أمانة، وإياك أن يقعدك على صدر الفراش، فإنها خدعة، ولا تلقه إلا وحده، وإياك أن يكلمك في بيت فيه مخدع يخبأ لك فيه رجلاً، وإن لم يستقم لك عمرو على الرضا بعلي، فخبره أن يختار أهل العراق من قريش أهل الشام من شأؤوا، فإنهم إن يولوا الخيار يختاروا من يريدون، فإن أبي فلتختار أهل الشام من قريش أهل العراق من شأؤوا، فإن فعلوا كان الأمر بيننا.

ما قال معاوية لعمره:

قال: وذكروا أن معاوية قال لعمره: إن أهل العراق أكرهوا علياً على أبي موسى، وأنا وأهل الشام راضون بك، وأرجو في دفع هذه الحرب خصالاً: قوة لأهل الشام، وفرقة لأهل العراق، وإمداداً لأهل اليمن، وقد ضم إليك رجل طويل اللسان، قصير الرأي، وله على ذلك دين وفضل، فدعه يقل، فإذا هو قال فاصمت، واعلم أن حسن الرأي زيادة في العقل، إن خوفك العراق فخوفه بالشام، وإن خوفك مصر فخوفه باليمن، وإن خوفك علياً فخوفه بمعاوية، وإن أذاك بالجميل، فأت به بالجميل. قال عمره: يا أمير المؤمنين، أقلل الاهتمام بما قبلي، وارج الله تعالى فيما وجهتني له، إنك من أمرك على مثل حد السيف، لم تنل في حربك ما رجوت، ولم تأمن ما خفت، ونحن نرجو أن يصنع الله تعالى لك خيراً، وقد ذكرت لأبي موسى ديناً، وإن الدين منصور، أريت إن ذكر علياً وجاءنا بالإسلام والمهجرة واجتماع الناس عليه، ما أقول؟ فقال معاوية: قل ما تريد وترى. قال: فانصرف عمرو إلى منزله، فقال لأصحابه: هل ترون ما أراد معاوية من تصغير أبي موسى؟ قالوا: لا، قال: عرف أبي خادعه غداً.

ما قال شرحبيل لعمره:

قال: وأتى شرحبيل بن السمط إلى عمرو، فقال: يا عمرو، إنك رجل قريش، وإن معاوية لم يبعثك إلا لثقتك بك، واعلم أنك لا تؤتى من عجز، وقد علمت أن وطأة هذا الأمر لصاحبك ولك، فكن عند ظننا بك.

اجتماع أبي موسى وعمرو:

قال: وذكروا أن أبا موسى وعمراً لما اجتماعا بدومة الجندل، وحضرهما من يليهما من العرب، ليستمعوا قول الرجلين، فلما التقيا استقبل عمرو أبا موسى، فأعطاه يده وضم عمرو أبا موسى إلى صدره، فقال: يا أخي قبح الله أمراً فرق بيننا، ثم أقعد أبا موسى على صدر الفراش، وأقبل عليه بوجهه، والناس مجتمعون، فلم يزالا حتى تفرقا، ومكثا أياماً يلتقيان في أمرهما سرّاً وجهراً؛ وأقبل الأشعث بن قيس، وكان من أحرص الناس على إتمام الصلح، والراحة من الحرب، فقال: يا هذان، إنا قد كرهنا هذه الحرب، فلا ترداها إلينا، فإنها مرة الرضاع والفظام، فكفاها بما شئتما.

ما قال سعيد بن قيس للحكمين:

قال: فأقبل سعيد بن قيس، وكان من النصحاء لعلي كرم الله وجهه، فقال: أيها الرجلان، إني أراكما قد أبطأتما بهذا الأمر حتى آيس القوم منكما، فإن كنتما اجتماعتما على خير فأظهرا، نسمعه ونشهد عليه، وإن كنتما لم تجتمعا رجعنا إلى الحرب.

ما قال عدي بن حاتم لعمر:

قال: وذكروا أن علياً قال لعمر: أما والله يا عمرو إنك لغير مأمون الغناء، وإنك يا أبا موسى لغير مأمون الضعف، وما ننتظر بالقول منكما إلا أن تقولوا، والله ما لكما مع كتاب الله إيراد ولا صدر. فقال أبو موسى: كفوا عنا فإننا إنما نقول فيما بقي، ولسنا نقول فيما مضى.

ما قال عمرو لأبي موسى:

قال: وذكروا أن عمراً غداً على أبي موسى، فقال: يا أبا موسى، قد عرفت حال معاوية في قریش، وشرفه في بني عبد مناف، وأنه بن هند، وابن أبي سفيان، فما ترى؟ فقال أبو موسى: أما معاوية فليس بأشرف في قریش من عليّ، ولو كان هذا الأمر على شرف الجاهلية، كان أحوال ذي أصبح، ولكنني أرى وترى، وباعده أبو موسى، ثم غداً عليه عمرو، فقال: يا أبا موسى إن قال قائل: إن معاوية من الطلقاء، وأبوه رأس الأحزاب، لم يبايعه المهاجرون والأنصار فقد صدق، وإذا قال إن علياً آوى قتلة عثمان، وقتل أنصاره يوم الجمل، وبرز على أهل الشام بصفين فقد صدق، وفيما وفيكم بقية، وإن عادت الحرب ذهب ما بقي، فهل لك أن تخلعهما جميعاً، وتجعل الأمر لعبد الله بن عمر، فقد صحب رسول الله

صلى الله عليه وسلم، ولم ييسط في هذه الحرب يداً ولا لساناً، وقد علمت من هو مع فضله وزهده وورعه وعلمه؛ فقال أبو موسى: جزاك الله بنصيحتك خيراً، وكان أبو موسى لا يعدل بعبد الله بن عمر أحداً، لمكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومكانه من أبيه، لفضل عبد الله في نفسه، وافتراقاً على هذا الأمر، واجتمع رأيهما على ذلك. ثم إن عمراً غداً على أبي موسى بالغد، وجماعة اليهود، فقال: يا أبا موسى، ناشدتك الله تعالى، من أحق بهذا الأمر؟ من أوفى، أو من غدر؟ قال أبو موسى: من أوفى. قال عمرو: يا أبا موسى، نشدتك الله تعالى، ما تقول في عثمان؟ قال أبو موسى: قتل مظلوماً. قال عمرو: فما الحكم فيمن قتل؟ قال أبو موسى: يقتل بكتاب الله تعالى. قال: فمن يقتله؟ قال: أولياء عثمان. قال: فإن الله يقول في كتابه العزيز: "ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً" الإسراء: 33. قال: فهل تعلم أن معاوية من أولياء عثمان؟ قال: نعم. قال عمرو للقوم: اشهدوا. قال أبو موسى للقوم: اشهدوا على ما يقول عمرو.

ثم قال أبو موسى لعمرو: قم يا عمرو، فقل وصرح بما اجتمع عليه رأيي ورأيك، وما اتفقنا عليه، فقال عمرو: سبحان الله! أقوم قبلك وقد قدمك الله قبلي في الإيمان والهجرة، وأنت وافد أهل اليمن إلى رسول الله، ووافد رسول الله إليهم؛ وبك هداهم الله، وعرفهم شرائع دينه، وسنة نبيه، وصاحب مغنم أبي بكر وعمر! ولكن قم أنت فقل، ثم أقوم فأقول. فقام أبو موسى، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس. إن خير الناس للناس خيرهم لنفسه، وإن لا أهلك ديني بصلاح غيري، إن هذه الفتنة قد أكلت العرب، وإني رأيت وعمراً أن نخلع علياً ومعاوية، ونجعلها لعبد الله بن عمر، فإنه لم ييسط في هذه الحرب يداً ولا لساناً، ثم قام عمرو فقال: أيها الناس، هذا أبو موسى شيخ المسلمين، وحكم أهل العراق ومن لا يبيع الدين بالدنيا، وقد خلع علياً وأنا أثبت معاوية. فقال أبو موسى: مالك؟ عليك لعنة الله! ما أنت إلا كمثل الكلب تلهث! فقال عمرو: لكنك مثل الحمار يحمل أسفاراً، واختلط الناس، فقالوا: والله لو اجتمعنا على هذا ما حولتانا عما نحن عليه، وما صلحكما بلازمنا، وإنا اليوم على ما كنا عليه أمس، ولقد كنا ننظر إلى هذا قبل أن يقع، وما أमत قولكما حقاً، ولا أحيا باطلاً. ثم تشاتم أبو موسى وعمرو، ثم انصرف عمرو إلى معاوية، ولحق أبو موسى بمكة، وانصرف القوم إلى علي، فقال عدي: أما والله يا أمير المؤمنين، لقد قدمت القرآن، وأخرت الرجال، وجعلت الحكم لله. فقال علي: أما إني قد أخبرتكم أن هذا يكون بالأمس، وجهدت أن تبعثوا غير أبي موسى، فأيتتم علي، ولا سبيل إلى حرب القوم حتى تنقضي المدة، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: قم يا حسن فتكلم في أمر هذين الرجلين: أبي موسى وعمرو. فقام الحسن، فتكلم، فقال: أيها الناس، قد أكثرتم في أمر أبي موسى وعمرو، وإنما بعثنا ليحكم بالقرآن

دون الهوى، فحكما بالهوى دون القرآن، فمن كان هكذا لم يكن حكماً، ولكنه محكوم عليه، وقد كان من خطأ أبي موسى أن جعلها لعبد الله بن عمر، فأخطأ في ثلاث خصال: خالف - يعني أبا موسى - أباه عمر، إذ لم يرضه لها، ولم يره أهلاً لها، وكان أبوه أعلم به من غيره، ولا أدخله في الشورى إلا على أنه لا شيء له فيها، شرطاً مشروطاً من عمر على أهل الشورى، فهذه واحدة، وثانية: لم تجمع عليه المهاجرون والأنصار، الذين يعتقدون الإمامة، ويحكمون على الناس، وثالثة: لم يستأمر الرجل في نفسه، ولا علم ما عنده من رد أو قبول. ثم جلس. ثم قال علي لعبد الله بن عباس: قم فتكلم. فقام عبد الله بن عباس وقال: أيها الناس، إن للحق أناساً أصابوه بالتوفيق والرضا والناس بين راضٍ به، وراغب عنه، وإنما سار أبو موسى بهدىً إلى ضلال، وسار عمرو بضلالة إلى هدى، فلما التقيا رجع أبو موسى عن هداه، ومضى عمرو على ضلاله، فوالله لو كانا حكماً عليه بالقرآن لقد حكما عليه، ولئن كان حكماً بهماهما على القرآن، ولئن مسكنا بما سارا به لقد سار أبو موسى وعلي إمامه، وسار عمرو ومعاوية إمامه. ثم جلس فقال علي لعبد الله بن جعفر: قم فتكلم. فقام وقال: أيها الناس هذا أمر كان النظر فيه لعلي والرضا فيه إلى غيره، جئتم بأبي موسى، فقلتم قد رضينا هذا، فارض به، وأيم الله ما أصلحاً بما فعلاً الشام، ولا أفسدا العراق ولا أماتا حق علي، ولا أحييا باطل معاوية، ولا يذهب الحق قلة رأي، ولا نفخة شيطان، وإنا لعلي اليوم كما كنا أمس عليه. ثم جلس.

كتاب بن عمر إلى أبي موسى:

قال: وذكروا أن عبد الله بن عمر لما بلغه ما كان من رأي أبو موسى، كتب إليه: أما بعد يا أبا موسى، فإنك تقربت إلي بأمر لم تعلم هواي فيه، أكنت تظن أني أبسط يداً إلى أمر نهاني عنه عمر؟ أو كنت تراني أتقدم على علي وهو خير مني؟ لقد خبت إذاً وخسرت، وما أنا من المهتدين، فأغضبت بقولك وفعلك علي علياً ومعاوية، ثم أعظم من ذلك خديعة عمرو إياك، وأنت حامل القرآن، ووافد أهل اليمن إلى نبي الله، وصاحب مغنم أبي بكر وعمر، فقدمك عمرو للقول مخادعاً، حتى خلعت علياً قبل أن تخلع معاوية، ولعمري ما يجوز لك على علي ما جاز لعمرو على معاوية، ولا ما جاز لنا عليه، ولقد كرهننا ما رضى وأردت، إن الحاكم هو من يحكم بما حكم الله بين الناس، ولم تبلغ من خطيئتك عنده ما غير أمرك في خلاف هواه.

فلما أتى أبا موسى كتاب بن عمر كتب إليه: أما بعد، فإني والله ما أردت بتولييتي إياك وبيعتي لك القرية إليك، ما أردت بذلك إلا الله عز وجل، وما تقلدي أمر هذه الأمة غير مستكره، فإنهم كانوا على مثل

حد السيف، فقلت: إلى سنة محيا وممات، إن يصطلحوا فهو الذي أردت، وإلا لم يرجعوا إلى أعظم مما كانوا عليه، وأما إغضابي عليك علياً ومعاوية، فقد غضبا عليك قبل ذلك. وأما خديعة عمرو إياي، فوالله ما ضر بخديعته علياً، ولا نفع معاوية، وقد كان الشرط ما اجتمعنا عليه، لا ما اختلفنا فيه، وأما نهي أبيك، فوالله لو تم الأمر لأكرهت عليه.

كتاب معاوية إلى أبي موسى:

قال: وذكروا أن معاوية كتب إلى أبي موسى بعد الحكومة وهو بمكة: أما بعد، فأكره من أهل العراق ما كرهوا منك، وأقبل إلى الشام، فإني خير لك من علي، والسلام.

جوابه:

فكتب إليه أبو موسى: أما بعد، فإنه لم يكن مني في علي إلا ما كان من عمرو فيك، غير أني أردت بما صنعت وجه الله، وأراد عمرو بما صنع ما عندك، وقد كان بيني وبينه شروط عن تراض، فلما رجع عمرو رجعت، وأما قولك: إن الحكمين إذا حكما على أمر فليس للمحكوم عليه أن يكون بالخيار، إنما ذاك في الشاة والبعير، وأما في أمر هذه الأمة فليست تساق إلى ما تكره، ولن تذهب بين عجز عاجز، ولا كيد كائد، ولا خديعة فاجر؛ وأما دعاؤك إياي إلى الشام، فليس لي بدل ولا إثثار عن قبر بن ابراهيم أبي الأنبياء.

كتاب علي إلى أبي موسى:

قال: وذكروا أنه لما بلغ علياً كتاب أبي موسى رق له، وأحب أن يضمّه إليه، فكتب إليه: أما بعد، فإنك امرؤ ضللك الهوى، واستدرجك الغرور، فاستقل الله يقلك عثرتك، فإنه من استقال الله أقاله، إن الله يغفر ولا يغير، وأحب عباده إليه المتقون، والسلام.

فلما انتهى كتاب علي إلى أبي موسى هم أن يرجع، ثم قال لأصحابه: إني امرؤ غلب علي الحياء، ولا يستطيع هذا الأمر رجل فيه حياء.

جوابه:

فكتب أبو موسى إلى علي: أما بعد، فلولا أني خشيت أن يؤول منع الجواب إلى أعظم مما في نفسك لم أجبك، لأنه ليس عذر ينفعني، ولا عذر يمنعي منك؛ وأما التزامي مكة، فإني امتنست إلى أهل الشام،

وانقطعت من أهل العراق، وأصبت أقواماً صغروا من ذنبي ما عظمتهم، وعظموا من حقي ما صغرتهم، فأقمت بين أظهرهم، إذ لم يكن لي منكم ولي ولا نصير.

ذكر الخوارج على علي بن أبي طالب

كرم الله وجهه:

قال: وذكروا أنه لما كان من الحكمين ما كان، لقيت الخوارج بعضها بعضاً، فاجتمعوا في منزل عبد الله بن وهب الراسبي، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، ما ينبغي لقوم يؤمنون بالرحمن، وينيبون إلى حكم القرآن أن تكون هذه الدنيا أثر عندهم من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والقول بالحق، وإن ضر ومرف فإنه إن يضر ويمر في هذه الدنيا، فإن ثوابه يوم القيامة رضوان الله، وخلود الجنة، فاخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها، إلى بعض هذه المدائن، منكرين لهذه البدعة المضلة، والأحكام الجائرة. فقال حرقوص بن زهير: إن المتاع بهذه الدنيا قليل، وإن الفراق لها وشيك، فلا تدعوكم زينتها وبهجتها إلى المقام بها، ولا تلونكم عن طلب الحق، وإنكار الظلم، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، يا قوم إن الرأي ما قد رأيتم، والحق ما ذكرتم، فولوا أمركم رجلاً منكم، فإنه لا بد لكم من عماد وسناد، ومن راية تحفون حولها، وترجعون إليها.

ثم اجتمعوا في منزل زفر بن حصين الطائي، فقالوا: إن الله أخذ عهودنا ومواثيقنا على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والقول بالحق، والجهاد في تقويم السبيل، وقد قال عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام: "يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض، فاحكم بين الناس بالحق، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد" ص: 26. وقال: "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون" المائدة: 44. فاشهدوا على أهل دعوتنا أن قد اتبعوا الهوى، ونبذوا حكم القرآن، وجاروا في الحكم والعمل، وأن جهادهم على المؤمنين فرض، وأقسم بالذي تعنو له الوجوه، وتخشع دونه الأبصار، لو لم يكن أحد على تغيير المنكر، وقتال القاسطين مساعداً، لقاتلتهم وحدي فرداً، حتى ألقى الله ري، فيرى أي قد غيرت إرادة رضوانه بلساني، يا إخواننا، اضربوا جباههم ووجوههم بالسيف، حتى يطاع الرحمن عز وجل، فإن يطع الله كما أردتم أثابكم ثواب المطيعين له، الأمرين بأمره، وإن قتلتم فأبي شيء أعظم من المسير إلى رضوان الله وجنته. واعلموا أن هؤلاء القوم خرجوا لإقصاء حكم الضلالة، فاخرجوا بنا إلى بلد نتعد فيه الاجتماع من مكاننا هذا، فإنكم قد أصبحتم بنعمة ربكم، وأنتم أهل الحق بين الخلق،

إذ قُلتُم بالحق، وصمتم لقول الصدق، فخرجوا بنا إلى المدائن نسكنها فنأخذ بأبوابها، ونخرج منها سكانها، ونبعث إلى أخواننا من أهل البصرة، فيقدمون علينا.

فقال زيد بن حصين الطائي: إن المدائن بها قوم يمنعونكم منها، ويمنعونكم منكم، ولكن اكتبوا إلى إخوانكم من أهل البصرة، فأعلموهم بخروجكم، وسيروا أنتم على المدائن، فانزلوا بجسر النهر وانزلوا قالوا: هذا هو الرأي فاجتمعوا على ذلك، وكتبوا إلى إخوانهم من أهل البصرة: أما بعد، فإن أهل دعوتنا حكموا الرجال في أمر الله، ورضوا بحكم القاسطين على عباده، فخالقناهم ونايذناهم، نريد بذلك الوسيلة إلى الله، وقد قعدنا بجسر النهر وانزلوا وأحبنا إعلامكم لتأخذوا بنصيبيكم من الأجر، والسلام.

الجواب:

فكتبوا إليهم: أما بعد، فقد بلغنا كتابكم، وفهمنا ما ذكرتم. وقد وهبنا لكم الرأي الذي جمعكم الله عليه من الطاعة، وإخلاص الحكم لله، وأعمالكم أنفسكم فيما يجمع الله به كلمتكم، وقد أجمعنا على المسير إليكم عاجلاً.

وكان بدء خروجهم أنهم اجتمعوا في منزل حرقوص بن زهير ليلة الخميس، فقالوا: متى أنتم خارجون؟ قالوا: الليلة القابلة من يوم الجمعة، فقال لهم حرقوص: بل أقيموا ليلة الجمعة تتعدوا لربكم، وأوصوا فيها بوصايكم، ثم اخرجوا ليلة السبت مثنى ووحداً لا يشعر بكم.

خطبة علي كرم الله وجهه:

قالوا: فلما خرج جميع الخوارج، وتوافروا إلى النهر، قام علي بالكوفة على المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإن معصية العالم الناصح تورث الحسرة، وتعقب الندامة، وقد كنت أمرتكم في هذين الرجلين، وفي هذه الحكومة بأمرى، فأبيت إلا ما أردتم، فأحيينا ما أمات القرآن، وأماتنا ما أحيا القرآن، واتبع كل واحد منهما هواه، يحكم بغير حجة، ولا سنة ظاهرة، واختلفا في أمرهما وحكمهما، فكلاهما لم يرشد الله، فبرئ الله منهما ورسوله وصالحو المؤمنين، فاستعدوا للجهاد، وتأهبوا للمسير، ثم أصبحوا في معسكرهم يوم الاثنين بالنخيلة، وإنما حكمنا من حكمنا، ليحكمنا بالكتاب، فقد علمتم أنهما حكما بغير الكتاب، وبغير السنة، والله لأغزوهم ولو لم يبق أحد غيري لجاهدكم، وأعطي الناس العطاء وهم بالجهاد.

كتاب علي كرم الله وجهه للخوارج

قالوا: فأجمع رأي علي والناس على المسير إلى معاوية بصفين، فتجهز معاوية وخرج حتى نزل بصفين، وأصبح علي قد تجهز وعسكر، فقليل له: يا أمير المؤمنين إنه قد افترقت منا فرقة، فذهبت؛ قال: فكتب إليهم علي: أما بعد، فإن هذين الرجلين الخاطئين الحاكمين، اللذين ارتضيتم حكمين، قد خالفا كتاب الله، واتبعا هواهما بغير هدى من الله، فلم يعملوا بالسنة، ولم ينفذا للقرآن حكماً، فبرئ الله منهما ورسوله وصالحو المؤمنين، إذا بلغكم كتابنا هذا فأقبلوا إلينا، فإننا سائرون إلى عدونا وعدوكم، ونحن على الأمر الذي كنا عليه، والسلام. قال: فكتبوا إليه: أما بعد فإنك لم تغضب لله، إنما غضبت لنفسك، والله لا يهدي كيد الخائنين. قال: فلما رأى علي كتابهم أيس منهم، ورأى أن يدعهم، ويمضي بالناس إلى معاوية وأهل الشام فيناجزهم فقام علي خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإن من ترك الجهاد وداهن في أمر الله كان على شفا هلكة، إلا أن يتداركه الله برحمته، فاتقوا الله عباد الله، قاتلوا من حاذ الله، وحاول أن يطفئ نور الله، قاتلوا الخاطئين، القاتلين لأولياء الله، المحرفين لدين الله، الذين ليسوا بقراء الكتاب ولا فقهاء في الدين، ولا علماء بالتأويل، ولا لهذا الأمر بأهل في دين، ولا سابقة في الإسلام، ووالله لو وُلوا عليكم لعملوا فيكم بعمل كسرى وقيصر. فسيروا وتأهبوا للقتال، وقد بعثت لأخوانكم من أهل البصرة، ليقدموا عليكم فإذا قدموا واجتمعتم شخصنا إن شاء الله.

كتاب علي إلى بن عباس:

قالوا: وكان علي قد كتب إلى بن عباس وإلى أهل البصرة: أما بعد، فإننا أجمعنا على المسير إلى عدونا من أهل الشام، فأشخص إلي من قبلك من الناس، وأقم حتى آتيك، والسلام.

ما قال بن عباس إلى أهل البصرة:

فلما قدم كتاب علي على بن عباس، قرأه على الناس، ثم أمرهم بالشخص مع الأحنف بن قيس، فشخص معه منهم ألف وخمسة مئة رجل، فاستقبلهم بن عباس، فقام خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا أهل البصرة، قد جاءني كتاب أمير المؤمنين يأمرني بإشخاصكم، فأمرتكم بالمسير إليه مع الأحنف بن قيس، فلم يشخص إليه منكم إلا ألف وخمسة مئة، وأنتم في الديوان ستون ألفاً سوى أبنائكم وعبدانكم ومواليكم. ألا فانفروا، ولا يجعل امرؤ على نفسه سبيلاً، فإني موقع بكل من وجدته تخلف عن دعوته، عاصياً لإمامه، حزناً يعقب نداماً، وقد أمرت أبا الأسود بحشدكم، فلا يلم امرؤ جعل السبيل على نفسه إلا نفسه.

ما قال علي كرم الله وجهه لأهل الكوفة:

قال: فحشد أبو الأسود الناس بالبصرة، فاجتمع عليه ألف وسبع مئة فأقبل هو والأحنف بن قيس، حتى وافيا علياً بالنجيلة، فلما رأى علي أنه إنما قدم عليه من أهل البصرة ثلاثة آلاف ومئتا رجل، جمع إليه رؤساء الناس وأمراء الأجناد ووجوه القبائل، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا أهل الكوفة. أنتم إخواني وأنصاري وأعواني على الحق، ومجيبني إلى جهاد الحلين، بكم أضرب المدبر، وأرجو إتمام طاعة المقبل، وقد بعثت إلى أهل البصرة، فاستنفرتهم، فلم يأتني منهم غير ثلاثة آلاف ومئتين، فأعينوني بمناصحة سمحة، خلية من الغش، وإني آمركم أن يكتب إلي رئيس كل قوم منكم ما في عشيرته من المقاتلة، وأبنائهم الذين أدركوا القتال والعبدان والموالي، وارفعوا ذلك إلي ننظر فيه إن شاء الله. فقام سعد بن قيس الهمداني، فقال: يا أمير المؤمنين سمعاً وطاعة، ووداً ونصيحة، أنا أول الناس، وأول من أجابك بما سألت وطلبت.

ثم قام عدي بن حاتم وحجر بن عدي وأشرف القبائل، فقالوا: نحن كذلك، ثم كتبوا ورفعوا إلى علي، فكان جميع ما رفعوا إليه أربعين ألف مقاتل، وسبعة عشر ألفاً من الأبناء، وثمانية آلاف من عبيدهم ومواليهم، وكانت العرب يومئذ سبعة وخمسين ألفاً من أهل الكوفة، ومن ممالئهم ومواليهم ثمانية آلاف، ومن أهل البصرة ثلاثة آلاف ومئتا رجل، فقام علي فيهم خطيباً، فقال: أما بعد، فقد بلغني قولكم: لو أن أمير المؤمنين سار بنا إلى هذه الخارجة التي خرجت علينا، فبدأنا بهم، إلا أن غير هذه الخارجة أهم على أمير المؤمنين، سيروا إلى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا في الأرض جبارين ملوكاً، ويتخذهم المؤمنون أرباباً، ويتخذون عباد الله حولاً، ودعوا ذكر الخوارج. قال: فنادى الناس من كل جانب: سر بنا يا أمير المؤمنين حيث أحببت، فنحن حزبك وأنصارك، نعادي من عاداك، ونشايع من أناب إليك وإلى طاعتك، فسر بنا إلى عدوك، كائناً من كان، فإنك لن تؤتى من قلة ولا ضعف، فإن قلوب شيعتك كقلب رجل واحد في الاجتماع على نصرتك، والجد في جهاد عدوك، فابشر يا أمير المؤمنين بالنصر، واشخص إلى أي الفريقين أحببت، فإننا شيعتك التي ترجو في طاعتك وجهاد من خالفك صالح الثواب من الله، تخاف من الله في خذلانك، والتخلف عنك شديد الوبال.

ما قال علي كرم الله وجهه في الخثعمي:

فبايعوه على التسليم والرضا، وشرط عليهم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه، وسلم، فجاءه رجل من خثعم، فقال له الإمام علي تبائع على كتاب الله وسنة نبيه؟ قال: لا، ولكن أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه وسنة أبي بكر وعمر. فقال علي: وما يدخل سنة أبي بكر وعمر مع كتاب الله وسنة نبيه؟ إنما كانا عاملين بالحق حيث عملا، فأبى الخثعمي إلا سنة أبي بكر وعمر، وأبى علي أن يبايعه إلا على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فقال له حيث ألح عليه: تبائع؟ قال: لا، إلا على ما ذكرت لك، فقال له علي: أما والله لكأني بك قد نفرت في هذه الفتنة، وكأني بجوافر خيلي قد شدحت وجهك، فلحق بالخوارج، فقتل يوم النهروان. قال قبيصة: فرأيت يوم النهروان قتيلاً، قد وطأت الخيل وجهه، وشدحت رأسه، ومثلث به. فذكرت قول علي: وقلت لله در أبي الحسن! ما حرك شفثيه قط بشيء إلا كان كذلك.

إجماع على الذهاب إلى صفين:

فأجمع علي والناس على المسير إلى صفين، وتجهز معاوية حتى نزل صفين، فلما خرج علي بالناس عبر الجسر، ثم مضى حتى نزل دير أبي موسى، على شاطئ الفرات، ثم أخذ على الأنبار. وإن الخاروجة التي خرجت على علي بينما هم يسيرون، فإذا هم برجل يسوق امرأته على حمار له، فعبروا إليه الفرات، فقالوا له: من أنت؟ قال: أنا رجل مؤمن، قالوا: فما تقول في علي بن أبي طالب؟ قال: أقول: إنه أمير المؤمنين، وأول المسلمين إيماناً بالله ورسوله. قالوا: فما اسمك؟ قال: أنا عبد الله بن خباب بن الارت، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا له: أفزعناك؟ قال: نعم، قالوا: لا روع عليك، حدثنا عن أبيك بحديث سمعه من رسول الله، لعل الله أن ينفعنا به، قال: نعم، حدثني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "ستكون فتنة بعدي، يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه، يمسي مؤمناً، ويصبح كافراً". فقالوا: لهذا الحديث سألناك، والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحداً، فأخذوه وكتفوه، ثم أقبلوا به وبامراته وهي حبلى متم، حتى نزلوا تحت نخل، فسقطت رطبة منها، فأخذها بعضهم فقذفوها في فيه، فقال له أحدهم بغير حل، أو بغير ثمن أكلتها، فألقاها من فيه، ثم اخترط بعضهم سيفه فضرب به خنزيراً لأهل الذمة، فقتله، قال له بعض أصحابه: إن هذا من الفساد في الأرض، فلقي الرجل صاحب الخنزير فأرضاه من خنزيره، فلما رأى منهم عبد الله بن خباب ذلك، قال: لئن كنتم صادقين فيما أرى، ما علي منكم بأس، ووالله ما أحدثت حدثاً في الإسلام، وإني لمؤمن، وقد أمتتموني، وقلتم لا روع عليك فجأؤوا به وبامراته، فأضجعوه على شفير النهر، على ذلك الخنزير، فذبحوه فسال دمه في الماء، ثم أقبلوا إلى امرأته،

فقلت: إنما أنا امرأة، أما تتقون الله؟ قال: فبقروا بطنها، وقتلوا ثلاثة نسوة، فيهم أم سنان قد صحبت النبي عليه الصلاة والسلام. فبلغ علياً خبرهم، فبعث إليهم الحارث بن مرة، لينظر فيما بلغه من قتل عبد الله بن حباب والنسوة، ويكتب إليه بالأمر، فلما انتهى إليهم ليسائلهم، خرجوا إليه فقتلوه، فقال الناس: يا أمير المؤمنين، تدع هؤلاء القوم وراءنا يخلفوننا في عيالنا وأموالنا، سر بنا إليهم، فإذا فرغنا منهم نهضنا إلى عدونا من أهل الشام.

مسير علي إلى الخوارج وما قال لهم:

قال: فسار علي ومن معه حتى نزلوا المدائن، ثم خرج حتى أتى النهروان فبعث إليهم: أن ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم نقتلهم بهم، ثم أنا أفارقكم، وأكف عنكم، حتى ألقى أهل الشام، فبعثوا إليه: إنا كلنا قتلناهم، وكلنا مستحل لدمائكم ودمائهم. ثم أتاهم علي، فوقف عليهم، فقال: أيتها العصابة، إني نذير لكم أن تصبحوا تلعنكم الأمة غداً، وأنتم صرعى بإزاء هذا النهر، بغير برهان، ولا سنة؛ ألم تعلموا أني نهيتكم عن الحكومة، وأخبرتكم أن طلب القوم لها مكيدة، وأنبأتكم أن القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، وإني أعرف بهم منكم، قد عرفتهم أطفالاً، وعرفتهم رجالاً، فهم شر رجال، وشر أطفال، وهم أهل المكر والغدر، وإنكم إن فارقتموني ورأيي، جانبتم الخير والحزم، فعصيتموني وأكرهتموني، حتى حكمت، فلما أن فعلت شرطت واستوثقت، وأخذت على الحكمين أن يحيا ما أحيا القرآن، وأن يميتا ما أمات القرآن، فاختلفا، وخالفا حكم الكتاب والسنة، وعملا بالهوى، فنبذا أمرهم، ونحن على أمرنا الأول، فما نبؤكم ومن أين أتيتم؟ قالوا له: إنا حيث حكمنا الرجلين أخطأنا بذلك، وكنا كافرين، وقد تبنا من ذلك، فإن شهدت على نفسك بالكفر، وتبت كما تبنا وأشهدنا، فنحن معك ومنك، وإلا فاعتزلنا، وإن آبيت فنحن منابدوك على سواء. فقال علي: أبعد إيماني بالله، وهجري وجهادي مع رسول الله، أبوء وأشهد على نفسي بالكفر؟ لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين. ويحكم! بم استحلتتم قتالنا، والخروج من جماعتنا؟ أن اختار الناس رجلين، فقالوا لهما: انظرا بالحق فيما يصلح العامة ليعزل رجل، ويوضع آخر مكانه. أحل لكم أن تضعوا سيوفكم على عواتقكم، تضربون بها هامات الناس، وتسفكون دماءهم؟! إن هذا هو الخسران المبين. قال: فتنادوا لا تخاطبوهم ولا تكلموهم، هيئوا للقاء الحرب، الرواح الرواح إلى الجنة.

قتل الخوارج

قال: فرجع علي، فعبأ أصحابه فجعل على الميمنة حجرين عديّ، وعلى الميسرة شيث بن ربيعي، وعلى الخيل أبا أيوب الأنصاري، وعلى الرجال أبا قتادة، وعلى أهل المدينة وهم ثمان مئة رجل من الصحابة قيس بن سعد بن عباد، ووقف علي في القلب في مضر. قال: ثم رفع لهم راية أمان مع أبي أيوب الأنصاري، فناداهم أبو أيوب: من جاء منكم إلى هذه الراية فهو آمن، ومن دخل المصر فهو آمن، ومن انصرف إلى العراق، وخرج من هذه الجماعة فهو آمن، فإنه لا حاجة لنا في سفك دمائكم، قال: وقدم الخيل دون الرجال، وصف الناس صفين وراء الخيل، وصف الرماة صفاً أمام صف، وقال لأصحابه: كفوا عنهم حتى يبدؤكم. قال: وأقبلت الخوارج حتى إذا دنوا من الناس نادوا: لا حكم إلا لله، ثم نادوا: الرواح الرواح إلى الجنة. قال: وشدوا على أصحاب علي شدة رجل واحدة، والخيل أمام الرجال، فاستقبلت الرماة وجوههم بالنبل، فحمدوا.

قال الثعلبي: لقد رأيت الخوارج حين استقبلتهم الرماح والنبل كأنهم معز اتقت المطر بقرونها، ثم عطفت الخيل عليهم من الميمنة والميسرة، ونهض علي في القلب بالسيوف والرماح، فلا والله ما لبثوا فوقاً حتى صرعهم الله، كأنما قيل لهم موتوا فماتوا. قال: وأخذ علي ما كان في عسكرهم من كل شيء؛ فأما السلاح والدواب فقسمه علي بيننا؛ وأما المتاع والعبيد والإماء فإنه حين قدم الكوفة رده على أهلها. قال: ولما أراد علي الانصراف من النهروان، قام خطيباً، فحمد الله ثم قال: أما بعد، فإن الله قد أحسن بلاءكم، وأعز نصركم، فتوجهوا من فوركم هذا إلي معاوية وأشياعه القاسطين، الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً، فبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون. فقالوا: يا أمير المؤمنين نفدت نبالنا، وكلت أذرعنا، وتقطعت سيوفنا، ونصلت أسنة رماحنا، فارجع بنا نحسن عدتنا، ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا عدة، فإن ذلك أقوى لنا على عدونا. فأقبل علي بالناس حتى نزل بالنخيلة، فعسكر بها، وأمر الناس أن يلزموا معه عسكرهم، ويوطنوا أنفسهم على الجهاد، وأن يقلوا من زيارة أبنائهم ونسائهم، حتى يسيروا إلى عدوهم من أهل الشام، فأقاموا معه أياماً، ثم رجعوا يتسللون ويدخلون الكوفة، ويتلذذون بنسائهم وأبنائهم ولذاتهم، حتى تركوا علياً وما معه إلا نفر من وجوه الناس يسير، وترك العسكر خالياً. فلما رأى ذلك دخل الكوفة، وانكسر عليه رأيه في المسير.

خطبة علي كرم الله وجهه:

قال: فقام علي على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، استعدوا للمسير إلى عدو في جهاده

القربة إلى الله، ودرك الوسيلة عنده، فأعدوا له ما استطعتم من قوة، ومن رباط الخيل، وتوكلوا على الله، وكفى به وكيلاً؛ ثم تركهم أياماً، ودعا رؤساءهم ووجوههم، فسألهم عن رأيهم، وما الذي ثبّطهم؟ فمنهم المعتل، ومنهم المتكره، وأقلهم من نشط، فقال لهم علي: عباد الله، ما لكم إذا أمرتكم أن تنفروا في سبيل الله "أنا قتلتم إلى الأرض أرضيتكم بالحياة الدنيا من الآخرة بدلاً" التوبة: 38، ورضيتم بالذل والهوان من العز خلفاً، كلما ناديتكم إلى الجهاد دارت أعينكم، كأنكم من الموت في سكرة، وكانت قلوبكم قاسية فأنتم لا تعقلون، وكأن أبصاركم كمه، فأنتم لا تبصرون، لله أنتم، ما أنتم إلا أسود روعة، وثعالب رواغة عند الناس، تكادون ولا تكيدون، وتنقص أطرافكم فلا تحاشون، وأنتم في غفلة ساهون، إن أخا الحرب اليقظان. أما بعد: فإن لي عليكم حقاً، ولكم علي حق، أما حقكم علي: فالنصيحة في ذات الله، وتوفير فيئكم عليكم، وتعليمكم كيلاً تجهلوا، وتأديبكم كيماً تعلموا؛ وأما حقي عليكم: فالوفاء بالبيعة، والنصح لي في الإجابة حين أدعوكم، والطاعة حين آمركم، فإن يرد الله بكم خيراً تترعوا عما أكره، وترجعوا إلى ما أحب، تنالوا بذلك ما تحبون، وتدركون ما تأملون. أيها الناس المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤهم، ما عزت دعوة من دعاكم، ولا استراح قلب من قاساكم، كلامكم يوهي الصم، وفعلكم يطمع فيكم عدوكم، إذا أمرتكم بالمسير قلتم كيت وكيت، أعاليل بأضاليل، هيهات، لا يدرك الحق إلا بالجد والصبر، أي دار بعد داركم تمنعون؟ ومع أي إمام بعدي تقاتلون؟ المغرور والله من غررتموه، ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب، أصبحت لا أطمع في نصرتكم، ولا أصدق قولكم، فرق الله بيني وبينكم، وأعقبني بكم من هو خير لي، وأعقبكم بعدي من هو شر لكم مني، أما إنكم ستلقون بعدي ذلاً شاملاً. وسيفاً قاتلاً. وأثرة يتخذها الظالمون بعدي عليكم سنة. تفرق جماعتكم. وتبكي عيونكم. وتدخل الفقر بيوتكم. تمنون والله عندها أن لو رأيتموني ونصرتموني. وستعرفون ما أقول لكم عما قليل. استنفرتكم فلم تنفروا. ونصحت لكم فلم تقبلوا، وأسعيتكم فلم تعوا، فأنتم شهود كأغياب، وصم ذوو أسماع، أتلو عليكم الحكمة، وأعظكم بالموعظة النافعة، وأحثكم على جهاد المحليين، الظلمة الباغين، فما آتي على آخر قولي حتى أراكم متفرقين، إذا تركتكم عدتم إلى مجالسكم حلقاً عزين، تضربون الأمثال، وتناشدون الأشعار، تربت أيديكم، وقد نسيتم الحرب واستعدادها، وأصبحت قلوبكم فارغة عن ذكرها، وشغلتموها بالأباطيل والأضاليل، ويحكم! اغزوا عدوكم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا، وأثم الله ما أظنكم تفعلون حتى يفعل بكم! وأثم الله لوددت أني قد رأيتهم فلقيت الله على نبي وبصيرتي، فاسترحت من مقاساتكم ومداراتكم، ويحكم! ما أنتم إلا كإبل جامحة ضل عنها رعاؤها، فكلما ضمت من جانب، انتشرت من جانب، والله لكأنني أنظر إليكم وقد حمي الوطيس، لقد انفرجتكم عن علي، انفراج الرأس، وانفراج المرأة عن قبلها.

فقام إليه الأشعث بن قيس الكندي، فقال: يا أمير المؤمنين فهلا فعلت كما فعل عثمان؟ قال له علي: وبلك وما فعل عثمان، رأيته عائداً بالله من شر ما تقول، والله إن الذي فعل عثمان لمخزاة على من لا دين له، ولا حجة معه، فكيف وأنا على بينة من ربي، والحق معي، والله إن امرأ أمكن عدوه من نفسه، فنهش عظمه، وسفك دمه، لعظيم عجزه، ضعيف قلبه. أنت يا بن قيس فكن ذلك، فأما أنا فوالله دون أن أعطي ذلك ضرباً بالمشرفي، يطير له فراش الرأس، وتطيح منه الأكف والمعاصم، وتجد به الغلاصم ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء. والله يا أهل العراق، ما أظن هؤلاء القوم من أهل الشام إلا ظاهرين عليكم؛ فقالوا: أبعلم تقول ذلك يا أمير المؤمنين؟ فقال: نعم، والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إني أرى أمورهم قد علت، وأرى أموركم قد خبت، وأراهم جادين في باطلهم، وأراكم وائين في حقكم، وأراهم مجتمعين، وأراكم متفرقين، وأراهم لصاحبهم معاوية مطيعين، وأراكم لي عاصين. أما والله لئن ظهروا عليكم بعدي لتجدنهم أرباب سوء، كأثمهم والله عن قريب قد شاركوكم في بلادكم، وحملوا إلى بلادهم منكم، وكأني أنظر إليكم تكشون كشيش الضباب، لا تأخذون الله حقاً، ولا تمنعون له حرمة، وكأني أنظر إليهم يقتلون صلحاءكم، ويخيفون علماءكم، وكأني أنظر إليكم يحرمونكم ويحجبونكم، ويدينون الناس دونكم، فلو قد رأيتم الحرمان، ولقيتم الذل والهوان، ووقع السيف ونزل الخوف، لندمتم وتحسرتم على تفريطكم في جهاد عدوكم، وتذكرتم ما أنتم فيه من الخفض والعافية، حين لا ينفعكم التذكار.

فقال الناس: قد علمنا يا أمير المؤمنين أن قولك كله وجميع لفظك يكون حقاً، أترى معاوية يكون علينا أميراً؟ فقال: لا تكرهون إمرة معاوية، فإن إمرته سلم وعافية، فلو قد مات رأيتم الرؤوس تندرج عن كهولها كأنها الحنظل، وعداً كان مفعولاً، فأما إمرة معاوية فلست أخاف عليكم شرّها، ما بعدها أدهى وأمر.

كلام أبي أيوب الأنصاري:

ثم قام أبو أيوب الأنصاري، فقال: إن أمير المؤمنين أكرمهم الله قد أسمع من كانت له أذن واعية، وقلب حفيظ، إن الله قد أكرمكم به كرامة ما قبلتموها حق قبولها، حيث نزل بين أظهركم بن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخير المسلمين وأفضلهم وسيدهم بعده، يفقهكم في الدين، ويدعوكم إلى جهاد الحلين، فوالله لكأنكم صم لا تسمعون، وقلوبكم غلف مطبوع عليها فلا تستجيون. عباد الله، أليس إنما عهدكم بالجور والعدوان أمس، وقد شمل العباد، وشاع في الإسلام، فذو حق محروم، ومشتوم عرضه، ومضروب ظهره، وملطوم وجهه، وموطوء بطنه، وملقى بالعراء؛ فلما جاءكم أمير المؤمنين صدع بالحق، ونشر بالعدل، وعمل بالكتاب، فاشكروا نعمة الله عليكم، ولا تتولوا مجرمين، ولا تكونوا كالذين قالوا

سمعنا وهم لا يسمعون. اشحذوا السيوف، وجددوا آلة الحرب، واستعدوا للجهاد، فإذا دعيتم فأجيئوا، وإذا أمرتم فأطيعوا تكونوا بذلك من الصادقين.

قال: ثم قام رجال من أصحاب علي فقالوا. يا أمير المؤمنين، اعط هؤلاء هذه الأموال، وفضل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش من الموالي، ممن يتخوف خلافه على الناس وفراقه. وإنما قالوا له: هذا الذي كان معاوية يصنعه بمن أتاه، وإنما عامة الناس همهم الدنيا، ولها يسعون، وفيها يكدحون. فاعط هؤلاء الأشراف، فإذا استقام لك ما تريد عدت إلى أحسن ما كنت عليه من القسم، فقال علي: أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه من الإسلام؟ فوالله لا أفعل ذلك ما لاح في السماء نجم، والله لو كان لهم مال لسويت بينهم، فكيف وإنما هي أموالكم. فقال رجل: يا أمير المؤمنين إن الموت نازل لا بد منه، فإن حل فمن صاحبنا؟ فقال علي: أحدثك عن خاصة نفسي، أما الحسن فصاحب خوان، وفتي من الفتیان، ولو قد التقت حلقتا البطان لم يغن عنكم في الحرب حثالة عصفور. وأما بن أخي عبد الله بن جعفر فصاحب هوى. وأما الحسين ومحمد ابناي فأنا منهما وهما مني؛ والله لقد أحببت أن يدال هؤلاء القوم عليكم، بإصلاحهم في أرضهم، وفسادكم في أرضكم، وأدائهم الأمانة لمعاوية، وخيانتكم، وبطاعتهم له، ومعصيتكم لي، واجتماعهم على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم، وأيم الله لا يدعون بعدي محرماً إلا استحلوه، ولا يبقى بيت وبر ولا مدر إلا أدخلوه ظلمهم، حتى يقوم الباكيان منكم، باك لدينه، وباك لديناه، وحتى تكون نصرة أحدكم كنصرة العبد لسيدته، إذا شهد أطاعه، وإذا غاب سبه. فقال رجل: يا أمير المؤمنين، أظن ذلك كائناً؟ قال: ما هو بالظن ولكنه اليقين.

ما كتب علي لأهل العراق:

قال: فقام حجر بن عدي، وعمر بن الحمق، وعبد الله بن وهب الراسبي، فدخلوا على علي، فسألوه عن أبي بكر وعمر: ما تقول فيهما؟ وقالوا: بين لنا قولك فيهما وفي عثمان. قال علي كرم الله وجهه: وقد تفرغتم لهذا؟ وهذه مصر قد افتتحت، وشيعتي فيها قد قتلت؟ إني مخرج إليكم كتاباً أنبئكم فيه ما سألتموني عنه، فاقرأوه على شيعتي، فأخرج إليهم كتاباً فيه: أما بعد، فإن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم نذيراً للعالمين، وأميناً على التزليل، وشهيداً على هذه الأمة، وأنتم يا معشر العرب على غير دين، وفي شر دار، تسفكون دماءكم، وتقتلون أولادكم، وتقطعون أرحامكم، وتأكلون أموالكم بينكم بالباطل، فمن الله عليكم، فبعث محمداً إليكم بلسانكم، فكنتم أنتم المؤمنين، وكان الرسول فيكم ومنكم؛

تعرفون وجهه ونسبه، فعلمكم الكتاب والحكمة والسنة والفرائض، وأمركم بصلة الأرحام، وحقن الدماء، وإصلاح ذات بينكم، وأن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وأن توفوا بالعقود، وأن تعاطفوا وتباروا وتراحموا، ونهاكم عن التظالم والتحاسد والتقاذف والتباغي، وعن شرب الحرام، وعن بخس المكيال والميزان، وتقدم إليكم فيما أنزل عليكم أن لا تنزوا ولا تأكلوا أموال اليتامى ظلماً، فكل خير يبعدكم عن النار قد حضكم عليه، وكل شر يبعدكم عن الجنة قد نهاكم عنه، فلما استكمل رسول الله صلى الله عليه وسلم مدته من الدنيا توفاه الله وهو مشكور سعيه مرضي عمله، مغفور له ذنبه، شريف عند الله نُزله، فيا لموته مصيبة خصت الأقرين، وعمت المؤمنين؛ فلما مضى تنازع المسلمون الأمر بعده، فوالله ما كان يلقي في روعي، ولا يخطر على بالي أن العرب تعدل هذا الأمر عني، فما راعني إلا إقبال الناس على أبي بكر، وإجفاهم عليه، فأمسكت يدي، ورأيت أي أحق بمقام محمد في الناس ممن تولى الأمور عليّ، فلبثت بذلك ما شاء الله، حتى رأيت راجعة من الناس رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محو دين محمد. وملة إبراهيم عليهما السلام. فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله. أن أرى في الإسلام ثلماً وهدماً. تكون المصيبة به علي أعظم من فوت ولاية أمركم. التي إنما هي متاع أيام قلائل. ثم يزول ما كان منها، كما يزول السراب، فمشيت عند ذلك إلى أبي بكر فبايعته، ونهضت معه في تلك الأحداث، حتى زهق الباطل، وكانت كلمة الله هي العليا، وأن يرغم الكافرون، فتولى أبو بكر رضي الله عنه تلك الأمور فيسر، وسدد، وقارب، واقتصد، فصحبته مناصحاً، وأطعته فيما أطاع الله فيه جاهداً؛ فلما احتضر بعث إلى عمر، فولاه، فسمعنا وأطعنا، وبايعنا وناصحنا، فتولى تلك الأمور، فكان مرضي السيرة، ميمون النقيبة أيام حياته، فلما احتضر قلت في نفسي: ليس يصرف هذا الأمر عني. فجعلها عمر شورى وجعلني سادس ستة، فما كانوا لولاية أحد منهم بأكره منهم لولائي، لأنهم كانوا يسمعونني وأنا أحاج أبا بكر فأقول: يا معشر قريش، أنا أحق بهذا الأمر منكم ما كان منا من يقرأ القرآن، ويعرف السنة، فخشوا إن وليت عليهم أن لا يكون لهم في هذا الأمر نصيب، فبايعوا إجماع رجل واحد، حتى صرفوا الأمر عني لعثمان، فأخرجوني منها، رجاء أن يتداولوها. حين يئسوا أن ينالوها، ثم قالوا لي: هلم فبايع عثمان. وإلا جاهدناك. فبايعت مستكرهاً. وصبرت محتسباً؛ وقال قائلهم: إنك يا بن أبي طالب على الأمر لحريص، قلت لهم: أنتم أحرص. أما أنا إذا طلبت ميراث بن أبي وحقه، وأنتم إذ دخلتم بيني وبينه، وتضربون وجهي دونه، اللهم إني أستعين بك على قريش، فإنهم قطعوا رحمي، وصغروا عظيم منزلتي وفضلي، واجتمعوا على منازعتي حقاً كنت أولى به منهم فسلبوني؛ ثم قالوا: اصبر كمداً، وعش متأسفاً، فنظرت فإذا ليس معي رفاق ولا مساعد إلا أهل بيتي، فضننت بهم على الهلاك، فأغضيت عيني على القذى، وتجرعت رفيق على الشجا. وصبرت من كظم الغيظ على أمر من العلقم طعماً، وآلم للقلب من حز

الحديد، حتى إذا نعمتم على عثمان أتيتموه فقتلتموه، ثم جئتموني تبايعوني، فأبيت عليكم، وأبيت عليّ، فنازعتموني ودافعتموني، ولم أمد يدي، تمنعاً عنكم، ثم ازدحمت علي، حتى ظننت أن بعضكم قاتل بعض، وأنكم قاتليّ، وقتلتم: لا نجد غيرك، ولا نرضى إلا بك، فبايعنا لا نفرق ولا نختلف، فبايعتكم ودعوتم الناس إلى بيعتي، فمن بايع طائعاً قبلت منه، ومن أبى تركته، فأول من بايعني طلحة والزبير، ولو أبيا ما أكرهتهما، كما لم أكره غيرهما، فما لبثا إلا يسيراً حتى قيل لي: قد خرجا متوجهين إلى البصرة في جيش، ما منهم رجل إلا وقد أعطاني الطاعة، وسمح لي بالبيعة، فقاموا على عمالي بالبصرة وخزائن بيوت أموال، وعلى أهل مصري، وكلهم في طاعتي، وعلى شيعتي، فشتتوا كلمتهم، وأفسدوا على جماعتهم، ثم وثبوا على شيعتي، فقتلوا طائفة منهم غدرًا، وطائفة صبرًا، وطائفة عصراً بأسياهم، فضاربوهم حتى لقوا الله صابرين محتسبين، فوالله لو لم يصيبوا منهم إلا رجلاً واحداً متعمدين لقتله، لحل لي بذلك قتل الجيش كله، مع أنهم قد قتلوا من المسلمين أكثر من العدة التي دخلوا عليهم بها، فقد أдал الله منهم، فبعداً للقوم الظالمين. ثم إني نظرت بعد ذلك في أهل الشام، فإذا هم أعراب وأحزاب وأهل طمع، جفاة طغام، تجمعوا من كل أوب، ممن ينبغي أن يؤدب، ويؤلى عليه، ويؤخذ على يديه، ليسوا من المهاجرين والأنصار، ولا من التابعين بإحسان، فسرت إليهم ودعوتهم إلى الجماعة والطاعة، فأبوا إلا شقاقاً ونفاقاً، وهضوا في وجوه المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، ينضحونهم بالنبل، ويشحونهم بالرماح، فهناك نهضت إليهم فقاتلتهم؛ فلما عضهم السلاح، ووجدوا ألم الجراح، رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها، فنبأتكم أنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، وإنما رفعوها إليكم خديعة ومكيدة، فامضوا على قتالهم، فاهتموني، وقتلتم: اقبل منهم، فإنهم إن أجابوا إلى ما في الكتاب والسنة جامعونا على ما نحن عليه من الحق، وإن أبوا كان أعظم لحجتنا عليهم، فقبلت منهم، وخففت عنهم، وكان صلحاً بينكم وبينهم على رجلين حكيمين، يحيان ما أحيا القرآن، ويميتان مما أمات القرآن، فاختلف رأيهما، وتفرق حكمهما، ونبذا حكم القرآن، وخالف ما في الكتاب، واتبعا هواهما بغير هدى من الله، فجنبهما الله السداد وأهوى بهما في غمرة الضلال، وكانا أهل ذلك، فانخذلت عنا فرقة منهم، فتركناهم ما تركونا، حتى إذا عاثوا في الأرض مفسدين، وقتلوا المؤمنين، أتيناهم فقلنا لهم: ادفعوا إلينا قتلة إخواننا، فقالوا: كلنا قتلهم، وكلنا استحللنا دماءهم ودماءكم، وشدت علينا خيلهم ورجالهم، فصرعهم الله مصارع القوم الظالمين. ثم أمرتكم أن تمضوا من فوركم ذلك إلى عدوكم، فإنه أفرع لقلوبهم، وأهلك لمكرهم، وأهتك لكيدهم، فقتلتم: كلت أذرعنا وسيوفنا، ونفدت نبالنا، ونصلت أسنة رماحنا، فأذن لنا، فلنرجع حتى نستعد بأحسن عدتنا، وإذا رجعت زدت في مقاتلتنا عدة من هلك منا، ومن قد فارقتنا، فإن ذلك قوة منا على عدونا، فأقبلتم حتى إذا أطللتم على الكوفة، أمرتكم أن تلزموا معسكركم وتضموا

قواصبيكم، وتتوطنوا على الجهاد، ولا تكثروا زيارة أولادكم ونسائكم فإن ذلك يُرق قلوبكم ويلويكم، وإن أصحاب الحرب لا يتوجدون، ولا يتوجعون، ولا يسأمون من سهر ليلهم، ولا من ظمأ نهارهم، ولا من خمص بطونهم، حتى يدركوا بثأرهم، وينالوا بغيتهم ومطلبهم، فترلت طائفة منكم معي مُعذرة، ودخلت طائفة منكم المصر عاصية فلا من نزل معي صبر فثبت، ولا من دخل المصر عاد إليّ، ولقد نظرت إلى عسكري وما فيه معي منكم إلا خمسون رجلاً، فلما رأيت ما أتيتم دخلت إليكم، فما قدرتم أن تخرجوا معي إلى يومكم هذا، لله آباؤكم! فما تنتظرون؟ أما ترون إلى أطرافكم قد انتقصت، وإلى مصركم قد افتتح؟ فما بالكم تؤفكون! ألا إن القوم قد اجتمعوا وجدوا وتناصحوا، وإنكم تفرقتم واختلقتم وتغاششتهم، فأنتم إن اجتمعتم تسعدوا، فأيقظوا رحمكم الله نائمكم، وتحرزوا لحرب عدوكم، إنما تقاتلون الطلقاء وأبناء الطلقاء، ممن أسلم كرهاً، وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم حرباً، أعداء السنة والقرآن، وأهل الأحزاب والبدع والأحداث، ومن كانت بوائقه تتقى، وكان عن الدين منحرفاً، وأكلة الرشا، وعبيد الدنيا، لقد نمتي إليّ أن بن الباغية لم يبايع معاوية حتى شرط عليه أن يؤتية أتاوة هي أعظم ما في يديه من سلطانه، فصفرت يد هذا البائع دينه بالدنيا! وتربت يد هذا المشتري نصرة غادر فاسق بأموال الناس! وإن منهم لمن شرب فيكم الحرام، وجلد حداً في الإسلام، فهؤلاء قادة القوم، ومن تركت ذكر مساويه منهم شر وأضر، وهؤلاء الذين لو ولوا عليكم لأظهروا فيكم الغضب والفخر. والتسلط بالجيروت، والتطاول بالغضب، والفساد في الأرض، ولاتبعوا الهوى، وحكموا بالرشا، وأنتم على ما فيكم من تخاذل وتواكل خير منهم وأهدى سبيلاً، فيكم الحكماء، والعلماء والفقهاء، وحملة القرآن، والمتجهدون بالأسحار، والعباد، والزهاد في الدنيا، وعُلمار المساجد، وأهل تلاوة القرآن، أفلا تسخطون وتقمون أن ينازعكم الولاية عليكم سفهاؤكم، والأراذل والأشرار منكم! اسمعوا قولي إذا قلت، وأطيعوا أمري إذا أمرت، واعرفوا نصيحتي إذا نصحت، واعتقدوا جزمي إذا جزمت، والتزموا عزمي إذا عزمتم، وانهمضوا لنهوضي، وقارعوا من قارعت، ولئن عصيتموني لا ترشدوا ولا تجتمعوا، خذوا للحرب أهبتها، وأعدوا لها التهيؤ، فإنها قد وقدت نارها، وعلا سناها، وتجرد لكم فيها الظالمون، كيما يطفئوا نور الله ويقهروكم، عباد الله، ألا إنه ليس أولياء الشيطان من أهل الطمع والجفاء، بأولى في الجد في غيهم وضلالهم وباطلهم، من أهل التزاهة والحق والإخبات بالجد في حقهم، وطاعة ربهم، ومناصحة إمامهم، إني والله لو لقيتهم وحيداً منفرداً، وهم في أهل الأرض إن باليت بهم أو استوحشت منهم، إني في ضلالهم الذي هم فيه، والهدى الذي أنا عليه، لعلني بصيرة ويقين وبينة من ربي، وإني للقاء ربي لمشتاق ولحسن ثوابه لمنتظر راج، ولكن أسفاً يعتريني، وجزعاً يرييني من أن يلي هذه الأمة سفهاؤها وفجارها، فيتخذون مال الله دولاً، وعباد الله خولاً، والصالحين حرباً، والقاسطين حزباً، وأيم الله لولا

ذلك ما أكثر تآلييكم وجمعكم، وتحريضكم، ولتركتمكم، فوالله إني لعلّى الحق، وإني للشهادة لحب، أنا نافر بكم إن شاء الله، فانفروا خفافاً وثقالاً، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله، إن الله مع الصابرين.

مقتل علي

عليه السلام:

قال المدائني: حجج ناس من الخوارج سنة تسع وثلاثين، وقد اختلف عامل علي وعامل معاوية، فاصطلح الناس على شبيب بن عثمان، فلما انقضى الموسم أقام نفر من الخوارج مجاورين بمكة، فقالوا: كان هذا البيت معظماً قي الجاهلية، جليل الشأن في الإسلام، وقد انتهك هؤلاء حرمة، فلو أن قوماً شروا أنفسهم فقتلوا هذين الرجلين اللذين قد أفسدا في الأرض، واستحلا حرمة هذا البيت، استراحت الأمة، واختار الناس لهم إماماً. فقال عبد الرحمن بن ملجم المرادي لعنه الله: أنا أكفيكم أمر علي. وقال الحجاج بن عبد الله الصرمي، وهو البرك: أنا أقتل معاوية. فقال أذويه مولى بني العنبر، واسمه عمرو بن بكر والله ما عمرو بن العاص بدونهما، فأنا به. فتعاقدوا على ذلك اعتمرؤا عمرة رجب. واتفقوا على يوم واحد يكون فيه وقوع القتل منهم في عليّ ومعاوية وعمرو، ثم سار كل منهم في طريقه فقدم بن ملجم الكوفة وكنم أمره، وتزوج امرأة يقال لها: قطام بنت علقمة، وكانت خارجية، وكان عليّ قد قتل أخاها، في حرب الخوارج. وتزوجها علي أن يقتل علياً. فأقام عندها مدة، فقالت له في بعض الأيام وهو مختف: لطالما أحبيت المكث عند أهللك، وأضربت عن الأمر الذي جئت بسببه، فقال: إن لي وقتاً واعدت فيه أصحابي، ولن أجاوزة فلما كان اليوم الذي تواعدوا فيه، خرج عدو الله، فقعد لعلّي حين خرج عليّ للصلاة الصبح، صبيحة نهار الجمعة، ليلة عشر بقيت من رمضان سنة أربعين، فلما خرج للصلاة وثب عليه، وقال: الحكم لله لا لك يا علي، وضربه على قرنه بالسيف، فقال علي: فزت ورب الكعبة، ثم قال: لا يفوتنكم الرجل، فشد الناس عليه، فأخذوه.

وكان علي رضي الله عنه شديد الأدمة ثقيل العينين، ضخم البطن، أصلع، ذا عضلات، في أذنيه شعر يخرج منهما، وكان إلى القصر أقرب. وكان بن ملجم يعرض سيفه، فإذا أخبر أن فيه عيباً أصلحه، فلما قتل علياً قال: لقد أهددت سيفي بكذا وكذا، وسممته بكذا وضربت به علياً ضربة لو كانت بأهل المصر لأتت عليهم.

وروي عن الحسن أنه قال: أتيت أبي فقال لي: أرقّت الليلة، ثم ملكتني عيني. فسنح لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت له: يا رسول الله، ماذا لقيت من أمتك من الأود واللدود؟ فقال: ادع عليهم، فقلت: اللهم أبدلني بهم خيراً لي منهم، وأبدلهم بي شراً لهم مني، وخرج إلى الصلاة فاعترضه بن ملجم، وأدخل بن ملجم على علي بعد ضربه إياه، فقال: أطيبوا طعامه، وألينوا فراشه، فإن أعش فأنا ولي دمي، إما عفوت، وإما اقتصصت، وإن أمت فالحقوه بي، ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين.

قالوا: وبكت أم كلثوم، وقالت لابن ملجم: يا عدو الله، قتلت أمير المؤمنين، قال: ما قتلت أمير المؤمنين، ولكني قتلت أباك. قالت: والله إني لأرجو ألا يكون عليه بأس، قال: ولم تبكين إذ؟ والله لقد أرهفت السيف، ونفيت الخوف، وجبت الأجل، وقطعت الأمل وضربت ضربة لو كانت بأهل المشرق لأتت عليهم.

ومكث علي يوم الجمعة ويوم السبت، وتوفي ليلة الأحد، وغسله الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية وعبد الله بن جعفر، وكفن في ثلاثة أثواب، ليس فيها قميص، وصلى عليه الحسن ابنه، ودفن في قصر الإمارة بالكوفة، وغمي قبره مخافة أن ينبشه الخوارج، وقيل إنه نقل بعد صلح معاوية والحسن إلى المدينة، وأخذ بن ملجم، فقطعت يده ورجلاه وأذناه وأنفه، وأتوا يقطعون لسانه، فصرخ، فقيل له: قد قطعت منك أعضاء ولم تنطق، فلما أتوا يقطعون لسانك صرخت؟ قال: إني أذكر الله به، فلم يسهل علي قطعه، ثم قتلوه بعد هذه المثلة.

كانت خلافة علي أربع سنين وتسعة أشهر، وكان عمره ثلاثاً وستين سنة.

وأما البرك: فإنه انطلق ليلة ميعادهم، فقعد لمعاوية، فلما خرج لصلاة الصبح شد عليه سيفه، فأدبر معاوية، فضرب رانفة إتيته ففلقها، ووقع السيف في لحم كثير، وأخذ؛ فقال لمعاوية: إن لك عندي خبيراً ساراً، قد قتل الليلة علي، وحدثه الحديث، وعولج معاوية فبرئ، وأمر بقتل البرك، وقيل: ضرب البرك معاوية وهو ساجد، فمذ ذاك جعل الحرس على رؤوس الخلفاء، واتخذ معاوية المقصورة.

وأما الثالث: فقصد عمرو بن العاص ليلة الميعاد، فلم يخرج تلك الليلة، لعله وجدها في بطنه، وصلى بالناس خارجة بن حذافة العدوي، فشده عليه الخارجي، وهو يظن أنه بن العاص، فقتله، وأخذ، فأتي به عمرو بن العاص، فلما رآه قال: ومن المقتول؟ قالوا: خارجة. فقال: أردت عمراً وأراد الله خارجة؛ ثم قال لعمرو بن العاص الحديث، وما كان من اتفاقه مع صاحبيه، فأمر بقتله. فلما قتل علي تداعى أهل الشام إلى بيعة معاوية، وقال له عبد الرحمن بن خالد بن الوليد: نحن المؤمنون، وأنت أميرنا، فبايعوه وهو بإيلياء لخمس ليال خلون من شوال سنة أربعين.

فصل:

روي عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: "يا علي، أتدري من أشقى الأولين والآخرين؟" قال: الله ورسوله أعلم. قال: "أشقى الأولين: عاقر الناقة، وأشقى الآخرين: الذي يطعنك. وأشار إلى حيث طعن". قال: وخرج علي في ليلة قتله وهو يقول:

فإن الموت لاقبكا

اشدد حيازيمك للموت

ذا حل بواديكما

ولاتجزع من الموت

وقال الشاعر في قتل بن ملجم علياً:

ولاقي عقاباً غير ما مُتصرم

تضمن للآثام لا در دره

ولا فتك إلا دون فتك بن ملجم

فلا مهر أغلى من علي وإن غلا

وضرب علي بالحسام المسمم

ثلاثة آلاف وعبد وقينة

قال هبيرة بن شريم: سمعت الحسن رضي الله عنه يخطب، فذكر أباه وفضله وسابقته، ثم قال: والله ما ترك صفراء ولا بيضاء إلا سبع مائة درهم فضلت من عطائه، أراد أن يشتري بها خادماً. وجاء رجل من مراد إلى علي، فقال له: يا أمير المؤمنين، احترس، فإن هنا قوماً يريدون قتلك. فقال: إن لكل إنسان ملكين يحفظانه، فإذا جاء القدر خلياها.

قيل: ولما ضرب علي دعا أولاده، وقال لهم: عليكم بتقوى الله وطاعته وألا تأسوا على ما صرف عنكم منها، وانهمضوا إلى عبادة ربكم، وشمروا عن ساق الجد، ولا تتأقلوا إلى الأرض، وتقرؤوا بالخسف، وتبوءوا بالذل، اللهم اجمعنا وإياهم على الهدى، وزهدنا وإياهم في الدنيا، واجعل الآخرة خيراً لنا ولهم من الأولى، والسلام.

بيعة الحسن بن علي رضي الله عنه لمعاوية

قال: وذكروا أنه لما قتل علي بن أبي طالب، ثار الناس إلى الحسن بن علي بالبيعة، فلما بايعوه قال لهم: تباعون لي على السمع والطاعة، وتحاربون من حاربت، وتسالمون من سالمت، فلما سمعوا ذلك ارتابوا وأمسكوا أيديهم وقبض هو يده، فأتوا الحسين، فقالوا له: ابسط يدك نبايعك على ما بايعنا عليه أباك، وعلى حرب المحلين الضالين أهل الشام، فقال الحسين: معاذ الله أن أبايكم ما كان الحسن حياً. قال: فانصرفوا إلى الحسن، فلم يجدوا بداً من بيعته، على ما شرط عليهم، فلما تمت البيعة له، وأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك، كاتب معاوية، فأتاه فخلاً به، فاصطلح معه على أن لمعاوية الإمامة ما كان حياً،

فإذا مات فالأمر للحسن، فلما تم صلحهما صعد الحسن إلى المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إن الله هدى أولكم بأولنا، وحقن دماءكم بآخرنا، وكانت لي في رقابكم بيعة، تحاربون من حاربت، وتسالمون من سالت، وقد سالت معاوية، وبايعته فبايعوه وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين، وأشار إلى معاوية.

إنكار سليمان بن صرد:

قال: وذكروا أنه لما تمت البيعة لمعاوية بالعراق، وانصرف راجعاً إلى الشام، أتاه سليمان بن صرد، وكان غائباً عن الكوفة، وكان سيد أهل العراق ورأسهم. فدخل على الحسن، فقال: السلام عليك يا مذل المؤمنين، فقال الحسن: وعليك السلام، اجلس. لله أبوك، قال: فجلس سليمان، فقال: أما بعد، فإن تعجبنا لا ينقضي من بيعتك معاوية ومعك مئة ألف مقاتل من أهل العراق، وكلهم يأخذ العطاء مع مثلهم من أنبائهم ومواليهم، سوى شيعتك من أهل البصرة وأهل الحجاز، ثم لم تأخذ لنفسك ثقة في العهد، ولا حظاً من القضية، فلو كنت إذ فعلت ما فعلت، وأعطاك ما أعطاك بينك وبينه من العهد والميثاق، كنت كتبت عليك بذلك كتاباً، وأشهدت عليه شهوداً من أهل المشرق والمغرب إن هذا الأمر لك من بعده، كان الأمر علينا أيسر، ولكنه أعطاك هذا فرضيت به من قوله، ثم قال: وزعم على رؤوس الناس ما قد سمعت، إني كنت شرطت لقوم شروطاً، ووعدتهم عدات، ومنيتهم أماني، إرادة إطفاء نار الحرب، ومداواة لهذه الفتنة، إذ جمع الله لنا كلمتنا وألفقتنا، فإن كل ما هنالك تحت قدمي هاتين، ووالله ما عني بذلك إلا نقض ما بينك وبينه، فأعد للحرب خدعة، وأذن لي أشخص إلى الكوفة، فأخرج عامله منها، وأظهر فيها خلعه، وأنبذ إليه على سواء إن الله لا يهدي كيد الخائنين. ثم سكت. فتكلم كل من حضر مجلسه بمثل مقالته، وكلهم يقول: ابعث سليمان بن صرد، وابعثنا معه، ثم الحقنا إذا علمت أنا قد أشخصنا عامله، وأظهرنا خلعه. فتكلم الحسن، فحمد الله، ثم قال: أما بعد، فإنكم شيعتنا وأهل مودتنا، ومن نعرفه بالنصيحة والصحبة والاستقامة لنا، وقد فهمت ما ذكرتم ولو كنت بالخزم في أمر الدنيا وللدنيا أعمل وأنصب، ما كان معاوية بأبأس مني بأساً، وأشد شكيمة، ولكان رأيي غير ما رأيتم، ولكني أشهد الله وإياكم أني لم أرد بما رأيتم إلا حقن دماءكم، وإصلاح ذات بينكم، فاتقوا الله وارضوا بقضاء الله، وسلموا لأمر الله، والزموا بيوثكم، وكفوا أيديكم، حتى يستريح بر، أو يستراح من فاجر، مع أن أبي كان يحدثني أن معاوية سيلي الأمر، فوالله لو سرننا إليه بالجبال والشجر، ما شككت أنه سيظهر، إن الله لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، وأما قولك: يا مذل المؤمنين، فوالله لأن تذلوا وتعافوا أحب إلي من أن

تعزوا وتقتلوا، فإن رد الله علينا حقنا في عافية قبلنا، وسألنا الله العون على أمره، وإن صرفه عنا رضينا، وسألنا الله أن يبارك في صرفه عنا، فليكن كل رجل منكم حلساً من أحلاس بيته، ما دام معاوية حياً، فإن يهلك ونحن وأنتم أحياء، سألنا الله العزيمة على رشدنا، والمعونة على أمرنا، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

كراهية الحسين رضي الله عنه للبيعة:

قال: ثم خرج سليمان بن صرد من عنده، فدخل على الحسين، فعرض عليه ما عرض على الحسن، وأخبره بما رد عليه الحسن، فقال الحسين: ليكن كل رجل منكم حلساً من أحلاس بيته، ما دام معاوية حياً؟ فإنها بيعة كنت والله لها كارهاً، فإن هلك معاوية نظرنا ونظرتم، ورأينا ورأيتم.

ما أشار به المغيرة بن شعبة على معاوية من البيعة ليزيد:

قال: وذكروا أنه لما استقامت الأمور لمعاوية، استعمل على الكوفة المغيرة بن شعبة، ثم هم أن يعزله ويولي سعيد بن العاص، فلما بلغ ذلك المغيرة قدم الشام على معاوية، فقال: يا أمير المؤمنين، قد علمت ما لقيت هذه الأمة من الفتنة والاختلاف، وفي عنقك الموت، وأنا أخاف إن حدث بك حدث أن يقع الناس في مثل ما وقعوا فيه بعد قتل عثمان، فاجعل للناس بعدك علماً يفرعون إليه، واجعل ذلك يزيد ابنك. قال: فدخل معاوية على امرأته فاختة بنت قرطة بن حبيب بن عبد شمس وكان ابنها منه عبد الله بن معاوية، وقد كان بلغها ما قال المغيرة، وما أشار به عليه من البيعة ليزيد وكان يزيد بن الكلبي ميسون ابنة عبد الرحمن بن بحدل الكلبي. فقالت فاختة، وكانت معادية الكلبي، ما أشار به عليك المغيرة؟ أراد أن يجعل لك عدواً من نفسك، يتمنى هلاكك كل يوم، فشق ذلك على معاوية، ثم بدا له أن يأخذ بما أشار عليه المغيرة بن شعبة.

ما حاول معاوية في بيعة يزيد:

قال: فلما اجتمعت عند معاوية وفود الأمصار بدمشق، وفيهم الأحنف بن قيس، دعا معاوية الضحاك بن قيس الفهري، فقال له: إذا جلست على المنبر، وفرغت من بعض موعظتي وكلامي، فاستأذني للقيام، فإذا أذنت لك، فاحمد الله تعالى، واذكر يزيد، وقل فيه الذي يحق له عليك، من حسن الثناء عليه، ثم ادعني إلى توليته من بعدي فإني قد رأيت وأجمعت على توليته، فأسأل الله في ذلك، وفي غيره الخيرة وحسن القضاء.

ثم دعا عبد الرحمن بن عثمان الثقفي وعبد الله بن مسعدة الفزاري، وثور بن معن السلمي، وعبد الله بن عصام الأشعري، فأمرهم أن يقوموا إذا فرغ الضحاك وأن يصدقوا قوله، ويدعوه إلى بيعة يزيد.

ما تكلم به الضحاك بن قيس:

قال: فلما جلس معاوية على المنبر، وفرغ من بعض موعظته، وهؤلاء نفر في المجلس قد قعدوا للكلام، قام الضحاك بن قيس، فاستأذن في الكلام، فأذن له، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أصلح الله أمير المؤمنين، وأمتع به، إنا قد بلونا الجماعة والألفة، والاختلاف والفرقة فوجدناها ألم لشعثنا، وأمنة لسبلنا، وحاقنة لدمائنا، وعائدة علينا في عاجل ما نرجو وآجل ما نؤمل. مع ما ترجو به الجماعة من الألفة، ولا خير لنا أن نترك سدى، والأيام عُوج رواجع، والله يقول: "كل يوم هو في شأن" الرحمن: 29، ولسنا ندري ما يختلف به العصران، وأنت يا أمير المؤمنين ميت كما مات من كان قبلك من أنبياء الله وخلفائه، نسأل الله تعالى بك المتاع، وقد رأينا من دعة يزيد بن أمير المؤمنين، وحسن مذهبه، وقصد سيرته، وبمن نقيبته، مع ما قسم الله له من المحبة في المسلمين، والشبه بأمر المؤمنين، في عقله وسياسته وشيمته المرضية، ما دعانا إلى الرضا به في أمورنا، والقنوع به في الولاية علينا، فليوله أمير المؤمنين - أكرمه الله - عهده، وليجعل لنا ملجأ ومفرجاً بعده، نأوي إليه إن كان كون فإنه ليس أحد أحق بها منه، فاعزم على ذلك، عزم الله لك في رشدك، ووفقك في أمورنا.

ما قال عبد الرحمن بن عثمان:

قال: ثم قام عبد الرحمن بن عثمان الثقفي، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أصلح الله أمير المؤمنين، إنا قد أصبحنا في زمان مختلفة أهواؤه، قد أهدودبت علينا سيساؤه، واقطوطبت علينا أدواؤه، وأناخت علينا أبناؤه، ونحن نشير عليك بالرشاد، وندعوك إلى السداد، وأنت - يا أمير المؤمنين - أحسننا نظراً وأثبتنا بصراً، ويزيد بن أمير المؤمنين قد عرفنا سيرته، وبلونا علانيته، ورضينا ولايته، وزادنا بذلك انبساطاً، وبه اغتباطاً، ما منحه الله من الشبه بأمر المؤمنين والمحبة في المسلمين، فاعزم على ذلك، ولا تضق به ذرعاً، فالله تعالى يقيم به الأود، ويردع به الألد، وتأمين به السبل، ويجمع به الشمل، ويعظم به الأجر، ويحسن به الذخر. ثم جلس.

ما قال ثور بن معن:

قال: ثم قام ثور بن معن السلمي، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أصلح الله أمير المؤمنين، إنما قد أصبحنا في زمان صاحبه شاغب، وظله ذاهب مكتوب علينا فيه الشقاء والسعادة، وأنت يا أمير المؤمنين ميت نسأل الله بك المتاع ويزيد بن أمير المؤمنين أقدمنا شرفاً، وأبدلنا عرفاً وقد دعانا إلى الرضا به، والقنوع بولايته، والحرص عليه، والاختيار له ما قد عرفنا من صدق لسانه ووفائه، وحسن بلائه، فاجعله لنا بعدك خلفاً، فإنه أوسعنا كنفاً، وأقدمنا سلفاً، وهو رتق لما فتق، وزمام لما شُعب، ونكال لمن فارق وناق، وسلم لمن واطب، وحافظ للحق، أسأل الله لأمر المؤمنين أفضل البقاء والسعادة، والخيرة فيما أراد، والتوطن في البلاد، وصلاح أمر جميع العباد. ثم جلس.

ما تكلم به عبد الله بن عصام:

قال: ثم قام عبد الله بن عصام، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أصلح الله أمير المؤمنين، وأمتع به، إنا قد أصبحنا في دنيا منقضية، وأهواء منجذمة نخاف هدها، وننتظر جدما، شديد منحدرها، كثير وعرها، شائخة مراقيها، ثابتة مراتبها، صعبة مراكبها، فالموت يا أمير المؤمنين وراءك ووراء العباد، لا يخلد في الدنيا أحد، ولا يبقى لنا أمد، وأنت يا أمير المؤمنين مسؤول عن رعيتك، ومأخوذ بولايته، وأنت أنظر للجماعة وأعلى عيناً بحسن الرأي لأهل الطاعة، وقد هديت ليزيد في أكمل الأمور وأفضلها رأياً، وأجمعها رضاً، فاقطع بيزيد قالة الكلام، ونخوة المبطل، وشغب المنافق، واكتب به الباذخ المعادي، فإن ذلك ألم للشمّل وأسهل للوعث، فاعزم على ذلك، ولا تتراعى بك الظنون.

ما تكلم به عبد الله بن مسعدة:

ثم قام عبد الله بن مسعدة الفزاري، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أصلح الله أمير المؤمنين، وأمتع به. إن الله قد أترك بخلافته، واختصك بكرامته، وجعلك عصمة لأوليائه، وذا نكاية لأعدائه، فأصبحت بأنعمه جذلاً، ولما حملك محتملاً، يكشف الله تعالى بك العمى، ويهدي بك العدى، ويزيد بن أمير المؤمنين أحسن الناس برعيتك رافة، وأحقهم بالخلافة بعدك، قد ساس الأمور، وأحكمته الدهور، ليس بالصغير الفهيه، ولا بالكبير السفهيه، قد احتجن المكارم، وارتجى لحمل العظائم، وأشد الناس في العدو نكاية، وأحسنهم صنعا في الولاية، وأنت أغنى بأمرك، وأحفظ لوصيتك، وأحرز لنفسك. أسأل الله لأمر المؤمنين العافية في غير جهد، والنعمة في غير تغيير.

ما قال الأحنف بن قيس:

قال: فقال معاوية: أوكلكم قد أجمع رأيه على ما ذكرنا؟ فقالوا: كلنا قد أجمع رأيه على ما ذكرنا. قال: فأين الأحنف؟ فأجابه، قال: ألا تتكلم؟ فقام الأحنف فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أصلح الله أمير المؤمنين، إن الناس قد أمسكوا في منكر زمان قد سلف، ومعروف زمان مؤتلف، ويزيد بن أمير المؤمنين نعم الخلف، وقد حلبت الدهر أشطره يا أمير المؤمنين، فاعرف من تسند إليه الأمر من بعدك، ثم اعص أمر من يأمر، لا يغرك من يشير عليك، ولا ينظر لك، وأنت أنظر للجماعة، وأعلم باستقامة الطاعة، مع أن أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون بهذا، ولا يبايعون ليزيد ما كان الحسن حياً.

ما رد الضحاك بن قيس عليه:

قال: فغضب الضحاك بن قيس، فقام الثانية، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أصلح الله أمير المؤمنين. إن أهل النفاق من أهل العراق، مروءتهم في أنفسهم الشقاق، وألفتهم في دينهم الفراق، يرون الحق على أهوائهم، كأنما ينظرون بأقفائهم، اختالوا جهلاً وبطراً، لا يرقبون من الله راقبة، ولا يخافون وبال عاقبة، اتخذوا إبليس لهم رباً، واتخذهم إبليس حزباً، فمن يقاربوه لا يسروه، ومن يفارقوه لا يضروه، فادفع رأيهم يا أمير المؤمنين في نخورهم، وكلامهم في صدورهم، ما للحسن وذوي الحسن في سلطان الله الذي استخلف به معاوية في أرضه؟ هيهات لا تورث الخلافة من كلاله، ويحجب غير الذكر العصبية، فوطنوا أنفسكم يا أهل العراق على المناصحة لإمامكم، وكاتب نبيكم وصهره، يسلم لكم العاجل، وترجوا من الآجل.

ما أجاب به الأحنف بن قيس:

قال: ثم قام الأحنف بن قيس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا أمير المؤمنين، إنا قد فررنا عنك قريشاً، فوجدناك أكرمها زنداً، وأشدّها عقداً، وأوفاهها عهداً، وقد علمت أنك لم تفتح العراق عنوة، ولم تظهر عليها قعصاً، ولكنك أعطيت الحسن بن علي من عهود الله ما قد علمت، ليكون له الأمر من بعدك، فإن تف فأنت أهل الوفاء، وإن تغدر تعلم والله إن وراء الحسن خيولاً جياداً، وأذرعاً شداداً، وسيوفاً حداداً، إن تدن له شبراً من غدر، تجد وراءه باعاً من نصر، وإنك تعلم أن أهل العراق ما أحبوك منذ أبغضوك، ولا أبغضوا علياً وحسناً منذ أحبوهما، وما نزل عليهم في ذلك غير من السماء، وإن السيوف التي شهروها عليك مع علي يوم صفين لعلى عواتقهم، والقلوب التي أبغضوك بها لبين جوانحهم، وأيم الله إن الحسن لأحب إلى أهل العراق من علي.

ما قال عبد الرحمن بن عثمان:

قال: ثم قام عبد الرحمن بن عثمان الثقفي، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أصلح الله أمير المؤمنين، إن رأي الناس مختلف، وكثير منهم منحرف، لا يدعون أحداً إلى رشاد، ولا يجيئون داعياً إلى سداد، بجانبون لرأي الخلفاء، مخالفون لهم في السنة والقضاء، وقد وقفت ليزيد في أحسن القضية، وأرضاها لحمل الرعية، فإذا حار الله لك، فاعزم، ثم اقطع قالة الكلام، فإن يزيد أعظمنا حلماً وعلماً، وأوسعنا كنفاً، وخيرنا سلفاً، قد أحكمته التجارب، وقصدت به سبل المذاهب، فلا يصرفنك عن بيعته صارف، ولا يقفن بك دونها واقف، ممن هو شاسع عاص، ينوص للفتنة كل مناص، لسانه ملتو، وفي صدره داء دوي، إن قال فشر قائل، وإن سكت فذود غائل، قد عرفت من هم أولئك وما هم عليه لك، من المجانبية للتوفيق، والكلف للتفريق، فأجل ببيعته عنا الغمة، واجمع به شمل الأمة، فلا تحذ عنه إذ هديت له، ولا تنش عنه إذ وقفت له، فإن ذلك الرأي لنا ولك، والحق علينا وعليك، أسأل الله العون وحسن العاقبة لنا ولك بمنه.

ما قال معاوية بن أبي سفيان:

قال: فقام معاوية فقال: أيها الناس، إن إبليس من الناس إخواناً وخلاناً بهم يستعد، وإياهم يستعين، وعلى ألسنتهم ينطق، إن رجوا طمعاً أو جفوا، وإن استغنى عنهم أرحفوا ثم يلحقون الفتن بالفجور، ويشققون لها حطب النفاق، عيابون مرتابون، إن ولوا عروة أمر حنقوا، وإن دعوا إلى غي أسرفوا، وليسوا أولئك بمنتهين ولا بمقلعين ولا متعطين، حتى تصيهم صواعق خزي وبيل، وتحل بهم قوارع أمر جليل، تجتث أصولهم كاجتثاث أصول الفقع، فأولى لأولئك ثم أولى، فإننا قد قدمنا وأندرننا إن أغنى التقديم شيئاً أو نفع النذير.

قال: فدعا معاوية الضحاك فولاه الكوفة، ودعا عبد الرحمن فولاه الجزيرة، ثم قام أبو حنيفة، فقال: يا أمير المؤمنين، إنا لا نطيق السنة مضر وخطبها، أنت يا أمير المؤمنين، فإن هلك فيزيد بعدك، فمن أبي فهذا، وسل سيفه، فقال معاوية: أنت أخطب القوم وأكرمهم.

ثم قام الأحنف بن قيس، فقال: يا أمير المؤمنين، أنت أعلمنا ببليله ونهاره، وبسره وعلايته فإن كنت تعلم أنه خير لك فوله واستخلفه، وإن كنت تعلم أنه شر لك، فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة، فإنه ليس لك من الآخرة إلا ما طاب؛ واعلم أنه لا حجة لك عند الله إن قدمت يزيد على الحسن والحسين، وأنت تعلم من هما، وإلى ما هما، وإنما علينا أن نقول: "سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير" البقرة:

285.

قدوم معاوية المدينة وما خاوض فيه العبادلة:

قال: قالوا: فاستخار الله معاوية، وأعرض عن ذكر البيعة، حتى قدم المدينة سنة خمسين، فتلقياه الناس، فلما استقر في منزله أرسل إلى عبد الله بن عباس، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب وإلى عبد الله بن عمر، وإلى عبد الله بن الزبير، وأمر حاجبه أن لا يأذن لأحد من الناس حتى يخرج هؤلاء النفر، فلما جلسوا تكلم معاوية، فقال: الحمد لله الذي أمرنا بحمده، ووعدنا عليه ثوابه، نحمده كثيراً، كما أنعم علينا كثيراً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله. أما بعد، فإني قد كبر سني، ووهن عظمي، وقرب أجلي، وأوشكت أن أدعى فأجيب، وقد رأيت أن أستخلف عليكم بعدي يزيد، ورأيتكم رضا، وأنتم عبادلة قريش وخيارها، وأبناء خيارها، ولم يمنعني أن أحضر حسناً وحسيناً إلا أنهما أولاد أبيهما علي على حسن رأيي فيهما، وشديد محبتي لهما، فردوا على أمير المؤمنين خيراً رحمكم الله.

ما تكلم به عبد الله بن عباس:

قال: فتكلم عبد الله بن عباس، فقال: الحمد لله الذي ألهنا أن نحمده، واستوجب علينا الشكر على آلائه، وحسن بلائه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وصلى الله على محمد وآل محمد. أما بعد، فإنك قد تكلمت فأنصتنا، وقلت فسمعنا، وإن الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه، اختار محمداً صلى الله عليه وسلم لرسالته، واختاره لوحيه، وشرفه على خلقه، فأشرف الناس من تشرف به، وأولاهم بالأمر أحصهم به، وإنما على الأمة التسليم لنبيها، إذ اختاره الله لها، فإنه إنما اختار محمداً بعلمه، وهو العليم الخبير، وأستغفر الله لي ولكم.

ما تكلم به عبد الله بن جعفر:

قال: فقام عبد الله بن جعفر، فقال: الحمد لله أهل الحمد ومنتهاه، نحمده على إلهامنا حمده، ونرغب إليه في تأدية حقه، وأشهد أن لا إله إلا الله واحداً صمداً، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم: أما بعد، فإن هذه الخلافة إن أخذ فيها بالقرآن، فأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله، وإن أخذ فيها بسنة رسول الله، فأولو رسول الله، وإن أخذ فيها بسنة الشيخين أبي بكر وعمر فأبي الناس أفضل وأكمل وأحق بهذا الأمر من آل الرسول؟ وأيم الله لو ولوه بعد نبيهم لوضعوا الأمر موضعه، لحقه وصدقته، ولأطيع الرحمن، وعصي الشيطان، وما اختلف في الأمة سيفان، فاتق الله يا معاوية، فإنك قد صرت راعياً، ونحن رعية، فانظر لرعتك فإنك مسؤول عنها غداً، وأما ما ذكرت

من ابني عمي، وتركك أن تحضرهما، فوالله ما أصبت الحق، ولا يجوز لك ذلك إلا بهما، وإنك لتعلم أنهما معدن العلم والكرم، فقل أو دع. وأستغفر لي الله ولكم.

ما تكلم به عبد الله بن الزبير:

قال: فتكلم عبد الله بن الزبير، فقال: الحمد لله الذي عرفنا دينه، وأكرمنا برسوله، أحمدته على ما أبلى وأولى، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، أما بعد: فإن هذه الخلافة لقريش خاصة، تتناولها بمآثرها السنية، وأفعالها المرضية، مع شرف الآباء، وكرم الأبناء، فأتق الله يا معاوية وأنصف من نفسك، فإن هذا عبد الله بن عباس بن عم رسول الله، وهذا عبد الله بن جعفر ذو الجناحين بن عم رسول الله، وأنا عبد الله بن الزبير بن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلي خلف حسناً وحسيناً، وأنت تعلم من هما، وماهما، فأتق الله يا معاوية، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك، ثم سكت.

ما تكلم به عبد الله بن عمر:

فتكلم عبد الله بن عمر، فقال: الحمد لله الذي أكرمنا بدينه، وشرفنا بنبيه صلى الله عليه وسلم أما بعد: فإن هذه الخلافة ليست بهرقلية، ولا قيصرية ولا كسروية يتوارثها الأبناء عن الآباء ولو كان كذلك كنت القائم بها بعد أبي، فوالله ما أدخلني مع الستة من أصحاب الشورى إلا على أن الخلافة ليست شرطاً مشروطاً، وإنما هي في قريش خاصة، لمن كان لها أهلاً ممن ارتضاه المسلمون لأنفسهم، من كان أتقى وأرضى، فإن كنت تريد الفتیان من قريش، فلعمري إن يزيد من فتياها، واعلم أنه لا يغني عنك من الله شيئاً.

ما تكلم به معاوية:

فتكلم معاوية فقال: قد قلت وقتلتم، وإنه ذهبت الآباء، وبقيت الأبناء، فابني أحب إلي من أبنائهم، مع أن ابني إن قاو لتموه وجد مقالاً، وإنما كان هذا الأمر لبني عبد مناف، لأنهم أهل رسول الله، فلما مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولي الناس أبا بكر وعمر من غير معدن الملك ولا الخلافة، غير أنهما سارا بسيرة جميلة، ثم رجع الملك إلى بني عبد مناف، فلا يزال فيهم إلى يوم القيامة، وقد أخرجك الله يا بن الزبير، وأنت يا بن عمر منها، فأما ابنا عمي هذان فليسا بخارجين عن الرأي إن شاء الله. ثم أمر بالرحلة، وأعرض عن ذكر البيعة ليزيد، ولم يقطع عنهم شيئاً من صلاتهم وأعطيتهم. ثم انصرف راجعاً إلى الشام، وسكت عن البيعة، فلم يعرض لها إلى سنة إحدى وخمسين.

موت الحسن بن علي رضي الله عنهما:

قال: فلما كانت سنة إحدى وخمسين، مرض الحسن بن علي مرضه الذي مات فيه، فكتب عامل المدينة إلى معاوية يخبره بشكاية الحسن، فكتب إليه معاوية: إن استطعت ألا يمضي يوم يمر بي إلا يأتيني فيه خبره فافعل، فلم يزل يكتب إليه بحاله حتى توفي. فكتب إليه بذلك، فلما أتاه الخبر أظهر فرحاً وسروراً، حتى سجد وسجد من كان معه، فبلغ ذلك عبد الله بن عباس، وكان بالشام يومئذ، فدخل على معاوية، فلما جلس قال معاوية: يا بن عباس هلك الحسن بن علي، فقال بن عباس: نعم هلك "إنا لله وإنا إليه راجعون" ترجيعاً مكرراً، وقد بلغني الذي أظهرت من الفرح والسرور لوفاته. أما والله ما سد جسده حفرتك، ولا زاد نقصان أجله في عمرك، ولقد مات وهو خير منك، ولئن أصبنا به لقد أصبنا بمن كان خيراً منه، جده رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجبر الله مصيبتَه، وخلف علينا من بعده أحسن الخلافة. ثم شهق بن عباس وبكى، وبكى من حضر في المجلس، وبكى معاوية، فما رأيت يوماً أكثر باكياً من ذلك اليوم، فقال معاوية: بلغني أنه ترك بنين صغاراً. فقال بن عباس: كلنا كان صغيراً فكبر. قال معاوية: كم أتى له من العمر؟ فقال بن عباس: أمر الحسن أعظم من أن يجهل أحد مولده. قال: فسكت معاوية يسيراً، ثم قال: يا بن العباس: أصبحت سيد قومك من بعده، فقال بن عباس: أما ما أبقي الله أبا عبد الله الحسين فلا. قال معاوية: لله أبوك يا بن عباس، ما استنبأتك إلا وجدتك معداً.

بيعة معاوية ليزيد بالشام وأخذ أهل المدينة:

قالوا: ثم لم يلبث معاوية بعد وفاة الحسن رحمه الله إلا يسيراً حتى بايع ليزيد بالشام، وكتب بيعته إلى الآفاق، وكان عامله على المدينة مروان بن الحكم، فكتب إليه يذكر الذي قضى الله به على لسانه من بيعة يزيد، ويأمره أن يجمع من قبله من قريش وغيرهم من أهل المدينة، ثم يبايعوا ليزيد.

عزل مروان عن المدينة:

قال: فلما قرأ مروان كتاب معاوية أبي من ذلك. وأبته قريش. فكتب لمعاوية: إن قومك قد أبوا إجابتك إلى بيعتك ابنك، فأرأيتك. فلما بلغ معاوية كتاب مروان عرف أن ذلك من قبله. فكتب إليه يأمره أن يعتزل عمله، ويخبره أنه قد ولي المدينة سعيد بن العاص، فلما بلغ مروان كتاب معاوية، أقبل مغاضباً في أهل بيته، وناس كثير من قومه، حتى نزل بأخواله بني كنانة، فشكا إليهم، وأخبرهم بالذي كان من رأيه في أمر معاوية، وفي عزله واستخلافه يزيد ابنه عن غير مشورة مبادرة له، فقالوا: نحن نبلك في يدك،

وسيفك في قرابك فمن رميته بنا أصبناه، ومن ضربته بنا قطعناه، الرأي رأيك، ونحن طوع يمينك. ثم أقبل مروان في وفد منهم كثير، ممن كان معه من قومه وأهل بيته حتى نزل دمشق، فخرج فيهم حتى أتى سدة معاوية، وقد أذن للناس. فلما نظر الحاجب إلى كثرة من معه من قومه وأهل بيته، منعه من الدخول، فوثبوا إليه، فضربوا وجهه، حتى خلى عن الباب، ثم دخل مروان، ودخلوا معه، حتى إذا كان من معاوية بحيث تناله يده.

خطبة مروان بن الحكم بين يدي معاوية:

قال بعد التسليم عليه بالخلافة: إن الله عظيم خطره، لا يقدر قادر قدره، خلق من خلقه عبداً، جعلهم لدعائم دينه أوتاداً، هم رقباؤه على البلاد، وخلفاؤه على العباد، أسفر بهم الظلم، وألف بهم الدين، وشدد بهم اليقين ومنح بهم الظفر، ووضع بهم من استكبر، فكان من قبلك من خلفائنا يعرفون ذلك في سالف زماننا، وكنا نكون لهم على الطاعة إخواناً، وعلى من خالف عنها أعواناً، يشد بنا العضد، ويقام بنا الأود، ونستشار في القضية، ونستأمر في أمر الرعية، وقد أصبحنا اليوم في أمور مستحيرة ذات وجوه مستديرة، تفتح بأزمة الضلال، وتجلس بأهواء الرجال، يؤكل جزورها، وتمق أحلامها فما لنا لا نستأمر في رضاعها، ونحن فطامها وأولات فطامها؟ وأيم الله لولا عهود مؤكدة، ومواثيق معقدة لأقمت أود وليها، فأقم الأمر يا بن سفيان واهدي من تأميرك الصبيان، واعلم أن لك في قومك نظراً، وأن لهم على مناواتك وزراً.

فغضب معاوية من كلامه غضباً شديداً، ثم كظم غيظه بحلمه، وأخذ بيد مروان، ثم قال: إن الله قد جعل لكل شيء أصلاً، وجعل لكل خير أهلاً ثم جعلك في الكرم مني محتداً، والعزير مني والداً، اخترت من قروم قادة، ثم استللت سيد سادة، فأنت بن ينابيع الكرم، فمرحباً بك وأهلاً من بن عم ذكرت خلفاً مفقودين، شهداء صديقين، كانوا كما نعت، وكنت لهم كما ذكرت، وقد أصبحنا في أمور مستحيرة، ذات وجوه مستديرة، وبك والله يا بن العم نرجو استقامة أودها، وذلوله صعوبتها، وسفور ظلمتها، حتى يتطأطأ جسيمها، ويركب بك عظيمها، فأنت نظير أمير المؤمنين بعده، وفي كل شدة عضده، وإليك عهد عهده، فقد وليتك قومك، وأعظمنا في الخراج سهمك، وأنا مجيز وفدك، ومحسن رفدك، وعلى أمير المؤمنين غناك، والتزول عند رضاك.

فكان أول ما رزق ألف دينار في كل هلال، وفرض له في أهل بيته مئة مئة.

كراهية أهل المدينة البيعة وردهم لها:

قال وذكروا أن معاوية كتب إلى سعيد بن العاص وهو على المدينة، يأمره أن يدعو أهل المدينة إلى البيعة، ويكتب إليه بمن سارع ممن لم يسارع. فلما أتى سعيد بن العاص الكتاب، دعا الناس إلى البيعة ليزيد، وأظهر الغلظة وأخذهم بالعزم والشدة، وسطا بكل من أبطأ عن ذلك، فأبطأ الناس عنها، إلا اليسير، لا سيما بني هاشم، فإنه لم يجبه منهم أحد، وكان بن الزبير من أشد الناس إنكاراً لذلك، ورداً له. فكتب سعيد بن العاص إلى معاوية: أما بعد، فإنك أمرتني أن أدعو الناس لبيعة يزيد بن أمير المؤمنين، وأن أكتب إليك بمن سارع ممن أبطأ، وإني أخبرك أن الناس عن ذلك بطاء، لا سيما أهل البيت من بني هاشم، فإنه لم يجبني منهم أحد، وبلغني عنهم ما أكره وأما الذي جاهر بعداوته، وإبائه لهذا الأمر، فعبد الله بن الزبير، ولست أقوى عليهم إلا بالخیل والرجال أو تقدم بنفسك، فترى رأيك في ذلك، والسلام. فكتب معاوية إلى عبد الله بن عباس، وإلى عبد الله بن الزبير، وإلى عبد الله بن جعفر، وإلى الحسين بن علي، رضي الله عنهم كتباً، وأمر سعيد بن العاص أن يوصلها إليهم، ويبحث بجواباتها.

كتاب معاوية إلى سعيد بن العاص:

كتب إلى سعيد بن العاص، أما بعد، فقد أتاني كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه من إبطاء الناس عن البيعة. ولا سيما بني هاشم، وما ذكر بن الزبير وقد كتبت إلى رؤسائهم كتباً، فسلمها إليهم، وتنجز جواباتها، وابعث بها إلي، حتى أرى في ذلك رأيي، ولتشتد عزميتك، ولتصلب شكيمتك، وتحسن نيتك. وعليك بالرفق، وإياك والخرق، فإن الرفق رشد، والخرق نكد، وانظر حسناً خاصة، فلا يناله منك مكروه، فإن له قرابة وحقاً عظيماً لا ينكره مسلم ولا مسلمة، وهو ليث عرين، ولست آمنك إن شاورته أن لا نقوى عليه، فأما من يرد مع السباع إذا وردت، ويكنس إذا كنست، فذلك عبد الله بن الزبير، فاحذره أشد الحفر، ولا قوة إلا بالله، وأنا قادم عليك إن شاء الله، والسلام.

ما كتب به إلى بن عباس:

وكتب إلى بن عباس: أما بعد، فقد بلغني إبطاؤك عن البيعة ليزيد بن أمير المؤمنين، وإني لو قتلتك بعثمان لكان ذلك إلي، لأنك ممن ألب عليه وأجلب، وما معك من أمان فتطمئن به، ولا عهد فتسكن إليه، فإذا أتاك كتابي هذا، فاخرج إلى المسجد، والعن قتلة عثمان، وبائع عاملي، فقد أعذر من أنذر وأنت بنفسك أبصر، والسلام.

ما كتب به إلى عبد الله بن جعفر:

وكتب إلى عبد الله بن جعفر: أما بعد، فقد عرفت أثرتي إياك على من سواك، وحسن رأيي فيك وفي أهل بيتك، وقد أتاني عنك ما أكره، فإن بايعت تشكر وإن تأب تجهر، والسلام.

ما كتب به إلى الحسين:

وكتب إلى الحسين: أما بعد، فقد انتهت إلي منك أمور، لم أكن أظنك بها رغبة عنها، وإن أحق الناس بالوفاء لمن أعطى بيعة من كان مثلك، في خطرك وشرfk ومثرتك التي أنزلك الله بها، فلا تنازع إلى قطيعتك، واتق الله ولا تردن هذه الأمة في فتنة، وانظر لنفسك ودينك وأمة محمد، ولا يستخفّنك الذين لا يوقنون.

ما كتبه إلى بن الزبير:

وكتب إلى عبد الله بن الزبير:

رأيت كرام الناس إن كف عنهم	بحلم رأوا فضلاً لمن قد تحلما
ولا سيما إن كان عفواً بقدرة	فذلك أحرى أن يجل ويعظما
ولست بذلي لوم فتعذر بالذي	أتاه من الأخلاق من كان ألوما
ولكن غشاً لست تعرف غيره	وقد غش قبل اليوم إبليس آدمما
فما غش إلا نفسه في فعاله	فأصبح ملعوناً وقد كان مكرما
إني لأخشى أن أنالك بالذي	أردت فيجزى الله من كان أظلما

ما أجابه القوم به رضي الله عنهم:

فكان أول ما أجابه عبد الله بن عباس، فكتب إليه: أما بعد، فقد جاءني كتابك، وفهمت ما ذكرت، وأن ليس معي منك أمان، وإنه والله ما منك يطلب الأمان يا معاوية، وإنما يطلب الأمان من الله رب العالمين. وأما قولك في قتلي، فوالله لو فعلت للقيت الله، ومحمد صلى الله عليه وسلم خصمك، فما إخاله أفلح ولا أنجح من كان رسول الله خصمه. وأما ما ذكرت من أي ممن ألب في عثمان وأجلب، فذلك أمر غبت عنه، ولو حضرته ما نسبت إلي شيئاً من التأليب عليه، وأيم الله ما أرى أحداً غضب لعثمان غضبي، ولا

أعظم أحد قتله إعظامي، ولو شهدته لنصرته، أو أموت دونه، ولقد قلت وتمنيت يوم قتل عثمان: ليت الذي قتل عثمان لقيني فقتلني معه، ولا أبقى بعده أ وأما قولك لي: العن قتلة عثمان، فلعثمان ولد وخاصة وقراة، هم أحق بلعنهم مني، فإن شاؤوا أن يلعنوا فليلعنوا، وإن شاؤوا أن يمسكوا فليمسكوا، والسلام. وكتب إليه عبد الله بن جعفر: أما بعد، فقد جاءني كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه من أثرتك إياي على من سواي، فإن تفعل فبحظك أصبت، وإن تأب فبنفسك قصرت. وأما ما ذكرت من جبرك إياي على البيعة ليزيد، فلعمري لئن أجبرتني عليها لقد أجبرناك وأباك على الإسلام، حتى أدخلنا كما كارهين غير طائعين، والسلام. وكتب إليه عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما:

ألا سمع الله الذي أنا عبده	فأخزى إله الناس من كان أظلماً
وأجرا على الله العظيم بحلمه	وأسرعهم في الموبقات تقحماً
غرك أن قالوا حلیم بغرة	وليس بذی حلم ولكن تحلما
ولو رمت ما إن قد زعمت وجدنتي	هزبر عرين يترك القرن أكتما
وأقسم لو لا بيعة لك لم أكن	لأنقضها لم تتج مني مسلما

وكتب إليه الحسين رضي الله عنه: أما بعد، فقد جاءني كتابك تذكر فيه أنه انتهت إليك عني أمور؛ لم تكن تظنني بها، رغبة بي عنها، وإن الحسنات لا يهدي لها، ولا يسدد إليها إلا الله تعالى، وأما ما ذكرت أنه رقي إليك عني، فإنما رقاها الملاقون، المشاؤون بالنميمة، المرفقون بين الجمع، وكذب الغاوون المارقون، ما أردت حرباً ولا خلافاً، وإني لأخشى الله في ترك ذلك، منك ومن حزبك، القاسطين الخفين، حزب الظالم، وأعوان الشيطان الرجيم. ألسنت قاتل حجر، وأصحابه العابدين المخبتين، الذين كانوا يستفطعون البدع، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، فقتلتهم ظلماً وعدواناً، من بعدما أعيتهم المواثيق الغليظة، والعهود المؤكدة، جراءة على الله واستخفافاً بعهده، أو لست بقاتل عمرو بن الحمق، الذي أخلقت وأبليت وجهه العبادة، فقتلته من بعدما أعطيته من العهود ما لو فهمته العصم، نزلت من شعف الجبال، أولست المدعي زياداً في الإسلام، فرعمت أنه بن أبي سفيان، وقد قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن الولد للفراش وللعاهر الحجر، ثم سلطته على أهل الإسلام، يقتلهم ويقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ويصلبهم على جذوع النخل، سبحان الله يا معاوية! لكأنك لست من هذه الأمة، وليسوا منك. أولست قاتل الحضرمي الذي كتب إليك فيه زياد أنه على دين علي كرم الله وجهه، ودين علي هو دين

بن عمه صلى الله عليه وسلم، الذي أجلسك مجلسك الذي أنت فيه، ولولا ذلك كان أفضل شرفك وشرف آبائك تجشم الرحلتين: رحلة الشتاء والصيف، فوضعها الله عنكم بنا، منة عليكم، وقلت فيما قلت: لا ترد هذه الأمة في فتنة، وإني لا أعلم لها فتنة أعظم من إمارتك عليها، وقلت فيما قلت: انظر لنفسك ولدينك ولأمة محمد، وإني والله ما أعرف أفضل من جهادك، فإن أفعل فإنه قربة إلى ربي، وإن لم أفعله فاستغفر الله لديني، وأسأله التوفيق لما يحب ويرضى، وقلت فيما قلت: متى تكدي أكذك، فكدي يا معاوية فيما بدا لك، فلعمري لقدبما يكاد الصالحون، وإني لأرجو أن لا تضر إلا نفسك، ولا تحقق إلا عملك، فكدي ما بدا لك، واتق الله يا معاوية، واعلم أن الله كتاباً لا يغير صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. واعلم أن الله ليس بناس لك قتل بالظنة، وأخذك بالتهمة، وإمارتك صيباً يشرب الشراب، ويلعب بالكلاب، ما أراك إلا وقد أوبقت نفسك، وأهلكت دينك، وأضعت الرعية والسلام.

قدوم معاوية المدينة على هؤلاء القوم وما كان بينهم من المنازعة:

قال: وذكروا أنه لما جاب القوم معاوية بما جاوبوه، من الخلاف لأمره، والكرهية لبيعه ليزيد، كتب إلى سعيد بن العاص، يأمره أن يأخذ أهل المدينة بالبيعة ليزيد، أخذاً بغلظة وشدة، ولا يدع أحداً من المهاجرين والأنصار وأبنائهم حتى يبايعوا، وأمره أن لا يحرك هؤلاء النفر، ولا يهيجهم. فلما قدم عليه كتاب معاوية أخذهم بالبيعة أعنف ما يكون من الأخذ وأغلظه، فلم يبايعه أحد منهم. فكتب إلى معاوية: إنه لم يبايعني أحد، وإنما الناس تبع هؤلاء النفر، فلو بايعوك بايعك الناس جميعاً، ولم يتخلف عنك أحد. فكتب إليه معاوية يأمره أن لا يحركهم إلى أن يقدم، فقدم معاوية المدينة حاجاً، فلما أن دنا من المدينة خرج إليه الناس يتلقونه، ما بين راكب وماش، وخرج النساء والصبيان، فلقى الناس على حال طاقتهم وما تسارعوا به في القوت والقرب، فلان لمن كافحه، وفاوض العامة بمحادثته وتألفهم جهده، مقاربة ومصانعة، ليستميلهم إلى ما دخل فيه الناس، حتى قال في بعض ما يجتلبهم به: يا أهل المدينة ما زلت أطوي الحزن من وعثاء السفر بالحب لمطالعتكم، حتى انطوى البعيد، ولان الحشن، وحق لجار رسول الله أن يتاق إليه.

فرد عليه القوم: بنفسك ودارك ومهاجرك، أما إن لك منهم كإشفاق الحميم البر، والحفي المتعاهد. قال: حتى إذا كان بالجرف، لقيه الحسين بن علي، وعبد الله بن عباس، فقال معاوية: مرحباً يا بن بنت رسول الله وابن صنو أبيه، ثم انحرف إلى الناس، فقال: هذان شيخان بني عبد مناف، وأقبل عليهما بوجهه وحديثه، فرحب وقرب، وجعل يواجهه هذا مرة، ويضاحك هذا أخرى، حتى ورد المدينة، فلما خالطها لقيته المشاة والنساء والصبيان، يسلمون عليه ويسايرونه إلى أن نزل، فانصرفا عنه فمال الحسين إلى منزله،

ومضى عبد الله بن عباس إلى المسجد فدخله.

وأقبل معاوية ومعه خلق كثير من أهل الشام، حتى أتى عائشة أم المؤمنين فاستأذن عليها فأذنت له وحده، ولم يدخل عليها معه أحد، وعندها مولاها ذكوان. فقالت عائشة: يا معاوية، أكنت تأمن أن أقعد لك رجلاً فأقتلك كما قتلت أخي محمد بن أبي بكر؟ فقال معاوية: ما كنت لتفعلي ذلك، قالت: لم؟ قال: لأني في بيت آمن، بيت رسول الله. ثم إن عائشة حمدت الله وأثنت عليه، وذكرت رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكرت أبا بكر وعمر، وحضته على الاقتداء بهما، والاتباع لأثرهما، ثم صمتت. قال: فلم يخطب معاوية، وخاف أن لا يبلغ ما بلغت، فارتجل الحديث ارتجالاً، ثم قال: أنت - والله يا أم المؤمنين - العالمة بالله وبرسوله، دللتنا على الحق، وحضضتنا على حظ أنفسنا، وأنت أهل لأن يطاع أمرك، ويسمع قولك، وإن أمر يزيد قضاء من القضاء، وليس للعباد الخيرة من أمرهم، وقد أكد الناس بيعتهم في أعناقهم، وأعطوا عهودهم على ذلك وموآثيقهم، أفترين أن ينقضوا عهودهم وموآثيقهم؟ فلما سمعت ذلك عائشة علمت أنه سيمضي على أمره، فقالت: أما ما ذكرت من عهود وموآثيق، فأتق الله في هؤلاء الرهط، ولا تعجل فيهم، فلعلهم لا يصنعون إلا ما أحببت، ثم قام معاوية، فلما قام قالت عائشة: يا معاوية، قتلت حجراً وأصحابه العابدين المجتهدين. فقال معاوية، دعي هذا، كيف أنا في الذي بيني وبينك في حوائجك؟ قالت: صالح، قال: فدعينا وإياهم حتى نلقى ربنا، ثم خرج ومعه ذكوان، فاتكأ على يد ذكوان، وهو يمشي ويقول: تالله إن رأيت كالיום قط خطيباً أبلغ من عائشة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم مضى حتى أتى منزله. فأرسل إلى الحسين بن علي، فخلا به، فقال له: يا بن أخي، قد استوثق الناس لهذا الأمر، غير خمسة نفر من قريش، أنت تقودهم يا بن أخي، فما أربك إلى الخلاف؟ قال الحسين: أرسل إليهم، فإن بايعوك كنت رجلاً منهم، وإلا لم تكن عجلت علي بأمر. قال: وتفعل؟ قال: نعم، قال: فأخذ عليه أن لا يخبر بحدِيثهما أحداً، فخرج، وقد أقعد له بن الزبير رجلاً بالطريق، فقال: يقول لك أخوك بن الزبير: ما كان؟ فلم يزل به حتى استخرج منه شيئاً. قال: ثم أرسل معاوية بعده إلى بن الزبير، فخلا به. فقال له: قد استوثق الناس لهذا الأمر، غير خمس نفر من قريش أنت تقودهم، يا بن أخي، فما أربك إلى الخلاف؟ قال: فأرسل إليهم، فإن بايعوك كنت رجلاً منهم، وإلا لم تكن عجلت علي بأمر. قال: وتفعل؟ قال: نعم. فأخذ عليه أن لا يخبر بحدِيثهما أحداً. قال: فأرسل بعده إلى بن عمر، فأتاه وخلا به، فكلمه بكلام هو ألين من صاحبيه وقال: إني كرهت أن أدع أمة محمد بعدي كالضأن لا راعي لها، وقد استوثق الناس لهذا الأمر غير خمسة نفر أنت تقودهم، فما أربك إلى الخلاف؟ قال بن عمر: هل لك في أمر تحقن به الدماء وتدرك به حاجتك؟ فقال معاوية: وددت ذلك، فقال بن عمر: تبرز سريرك، ثم أجيء فأبايعك،

على أي بعدك أدخل فيما اجتمعت عليه الأمة، فوالله لو أن الأمة اجتمعت بعدك على عبد حبشي لدخلت فيما تدخل فيه الأمة. قال: وتفعل؟ قال: نعم. ثم خرج وأرسل إلى عبد الرحمن بن أبي بكر، فخلا به. قال: بأي يد أو رجل تقدم على معصيتي؟ فقال عبد الرحمن: أرجو أن يكون ذلك خيراً لي، فقال معاوية: والله لقد هممت أن أقتلك، فقال: لو فعلت لأتبعك الله في الدنيا، ولأدخلك به في الآخرة النار، قال: ثم خرج عبد الرحمن بن أبي بكر، وبقي معاوية يومه ذلك يعطي الخواص!، ويعصى مذمة الناس.

فلما كان صبيحة اليوم الثاني، أمر بفراش فوضع له، وسويت مقاعد الخاصة حوله وتلقاه من أهله، ثم خرج وعليه حلة يمانية، وعمامة دكناء، وقد أسبل طرفها بين كتفيه، وقد تغلى وتعطر، فقعده على سريره، وأجلس كتابه منه بحيث يسمعون ما يأمر به، وأمر حاجبه أن لا يأذن لأحد من الناس وإن قرب، ثم أرسل إلى الحسين بن علي، وعبد الله بن عباس، فسبق بن عباس، فلما دخل وسلم أقعده في الفراش عن يساره، فحادثه ملياً، ثم قال: يا بن عباس لقد وفر الله حظكم من مجاورة هذا القبر الشريف، ودار الرسول عليه الصلاة والسلام. فقال بن عباس: نعم أصلح الله أمير المؤمنين، وحظنا من القناعة بالبعض، والتجافي عن الكل أوفر، فجعل معاوية يحادثه ويحيد به عن طريق المجاورة، ويعدل إلى ذكر الأعمال على اختلاف الغرائز والطبائع، حتى أقبل الحسين بن علي؛ فلما رآه معاوية جمع له وسادة كانت على يمينه، فدخل الحسين وسلم، فأشار إليه، فأجلسه عن يمينه مكان الوسادة فسأله معاوية عن حال بني أخيه الحسن وأسنانهم، فأخبره، ثم سكت. قال: ثم ابتدأ معاوية فقال: أما بعد، فالحمد لله ولي النعم، ومثل النقم، وأشهد أن لا إله إلا الله المتعالي عما يقول الملحدون علواً كبيراً، وأن محمداً عبده المختص المبعوث إلى الجن والإنس كافة، لينذرهم بقرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. فأدى عن الله، وصدع بأمره، وصبر على الأذى في جنبه، حتى وضع دين الله، وعز أولياؤه، وقمع المشركون، وظهر أمر الله وهم كارهون؛ فمضى صلوات الله عليه، وقد ترك من الدنيا ما بذل له، واختار منها الترك لما سخر له، زهادة واختياراً لله، وأنفة واقتداراً على الصبر، بغياً لما يدوم ويبقى؟ فهذه صفة الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم خلفه رجلان محفوظان، وثالث مشكور، وبين ذلك خوض طال ما عاجلناه مشاهدة ومكافحة ومعاناة وسماعاً، وما أعلم منه فوق ما تعلمان، وقد كان من أمر يزيد سبقتم إليه وإلى تجويزه، وقد علم الله ما أحاول به في أمر الرعية، من سد الخلل، ولم الصدع بولاية يزيد بما أيقظ العين، وأحمد الفعل، هذا معناني في يزيد، وفيكما فضل القرابة، وحظوة العلم، وكمال المروءة، وقد أصبت من ذلك عند يزيد على المناظرة والمقابلة، ما أعياني مثله عندكما، وعند غيركما، مع علمه

بالسنة، وقراءة القرآن، والحلم الذي يرجح بالصم الصلاب، وقد علمتما أن الرسول المحفوظ بعصمة الرسالة، قدم على الصديق والفاروق، ومن دونهما من أكابر الصحابة، وأوئل المهاجرين يوم غزوة السلاسل، من لم يقارب القوم ولم يعاندهم برتبة في قرابة موصولة. ولا سنة مذكورة، فقادهم الرجل بأمره، وجمع بهم صلاتهم، وحفظ عليهم فيئهم، وقال فلم يقل معه، وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، فمهلاً بني عبد المطلب، فأنا وأنتم شعباً نفع وجد، وما زلت أرجو الإنصاف في اجتماعكما، فما يقول القائل إلا بفضل قولكما، فردا على ذي رحم مستعتب ما يحمد به البصيرة في عتابكما، وأستغفر الله لي ولكما.

قال: فتيسر بن عباس للكلام، ونصب يده للمخاطبة، فأشار إليه الحسين وقال: على رسلك، فأنا المراد، ونصبي في التهمة أوفر، فأمسك بن عباس، فقام الحسين، فحمد الله، وصلى على الرسول ثم قال: أما بعد يا معاوية، فلن يؤدي القائل، وإن أظن في صفة الرسول صلى الله عليه وسلم من جميع جزءاً، وقد فهمت ما لبست به الخلف بعد رسول الله من إيجاز الصفة والتكبر عن استبلاغ النعت، وهيهات هيهات يا معاوية: فضح الصبح فحمة الدجى، وبهرت الشمس أنوار السرج، ولقد فضلت حتى أفرطت، واستأثرت حتى أحجفت، ومنعت حتى محلت، وجزت حتى جاوزت ما بذلت لذي حق من اسم حقه بنصيب، حتى أخذ الشيطان حظه الأوفر، ونصيبه الأكمل، وفهمت ما ذكرته عن يزيد من اكتماله، وسياسته لأمة محمد، تريد أن توهم الناس في يزيد، كأنك تصف محجوباً، أو تنعت غائباً، أو تخبر عما كان مما احتويته بعلم خاص، وقد دل يزيد من نفسه على موقع رأيه فخذ ليزيد فيما أخذ فيه، من استقرائه الكلاب المهارشة عند التهارش، والحمام السبق لأتراهن، والقيان ذوات المعازف وضرب الملاهي تجده باصراً، ودع عنك ما تحاول، فما أغناك أن تلقى الله من وزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقية، فوالله ما برحت تقدح باطلاً في جور، وحنقاً في ظلم حتى ملأت الأسقية وما بينك وبين الموت إلا غمضة، فتقدم على عمل محفوظ، في يوم مشهود، ولات حين مناص، ورأيتك عرضت بنا بعد هذا الأمر، ومنعتنا عن آبائنا تراثاً، ولقد - لعمر الله - أورثنا الرسول عليه الصلاة والسلام ولادة وجئت لنا بها، أما حججتم به القائم عند موت الرسول، فأذعن للحجة بذلك، ورده الإيمان إلى النصف، فركبتم الأعالي، وفعلتم الأفاعيل، وقتلتم كان ويكون، حتى أتاك الأمر يا معاوية من طريق كان قصدها لغيرك، فهناك فاعتبروا يا أولي الأبصار، وذكرت قيادة الرجل القوم بعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأميره له، وقد كان ذلك، ولعمرو بن العاص يومئذ فضيلة بصحة الرسول، وبيعته له، وما صار - لعمر الله - يومئذ مبعثهم حتى أنف القوم إمرته، وكرهوا تقديمه، وعدوا عليه أفعاله، فقال صلى الله عليه وسلم: "لا جرم معشر

المهاجرين، لا يعمل عليكم بعد اليوم غيري". فكيف تحتج بالمنسوخ من فعل الرسول، في أوكد الأحكام، وأولاها بالجمع عليه من الصواب؟ أم كيف صاحبت بصاحب تابعا، وحولك من لا يؤمن في صحبته، ولا يعتمد في دينه وقرابته، وتتخطاهم إلى مسرف مفتون، تريد أن تلبس الناس شبهة يسعد بها الباقي في ديناه، وتشقى بها في آخرتك. إن هذا هو الخسران المبين. وأستغفر الله لي ولكم.

قال: فنظر معاوية إلى بن عباس فقال: ما هذا يا بن عباس؟ ولما عندك أدهى وأمر. فقال بن عباس: لعمر الله إنما لذرية الرسول، وأحد أصحاب الكساء، وفي البيت المطهر، فإله عما تريد، فإن لك في الناس مقنعا، حتى يحكم الله بأمره وهو خير الحاكمين. فقال معاوية: أعود الحلم التحلم، قال: وخيره التحلم عن الأهل. انصرفا في حفظ الله، ثم أرسل معاوية إلى عبد الرحمن بن أبي بكر، وإلى عبد الله بن عمر، وإلى عبد الله بن الزبير، فجلسوا، فحمد الله وأثنى عليه معاوية ثم قال: يا عبد الله بن عمر قد كنت تحدثنا أنك لا تحب أن تبیت ليلة وليس في عنقك بيعة جماعة وأن لك الدنيا وما فيها، وإني أحذرك أن تشق عصا المسلمين، وتسعى في تفريق ملثهم، وأن تسفك دماءهم، وإن أمر يزيد قد كان قضاء من القضاء، وليس للعباد خيرة من أمرهم، وقد وكد الناس بيعتهم في أعناقهم، وأعطوا على ذلك عهودهم ومواثيقهم، ثم سكت.

فتكلم عبد الله بن عمر، فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: أما بعد يا معاوية، لقد كانت قبلك خلفاء، وكان لهم بنون، ليس ابنك بخير من أبنائهم، فلم يروا في أبنائهم ما رأيت في ابنك. فلم يحابوا في هذا الأمر أحدا، ولكن اختاروا لهذه الأمة حيث علموهم، وإنك تحذرين أن أشق عصا المسلمين، وأفرق ملائمتهم. وأسفك دماءهم، ولم أكن لأفعل ذلك إن شاء الله، ولكن إن استقام الناس فسأدخل في صالح ما تدخل فيه أمة محمد. فقال معاوية: يرحمك الله ليس عندك خلاف. ثم قال معاوية لعبد الرحمن بن أبي بكر نحو ما قاله لعبد الله بن عمر. فقال له عبد الرحمن: إنك والله لوددت أنا نكلك إلى الله فيما جسرت عليه من أمر يزيد، والذي نفسي بيده لنجعلنها شورى، أو لأعيدنها جذعة، ثم قام ليخرج، فتعلق معاوية بطرف رداءه. ثم قال: على رسلك، اللهم اكفنيه بما شئت، ثم قال له: لا تظهرن لأهل الشام، فإني أخشى عليك منهم. ثم قال لابن الزبير، نحو ما قاله لابن عمر. ثم قال له: أنت ثعلب رواء، كلما خرجت من جحر انجحرت في آخر، أنت ألبت هذين الرجلين، وأخرجتهما إلى ما خرجا إليه. فقال بن الزبير. أتريد أن تباع ليزيد؟ أرايت إن بايعناه أيكما نطيع، أنطيعك أم نطيعه؟ إن كنت مللت الخلافة فاخرج منها وباع ليزيد، فنحن نبايعه، فكثير كلامه وكلام بن الزبير، حتى قال له معاوية في بعض كلامه: والله ما أرك إلا قاتلاً نفسك، ولكأني بك قد تحبطت في الحبال. ثم أمرهم بالانصراف، واحتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يخرج.

ثم خرج، فأمر المنادي أن ينادي في الناس، أن يجتمعوا لأمر جامع فاجتمع الناس في المسجد، وقعد هؤلاء حول المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه. ثم ذكر يزيد وفضله، وقراءته القرآن، ثم قال: يا أهل المدينة، لقد هممت ببيعة يزيد، وما تركت قرية ولا مدرة إلا بعثت إليها في بيعته، فبايع الناس جميعاً، وسلموا، وأخرت المدينة بيعته، وقلت بيضته وأصله، ومن لا أخافهم عليه، وكان الذين أبوا البيعة منهم من كانوا أجدر أن يصله، ووالله لو علمت مكان أحد هو خير للمسلمين من يزيد لبايعت له، فقام الحسين فقال: والله لقد تركت من هو خير منه أباً وأماً ونفساً، فقال معاوية: كأنك تريد نفسك؟ فقال الحسين: نعم، أصلحك الله. فقال معاوية: إذا أخبرك، أما قولك: خير منه أماً، فلعمري: أمك خير من أمه، ولو لم تكن إلا أنها امرأة من قريش لكان لنساء قريش فضلهم، فكيف وهي ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ثم فاطمة في دينها وسابقتها، فأملك لعمر الله خير من أمه، وأما أبوك فقد حاكم أباه إلى الله، فقضى لأبيه على أبيك. فقال الحسين: حسبك جهلك، أثرت العاجل على الآجل. فقال معاوية: أما ما ذكرت من أنك خير من يزيد نفساً، فيزيد والله خير لأمة محمد منك. فقال الحسين: هذا هو الإفك والزور، يزيد شارب الخمر، ومشترى اللهو خير مني؟ فقال معاوية: مهلاً عن شتم بن عمك، فإني لو ذكرت عنده بسوء لم يشتبك. ثم التفت معاوية إلى الناس وقال: أيها الناس، قد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض، ولم يستخلف أحداً، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر، وكانت بيعته بيعة هدى، فعمل بكتاب الله وسنة نبيه، فلما حضرته الوفاة، رأى أن يستخلف عمر، فعمل عمر بكتاب الله، وسنة نبيه، فلما حضرته الوفاة رأى أن يجعلها شورى بين ستة نفر، اختارهم من المسلمين، فصنع أبو بكر ما لم يصنعه رسول الله، وصنع عمر ما لم يصنعه أبو بكر، كل ذلك يصنعونه نظراً للمسلمين، فلذلك رأيت أن أبايع ليزيد لما وقع الناس فيه من الاختلاف، ونظراً لهم بعين الإنصاف.

ما قال عبد الله بن الزبير لمعاوية:

قال: وذكروا أن عبد الله بن الزبير قام إلى معاوية فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض، فترك الناس إلى كتاب الله، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر، ثم رأى أبو بكر أن يستخلف عمر، وهو أقصى قريش منه نسباً، ورأى عمر أن يجعلها شورى بين ستة نفر اختارهم من المسلمين، وفي المسلمين ابنه عبد الله، وهو خير من ابنك، فإن شئت أن تدع الناس على ما تركهم رسول الله، فيختارون لأنفسهم، وإن شئت أن تستخلف من قريش كما استخلف أبو بكر خير من يعلم، وإن شئت أن تصنع مثل ما صنع عمر، تختار رهطاً من المسلمين، وتزويها عن ابنك، فافعل.

فتزل معاوية عن المنبر، وانصرف ذاهباً إلى منزله، وأمر من حرسه وشرطته قوماً أن يحضروا هؤلاء النفر الذين أبوا البيعة، وهم الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عباس، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وأوصاهم معاوية فقال: إني خارج العشية إلى أهل الشام، فأخبرهم أن هؤلاء النفر قد بايعوا وسلموا، فإن تكلم أحد منهم بكلام يصدقني أو يكذبني فيه، فلا ينقضي كلامه حتى يطير رأسه، فحذر القوم ذلك، فلما كان العشي، خرج معاوية، وخرج معه هؤلاء النفر وهو يضاحكهم، ويحدثهم، وقد ألبسهم الحلل، فألبس بن عمر حلة حمراء، وألبس الحسين حلة صفراء، وألبس عبد الله بن عباس حلة خضراء، وألبس بن الزبير حلة يمانية. ثم خرج بينهم، وأظهر لأهل الشام الرضا عنهم: أي القوم، وأنهم بايعوا، فقال: يا أهل الشام إن هؤلاء النفر دعاهم أمير المؤمنين، فوجدتهم واصلين مطيعين، وقد بايعوا وسلموا، قال ذلك والقوم سكوت ولم يتكلموا شيئاً حذر القتل، فوثب أناس من أهل الشام فقالوا: يا أمير المؤمنين إن كان رابك منهم ريب، فخل بيننا وبينهم حتى نضرب أعناقهم. فقال معاوية: سبحان الله! ما أحل دماء قريش عندكم يا أهل الشام. لا أسمع لهم ذاكراً بسوء، فإنهم قد بايعوا وسلموا، وارتضوني فرضيت عنهم، رضي الله عنهم.

ثم ارتحل معاوية راجعاً إلى مكة، وقد أعطى الناس أعطياتهم، وأجزل العطاء، وأخرج إلى كل قبيلة جوائزها وأعطياتها، ولم يخرج لبني هاشم جائزة ولا عطاء. فخرج عبد الله بن عباس في أثره حتى لحقه بالروحاء، فجلس ببابه فجعل معاوية يقول: من الباب؟ فيقال: عبد الله بن عباس؟ فلم يأذن لأحد فلما استيقظ قال: من الباب؟ فقليل: عبد الله بن عباس، فدعا بدابته، فأدخلت إليه، ثم خرج راكباً، فوثب إليه عبد الله بن عباس، فأخذ بلجام البغلة، ثم قال س أين تذهب؟ قال: إلى مكة، قال: فأين جوائزنا كما أجزت غيرنا، فأوماً إليه معاوية، فقال: والله مالكم عندي جائزة ولا عطاء حتى يبايع صاحبكم. قال بن عباس: فقد أبي بن الزبير فأخرجت جائزة بني أسد، وأبي عبد الله بن عمر فأخرجت جائزة بني عدي، فمالنا إن أبي صاحبنا، وقد أبي صاحب غيرنا؟ فقال معاوية: لستم كغيركم، لا والله لا أعطيكم درهماً حتى يبايع صاحبكم. فقال بن عباس: أما والله لئن لم تفعل لألحقن بساحل من سواحل الشام، لأقولن ما تعلم، والله لأترككنهم عليك خوارج. فقال معاوية: لا، بل أعطيكم جوائزكم، فبعث بها من الروحاء ومضى راجعاً إلى الشام، فلم يلبث الا قليلاً حتى توفي عبد الرحمن بن أبي بكر في نومة نامها رحمه الله.

ما قال سعيد بن عثمان بن عفان لمعاوية:

قال: فلما قدم معاوية الشام، أتاه سعيد بن عثمان بن عفان، وكان شيطان قريش ولسانها. قال: يا أمير المؤمنين علام تباع لي زيد وتتركني؟ فوالله لتعلم أن أبي خير من أبيه، وأمي خير من أمه، وأنا خير منه،

وأنت إنما نلت ما أنت فيه بأبي، فضحك معاوية وقال: يا بن أخي أما قولك: إن أباك خير من أبيه، فيوم من عثمان خير من معاوية، وأما قولك: إن أمك خير من أمه، ففضل قرشية على كلبية فضل بين، وأما أن أكون نلت ما أنا فيه بأبيك، فإنما هو الملك يؤتبه الله من يشاء، قتل أبوك رحمه الله، فتواكلته بنو العاصي، وقامت فيه بنو حرب، فنحن أعظم بذلك منة عليك، وأما أن تكون خيراً من يزيد، فوالله ما أحب أن داري مملوءة رجالاً مثلك بيزيد، ولكن دعني من هذا القول، وسلي أعطك. فقال سعيد بن عثمان: يا أمير المؤمنين، لا يعدم يزيد مركباً ما دمت له، وما كنت لأرضى ببعض حقي دون بعض، فإذا آيت فأعطني مما أعطاك الله. فقال معاوية: لك خراسان. قال سعيد: وما خراسان؟ قال: إنها لك طعمة وصلة رحم، فخرج راضياً، وهو يقول:

ذكرت أمير المؤمنين وفضله	فقلت جزاء الله خيراً بما وصل
وقد سبقت مني إليه بواذر	من القول فيه آفة العقل والزلل
فعاد أمير المؤمنين بفضله	وقد كان فيه قبل عودته ميل
وقال خراسان لك اليوم طعمة	فجوزي أمير المؤمنين بما فعل
فلو كان عثمان الغداة مكانه	لما نالني من ملكه فوق ما بذل

فلما انتهى قوله إلى معاوية، أمر يزيد أن يزوده، وأمر إليه بخلعة، وشيعه فرسخاً.

قدوم أبي الطفيل على معاوية:

قال: وذكروا أنه لم يكن أحد أحب إلى معاوية أن يلقاه من أبي الطفيل الكناني، وهو عامر بن واثلة، وكان فارس أهل صفين، وشاعرهم، وكان من أخص الناس بعلي كرم الله وجهه، فقدم أبو الطفيل الشام يزور بن أخ له من رجال معاوية، فأخبر معاوية بقدمه، فأرسل إليه، فأتاه وهو شيخ كبير، فلما دخل عليه، قال له معاوية: أنت أبو الطفيل عامر بن واثلة؟ قال: نعم. قال معاوية: أكنت ممن قتل عثمان أمير المؤمنين، قال: لا، ولكن ممن شهدته فلم ينصره، قال: ولم؟ قال: لم ينصره المهاجرون والأنصار، فقال معاوية: أما والله إن نصرته كانت عليهم وعليك حقاً واجباً، وفرضاً لازماً، فإذا ضيعتموه فقد فعل الله بكم ما أنتم أهله، وأصاركم إلى ما رأيتم، فقال أبو الطفيل: فما منعك يا أمير المؤمنين، إذ تربصت به ريب المنون أن تنصره ومعك أهل الشام؟ قال معاوية: أو ما ترى طليي لدمه، فضحك أبو الطفيل وقال: بلى، ولكني وإياك كما قال عبيد بن الأبرص:

لا أعرفنك بعد الموت تندبني

وفي حياتي ما زودتني زادي

فدخل مروان بن الحكم، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحكم، فلما جلسوا نظر إليهم معاوية، ثم قال: أتعرفون هذا الشيخ؟ قالوا: لا، فقال معاوية: هذا خليل علي بن أبي طالب وفارس صفين، وشاعر أهل العراق، هذا أبو الطفيل. قال سعيد بن العاص: قد عرفناه يا أمير المؤمنين، فما يمنعك منه؟ وشمته القوم، فزجرهم معاوية وقال: مهلاً، فرب يوم ارتفع عن الأسباب قد ضقتكم به ذرعاً، ثم قال: أتعرف هؤلاء يا أبا الطفيل؟ قال: ما أنكرهم من سوء ولا أعرفهم بخير، وأنشد:

فإن تكن العداوة قد أكنت

فشر عداوة المرء السباب

فقال معاوية: يا أبا الطفيل، ما أبقي لك الدهر من حب علي؟ قال: حب أم موسى، وأشكو إلى الله التقصير، فضحك معاوية، قال: ولكن والله هؤلاء الذين حولك لو سئلوا عني ما قالوا هذا. فقال مروان: أجل، والله لا نقول الباطل. قال: ثم جهزه معاوية، وألحقه بالكوفة.

ما حاول معاوية من تزويج يزيد:

قال: وذكروا أن يزيد بن معاوية سهر ليلة من الليالي، وعنده وصيف لمعاوية يقال له رفيق، فقال يزيد: أستسلم الله بقاء أمير المؤمنين، وعافيته إياه، وأرغب إليه في تولية أمره وكفاية همه، فقد كنت أعرف من جميل رأي أمير المؤمنين فيّ، وحسن نظره في جميع الأشياء ما يؤكد الثقة في ذلك والتوكل عليه؟ منعني من البوح بما جمحت فيّ صدري له، وتطلابه إليه، فأضاع من أمري وترك من النظر في شأني، وقد كان في حلمه، وعلمه، ورضائه، ومعرفته، بما يحق لمثله النظر فيه، غير غافل عنه، ولا تارك له، مع ما يعلم من هيبتي له وخشييتي منه، فالله يجزيه عني بإحسانه، ويغفر له ما احترح من عهده ونسيانه، فقال الوصيف: وما ذلك جعلت فداك؟ لا تلم على تضييعه إياك، فإنك تعرف تفضيله لك، وحرصه عليك، وما يخامر من حبك، وأن ليس شيء أحب إليه، ولا أثر عنده منك لديه، فاذا ذكر بلاءه، واشكر حباؤه فإنك لا تبلغ من شكره إلا بعون من الله.

قال: فأطرق يزيد إطرأً عرف الوصيف منه ندامته على ما بدا منه، وباح به، فلما آب من عنده توجه نحو سدة معاوية ليلاً وكان غير محجوب عنه، ولا محبوس دونه، فعلم معاوية أنه ما جاء به إلا خبر أراد إعلامه به. فقال له معاوية: ما وراءك؟ وما جاء بك. فقال: أصلح الله أمير المؤمنين، كنت عند يزيد ابنك، فقال فيما استجر من الكلام كذا وكذا، فوثب معاوية وقال: ويحك ما أضعنا منه؟ رحمة له،

وكرهية لما شجاه وخالف هواه؟ وكان معاوية لا يعدل بما يرضيه شيئاً. فقال: عليّ به، وكان معاوية إذا أتت الأمور المشككة المعضلة، بعث إلى يزيد يستعين به على استيضاح شباتها واستسهال معضلاتها، فلما جاءه الرسول قال: أجب أمير المؤمنين، فحسب يزيد إنما دعاه إلى تلك الأمور التي يفرع إليه منها، ويستعين برأيه عليها، فأقبل حتى دخل عليه، فسلم ثم جلس، فقال معاوية: يا يزيد ما الذي أضعنا من أمرك، وتركنا من الحيلة عليك، وحسن النظر لك، حيث قلت ما قلت؟ وقد تعرف رحمتي بك، ونظري في الأشياء التي تصلحك، قبل أن تخطر على وهمك، فكنت أظنك على تلك النعماء شاكراً، فأصبحت بها كافراً، إذ فرط من قولك ما ألزمتني فيه إضاعتي إياك، وأوجبت علي منه التقصير، لم يزجرك عن ذلك تخوف سخطي، ولم يحجزك دون ذكره سالف نعمتي، ولم يردعك عنه حق أبوتي، فأني ولد أعق منك وأكيد، وقد علمت أي تخطأت الناس كلهم في تقديمك، ونزلتهم لتولييتي إياك، ونصبتك إماماً على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيهم من عرفت، وحاولت منهم ما علمت؟ قال: فتكلم يزيد، وقد خنقه من شدة الحياء الشرق وأخضله من أليم الوجد العرق. قال: لا تلزمني كفر نعمتك، ولا تنزل بي عقابك، وقد عرفت نعمة مواصلتك ببرك، وخطوي إلى كل ما يسرك، في سري وجهري فليسكن سخطك، فإن الذي أرثي له من أعباء حمله وثقله، أكثر مما أرثي لنفسي، من أليم ما بها وشدته، وسوف أنبئك وأعلمك أمري. كنت قد عرفت من أمير المؤمنين استكمل الله بقاءه، نظراً في خيار الأمور لي، وحرصاً على سيقها إلي، وأفضل ما عسيت أستعد له بعد إسلامي المرأة الصالحة، وقد كان ما تحدث به من فضل جمال أرنب بنت إسحاق وكمال أدبها ما قد سطع وشاع في الناس، فوقع مني بموقع الهوى فيها، والرغبة في نكاحها، فرجوت ألا تدع حسن النظر لي في أمرها، فتركت ذلك حتى استنكحها بعلمها، فلم يزل ما وقع في خلدي ينمو ويعظم في صدري، حتى عيل صبري، فبحت بسري، فكان مما ذكرت تقصيرك في أمري، فالله يجزيك أفضل من سؤالي وذكري. فقال له معاوية: مهلاً يا يزيد، فقال: علام تأمرني بالمهل وقد انقطع منها الأمل؟ فقال له معاوية: فأين حجاك ومروءتك وتقاك؟ فقال يزيد: قد يغلب الهوى على الصبر والحجا، ولو كان أحد ينتفع فيما يبتلي به من الهوى يتقاه، أو يدفع ما أقصده بحجاه، لكان أولى الناس بالصبر داود عليه السلام، وقد خبرك القرآن بأمره. فقال معاوية: فما منعك قبل الفوت من ذكره؟ قال: ما كنت أعرفه، وأثق به من جميل نظرك، قال: صدقت، ولكن اكتم يا بني أمرك بحلمك، واستعن بالله على غلبة هواك بصبرك، فإن البرح به غير نافعك، والله بالغ أمره، ولا بد مما هو كائن.

وكانت أرنب بنت إسحاق مثلاً في أهل زمانها في جمالها، وتما كمالها وشرفها، وكثرة مالها، فتزوجها

رجل من بني عمها يقال له عبد الله بن سلام من قريش، وكان من معاوية بالمتزلة الرفيعة في الفضل. ووقع أمر يزيد من معاوية موقعاً ملاءهما، وأوسعهما غمّاً، فأخذ في الحيلة والنظر أن يصل إليها، وكيف جمع بينه وبينها حتى يبلغ رضا يزيد فيها. فكتب معاوية إلى عبد الله بن سلام: وكان قد استعمله على العراق، أن أقبل حين تنظر في كتابي هذا لأمر حظك فيه كامل، ولا تتأخر عنه، فأعد المصير والإقبال. وكان عند معاوية بالشام أبو هريرة وأبو الدرداء، صاحباً رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما قدم عبد الله بن سلام الشام، أمر معاوية أن يتزل متزلاً قد هبئ له، وأعد له فيه نزله، ثم قال لأبي هريرة وصاحبه: إن الله قسم بين عباده قسمين، وهبهم نعماً أو جب عليهم شكرها، وحتم عليهم حفظها، وأمرهم برعاية حقها، وسلطان طريقها، بحمّل النظر، وحسن التفقد لمن طوقهم الله أمره، كما فوضه إليهم، حتى يؤدوا إلى الله الحق فيهم كما أوجبه عليهم، فحياتي منها عز وجل بأعز الشرف، وسمو السلف، وأفضل الذكر، وأغدق اليسر، وأوسع علي في رزقه، وجعلني راعي خلقه، وأمينه في بلاده، والحاكم في أمر عباده، ليلوئي أشكر آلاءه أم أكفرها، فيأيه أسأله أداء شكره، وبلوغ ما أرجو بلوغه، من عظيم أجره، وأول ما ينبغي للمرء أن يتفقده وينظر فيه، فيمن استرعاه الله أمره من أهله ومن لا غنى به عنه. وقد بلغت لي ابنة أردت إنكاحها، والنظر فيمن يريد أن يباعلها. لعل من يكون بعدي يهتدي منه بهدي، ويتبع فيه أثري، فإني قد تخوفت أن يدعو من يلي هذا الأمر من بعدي زهوة السلطان وسرفه إلى عضل نسائهم، ولا يرون لمن فيمن ملكوا أمره كفواً ولا نظيراً، وقد رضيت لها عبد الله بن سلام لدينه وفضله ومروءته وأدبه. فقال أبو هريرة وأبو الدرداء: إن أولى الناس برعاية أنعم الله وشكرها، وطلب مرضاته فيها فيما خصه به منها، أنت صاحب رسول الله وكتابه. فقال معاوية: اذكروا له ذلك عني، وقد كنت جعلت لها في نفسها شوري، غير أني أرجو أنها لا تخرج من رأيي إن شاء الله؟ فلما خرجا من عنده متوجهين إلى منزل عبد الله بن سلام بالذي قال لهما، قال: ودخل معاوية إلى ابنته، فقال لها: إذا دخل عليك أبو هريرة وأبو الدرداء، فعرضاً عليك أمر عبد الله بن سلام، وإنكاحي إياك منه، ودعواك إلى مباعلته، وحضاك على ملاءمة رأي، والمسارة إلى هواي. فقولي لهما: عبد الله بن سلام كفؤ كريم، وقريب حميم، غير أنه تحت أرينب بنت إسحاق، وأنا خائفة أن يعرض لي من الغيرة ما يعرض للنساء، فأتولى منه ما أسخط الله فيه، فيعذبني عليه، فأفارق الرجاء، وأستشعر الأذى، ولست بفاعلة حتى يفارقها، فذكر ذلك أبو هريرة وأبو الدرداء لعبد الله بن سلام، وأعلماه بالذي أمرهما معاوية، فلما أخبراه سر به وفرح، وحمد الله عليه، ثم قال: نستمتع الله بأمر المؤمنين، لقد والى علي من نعمه، وأسدى إلي من مننه فأطول ما أقوله فيه قصير، وأعظم الوصف لها يسير. ثم أراد إخلاطي بنفسه، وإلحاقه بأهله، إتماماً لنعمته، وإكمالاً لإحسانه، فאלله أستعين على شكره، وبه أعوذ من كيد ومكره. ثم بعثهما إليه خاطبين عليه، فلما قدما، قال لهما معاوية:

قد تعلمان رضائي به وتنخلي إياه، وحرصني عليه، وقد كنت أعلنتكما بالذي جعلت لها في نفسها من الشورى، فادخلا إليها، واعرضا عليها الذي رأيت لها، فدخلتا عليها وأعلمها بالذي ارتضاه لها أبوها، لما رجا من ثواب الله عليه. فقالت لهما كالذي قال لها أبوها، فأعلماه بذلك، فلما ظن أنه لا يمنعه منه إلا أمرها، فارق زوجته، وأشهدهما على طلاقها، وبعثهما خاطبين إليه أيضاً، فخطبا، وأعلما معاوية بالذي كان من فراق عبد الله بن سلام امرأته، طلاباً لما يرضيها، وخروجاً عما يشجيهما، فأظهر معاوية كراهية لفعله، وقال: ما أستحسن له طلاق امرأته، ولا أحببته، ولو صبر ولم يعجل لكان أمره إلى مصيره، فإن كون ما هو كائن لا بد منه، ولا محيص عنه، ولا خيرة فيه للعباد، والأقدار غالبية، وما سبق في علم الله لا بد جار فيه، فانصرفا في عافية، ثم تعودان إلينا فيه، وتأخذان إن شاء الله رضانا. ثم كتب إلى يزيد ابنه يعلمه بما كان من طلاق أرنب بنت إسحاق عبد الله بن سلام، فلما عاد أبو

هريرة وأبو الدرداء إلى معاوية أمرهما بالدخول عليها، وسؤالها عن رضاها تبرئاً من الأمر، ونظرا في القول والعدر؟ فيقول: لم يكن لي أن أكرهها، وقد جعلت لها الشورى في نفسها، فدخلتا عليها، وأعلمها بالذي رضىه إن رضيت هي، وبطلاق عبد الله بن سلام امرأته أرنب، طلاباً لمسرقتها، وذكراً من فضله، وكمال مروءته، وكريم محنته، ما القول يقصر عن ذكره. فقالت لهما: جف القلم بما هو كائن، وإنه في قریش لرفيع، غير أن الله عز وجل يتولى تدبير الأمور في خلقه، وتقسيمها بين عباده، حتى يترها منازلها فيهم، ويضعها على ما سبق في أقدارها. وليست تجري لأحد على ما يهوى، ولو كان لبلغ منها غاية ما شاء. وقد تعرفان أن التزويج هزله جد، وجده ندم، الندم عليه يدوم، والمعثور فيه لا يكاد يقوم، والأناة في الأمور أوفق لما يخاف فيها من المحذور، فإن الأمور إذا جاءت خلاف الهوى بعد التأني فيها، كان المرء بحسن العزاء خليقاً، وبالصبر عليها حقيقاً، وعلمت أن الله ولي التدايير. فلم تلم النفس على التقصير، وإن بالله أستعين، سائلة عنه، حتى أعرف دخيلة خبره، ويصح لي الذي أريد علمه من أمره ومستخيرة، وإن كنت أعلم أنه لا خيرة لأحد فيما هو كائن، ومعلمتكما بالني يرينيه الله في أمره، ولا قوة إلا بالله. فقالا: وفقك الله وخار لك. ثم انصرفا عنها، فلما أعلماه بقولها تمثل وقال:

فإن غداً لناظره قريب

فإن بك صدر هذا اليوم ولي

وتحدث الناس بالذي كان من طلاق عبد الله امرأته قبل أن يفرغ من طلبته، وقبل أن يوجب له الذي كان من بغيته، ولم يشكوا في غمر معاوية إياه. فاستحث عبد الله بن سلام أبا هريرة وأبا الدرداء، وسألهم الفراغ من أمره، فأتياها. فقالا لها: قد أتيناك لما أنت صانعة في أمرك، وإن تستخيري الله يخر لك

فيما تختارين، فإنه يهدي من استهداه، ويعطي من اجتداه، وهو أقدر القادرين. قالت: الحمد لله أرجو أن يكون الله قد خاري، فإنه لا يكل إلى غيره من توكل عليه، وقد استبرأت أمره، وسألت عنه فوجدته غير ملائم ولا موافق لما أريد لنفسي، مع اختلاف من استشرته فيه، فمنهم الناهي عنه، ومنهم الأمر به، واختلافهم أول ما كرهت من الله. فعلم عبد الله أنه خُدع، فهلح ساعة واشتد عليه المهم. ثم انتبه فحمد الله تعالى وأثنى عليه، وقال متعزياً: ليس لأمر الله راد، ولا لما لا بد أن يكون منه صاد، أمور في علم الله سبقت، فجرت بها أسبابها، حتى امتلأت منها أقرابها، وإن امرؤ انثال له حلمه واجتمع له عقله، واستذله رأيته، ليس بدافع عن نفسه قدراً ولا كيداً، ولا انحرافاً عنه ولا حيداً، ولآل ما سروا به واستجدلوا له لا يدوم لهم سروره، ولا يصرف عنهم محذوره. قال: وذاع أمره في الناس وشاع، ونقلوه إلى الأمصار، وتحدثوا به في الأسفار، وفي الليل والنهار، وشاع في ذلك قولهم، وعظم لمعاوية عليه لومهم، وقالوا: خدعه معاوية حتى طلق امرأته، وإنما أرادها لابنه، فبئس من استرعاه الله أمر عباده، ومكنه في بلاده، وأشركه في سلطانه، يطلب أمراً بخدعة من جعل الله إليه أمره، ويحيره ويصرعه جرأة على الله. فلما بلغ معاوية ذلك من قول الناس. قال: لعمرى ما خدعته. قال: فلما انقضت أقرأؤها، وجه معاوية أبا الدرداء إلى العراق خاطباً لها على ابنه يزيد، فخرج حتى قدمها، وبها يومئذ الحسين بن عليه وهو سيد أهل العراق فقهاً ومالاً وجوداً وبذلاً. فقال أبو الدرداء إذ قدم العراق: مما ينبغي لذي الحجا والمعرفة والتقوى أن يبدأ به ويؤثره على مهم أمره، لما يلزمه حقه، ويجب عليه حفظه، وهذا بن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيد شباب أهل الجنة يوم القيامة، فلست بناظر في شيء قبل الإلمام به والدخول عليه، والنظر إلى وجهه الكريم وأداء حقه، والتسليم عليه، ثم أستقبل بعد إن شاء الله ما جئت له، وبعثت إليه، فقصد حتى أتى الحسين، فلما رآه الحسين قام إليه فصافحه إجلالاً له، ومعرفته لمكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وموضعه من الإسلام. ثم قال الحسين: مرحباً بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجليسه، يا أبا الدرداء، أحدثت لي رؤيتك شوقاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأوقدت مطلقات أحزاني عليه، فإني لم أر منذ فارقت أحداً كان له جليساً، وإليه حبيباً، إلا هملت عيناى، وأحرق كبدى أسى عليه، وصباة إليه. ففاضت عينا أبي الدرداء لذكر رسول الله، وقال: جزى الله لبانة أقدمتنا عليك، وجمعتنا بك خيراً. فقال الحسين: والله إني لذو حرص عليك، ولقد كنت بالاشتياق إليك. فقال أبو الدرداء: وجهي معاوية خاطباً على ابنه يزيد أرينب بنت إسحاق، فرأيت أن لا أبدأ بشيء قبل إحداث العهد بك، والتسليم عليك. فشكر له الحسين ذلك، وأثنى عليه وقال: لقد كنت ذكرت نكاحها، وأردت الإرسال إليها بعد انقضاء أقرائها، فلم يمنعني من ذلك إلا تخيير مثلك، فقد أتى الله بك، فاخطب رحمك الله علي وعليه، فلتختر من اختاره الله لها وإنها أمانة في عنقك حتى تؤديها إليها، وأعطاها من المهر مثل ما بذل لها معاوية عن ابنه.

فقال أبو الدرداء: أفعل إن شاء الله. فلما دخل عليها قال لها: أيتها المرأة إن الله خلق الأمور بقدرته، وكونها بعزته، فجعل لكل أمر قدراً، ولكل قدر سبباً، فليس لأحد عن قدر الله مستحاص، ولا عن الخروج عن علمه مستنص، فكان مما سبق لك وقدر عليك، الذي كان من فراق عبد الله بن سلام إليك، ولعل ذلك لا يضرّك، وأن يجعل الله لك فيه خيراً كثيراً. وقد خطبك أمير هذه الأمة، وابن الملك، وولي عهده، والخليفة من بعده، يزيد بن معاوية. وابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وابن أول من آمن به من أمته، وسيد شباب أهل الجنة يوم القيامة، وقد بلغك سناهما وفضلهما، وجئتكم خاطباً عليهما، فاختاري أيهما شئت؟ فسكتت طويلاً. ثم قالت: يا أبا الدرداء لو أن هذا الأمر جاءني وأنت غائب عني أشخصت فيه الرسل إليك، واتبعت فيه رأيك، ولم أقطعه دونك على بعد مكانك، ونأي دارك، فأما إذ كنت المرسل فيه فقد فوضت أمري بعد الله إليك، وبرئت منه إليك، وجعلته في يديك، فاختر لي أرضاهما لديك، والله شهيد عليك، واقض فيه قضاء في التحري المتقي، ولا يصدنك عن ذلك اتباع هوى، فليس أمرهما عليك خفياً وما أنت عما طوّقتك عمياً. فقال أبو الدرداء: أيتها المرأة إنما علي إعلامك وعليك الاختيار لنفسك. قالت: عفا الله عنك، إنما أنا بنت أخيك، ومن لا غنى بها عنك فلا يمنعك رهبة أحد من قول الحق فيما طوّقتك، فقد وجب عليك أداء الأمانة فيما حملتك، والله خير من روعي وخيف، إنه بنا خير لطيف. فلما لم يجد بداً من القول والإشارة عليها. قال: بُنية، بن بنت رسول الله أحب إلي وأرضاهما عندي، والله أعلم بخيرهما لك، وقد كنت رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واضحاً شفّيته على شفّتي الحسين فضعي شفّتيك حيث وضعهما رسول الله، قالت: قد اخترته ورضيته، فاستنكحها الحسين بن علي، وساق إليها مهرأ عظيماً، وقال الناس وبلغ معاوية الذي كان من فعل أبي الدرداء في ذكره حاجة أحد مع حاجته، وما بعثه هو له، ونكاح الحسين إياها، فتعاضمه ذلك جداً، ولامه لوماً شديداً، وقال: من يرسل ذا بلاهة وعمى، يركب في أمره خلاف ما يهوى، ورأيي كان من رأيه أسوأ، ولقد كنا بالملامة منه أولى حين بعثناه، ولحاجتنا انتخلناه، وكان عبد الله بن سلام قد استودعها قبل فراقه إياها بدرات مملوءة درأ، كان ذلك الدر أعظم ماله وأحبه إليه، وكان معاوية قد أطرحه، وقطع جميع روافده عنه، لسوء قوله فيه، وطمته إياه على الخديعة، فلم يزل يحفوه ويغضبه، ويكدي عنه، ما كان يجدي، حتى عيل صبره، وطال أمره، وقل ما في يديه، ولام نفسه على المقام لديه، فخرج من عنده راجعاً إلى العراق، وهو يذكر ماله الذي كان استودعها، ولا يدري كيف يصنع فيه، وأن يصل إليه، ويتوقع جحودها عليه، لسوء فعله بها، وطلاقه إياها على غير شيء أنكره منها، ولا نقمة عليها. فلما قدم العراق لقي الحسين، فسلم عليه. ثم قال: قد علمت جعلت فداك الذي كان من قضاء الله في طلاق أرينب بنت إسحاق، وكنت قبل فراقها قد استودعتها مالا عظيماً درأ وكان الذي

كان ولم أقبضه، ووالله ما أنكرت منها في طول ما صحبتها فتياً، ولا أظن بها إلا جميلاً، فذكرها أمري، واحضضها على الرد علي، فإن الله يحسن عليك ذكرك، ويجزل به أجرك. فسكت عنه. فلما انصرف الحسين إلى أهله، قال لها: قدم عبد الله بن سلام وهو يحسن الثناء عليك، ويحمل النثر عنك، في حسن صحبتك، وما أنسه قديماً من أمانتك فسرني ذلك وأعجبي، وذكر أنه كان استودعك مالا قبل فراقه إياك، فأدي إليه أمانته، وردي عليه ماله، فإنه لم يقل إلا صدقاً، ولم يطلب إلا حقاً. قالت: صدق، قد والله استودعني مالا لا أدري ما هو، وإنه لمطبوع عليه بطابعه ما أخذ منه شيء إلى يومه هذات فأتني عليها الحسين خيراً، وقال: بل أدخله عليك حتى تبرئي إليه منه كما دفعه إليك. ثم لقي عبد الله بن سلام، فقال له: ما أنكرت مالك، وزعمت أنه لكما دفعته إليها بطابعك، فادخل يا هذا عليها، وتوف - مالك منها. فقال عبد الله بن سلام: أو تأمر بدفعه إلي جعلت فداك. قال: لا، حتى تقبضه منها كما دفعته إليها، وتبرئها منه إذا أدته. فلما دخلا عليها قال لها الحسين: هذا عبد الله بن سلام، قد جاء يطلب وديعته، فأديها إليه كما قبضتها منه، فأخرجت البدرات فوضعتها بين يديه، وقالت له: هذا مالك، فشكر لها، وأثنى عليها، وخرج الحسين، ففض عبد الله خاتم بدره، فحشا لها من ذلك الدر حثوات، وقال: خذي، فهذا قليل مني لك، واستعبرا جميعاً، حتى تعالت أصواتهما بالبكاء، أسفاً على ما ابتليا به، فدخل الحسين عليهما وقد رق لهما، للذي سمع منهما. فقال: أشهد الله أنهما طالق ثلاثاً، اللهم إنك تعلم أي لم أستنكحها رغبة في مالها ولا جمالها، ولكني أردت إحلالها لبعليها، وثوابك على ما عاجلته في أمرها، فأوجب لي بذلك الأجر، وأجزل لي عليه الذخر إنك على كل شيء قدير، ولم يأخذ مما ساق إليها في مهرها قليلاً ولا كثيراً. وقد كان عبد الله بن سلام سأل ذلك أرنب، أي التعويض على الحسين، فأجابته إلى رد ماله عليه شكراً لما صنعه بهما، فلم يقبله، وقال: الذي أرجو عليه من الثواب خير لي منه فتزوجها عبد الله بن سلام، وعاشا متحابين متصافيين حتى قبضهما الله، وحرمها الله على يزيد. والحمد لله رب العالمين.

وفاة معاوية

رحمه الله:

قال: وذكروا أن عتبة بن مسعود قال: مر بنا نعي معاوية بن أبي سفيان ونحن بالمسجد الحرام. قال: فقمنا فأتينا بن عباس، فوجدناه جالساً قد وضع له الخوان، وعنده نفر. فقلنا: أما علمت بهذا الخبر يا بن عباس؟ قال: وما هو؟ قلنا: هلك معاوية. فقال: ارفع الخوان يا غلام، وسكت ساعة، ثم قال: جبل تزعزع ثم

مال بكلكلة، أما والله ما كان كمن كان قبله، ولما يكن بعده مثله. اللهم أنت أوسع لمعاوية فينا وفي بني عمنا هؤلاء لذي لب معتبر، اشتجرنا بيننا، فقتل صاحبهم غيرنا، وقتل صاحبنا غيرهم، وما أغراهم بنا إلا أنهم لا يجدون مثلنا، وما أغرانا بهم إلا أنا لا نجد مثلهم، كما قال القائل: مالك تظلمني؟ قال: لا أجد من أظلم غيرك. والله إن ابنه لخير أهله، أعد طعامك يا غلام. قال: فما رفع الخوان حتى جاء رسول خالد بن الحكم إلى بن عباس، أن انطلق فبايع. فقال للرسول: اقرئ الأمير السلام، وقل له: والله ما بقي في ما تخافون، فاقض من أمرك ما أنت قاض، فإذا سهل المشى وذهبت حطمة الناس، جئتكم ففعلت ما أحببت. قال: ثم أقبل علينا فقال: مهلاً معشر قريش، أن تقولوا عند موت معاوية: ذهب جد بني معاوية، وانقطع ملكهم، ذهب لعمر الله جدّهم، وبقي ملكهم وشرها بقية هي أطول مما مضى، إلزموا مجالسكم وأعطوا بيعتكم. قال: فما برحنا حتى جاء رسول خالد فقال: يقول لك الأمير: لا بد لك أن تأتينا. قال: فإن كان لا بد، فلا بد مما لا بد منه، يا نوار هلمي ثيابي، ثم قال: وما ينفعكم إتيان رجل إن جلس لم يضركم؟ قال: فقلت له: أتبايع ليزيد، وهو يشرب الخمر، ويلهو بالقيان، ويستهتر بالفواحش؟ قال: مه، فأين ما قلت لكم؟ وكم بعده من آت ممن يشرب الخمر، أو هو شر من شارها، أنتم إلى بيعته سراع؟ أما والله إني لأهاكم، وأنا أعلم أنكم فاعلون ما أنتم فاعلون، حتى يصلب مصلوب قريش بمكة، يعني عبد الله بن الزبير.

كتاب يزيد بالبيعة إلى أهل المدينة

قال: وذكروا أن نافع بن جبير قال: إني بالشام يوم موت معاوية، وكان يزيد غائباً، واستخلف معاوية الضحاك بن قيس بعده، حتى يقدم يزيد، فلما مات معاوية خرج الضحاك على الناس، فقال: لا يحملنّ اليوم نعش أمير المؤمنين إلا قرشي. قال: فحملته قريش ساعة. ثم قال أهل الشام: أصلح الله الأمير. اجعل لنا من أمير المؤمنين نصيباً في موته، كما كان لنا في حياته. قال: فاحملوه، فاحملوه، وازدحموا عليه، حتى شقوا البرد الذي كان عليه صدعين. قال: فلما قدم يزيد دمشق بعد موت أبيه إلى عشرة أيام، كتب إلى خالد بن الحكم، وهو عامل المدينة: أما بعد، فإن معاوية بن أبي سفيان، كان عبداً استخلفه الله على العباد، ومكن له في البلاد وكان من حادث قضاء الله جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه فيه، ما سبق في الأولين والآخرين لم يدفع عنه ملك مقرب، ولا نبي مرسل، فعاش حميداً، ومات سعيداً، وقد قلدنا الله عزّ وجل ما كان إليه، فيا لها مصيبة ما أجلها، ونعمة ما أعظمها، نقل الخلافة، وفقد الخليفة، فنستوزعه الشكر، ونستلهمه الحمد، ونسأله الخيرة في الدارين معاً، ومحمود العقبي في الآخرة والأولى، إنه ولي ذلك، وكل شيء بيده لا شريك له، وإن أهل المدينة قومنا ورجالنا، ومن لم نزل على حسن الرأي فيهم، والاستعداد

بهم، واتباع أثر الخليفة فيهم، والاحتذاء على مثاله لديهم، من الإقبال عليهم، والتقبل من محسنهم، والتجاوز عن مسيئتهم، فبايع لنا قومنا، ومن قبلك من رجالنا، بيعة منشوحة بها صدوركم، طيبة عليها أنفسكم، وليكن أول من يبايعك من قومنا وأهلنا: الحسين، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن جعفر، ويحلفون على ذلك بجميع الأيمان اللازمة، ويحلفون بصدقة أموالهم غير عشرها، وجزية رقيقهم، وطلاق نسائهم، بالثبات على الوفاء، بما يعطون من بيعتهم، ولا قوة إلا بالله، والسلام.

إبائة القوم الممتنعين عن البيعة:

قال: وذكروا أن خالد بن الحكم، لما أتاه الكتاب من يزيد فظع به، فدعا مروان بن الحكم، وكان على المدينة قبله، فلما دخل عليه مروان، وذلك في أول الليل. قال له خالد: احتسب صاحبك يا مروان، فقال له مروان: اكتم ما بلغك، إنا لله وإنا إليه راجعون. ثم أقرأه الكتاب، وقال له: ما الرأي؟ فقال: أرسل الساعة إلى هؤلاء النفر، فخذ بيعتهم، فإنهم إن بايعوا لم يختلف على يزيد أحد من أهل الإسلام، فعجل عليهم قبل أن يفشى الخبر فيمتنعوا، فأرسل إلى الحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، فلما أتاهم الرسول قال عبد الله بن الزبير للحسين: ظنّ يا أبا عبد الله فيما أرسل إلينا؟ فقال الحسين: لم يرسل إلينا إلا للبيعة، فما ترى؟ قال: آتية، فإن أراد تلك امتنعت عليه، فدعا الحسين مواليه وأهل بيته، وأقعدهم على الباب، وقال لهم: إن ارتفع صوتي فاقتحموا الدار علي، وإلا فمكانكم حتى أخرج إليكم. ثم دخل على خالد؟، فأقرأه الكتاب، فقال الحسين: رحم الله معاوية. فقالا له: بايع، فقال الحسين: لا خير في بيعة سر، والظاهرة خير، فإذا حضر الناس كان أمراً واحداً، ثم وثب أهله، فقال مروان لخالد: أشدد يدك بالرجل، فلا يخرج حتى يبايعك، فإن أبي فاضرب عنقه. فقال له بن الزبير: قد علمت أنا كنا أبينا البيعة إذ دعانا إليها معاوية، وفي نفسه علينا من ذلك ما لا تجهله، ومتى ما نبايعك ليلاً على هذه الحال، ترأنك أغضبتنا على أنفسنا، دعنا حتى نصبح، وتدعو الناس إلى البيعة، فنأتيك فنبايعك بيعة سليمة صحيحة، فلم يزالا به حتى خلى عنهما وخرجا. فقال مروان لخالد: تركتهما، والله لا تظفر بمثلها منهما أبداً، فقال خالد: ويحك أتشير علي أن أقتل الحسين، فوالله ما يسرني أن لي الدنيا وما فيها، وما أحسب أن قاتله يلقي الله بدمه إلا خفيف الميزان يوم القيامة. فقال له مروان مستهزئاً: إن كنت إنما تركت ذلك لذلك فقد أصبت.

خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية

قال: وذكروا أن يزيد بن معاوية عزل خالد بن الحكم عن المدينة، وولاهها عثمان بن محمد بن أبي سفيان الثقفي، وخرج الحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير إلى مكة وأقبل عثمان بن محمد من الشام والياً على المدينة ومكة وعلى الموسم في رمضان، فلما استوى على المنبر بمكة رعى، فقال رجل مستقبلاً: جئت والله بالدم، فتلقاه رجل آخر بعمامته. فقال: مه، والله عم الناس. ثم قام يخطب، فتناول عصا لها شعبتان، فقال: مه، شعب والله أمر الناس، ثم نزل. فقال الناس للحسين: يا أبا عبد الله، لو تقدمت فصليت بالناس؟ فإنه ليهم بذلك إذ جاء المؤذن، فأقام الصلاة، فتقدم عثمان فكبر، فقال للحسين: يا أبا عبد الله، إذا أبيت أن تتقدم فاخرج. فقال: الصلاة في الجماعة أفضل. قال: فصلي، ثم خرج، فلما انصرف عثمان بن محمد من الصلاة، بلغه أن الحسين خرج. قال: اركبوا كل بعير بين السماء والأرض فاطلبوه، فطلب، فلم يدرك. قال: ثم قدم المدينة، فأقبل بن ميثاء بسراح له من الحرة، يريد الأموال التي كانت لمعاوية، فمنع منها، وأزاحه أهل المدينة عنها، وكانت أموالاً اكتسبها معاوية، ونخيلاً يجد منها ألف وسق وستين ألفاً، ودخل نفر من قريش والأنصار على عثمان، فكلموه فيها فقالوا: قد علمت أن هذه الأموال كلها لنا، وأن معاوية أثر علينا في عطائنا، ولم يعطنا قطّ درهماً فما فوقه، حتى مضى الزمان، ونالتنا المجاعة، فاشترأها منا بجزء من مئة من ثمنها، فأغلظ لهم عثمان في القول، واغلظوا له. فقال لهم: لأكتبن إلى أمير المؤمنين بسوء رأيكم، وما أنتم عليه من كمون الأضغان القديمة، والأحقاد التي لم تنزل في صدوركم، فافترقوا على موحدة، ثم اجتمع رأيهم على منع بن ميثاء القيم عليها، فكفّ عثمان بن محمد عنهم، وكتب بأمرهم إلى يزيد بن معاوية.

قال عبد الله بن جعفر: جاء كتاب عثمان بن محمد بعد هدأة من الليل، وقد كنت انصرفت من عند يزيد، فلم ألبث أن جاءني رسوله، فدخلت عليه، والشمعة بين يديه، وهو مغضب قد حسر عن ذراعيه، والكتاب بين يديه، فقال: دونك يا أبا جعفر هذا الكتاب، فاقرأه، فرأيت كتاباً قبيحاً، فيه تعريض بأهل المدينة وتحريش. ثم قال: والله لأطأهم وطأة آتي منها على أنفسهم. قال بن جعفر: فقلت له: إن الله لم يزل يعرف أباك في الرفق خيراً، فإن رأيت أن ترفق بهم وتتجاوز عنهم فعلت، فإنما هم أهلك وعشيرتك، وإنما تقتل بهم نفسك إذا قتلتهم. قال: أقتل وأشفي نفسي، فلم أزل ألح عليه فيهم، وأرفقه عليهم، وكان لي سامعاً ومطيعاً، ففاك لي: إن بن الزبير حيث علمت من مكة، وهو زعم أنه قد نصب الحرب، فأنا أبعث إليه الجيوش، وأمر صاحب أول جيش أبعثه أن يتخذ المدينة طريقاً، وأن لا يقاتل، فإن أقرروا

بالطاعة، ونزعوا عن غيهم وضلالهم، فلهم علي عهد الله وميثاقه، أن لهم عطاءين في كل عام، ما لا أفعله بأحد من الناس طول حياتي، عطاء في الشتاء، وعطاء في الصيف، ولهم علي عهد أن أجعل الخنطة عندهم كسعر الخنطة عندنا، والخنطة عندهم سبعة أصع بدرهم، والعطاء الذي يذكرون أنه احتبس عنهم في زمان معاوية فهو علي أن أخرجهم لهم وافراً كاملاً، فإن أنابوا وقبلوا ذلك، جاوز إلى بن الزبير، وإن أبوا قاتلهم، ثم إن ظفر بما أئبها ثلاثاً، هذا عهدي إلى صاحب جيشي لمكانك ولطلبك فيهم، ولما زعمت أنهم قومي وعشيرتي. قال عبد الله بن جعفر: فرأيت هذا لهم فرجاً، فرجعت إلى متري فكتبت إليهم من ليلي كتاباً إلى أهل المدينة، أعلمهم فيه قول يزيد، وأحضهم على الطاعة والتسليم، والرضا والقبول لما بذل لهم، وأنهم أن يتعرضوا لجيوشه، وقلت لرسولي: اجهد السير، فدخلها في عشر، فوالله ما أرادوا ذلك ولا قبلوه، وقالوا: والله لا يدخلها عنوة أبداً.

كتاب يزيد إلى أهل المدينة:

قال: وكتب يزيد إلى أهل المدينة كتاباً، وأمر عثمان بن محمد يقرأه عليهم، فقدم الكتاب المدينة، وعثمان خائف، فقرأه عليهم، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد، فإني قد نفستكم حتى أخلفتكم، ورفعتمكم حتى أحرقتكم، ورفعتمكم على رأسي ثم وضعتكم، وأيم الله لئن آثرت أن أضعكم تحت قدمي لأطأنكم وطأة أقل منها عددكم وأترككم أحاديث تتناسخ كأحاديث عاد وثمود، وأيم الله لا يأتيكم مني أولى من عقوبي، فلا أفلح من ندم.

ما أجمع عليه أهل المدينة ورأوه من إخراج بني أمية:

قال: وذكروا أنه لما قرئ الكتاب، تكلم عبد الله بن مطيع ورجال معه كلاماً قبيحاً، فلما استبان لهم أن يزيد باعث الجيوش إليهم، أجمعوا على خلافهم، واختلفوا في الرياسة أيهم يقوم بهذا الأمر. فقال قاتل: بن مطيع، نقص الصفحة 230، 231.

فخرج معه يزيد فودعه. قال له: إن حدث بك حدث فأمر الجيوش إلى حصين بن نمير، فانهض بسم الله إلى بن الزبير، واتخذ المدينة طريقاً إليه، فإن صدوك أو قاتلوك فاقتل من ظفرت به منهم، وأئبها ثلاثاً، فقال مسلم بن عقبة: أصلح الله الأمير، لست بأخذ من كل ما عهدت به إلا بحرفين. قال يزيد: وما هما؟ ويحك. قال: أقبل من المقبل الطائع، وأقتل المدبر العاصي. فقال يزيد: حسبك، ولكن البيان لا يضرك، والتأكيد ينفعك، فإذا قدمت المدينة فمن عاقك عن دخولها، أو نصب لك الحرب، فالسيف السيف، أجهز على جريحهم، وأقبل على مدبرهم، وإياك أن تبقي عليهم، وإن لم يتعرضوا لك، فامض إلى بن

فمضت الجيوش، فلما نزلوا بوادي القرى، لقيتهم بنو أمية خارجين من المدينة، فرجعوا معهم، واستخبرهم مسلم بن عقبة عما خلفهم، وعما لقوا، وعن عددهم. فقال مروان: عددهم كثير، أكثر مما جئت به من الجيوش، ولكن عامتهم ليس لهم نيات ولا بصائر، وفيهم قوم قليل لهم نية وبصيرة، ولكن لا بقاء لهم مع السيف، وليس لهم كراع ولا سلاح، وقد خندقوا عليهم وحصنوا. قال مسلم: هذه أشدها علينا، ولكننا نقطع عنهم مشربهم، ونردم عليهم خندقهم. فقال مروان: عليه رجال لا يسلمونه، ولكن عندي فيه وجه سأخبرك به. قال: هاته. فقال: اطوه ودعه حتى يحضر ذلك، قال: فدعه إذاً. ثم قال لهم مسلم: تريدون أن تسيروا إلى أمير المؤمنين، أو تقيموا موضعكم هذا، أو تسيروا معنا؟ فقال بعضهم: نسير إلى أمير المؤمنين، ونحدث به عهداً، فقال مروان: أما أنا فراجع. فقال بعضهم لبعض: قد حلفنا لهم عند المنبر لئن استطعنا أن نرد الجيش عنهم لنردنه فكيف بالرجوع إليهم. فقال مروان: أما أنا فراجع إليهم. فقال له قوم: ما نرى أن تفعل، فإنما تقتلون هؤلاء أنفسكم، والله لا أكثرنا عليهم لمسلم جمعاً أبداً. فقال مروان: أنا والله ماضٍ مع مسلم إلى المدينة، فمدرك تأري من عدوي، ومن أخرجني من بيتي، وفرق بيني وبين أهلي، وإن قتلت بهم نفسي، فلم يرجع مع مسلم من بني أمية غير مروان وابنه عبد الملك، وكان مجدوراً فجعله بذئ خشب.

فلما أيقن أهل المدينة بقدوم الجيوش إليهم تشاوروا في الخندق وقالوا: قد خندق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخذقوا المدينة من كل نواحيها. ثم جمع عبد الله بن حنظلة أهل المدينة عند المنبر، فقال: تباعوني على الموت وإلا فلا حاجة في بيعتكم. فبايعوه على الموت، ثم صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنما خرجتم غضباً لدينكم، فأبلوا إلى الله بلاءً حسناً ليوجب لكم به الجنة ومغفرته، ويحل بكم رضوانه، واستعدوا بأحسن عدتكم، وتأهبوا بأكمل أهبتكم، فقد أخبرت أن القوم قد نزلوا بذئ خشب، ومعهم مروان بن الحكم، والله إن شاء مهلكه بنقضه العهد والميثاق عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتصايح الناس، وجعلوا ينالون منه ويسبونونه. فقال لهم: إن الشتم ليس بشيء، ولكن نصدقهم اللقاء، والله ما صدق قوم قط إلا نصروا، ثم رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم إنا بك واثقون، وعليك متوكلون، وإليك ألقانا ظهورنا ثم نزل. وكان عبد الله بن حنظلة لا يبيت إلا في المسجد الشريف، وكان لا يزيد على شربة من سويق يفطر عليها إلى مثلها من الغد.

قدوم الجيوش إلى المدينة:

قال: وذكروا أن أهل الشام لما انتهوا إلى المدينة عسكروا بالجرف، ومشوا رجالاً من رجالهم، فأحدقوا بالمدينة من كل ناحية لا يجدون مدخلاً، لأنهم قد خندقوها عليهم، والناس متلبسون السلاح، قد قاموا على أفواه الخنادق، وقد حرصوا أن لا يتكلم منهم متكلم، وجعل أهل الشام يطوفون بها والناس يرمونهم بالحجارة والنبل من فوق الآكام والبيوت، حتى خرجوا فيهم وفي خيلهم، فقال مسلم لمروان: أين ما قلت لي بوادي القرى؟ فخرج مروان حتى جاء بني حارثة، فكلم رجلاً منهم، ورغبه في الضيعة، وقال: افتح لنا طريقاً، فأنا أكتب بذلك إلى أمير المؤمنين، ومتضمن لك عنه شطر ما كان بذل لأهل المدينة من العطاء وتضعيفه، ففتح له طريقاً، ورغب فيما بذل له، وتقبل ما تضمن له عن يزيد، فافتحمت الخيل، فجاء الخبر إلى عبد الله بن حنظلة، فأقبل، وكان من ناحية الطورين، وأقبل عبد الله بن مقطع، وكان من ناحية ذناب، وأقبل بن أبي ربيعة، فاجتمعوا جميعاً بمن معهم، بحيث اقتحم عليهم أهل الشام، فاقتتلوا حتى عابنوا الموت، ثم تفرقوا.

غلبة أهل الشام على أهل المدينة

قال: وذكروا أن عبد الله بن أبي سفيان قال: وقعت مع قوم عند مسجد بني عبد الأشهل، منهم عبد الله بن زيد صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقاتل مسيلمة الكذاب، ومعه عبد الله بن حنظلة، ومحمد بن سعد بن أبي وقاص، وإبراهيم بن فارط، وإبراهيم بن نعيم بن النجار، فهم يقاتلون ويقولون للناس: أين الفرار؟ والله لأن يقتل الرجل مقبلاً خيراً له من أن يقتل مدبراً. قال: فاقتتلوا ساعة، والنساء والصبيان يصيحون ويكفون على قتالهم، حتى جاءهم ما لا طاقة لهم به، وجعل مسلم يقول: من جاء برأس رجل فله كذا وكذا، وجعل يغري قوماً لا دين لهم، فقتلوا وظهروا على أكثر المدينة. قال: وكان على بشر بن حنظلة يومئذ درعان، فلما هزم القوم طرحهما. ثم جعل يقاتلهم وهو حاسر حتى قتلوه، ضربه رجل من أهل الشام ضربة بالسيف قطع منكبه، فوقع ميتاً. فلما مات بن حنظلة صار أهل المدينة كالنعم بلا راع، شرود يقتلهم أهل الشام من كل وجه، فأقبل محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري، وإن جراحه لتنفث دماً، وهو يقاتل ويحمل على الكردوس منهم فيفض جماعتهم، وكان فارساً، فحمل عليه أهل الشام حملة واحدة حتى نظموه بالرماح، فمال ميتاً. فلما قتل انهزم من بقي من الناس في كل وجه، ودخل القوم المدينة، فجالت خيولهم فيها يقتلون وينهبون.

قال: وخرج يومئذ عبد الله بن زيد بن عاصم صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، والخيل تسرع في كل وجه قتلاً ونهباً. فقيل له: لو علم القوم باسمك وصحبك لم يهيجوك، فلو أعلمتهم بمكانك؟ فقال:

والله لا أقبل لهم أماناً، ولا أبرح حتى أقتل، لا أفلح من ندم، وكان رجلاً أبيض طويلاً أصلع، فأقبل عليه رجل من أهل الشام وهو يقول: والله لا أبرح حتى أضرب صلعتك وهو حاسر. فقال عبد الله: شر لك خير لي، فضربه بفأس في يده، فرأيت نوراً ساطعاً في السماء، فسقط ميتاً. وكان يومه ذلك صائماً، رحمه الله.

قال: فجعل مسلم يطوف على فرس له ومعه مروان بن الحكم على القتلى. فمر على عبد الله بن حنظلة، وهو ماد أصبعه السبابة. فقال مروان: أما والله لئن نصبتها ميتاً فطالما نصبتها حياً، داعياً إلى الله. ومر على إبراهيم بن نعيم، ويده على فرجه، فقال: أما والله لئن حفظته في الممات لقد حفظته في الحياة. ومر على محمد بن عمرو بن حزم وهو على وجهه واضعاً جبهته بالأرض، فقال: أما والله لئن كنت على وجهك في الممات لطالما افترشته حياً ساجداً لله. فقال مسلم: والله ما أرى هؤلاء إلا من أهل الجنة. ومرّ على عبد الله بن زيد وبين عينيه أثر السجود، فلما نظر إليه مروان عرفه، وكره أن يعرفه لمسلم فيحز رأسه. فقال له مسلم: من هذا؟ فقال بعض هذه الموالي وجاوزه، فقال له مسلم: كلا، وبيت الله لقد نكبت عنه لشيء. فقال له مروان: هذا صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن زيد. فقال: ذاك أخزى ناكث بيعته حزوا رأسه.

وكان قصر بني حارثة أماناً لمن أراد أهل الشام أن يؤمنوه، وكان بنو حارثة آمنين ما قتل منهم أحد، وكان كل من نادى باسم الأمان إلى أحد من قبيلة بني حارثة آمنوه رجلاً كان أو امرأة ثم ذبوا عنه حتى يبلغوه قصر بني حارثة، فأجير يومئذ رجال كثير ونساء كثيرة، فلم يزلوا في قصر بني حارثة حتى انقضت الثلاث.

قال: وأول دور انتهت والحرب قائمة دور بني عبد الأشهل، فما تركوا في المنازل من أثاث ولا حلي ولا فراش إلا نقض صوفه، حتى الحمام والدجاج كانوا يذبحونها، فدخلوا دار محمد بن مسلمة، فصاح النساء، فأقبل زيد بن محمد بن مسلمة إلى الصوت، فوجد عشرة يهبون، فقاتلهم ومعه رجلان من أهله حتى قتل الشاميون جميعاً، وخلصوا منهم ما أخذوه، فألقوا متاعهم في بئر لا ماء فيها، وأبقى عليها التراب، ثم أقبل نفر من أهل الشام، فقاتلوهم أيضاً، حتى قتل زيد بن محمد أربعة عشر رجلاً، فضربه بالسيف منهم أربعة في وجهه. ولزم أبو سعيد الخدري بيته، فدخل عليه نفر من أهل الشام، فقالوا: أيها الشيخ، من أنت؟ فقال: أنا أبو سعيد الخدري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا ما زلنا نسمع عنك، فبحظك أخذت في تركك قتالنا، وكفك عنا، ولزوم بيتك، ولكن أخرج إلينا ما عندك. قال: والله ما عندي مال، فنتفوا لحيته، وضربوه ضربات، ثم أخذوا كل ما وجدوه في بيته حتى الصواع وحتى زوج حمام كان له.

وكان جابر بن عبد الله يومئذ قد ذهب بصره، فجعل يمشي في بعض أزقة المدينة، وهو يقول: تعس من أخاف الله ورسوله. فقال له رجل: ومن أخاف الله ورسوله؟ فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من أخاف المدينة فقد أخاف ما بين جنبي، فحمل عليه رجل بالسيف ليقتله، فترامى عليه مروان فأجاره، وأمر أن يدخله منزله، ويغلق عليه بابه، وكان سعيد بن المسيب رحمه الله لم يبرح من المسجد، ولم يكن يخرج إلا من الليل إلى الليل، وكان يسمع إذا جاء وقت الأذان أذاناً يخرج من قبل القبر الشريف، حتى آمن الناس، فكان سعيد يقول: ما رأيت خيراً من الجماعة، ثم أمر مسلم بالأسارى، فغلوا بالحديد، ثم دعا إلى بيعة يزيد، فكان أول من بايع مروان بن الحكم، ثم أكابر بني أمية، حتى أتى على آخرهم. ثم دعا بني أسد، وكان عليهم حنقاً، فقال: أتبايعون لعبد الله يزيد بن أمير المؤمنين ولمن استخلف عليكم بعده، على أن أموالكم ودماءكم وأنفسكم خول له، يقضي فيها ما شاء؟ قال يزيد بن عبد الله بن زمعة: إنما نحن نفر من المسلمين لنا ما لهم وعلينا ما عليهم. فقال مسلم: والله لا أقيلك، ولا تشرب البارد بعدها أبداً، فأمر به، فضربت عنقه. ثم أتى بمعقل بن سنان، وكان معقل حاملاً لواء قومه يوم الفتح مع رسول الله، فلما دخل عليه قال له: أعطشت يا معقل؟ قال: نعم أصلح الله الأمير، قال: حيسوا له شربة من سويق اللوز الذي زدنا به أمير المؤمنين، فلما شربها قال له: رويت؟ قال: نعم. فقال مسلم: أما والله لا تبولها من مثانتك أبداً، فقدم، فضربت عنقه، ثم قال: ما كنت لأدعك بعد كلام سمعته منك تطعن به على إمامك، وكان معقل قد طعن بعض الطعن على يزيد قبل ذلك، فيما بينه وبين مسلم، على الاستراحة بذلك، ثم أمر بمحمد بن أبي الجهم وجماعة من وجوه قريش والأنصار، وخيار الناس والصحابة والتابعين، ثم أتى بعبد الله بن الحارث مغلولاً. فقال مسلم: أنت القاتل: اقتلوا سبعة عشر رجلاً من بني أمية، لا تروا شراً أبداً؟ قال: قد قتلتها، ولكن لا يسمع من أسير أمر، أرسل يدي، وقد برئت مني الذمة، إنما نزلت بعهد الله وميثاقه، وأيم الله لو أطاعوني وقبلوا مني ما أشرت به عليهم ما تحكمت فيهم أنت أبداً. فقال له مسلم: والله لأقدمنك إلى نار تلظى، ثم أمر به فضربت عنقه. فقال مروان: قد والله سقيتني من دماء هؤلاء القوم، إلا ما كان من قريش، فإنك أثختتها وأفنيتها. فقال مسلم: والله لا أعلم عند أحد غشاً لأمر المؤمنين إلا سألت الله أن يسقيني دمه. فقال: إن عند أمير المؤمنين عفواً لهم، وحلماً عنهم ليس عندك. وجعل مروان يعتذر إلى قريش، ويقول: والله لقد ساءني قتل من قتل منكم. فقالت له قريش: أنت والله الذي قتلتنا، ما عذرك الله ولا الناس، لقد خرجت من عندنا، وحلفت لنا عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لتردهم عنا، فإن لم تستطع لتمضين ولا ترجع معهم، فرجعت، ودلت على العورة، وأعنت على الهلكة، فالله لك بالجزاء. قال: فبلغ عدة قتلى الحرة يومئذ من قريش والأنصار والمهاجرين ووجوه الناس، ألفاً وسبع مئة، وسائرهم من الناس عشرة آلاف، سوى النساء والصبيان.

قال أبو معشر: دخل رجل من أهل الشام على امرأة نفساء من نساء الأنصار ومعها صبي لها، فقال لها: هل من مال؟ قالت: لا والله ما تركوا لي شيئاً. فقال: والله لتخرجن إلي شيئاً أو لأقتلنك وصبيك هذا. فقالت له: ويحك إنه ولد بن أبي كبشة الأنصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقد بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم معه يوم بيعة الشجرة، على أن لا أزي، ولا أسرق، ولا أقتل ولدي، ولا آتي ببهتان أفتريه، فما أتيت شيئاً فأتق الله. ثم قالت لابنها: يا بني، والله لو كان عندي شيء لافتديتك به. قال: فأخذ برجل الصبي، والثدي في فمه، فجذبه من حجرها، فضرب به الحائط فانثر دماغه في الأرض، قال: فلم يخرج من البيت حتى اسود نصف وجهه، وصار مثلاً.

قال أبو معشر: قال لي رجل: بينا أنا في بعض أسواق الشام، إذا برجل ضخم، فقال لي: ممن أنت؟ قلت: رجل من أهل المدينة، قال: من أهل الخبيثة؟ قال: فقلت له: سبحان الله، رسول الله صلى الله عليه وسلم سماها طيبة وسميتها خبيثة! قال: فبكى، فقلت له: ما يبكيك، قال: العجب والله، كنت أغزو الصائفة كل عام زمن معاوية، فأُتيت في المنام ف قيل لي: إنك تغزو المدينة، وتقتل فيها رجلاً يقال له: محمد بن عمرو بن حزم، وتكون بقتله من أهل النار. قال: فقلت: ما هذا من شأن المدينة، ولا يقع في نفس مدينة الرسول. قال: فقلت: لعلها بعض مدائن الروم، فكنت أغزو ولا أسل فيها سيفاً، حتى مات معاوية، وولي يزيد، فضرب قرعة بعث المدينة، فأصابني القرعة. قال: فقلت: هي هذه والله، فأرت أن يأخذوا مني بدلاً، فأبوا، فقلت في نفسي: أما إذا أبوا، فإني لا أسل فيها سيفاً، قال: فحضرت الحرة، فخرج أصحابي يقاتلون، وجلس في فسطاطي، فلما فرغوا من القتال، جاءنا أصحابنا، فقالوا: دخلنا وفرغنا من الناس، فقال بعض أصحابي لبعض: تعالوا حتى ننظر إلى القتلى، فتقلدت سيفي وخرجت، فجعلنا ننظر إلى القتلى ونقول: هذا فلان، وذا فلان، فإذا رجل في بعض تلك الدارات في يده سيف، وقد أزيد شدقه، وحوله صرعى من أهل الشام، فلما أبصرني قال: يا كلب احقن عني دمك. قال: فنسيت والله كل شيء، فحملت عليه، فقاتلته فقتلته، فسطع نور بين عينيه وسقط في يدي، قلت: من هذا؟ ف قيل لي: هذا محمد بن عمرو بن حزم، فجعلت أدور مع أصحابي، فيقولون: هذا فلان، وهذا فلان. فمر إنسان لا يعرف، فقال: من قتل هذا، ويحكم، يريد محمد بن عمرو بن حزم! قتله الله، والله لا يرى الجنة بعينه أبداً.

عدة من قتل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وغيرهم:

قال: وذكروا أنه قتل يوم الحرة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ثمانون رجلاً، ولم يبق بدري بعد ذلك، ومن قریش والأنصار سبع مئة، ومن سائر الناس من الموالي والعرب والتابعين عشرة آلاف، وكانت

الوقعة في ذي الحجة لثلاث بقين منها سنة ثلاث وستين. قالوا: وكان الناس يعجبون من ذلك أن بن الزبير لم يصلوا إليه إلا بعد ستة أشهر، ولم يكن مع بن الزبير، إلا نفر قليل، وكان بالمدينة أكثر من عشرة آلاف رجل، والله ما استطاعوا أن يناهضوهم يوماً إلى الليل.

كتاب مسلم بن عقبة إلى يزيد:

قال: وذكروا أن مسلماً لما فرغ من قتال أهل المدينة ونهبها، كتب إلى يزيد بن معاوية بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله يزيد بن معاوية أمير المؤمنين من مسلم بن عقبة، سلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: تولى الله حفظ أمير المؤمنين والكفاية له، فإني أخبر أمير المؤمنين أبقاء الله، أبي خرجت من دمشق ونحن على التعبئة التي رأى أمير المؤمنين يوم فارقتنا بالعافية، فلقينا أهل بيت أمير المؤمنين بوادي القرى، فرجع معنا مروان بن الحكم، وكان لنا عوناً على عدونا، وإننا انتهينا إلى المدينة فإذا أهلها قد خندقوا عليها الخنادق، وأقاموا على أنقابها الرجال بالسلح وأدخلوا ماشيتهم، وما يحتاجون لحصارهم سنة فيما كانوا يقولون، وإننا أعذرنا إليهم، وأخبرناهم بعهد أمير المؤمنين، وما بذل لهم، فأبوا، ففرقت أصحابي على أفواه الخنادق، فوليت الحصين بن نمير، ناحية ذناب وما والاها، وعلى الموالي وجهت حبش بن دجلة إلى ناحية بني سلمة، ووجهت عبد الله بن مسعدة إلى ناحية بقيع الغرق، وكنت ومن معي من قواد أمير المؤمنين ورجاله في وجوه بني حارثة، فأدخلنا الخيل عليهم حين ارتفع النهار، من ناحية عبد الأشهل بطريق فتحه لنا رجل منهم بما دعاه إليه مروان بن الحكم إلى صنيع أمير المؤمنين، وما تضمن له عنه من قرب المكان، وجزيل العطاء، وإيجاب الحق، وقضاء الذمام، وقد بعثت به إلى أمير المؤمنين، وأرجو من الله عز وجل، أن يلهم خليفته وعبداه عرفان ما أولى من الصنع وأسدى من الفضل، وكان أكرم الله أمير المؤمنين من محمود مقام مروان بن الحكم، وجميل مشهده، وصديد بأسه، وعظيم نكايته لعدو أمير المؤمنين، ما لا إخال ذلك ضائعاً عند إمام المسلمين وخليفة رب العالمين إن شاء الله، وسلم الله رجال أمير المؤمنين فلم فلم يصب منهم أحد بمكره، ولم يقم لهم عدوهم من ساعات نهارهم أربع ساعات، فما صليت الظهر - أصلح الله أمير المؤمنين - إلا في مسجدهم؛ بعد القتل الذريع، والانتهاز العظيم، وأوقعنا بهم السيوف وقتلنا من أشرف لنا منهم، وأتبعنا مدبرهم وأجهزنا على جريحهم، وانتبهناهم ثلاثاً كما قال أمير المؤمنين، أعز الله نصره، وجعلت دور بني الشهيد المظلوم عثمان بن عفان، في حرز وأمان، فالحمد لله الذي شفى صدري من قتل أهل الخلاف القديم، والنفاق العظيم، فطالما عتوا، وقديماً ما طغوا.

وكتبت إلى أمير المؤمنين، وأنا في منزل سعيد بن العاص مدنفاً مريضاً، ما أراي إلا لما بي، فما كنت أبالي، متى مت بعد يومي هذا، وكتب لهلal الحرم سنة ثلاث وستين. فلما جاءه الكتاب، أرسل إلى عبد الله بن جعفر وإلى ابنه معاوية بن يزيد، فأقرأهما الكتاب، فاسترجع عبد الله بن جعفر وأكثر، وبكى معاوية بن يزيد، حتى كادت نفسه تخرج، وطال بكأؤه، فقال يزيد لعبد الله بن جعفر: ألم أجبك إلى ما طلبت، وأسعفتك فيما سألت، فبذلت لهم العطاء وأجفلت لهم الإحسان، وأعطيته العهود والمواثيق على ذلك؟ فقال عبد الله بن جعفر: فمن هنالك استرجعت، وتأسفت عليهم، إذ اختاروا البلاء على العافية، والفاقة على النعمة، ورضوا بالحرمان دون العطاء، ثم قال يزيد لابنه معاوية: فما بكأؤك أنت يا بني؟ قال: أبكي على قتل من قتل من قريش، وإنما قتلنا بهم أنفسنا. فقال يزيد: هو ذاك، قتلت بهم نفسي وشفيتها قال. وسأل مسلم بن عقبة قبل أن يرتحل عن المدينة عن علي بن الحسين، أحاضر هو؟ فقيل له: نعم. فأتاه علي بن الحسين، ومعه ابنه، فرحب بهما، وسهل وقربهم، وقال: إن أمير المؤمنين أوصاني بك. فقال علي بن الحسين: وصل الله أمير المؤمنين وأحسن جزأه ثم انصرف عنه. ولم يكن أحد نصب للحرب من بني هاشم، ولزموا بيوتهم، فسلموا، إلا ثلاثة منهم تعرضوا للقتال، فأصيبوا.

موت مسلم بن عقبة ونبشه:

قال: وذكروا أن مسلم بن عقبة ارتحل عن المدينة، وهو يجود بنفسه، يريد بن الزبير بمكة، فترل في بعض الطريق، فدعا الحصين بن نمير فقال له: يا برذعة الحمار، إنه كان من عهد أمير المؤمنين إن حدث بي حدث الموت أن أعهد إليك، فاسمع، فإني بك عالم، لا تمكن قريشاً من أذنك إذا قدمت مكة فتبول - أي قريش فيها -، فإنما هو الوفاق، ثم النفاق ثم الانصراف ثم مات فدفن في ثنية المشلل، فلما تفرق القوم عنه، أتته أم ولد ليزيد بن عبد الله بن زمعة، وكانت من وراء العسكر تترقب موته، فنبتت عنه، فلما انتهت إلى لحد، وجدت أسود من الأساود منظوياً في رقبته، فاتحاً فاه، فتهيته. ثم لم تزل به حتى تنحى لها عنه فصلبته على المشلل. قال الضحاك: فحدثني من رآه مصلوباً يرمى كما يرمى قبر أبي رغال.

فضائل قتلى أهل الحرة رحمهم الله تعالى:

قال: وذكروا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج في سفر من أسفاره فلما مر بحرة بني زهرة، وقف فاسترجع. فقالوا: ما هو يا رسول الله؟ قال: "يقتل في هذه الحرة خيار أمي بعد أصحابي". قال: وذكروا أن عبد الله بن سلام وقف بالحرة زمان معاوية بن أبي سفيان، فقال: أجد في كتاب يهود الذي لم يبدل

ولم يغير، أنه يكون هاهنا مقتلة قوم يحشرون يوم القيامة واضعي سيوفهم على رقابهم، حتى يأتوا الرحمن تبارك وتعالى، فيقفون بين يديه، فيقولون: قتلنا فيك. قال: وذكروا عن داود بن الحصين قال: عندنا قبور قوم من قتلى الحرة، فقل ما حركت إلا فاح منها ريح المسك. وقال بعضهم: عن عبد الله بن أبي سفيان عن أبيه قال: رأيت عبد الله بن حنظلة في منامي بأحسن صورة، معه لؤلؤة، فقلت: يا أبا عبد الرحمن، أقتلت؟ قال: بلى، فلقيت ربي، فأدخلني الجنة، فأنا أسرح في ثمارها حيث شئت، قلت: فأصحابك ما صنع بهم؟ قال: هم معي، وحول لوائي هذا الذي ترى لم تحل عقدته بعد. وقال بن سيرين رحمه الله تعالى: رأيت كثير بن أفلح رضي الله عنه في النوم، فقلت له: أأنت قد استشهدت؟ قال: ليس في الإسلام شهادة، ولكنها الندباء. وقال الأعرج: كان الناس لا يلبسون المصبوغ من الثياب قبل الحرة، فلما قتل الناس بالحرة استحبوا أن يلبسوها وقالوا: لقد مكث النوح في الدور على أهل الحرة سنة لا يهدأون. وقال عبد الله بن أبي بكر كان أهل المدينة أعز الناس وأهيبهم، حتى كانت الحرة، فاجترأ الناس عليهم فهانوا. قال الزهري: بلغ القتلى يوم الحرة من قريش والأنصار، ومهاجرة العرب ووجوه الناس سبع مئة، وسائر الناس عشرة آلاف. من أخلاط الناس والموالي والعبيد، قال وأصيب نساء وصبيان وكان قدوم أهل الشام المدينة لثلاث بقين من في الحجة، سنة ثلاث وستين، فانتهبوها ثلاثاً حتى رأوا هلال المحرم، ثم أمسكوا بعد أن لم يبقوا أحداً به رمق، وقتل بها من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ثمانون رجلاً، ولم يبق بعد ذلك بدري.

وقالوا: قال عيسى بن طلحة: قلت لعبد الله بن مطيع: كيف نجوت يوم الحرة؟ قال: رأيت ما رأيت من غلبة أهل الشام، وصنع بني حارثة الذي صنعوا من إدخالهم علينا وولى الناس، فذكرت قول الحارث بن هشام يوم بدر.

وعلمت أنه لا يضر عدوي مشهدي

ولا ينفع وليي، فتواريت، ثم لحقت بابن الزبير، وكنت أعجب كل العجب أن بن الزبير لم يصلوا إليه ستة أشهر، ولم يكن معه إلا نفر يسير، قوم من قريش من الخوارج، وكان معنا يوم الحرة ألفا رجلاً، كلهم ذوو حفاظ، فما استطعنا أن نجسهم يوماً إلى آخر الليل. تم الجزء الأول من كتاب الإمامة والسياسة ويليه الجزء الثاني.

ذكر اختلاف الرواة في وقعة الحرة وخبر يزيد:

قال: وذكروا أنه لما بويع يزيد بن معاوية خرج الحسين حتى قدم مكة، فأقام هو وابن الزبير. قال: وقدم عمرو بن سعيد بن العاص في رمضان أميراً على المدينة وعلى الموسم، وعزل الوليد بن عقبة، فلما استوى

على المنبر رعى فقال أعرابي مستقبلي: مه مه! جاءنا والله بالدم فتلقاه رجل بعمامته، فقال: مه! عم والله الناس، ثم قام يخطب، فناوله آخر عصا لها شعبتان. فقال: مه! شعب والله الناس. ثم خرج إلى مكة، فقدمها يوم التروية، فصلى الحسين ثم خرج.

فلما انصرف عمرو بلغه أن الحسين خرج، فقال: اركبوا كل بعير بين السماء والأرض فاطلبوه. قال: فكان الناس يعجبون من قوله هذا. قال: فطلبوه فلم يدركوه، فأرسل عبد الله بن جعفر ابنه عوناً ومحمداً ليردا الحسين. فأبى أن يرجع، وخرج الحسين بابني عبد الله بن جعفر معه، ورجع عمرو بن سعيد بن العاص إلى المدينة، فأرسل إلى بن الزبير، فأبى أن يأتيه، وامتنع برجال معه من قريش وغيرهم. قال: فبعث عمرو بن سعيد جيشاً من المدينة يقاتلون بن الزبير. قال: فضرب على أهل الديوان البعث إلى مكة، وهم كارهون للخروج. فقال لهم: إما أن تأتوا ببذل، وإما أن تخرجوا. قال: فجاء الحارث بن مالك بن البرصاء برجل استأجره بخمس مئة درهم إلى عمرو بن سعيد. فقال: قد جئت برجل بدلي. فقال الحارث للرجل الذي استأجره هل لك أن أزيدك خمس مئة أخرى، وتنكح أمك؟ فقال له: أما تستحي؟ فقال: إنما حرمت عليك أمك في مكان واحد، وحرمت عليك الكعبة في كذا وكذا مكان من القرآن. قال فجاء به إلى عمرو بن سعيد، قال: قد جئتك برجل لو أمرته أن ينكح أمه لنكحها. فقال له عمرو: لعنك الله من شيخ قال: فبعثهم إلى مكة يقاتلون بن الزبير، فهزم عمرو بن الزبير، وبعث يزيد بن معاوية عبد الله بن مسعدة الفزاري، يخطب الناس بالمدينة. فقال في خطبته: أهل الشام جند الله الأعظم، وأهل الشام خير الخلق. فقال الحارث بن مالك: ائذن لي أن أتكلم. فقال: اجلس لا أجلسك من شيخ. قال: فتشهد الحارث وقال: لعمر الله لنحن خير من أهل الشام، ما نقت من أهل المدينة إلا أنهم قتلوا أباك وهو يسرق لقاح النبي صلى الله عليه وسلم. أنسيت طعنة أبي قتادة إست أبيك بالرمح، فخرج منه جمعوص مثل هذا، وأشار إلى ساعده، ثم جلس.

ولاية الوليد المدينة وخروج الحسين بن علي:

قال: وذكروا أن يزيد بن معاوية، عزل عمرو بن سعيد، وأمر الوليد بن عتبة، وخرج الحسين بن علي إلى مكة، فمال الناس إليه، وكثروا عنده واختلفوا إليه، وكان عبد الله بن الزبير فيمن يأتيه. قال: فأتاه كتاب أهل الكوفة فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، للحسين بن علي، من سليمان بن صرد، والمسيب بن نجبة، ورفاعة بن شداد، وشيعته من المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة. أما بعد، فالحمد لله الذي قصم عدوك الجبار العنيد، الذي اعتدى على هذه الأمة، فانزعها حقوقها، واغتصبها أمورها، وغلبها على فيئها،

وتأمر عليها على غير رضا منها، ثم قتل خيارها، واستبقى شرارها؛ فبعداً له كما بعدت ثمود، إنه ليس علينا إمام، فاقدم علينا، لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى، فإن النعمان بن بشير في قصر الإمارة، ولسنا نجتمع معه في جمعة، ولا نخرج معه إلى عيد، ولو قد بلغنا مخرجك أخرجناه من الكوفة، وألحقناه بالشام والسلام.

قال: فبعث الحسين بن علي مسلم بن عقيل إلى الكوفة يبايعهم له، وكان على الكوفة النعمان بن بشير. فقال النعمان: لابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إلينا من بن بحدل. قال: فبلغ ذلك يزيد، فأراد أن يعزله. فقال لأهل الشام: أشيروا علي، من أستعمل على الكوفة؟ فقالوا: أترضى برأي معاوية؟ قال: نعم، قالوا: فإن الصك بإمرة عبيد الله بن زياد على العراقيين قد كتبه في الديوان. قال: فاستعمله على الكوفة، فقدم الكوفة قبل أن يقدم الحسين، وبايع له مسلم بن عقيل وأكثر من ثلاثين ألفاً من أهل الكوفة، فنهضوا معه يريدون عبيد الله بن زياد؛ فجعلوا كلما أشرفوا على زقاق، انسل عنه منهم ناس، حتى بقي مسلم في شردمة قليلة. قال: فجعل أناس يرمونه بالآجر من فوق البيوت؛ فلما رأى ذلك دخل دار هاني بن عروة المرادي، وكان له فيهم رأي. فقال لها هاني بن عروة: إن لي من بن زياد مكاناً، وسوف أتمارض له، فإذا جاء يعودني، فاضرب عنقه، قال: فقيل لابن زياد: إن هاني بن عروة شاك يقيء الدم. قال: وشرب المغرة، فجعل يقيئها. قال: فجاء بن زياد يعوده، وقال لهم هاني: إذا قلت لكم اسقوني فاخرج إليه فاضرب عنقه، فقال: اسقوني، فأبطأوا عليه، فقال: ويحكم اسقوني ولو كان فيه ذهاب نفسي قال: فخرج عبيد الله بن زياد ولم يصنع الآخر شيئاً، وكان من أشجع الناس، ولكنه أخذته كبوة، فقيل لابن زياد: والله إن في البيت رجلاً متسلحاً. قال: فأرسل بن زياد إلى هاني فدعاه. فقال: إني شاك لا أستطيع النهوض. فقال: اتوني به وإن كان شاكياً، قال: فأخرج له دابة، فركب ومعه عصاه وكان أعرج، فجعل يسير قليلاً ويقف، ويقول: ما لي أذهب إلى بن زياد؟ فما زال ذلك دأبه حتى دخل عليه. فقال له عبيد الله بن زياد: يا هاني، أما كانت يد زياد عندك بيضاء؟ قال: بلى، قال: ويدي؟ قال بلى، فقال يا هاني، قد كانت لكم عندي يد بيضاء، وقد أمتك على نفسك ومالك، فتناول العصا التي كانت بيد هاني، فضرب بها وجهه حتى كسرهما، ثم قدمه فضرب عنقه. قال: وأرسل جماعة إلى مسلم بن عقيل، فخرج عليهم بسيفه، فما زال يقاتلهم حتى أخرج وأسر، فلما أسر بعث الرجال، فقال: اسقوني ماء. قال: ومعه رجل من بني أبي معيط ورجل من بني سليم يقال له: شهر بن حوشب. فقال له شهر بن حوشب: لا أسقيك إلا من البئر. فقال المعيطي: والله لا نسقيه إلا من الفرات، قال: فأمر غلاماً له، فأتاه بإبريق من ماء، وقدح قوارير ومنديل. قال: فسقاه فتمضمض مسلم، فخرج الدم، فما زال يمسح الدم،

ولا يسبغ شيئاً منه حتى قال: أخروه عني. قال: فلما أصبح دعا به عبيد الله بن زياد وهو قصير، فقدمه لتضرب عنقه، فقال: دعني حتى أوصي، فقال: أوص. فنظر مسلم في وجوه الناس فقال لعمر بن سعيد: ما أرى هاهنا من قريش غيرك، فادن مني حتى أكلمك، فدنا منه، فقال له: هل لك أن تكون سيد قريش ما كانت قريش؟ إن الحسين ومن معه وهم تسعون بين رجل وامرأة في الطريق فارددهم، واكتب إليهم بما أصابني. قال: فضرب عنقه وألقاه عمرو لعبيد الله وقال: أتدري ما قال؟ فقال عبيد الله: اكتم على بن عمك. فقال عمرو: هو أعظم من ذلك، فقال بن زياد: بأي شيء هو؟ قال: أخبرني أن الحسين ومن معه قد أقبل. وهم تسعون إنساناً بين رجل وامرأة. فقال: أما والله إذ دلت عليه لا يقاتلهم أحد غيرك.

قتال عمرو بن سعيد الحسين وقتله:

قال: وذكروا أن عبيداً بن زياد، بعث جيشاً أمر عليهم عمرو بن سعيد، وقد جاء الحسين الخبر، فهم أن يرجع ومعه خمسة من بني عقيل فقالوا له: أترجع وقد قتل أخونا، وقد جاءك من الكتب ما نثق به؟ فقال لبعض أصحابه: والله مالي عن هؤلاء من صبر، يعني بني عقيل. قال: فلقية الجيش على خيولهم بوادي السباع، فلقوهم وليس معهم ماء. فقالوا: يا بن بنت رسول الله اسقنا. قال: فأخرج لكل فارس صحيفة من ماء، فسقاهاهم بقدر ما يمسك برمقهم. ثم قالوا: سر يا بن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما زالوا يرجونه، وأخذوا به على الجرف حتى نزلوا بكربلاء، فقال الحسين: أي أرض هذه؟ قالوا: كربلاء، قال: هذا كرب وبلاء. قال: فتزلوا وبينهم وبين الماء ربوة، فأراد الحسين وأصحابه الماء فحالوا بينهم وبينه. فقال له شهر بن حوشب: لا تشربوا منه حتى تشربوا من الحميم، فقال عباس بن علي: يا أبا عبد الله، نحن على الحق فنقاتل؟ قال: نعم. فركب فرسه، وحمل بعض أصحابه على الخيول، ثم حمل عليهم فكشفهم عن الماء حتى شربوا وسقوا. ثم بعث عبيد الله بن زياد عمرو بن سعيد يقاتلهم. قال الحسين: يا عمرو، اختر مني ثلاث خصال، إما أن تتركني أرجع كما جئت، فإن أبيت هذه فأخرى، سيرني إلى الترك أقاتلهم حتى أموت، أو تسيرني إلى يزيد فأضع يدي في يده؛ فيحكم في بما يريد. فأرسل عمرو إلى بن زياد بذلك فهم أن يسيره إلى يزيد. فقال له شهر بن حوشب: قد أمكنك الله من عدوك وتسيره إلى يزيد، والله لئن سار إلى يزيد لا رأى مكروهاً، وليكونن من يزيد بالمكان الذي لا تناله أنت منه، ولا غيرك من أهل الأرض، لا تسيره ولا تبليه ريقه حتى يتزل على حكمك. قال: فأرسل إليه يقول: لا، إلا أن تتزل على حكمي. فقال الحسين: أنزل على حكم بن زانية؟ لا والله لا أفعل، الموت دون ذلك وأحلى. قال: وأبطأ عمرو بن سعيد عن قتاله. فأرسل عبيد الله بن زياد إلى شهر بن حوشب إن تقدم

عمرو يقاتل، وإلا فاقتله، وكن أنت مكانه. قال: وكان مع عمرو بن سعيد من قريش ثلاثون رجلاً من أهل الكوفة، فقالوا: يعرض عليكم بن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث خصال لا تقبلون واحدة منها؟ فتحولوا مع الحسين، فقاتلوا. قال: فرأى رجل من أهل الكوفة عبد الله بن الحسين بن علي على فرس، وكان من أجمل الناس. قال: لأقتلن هذا الفتى، فقبل له: ويحك، ما تصنع بقتله، دعه، قال: فحمل عليه فضربه، فقطع يده، ثم ضربه ضربة أخرى فقتله، ثم قتلوا جميعاً. فقتل يومئذ الحسين بن علي، وعباس بن علي، وعثمان بن علي، وأبو بكر بن علي، وجعفر بن علي، وأمهم أم البنين بنت حرام الكلابية، وإبراهيم بن علي، وأمه أم ولد، وعبد الله بن علي، وخمسة من بني عقيل، وابنان لعبد الله بن جعفر: عون، ومحمد، وثلاثة من بني هاشم، ونساء من نسائهم، وفيهم فاطمة بنت الحسين بن علي، وفيهم محمد بن علي، وابنا جعفر، ومحمد بن الحسين بن علي.

قدوم من أسر من آل علي على يزيد:

قال وذكروا أن أبا معشر قال: حدثني محمد بن الحسين بن علي، قال: دخلنا على يزيد، ونحن اثنا عشر غلاماً مغللين في الحديد وعلينا قمص. فقال يزيد: أخلصتم أنفسكم بعبيد أهل العراق؟ وما علمت بخروج أبي عبد الله حين خرج، ولا بقتله حين قتل. قال: فقال علي بن الحسين: "ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها، إن ذلك على الله يسير. لكيلا تأسوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا بما آتاكم، والله لا يحب كل مختال فخور" الحديد: 22 - 23. قال: فغضب يزيد، وجعل يعبث بلحيته، وقال: "وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم، ويعفو عن كثير" الشورى: 30، يا أهل الشام ما ترون في هؤلاء؟ فقال رجل من أهل الشام لا تتخذن من كلب سوء جروا. فقال النعمان بن بشير: يا أمير المؤمنين! اصنع بهم ما كان يصنع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لو رأيهم بهذه الحال. فقالت فاطمة بنت الحسين: يا يزيد بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فبكى يزيد حتى كادت نفسه تفيض، وبكى أهل الشام حتى علت أصواتهم. ثم قال: خلوا عنهم، واذهبوا بهم إلى الحمام، واغسلوهم، واضربوا عليهم القباب، ففعلوا، وأمال عليهم المطبخ وكساهم، وأخرج لهم الجوائز الكثيرة من الأموال والكسوة ثم قال: لو كان بينهم وبين عاضٍ بظر أمه نسب ما قتلهم، ارجعوا إلى المدينة. قال: فبعث بهم من صار بهم إلى المدينة.

إخراج بني أمية عن المدينة، وذكر قتال أهل الحرة:

قال: وذكروا في قصة إخراج بني أمية عن المدينة، قالوا: بعث عثمان بن محمد أمير المدينة إلى يزيد بقميصه مشقوقاً وكتب إليه: واغوثاه! إن أهل المدينة أخرجوا قومنا من المدينة.

قال أبو معشر: فخرج يزيد بعد العتمة، ومعه شمعتان شمعة عن يمينه، وشمعة عن يساره، وعليه معصفرتان، وقد نقش جبهته كأنها ترس، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، يا أهل الشام، فإنه كتب إليّ عثمان بن محمد أن أهل المدينة أخرجوا قومنا من المدينة، ووالله لأن تقع الخضراء على الغبراء أحب إلي من هذا الخبر. قال: وكان معاوية أوصى يزيد فقال له: إن رابك من قومك ريب، أو تنقص عليك منهم أحد، فعليك بأعور بني مرة، فاستشره، يعني مسلم بن عقبة، فلما كانت تلك الليلة قال يزيد: أين مسلم بن عقبة؟ فقام فقال: ها أنا ذا. قال: عبي ثلاثين ألفاً من الخيل. قال: وكان معقل بن سنان الأشجعي نازلاً على مسلم بن عقبة. فقال له مسلم بن عقبة: إن أمير المؤمنين أمرني أن أتوجه إلى المدينة في ثلاثين ألفاً. فقال له: استعفه. قال: لا. قال: فاركب فيلاً أو فيلة، وتكون أبا يكسوم، فمرض مسلم قبل خروجه من الشام، فأدنف فدخل عليه يزيد بن معاوية يعودوه؟ قال له: قد كنت وجهتك لهذا البعث، وكان أمير المؤمنين معاوية قد أوصاني بك، وأراك مدنفاً ليس فيك سفر. فقال: يا أمير المؤمنين أنشدك الله، أن لا تحرمي أجراً ساقه الله إلي، إنما أنا امرؤ وليس بي بأس. قال: فلم يطق من الوجد أن يركب بغيراً ولا دابة، فوضع على سرير، وحمله الرجال على أعناقهم، حتى جاءوا مكاناً يقال له البتراء، فأرادوا التزول به. فقال لهم: ما اسم هذا المكان؟ ف قيل له البتراء. فقال: لا تزلوا به، ثم سار حتى حازرة، فزحل به، فأرسل إلى أهل المدينة: إن أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام، ويقول لكم: أنتم الأصل والعشيرة والأهل، فاتقوا الله واسمعوا وأطيعوا، فإن لكم عندي في عهد الله وميثاقه عطاءين في كل سنة، عطاء في الصيف، وعطاء في الشتاء، ولكم عندي عهد الله وميثاقه، أن أجعل سعر الحنطة عندكم كسعر الحنطة عندنا، والحنطة يومئذ سبعة أصع بدرهم، وأما العطاء الذي ذهب به عنكم عمرو بن سعيد، فعلي أن أخرجكم لكم، وكان عمرو بن سعيد قد أخذ أعطيائهم، فاشترى بهم عبيداً لنفسه. فقالوا لمسلم: نخلعه كما نخلع عمائمنا، يعنون يزيد، وكما نخلع نعالننا. قال: فقاتلهم، فهزم الناس أهل المدينة.

قال أبو معشر: حدثنا محمد بن عمرو بن حزم، قال: قتل بضعة وسبعون رجلاً من قريش، وبضعة وسبعون رجلاً من الأنصار، وقتل من الناس نحو من أربعة آلاف، وقتل ابنان لعبد الله بن جعفر، وقتل أربعة أو خمسة من ولد زيد بن ثابت لصلبه. فقال مسلم بن عقبة لأهل الشام: كفوا أيديكم، فخرج محمد بن سعد بن أبي وقاص، يريد القتال، فقاتلهم بعد الكف. فقال مسلم بن عقبة: انهبها ثلاثاً. قال: فقتل الناس، وفضحت النساء، ونهبت الأموال. فلما فرغ مسلم بن عقبة من القتال، انتقل من منزله ذلك

إلى قصر بني عامر بدومة، فدعا أهل المدينة من بقي منهم للبيعة. قال: فجاء عمرو بن عثمان بن عفان بيزيد بن عبد الله بن زمعة، وجدته أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، وكان عمرو قال لأم سلمة: أرسلني معي بن بنتك، فجاء به إلى مسلم، فلما تقدم يزيد قال له مسلم: تبائع لعبد الله يزيد أمير المؤمنين على أنكم حول له، مما أفاء الله عليه بأسيايف المسلمين، إن شاء وهب، وإن شاء أعتق، وإن شاء استرق، فقال يزيد: لأننا أقرب إلى أمير المؤمنين منك. قال: والله لا تستقبلها أبداً. فقال عمرو بن عثمان: أنشدك الله، فإني أخذته من أم سلمة، بعهدته وميثاقه، أن أردّه إليها. قال: فركضه برجله، فرماه من فوق السرير، فقتل يزيد بن عبد الله، ثم أتى محمد بن أبي جهم - بن حذيفة العدوي - مغلولاً. فقال له مسلم: أنت القاتل، اقتلوا سبعة عشر رجلاً من بني أمية لا تروا شراً أبداً. قال: قد قتلها ولكن لا يسمع لقصير أمر، فأرسل يدي، وقد برئت مني الذمة، إنما نزلت بعهد الله وميثاقه. قال: لا، والله حتى أقدمك إلى النار. قال: فضرب عنقه. ثم جاء معقل بن سنان الأشجعي، وكان جالساً في بيته، فأتاه مئة رجل من قومه، فقالوا له: اذهب بنا إلى الأمير حتى نباعه. فقال لهم: إني قد قلت له قولاً، وأنا أتخوف، فقالوا: لا، والله لا يصل إليك أبداً؛ فلما بلغوا الباب أدخلوا معقلاً، وحبسوا الآخرين، وأغلقوا الباب؛ فلما نظر إليه مسلم بن عقبة قال: إني أرى شيخاً قد تعب وعطش، أسقوه من البلح الذي زودني به أمير المؤمنين، قال: فخاضوا له بلحاً بعسل فشربه. قال له: أشربت؟ قال: نعم، قال: والله لا تبوها من مثانتك أبداً، أنت القاتل: اركب فيلاً أو فيلة وتكون أبا يكسوم. فقال معقل: أما والله لقد تخوفت ذلك منك، وإنما غلبتني عشيرتي. قال: فجعل يفري جبة كانت عليه، وقال: أكره أن يلبسوها، فضرب عنقه. ثم سار إلى مكة، حتى إذا بلغ قفا المشلل أدنف، فدعا الحصين بن نمير. فقال له: يا بن بردعة الحمار، والله ما خلق الله أحداً أبغض إلي منك، ولولا أن أمير المؤمنين أمرني أن أستخلفك ما استخلفتك، أسمع؟ قال: نعم؛ قال: لا تكونن إلا على الوقاف، ثم الثقاف، ثم الانصراف، ولا تمكن قريشاً من أذنك. ثم مات مسلم بن عقبة، فدفن بقفا المشلل، وكانت أم ولد ليزيد بن عبد الله بن زمعة بأستار، فخرجت إليه فنبشته من قبره، ثم أحرقت عليه بالنار، وأخذت أكفانه فشقتها، وعلقتها بالشجرة، فكل من مر عليه يرميه بالحجارة، وسار الحصين حتى جاء مكة، فدعاهم إلى الطاعة، وعبد الله بن الزبير يومئذ بمكة، فلم يجبه، فقاتله، فقتل يومئذ المنذر بن الزبير، ورجلان من إخوته، ومصعب بن عبد الرحمن، والمصور بن مخزومة.

حرب بن الزبير رضي الله عنهما:

قال: وذكروا أن "مسلم بن عقبة لما فرغ من قتال أهل المدينة يوم الحرة، مضى إلى مكة المشرفة، يريد بن الزبير، حتى إذا كان بقديد، حضرته الوفاة، فدعا الحصين بن نمير. فقال له: إن أمير المؤمنين عصاني فيك، فأبي إلا استخلافك بعدي، فلا ترسلن بينك وبين قريش رسولاً تمكنه من أذنيك، إنما هو الوقاف، ثم الثقاف، ثم الانصراف. وهلك مسلم بن عقبة، فدفن بالثنية. قال: وسمع بهم عبد الله بن الزبير، فأحكم مراصد مكة، فجعل عليها المقاتلة، وجاءه جند أهل المدينة، وأقبل بن نمير حتى نزل على مكة، وأرسل خيلاً فأخذت أسفلها، ونصب عليها العرادات والمجانيق، وفرض على أصحابه عشرة آلاف صخرة، في كل يوم يرمونها بها. فقال الناس: انظروه لئلا يصيبه ما أصاب أصحاب الفيل. قال عبد الله بن عمرو بن العاص، وكان بمكة معتمراً، قدم من الطائف: لا تظن ذلك، لو كان كافراً بها لعوقب دونهما، فأما إذا كان مؤمناً بها فسيبتلى فيها، فكان كما قال، وحاصروهم لعشر ليال بقين من الحرم، سنة أربع وستين، فحاصروهم بقية الحرم، وصفر، وشهري ربيع، يغدون على القتال ويروحون، حتى جاءهم موت يزيد بن معاوية، فأرسل الحصين بن نمير إلى بن الزبير، أن ائذن لنا نطوف بالبيت، وننصرف عنكم، فقد مات صاحبنا. فقال بن الزبير: وهل تركتم من البيت إلا مدرة؟ وكانت المجانيق قد أصابت ناحية من البيت الشريف فهدمته، مع الحريق الذي أصابه، قال: فمنعهم أن يطوفوا بالبيت. فارتحل الحصين، حتى إذا كان بعسفان تفرقوا، وتبعهم الناس يأخذونهم، حتى إن كانت الراعية في غنمها لتأتي بالرجل منهم مربوطاً، فيبعث بهم إلى المدينة، وأصاب منهم أهل المدينة حين مروا بهم ناساً كثيراً، فحبسوا بالمدينة، حتى قدم مصعب بن الزبير عليهم من عند عبد الله بن الزبير، فأخرجهم إلى الحرة، فضرب أعناقهم، وكانوا أربع مئة وأكثر، قال: وانصرف ذلك الجيش إلى الشام مفلولاً، وباع أهل المدينة لابن الزبير بالخلافة، وكان بن عباس بمكة يومئذ، فخرج إلى الطائف، فهلك بها سنة سبعين، وهو يومئذ بن أربعة وسبعين سنة رضي الله عنه.

خلافة معاوية بن يزيد

قال: فلما مات يزيد بن معاوية، استخلف ابنه معاوية بن يزيد، وهو يومئذ بن ثمان عشرة سنة، فلبث والياً شهرين وليالي محجوباً لا يرى، ثم خرج بعد ذلك، قال: فجمع الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إني نظرت بعدكم فيما صار إلي من أمركم، وقلدته من ولايتكم، فوجدت ذلك لا يسعني فيما بيني وبين ربي، أن أتقدم على قوم فيهم من هو خير مني، وأحقهم بذلك، وأقوى على ما قلدته، فاختاروا مني إحدى حصلتين: إما أن أخرج منها، وأستخلف عليكم من أراه لكم رضا ومقنعاً، ولكم

الله علي ألا آلوكم نصحاً في الدين والدنيا، وإما أن تختاروا لأنفسكم وتخرجوني منها. قال: فأنف الناس من قوله، وأبوا من ذلك، وخافت بنو أمية أن تزول الخلافة منهم، فقالوا: ننظر في ذلك يا أمير المؤمنين ونستخير الله فأمهلنا. قال: لكم ذلك، وعجلوا علي. قال: فلم يلبثوا بعدها إلا أياماً حتى طعن، فدخلوا عليه، فقالوا له: استخلف على الناس من تراه لهم رضا. فقال لهم: عند الموت تريدون ذلك؟ لا والله لا أتزوّدّها، ما سعدت بحلاوتها، فكيف أشقى بمرارتها، ثم هلك رحمه الله ولم يستخلف أحداً. فقالوا لعثمان بن عنبسة: تقدم فصل بالناس، فأبى. وقال: لا. أما أنا فلاحق بخالي عبد الله بن الزبير، فقال له بن زياد: إن هذا ليس بزمان خالك ولا عمك. فلما دفن معاوية بن يزيد، وسوي عليه التراب، وبنو أمية حول قبره، قال مروان: أما والله يا بني أمية إنه لأبو ليلى، ثم قال:

الملك بعد أبي ليلى لمن غلبا .

وماج أمر بني أمية واختلفوا.

غلبة بن الزبير رضي الله عنهما وظهوره:

قال: وذكروا أن أبا معشر قال: حدثنا بعض المشيخة الذين حضروا قتال بن الزبير، قال: لما نزل الحصين بمكة، وغلب عليها كلها إلا المسجد الحرام، قال: فإني لجالس مع بن الزبير، ومعه من القرشيين عبد الله بن مطيع، والمختار بن أبي عبيد، والمسور بن مخرمة، والمنذر بن الزبير، ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف في نفر من قريش. قال: فقال المختار بن عبيد: وهبت رويحة: والله إني لأجد النصر في هذه الرويحة، فاحملوا عليهم، قال: فحملوا عليهم حتى أخرجوهم من مكة، وقتل المختار رجلاً، وقتل بن مطيع رجلاً. قال: فجاءه رجل من أهل الشام، في طرف سنان رحمه نار. قال: وكان بين موت يزيد بن معاوية وبين حريق الكعبة إحدى عشرة ليلة ثم التحمت الحرب عند باب بني شيبه، فقتل يومئذ المنذر بن الزبير، ورجلان من إخوانه، ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف والمسور بن مخرمة، وكان الحصين قد نصب المجانيق على جبل أبي قبيس، وعلى قعيقعان، فلم يكن أحد يقدر أن يطوف بالبيت، وأسند بن الزبير ألواحاً من الساج إلى البيت، وألقى عليها القطائف والفرش، فكان إذا وقع عليها الحجر. نبا عن البيت، فكانوا يطوفون تحت تلك الألواح، فإذا سمعوا صوت الحجر حين يقع على الفرش والقطائف كبروا، وكان طول الكعبة في السماء ثمانية عشر ذراعاً، وكان بن الزبير قد ضرب فسطاطاً في ناحية من المسجد، فكلما جرح أحد من أصحابه أدخله ذلك الفسطاط.

حريق الكعبة

قال: فجاء رجل في طرف سنان رمحه نار، فأشعلها في الفسطاط، فوقعت النار على الكعبة، فاحترق الخشب، وانصدع الركن، واحترقت الأستار، وتساقطت إلى الأرض. قال: ثم قاتل أهل الشام أياماً بعد حريق الكعبة، واحترقت في ربيع الأول سنة أربع وستين. قال: فلما احترقت جلس أهل مكة في ناحية الحجر، ومعهم ابن الزبير، وأهل الشام يرمونهم بالنبل. قال: فوقعت بين يديه نبلة. قال: في هذه خبر، فأخذوها فوجدوا بها مكتوباً: مات يزيد بن معاوية يوم الخميس لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول. فلما قرأ ذلك بن الزبير قال: يا أهل الشام، يا محرقى بيت الله، يا مستحلي حرم الله، علام تقاتلون؟ وقد مات طاغيتكم يزيد بن معاوية، فأتاه الحصين بن غير فقال له: موعذك البطحاء الليلة يا أبا بكر. فلما كان الليل خرج بن الزبير بأصحابه، وخرج الحصين بأصحابه إلى البطحاء، فتنحى كل واحد منهما من أصحابه وانفردا، فقال الحصين: يا أبا بكر، قد علمت أبي سيد أهل الشام، لا أدافع عن ذلك، وأن أعنة خيلهم بيدي، وأرى أهل الحجاز قد رضوا بك، فأبايعك الساعة، على أن تهدر كل شيء أصبناه يوم الحرية، وتخرج معي إلى الشام، فإني لا أحب أن يكون الملك في الحجاز. قال: لا والله لا أفعل لا أوّمن من أخاف الناس، وأحرق بيت الله، وانتهدك حرمة. فقال الحصين: بلى، فافعل، فعلى ألا يختلف عليك اثنان. فأبى بن الزبير. فقال له الحصين: لعنك الله، ولعن من زعم أنك سيد، والله لا تغلج أبداً، اركبوا يا أهل الشام. فركبوا وانصرفوا قال: فحدثني من شهد انصرافهم، قال: والله إن كانت الوليدة لتخرج فتأخذ الفارس ما يمتنع. قال أبو معشر: وذلك أن المنهزم لا فؤاد له. قال: فبايع أهل الشام كلهم بن الزبير، إلا أهل الأردن، وبايع أهل مصر بن الزبير، وغلب على أهل العراق والحجاز واليمن، وغلظ أمره، وعظم شأنه، واستخلف بن الزبير الضحاك بن قيس على أهل الشام.

اختلاف أهل الشام على بن الزبير:

قال: وذكروا أن بن الزبير لما استخلف الضحاك على أهل الشام، قام أناس من أهل الشام من رؤس قریش بني أمية وأشرفهم وفيهم روح بن زبناح الجذامي، فقال بعضهم: إن الملك كان فينا أهل الشام، أفينتقل ذلك إلى أهل الحجاز؟ لا نرضى بذلك، هل لكم أن تأخذوا رجلاً منا فينظر في هذا الأمر؟ قالوا: نعم. فجاءوا إلى خالد بن يزيد بن معاوية، وهو غلام حدث السن، فقيل له: ارفع رأسك لهذا الأمر، فقال: أستخير الله وأنظر، فرأى القوم أنه ذو ورع عن القيام في ذلك، فخرجوا فأتوا عمرو بن سعيد، فقالوا له:

يا أبا أمية، ارفع رأسك لهذا الأمر، فجعل يشير ويقول: والله لأفعلن لأفعلن؛ فلما خرجوا من عنده قالوا: هذا حديث علق. فأتوا مروان بن الحكم، فإذا عنده مصباح، وإذا هم يسمعون صوته بالقرآن، فاستأذنوا ودخلوا عليه، فقالوا له: يا أبا عبد الملك، ارفع رأسك لهذا الأمر؟ فقال: استخبروا الله واسألوه أن يختار لأمة محمد خيرها وأعدلها ما شاء الله.

بيعة أهل الشام مروان بن الحكم:

قال: وذكروا أن روح بن زنباع قال لمروان بن الحكم: إن معي أربع مائة رجل من جذام، وسأمرهم أن يتدبروا في المسجد غداً، فمر ابنك عبد العزيز أن يخطب، ويدعوهم إليك، وأنا أمرهم أن يقولوا صدقت، فيظن الناس أن أمرهم واحد، قال: فلما أصبح عبد العزيز خرج على الناس وهم مجتمعون، فقام: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ما أحد أولى بهذا الأمر من مروان بن الحكم، إنه لكبير قريش وشيخها، وأفرطها عقلاً وكمالاً، ودينياً وفضلاً، والذي نفسي بيده، لقد شاب شعر ذراعيه من الكبر. فقال الجذاميون: صدقت. فقال خالد بن يزيد: أمر قضي بليل. فبايعوا مروان بن الحكم. فقال عمرو بن سعيد للضحاك بن قيس: أرضيت أن تكون بربداً لابن الزبير، وأنت أكبر قريش وسيدها، تعالى نبايعك، فخرج به إلى مرج راهط، فلما دعاه إلى البيعة اقتتلوا، فقتل الضحاك بن قيس، فقال عمرو بن سعيد لأهل الشام، ما صارت أيديكم إلا مناديل، من جاءكم مسح يده بها، إن مروان سيد قريش، وأكبرهم سنأ، فبايعوا مروان بن الحكم، وقتل الضحاك بن قيس، وهزم أصحابه، وكانت قيس مع الضحاك، وكان اليمن مع عمرو بن سعيد، فمكث مروان ما شاء الله أن يمكث، ثم قال له أصحابه: والله ما نتخوف إلا خالد بن يزيد بن معاوية، وإنك إن تزوجت أمه كسرتة، وأمها ابنة هاشم بن عتبة بن ربيعة، فخطبها مروان بن الحكم، فتزوجها، وأقام بالشام، ثم أراد أن يخرج إلى مصر. فقال لخالد: أعربي سلاحاً إن كان عندك. قال: فأعاره سلاحاً، وخرج إلى مصر، فقاتل أهل مصر، وسبى ناساً كثيراً، فافتدوا منه، ثم قدم الشام.

موت مروان بن الحكم:

قال: وذكروا أن مروان بن الحكم لما قدم الشام من مصر، قال له خالد بن يزيد بن معاوية: اردد إلي سلاحي، فأبى عليه مروان، فألح عليه، وكان مروان فاحشاً سباباً، وقال له يا بن الربوخ، يا أهل الشام، إن أم هذا ربوخ، يا بن الرطبة، قال: فجاء ابنها إليها قال: هذا ما صنعت بي، سبني مروان على رؤس أهل الشام وقال: هذا بن الربوخ. قال: وكان مروان استخلف حين خرج إلى مصر ابنه عبد الملك وعبد العزيز أهما يكونان بعده، وبايع لهما أهل الشام، فلبث مروان بعد ذلك ليالي، بعدما قال لخالد بن يزيد ما

قال، ثم جاء إلى أم خالد فرقد عندها، فأمرت جواريتها فطوين عليه الشوادك، ثم غطته حتى قتلتها، ثم خرجن يصحن ويشققن جيوهن، يا أمير المؤمنين. قال: فقام عبد الملك، فبايع لنفسه، ووعد عمرو بن سعيد أن يستخلفه، فبايعه وأقاموا بالشام.

بيعة عبد الملك بن مروان وولايته

قال: وذكروا أن عبد الملك بن مروان بايع لنفسه بالشام، ووعد الناس خيراً، ودعاهم إلى إحياء الكتاب والسنة، وإقامة العدل والحق، وكان معروفاً بالصدق، مشهوراً بالفضل والعلم، لا يُختلف في دينه، ولا يُنازع في ورعه، فقبلوا ذلك منه، ولم يختلف عليه من قريش أحد، ولا من أهل الشام. فلما تمت بيعته خالفه عمرو بن سعيد الأشدق، فوعده عبد الملك أن يستخلفه بعده، فبايعه على ذلك، وشرط عليه أن لا يقطع شيئاً دونه، ولا ينفذ أمراً إلا بمحضره، فأعطاه ذلك. ثم إن عبد الملك بعث حبيش بن دلجة القيسي إلى المدينة، في سبعة آلاف رجل، فدخل المدينة، وجلس على المنبر الشريف، فدعا بحبز ولحم، فأكل على المنبر، ثم أتى بماء فتوضأ على المنبر.

قال أبو معشر: فحدثني رجل من أهل المدينة يقال له أبو سلمة، قال: شهدت حبيش بن دلجة يومئذ، وقد أرسل إلى جابر بن عبد الله الأنصاري، فدعاه فقال: تباع لعبد الملك أمير المؤمنين بالخلافة، عليك بذلك عهد الله وميثاقه وأعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه بالوفاء، فإن خالفت فأهرق الله دمك على الضلالة. فقال له جابر بن عبد الله: إنك أطوق لذلك مني، ولكني أبايعه على ما بايعت عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، على السمع والطاعة. قال: ثم أرسل إلى عبد الله بن عمر، فقال له: تباع لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين على السمع والطاعة؟ فقال بن عمر: إذا اجتمع الناس عليه بايعت له إن شاء الله. ثم خرج بن دلجة من يومه ذلك نحو الرَبْذة، وقام في أثره رجلان: أحدهما على أثر الآخر، مع كل واحد منهما جيش، وكل واحد منهما يصعد المنبر ويخطب، ثم خرجوا جميعاً إلى الرَبْذة، وذلك في رمضان، سنة خمس وستين، فاجتمعوا بها، وأميرهم بن دلجة.

وكتب بن الزبير إلى عباس بن سهل الساعدي بالمدينة: أن سر إلى حبيش بن دلجة وأصحابه في ناس، فسار حتى لقيهم بالرَبْذة في شهر رمضان، وبعث الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة من البصرة، مدداً إلى عباس بن سهل حنيف بن السجف في تسع مئة رجل، فساروا حتى انتهوا إلى الرَبْذة، فبات أهل البصرة وأهل المدينة يقرأون القرآن، ويصلون ليلتهم حتى أصبحوا، وبات الآخرون في المعازف والخمور، فلما أصبحوا قال لهم حبيش بن دلجة: أهريقوا ماءكم، حتى تشربوا من سويقكم المعتد فأهرقوا الماء، وغدوا

إلى القتال، فقتل حبيش، ومن معه من أهل الشام، وتحصن من أهل الشام خمس مئة رجل على عمود الربذة، وهو الجبل الذي عليها. قال: وكان يوسف أبو الحجاج مع بن دلجة، قال: وأحاط بهم عباس بن سهل، فقال: انزلوا على حكمي، فترلوا على حكمه، فضرب أعناقهم أجمعين.

غلبة بن الزبير على العراقيين وبيعتهم:

قال: وذكروا أن عباس بن سهل، لما فرغ من قتال أهل الشام، رجع المدينة فجدد البيعة لابن الزبير، فسارعوا إليها، ولم يتشبثوا، وقدم أهل البصرة على بن الزبير بمكة فكانوا معه، وكان عبد الله بن الزبير استعمل الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة على البصرة؛ فلما قدمها قيل له: إن الناس يقطعون الدراهم يجعلونها حتى كأنها أصفار. فقال لهم: هلم بسبعة ثقلاً، فأتوه بسبعة ثقال. فقال: هذه بعشرة، فزنوا كيف شئتم. قال: وأتوا بالمكيال الذي يكيلون به، فقال: هذا قريب صالح. ثم قيل له: إن أهل البصرة لا يصلحهم إلا القتل. فقال: لأن تفسد البصرة أحب إلي من أن يفسد الحرث والنسل. قال: فبعث بن الزبير حمزة بن عبد الله بن الزبير إلى البصرة عاملاً، فاستحقره أهل البصرة، فبعث مصعب بن الزبير، فقدم عليهم، فقال أهل البصرة: لا يقدم عليكم أحد إلا لقبتموه، وأنا ألقب لكم نفسي، أنا القصاب. ثم سار إلى المختار فقتله.

بيعة أهل الكوفة لابن الزبير وخروج بن زياد عنها:

قال: وذكروا عن بعض المشيخة من أهل العلم بذلك، قالوا: كان بن زياد أول من ضم إليه الكوفة والبصرة، وكان أبوه زياد كذلك قبله، فلم يزل عبيد الله يتبع الخوارج ويقتلهم، ويأخذ على ذلك الناس بالظن، ويقتلهم بالشبهة، واستعتمد إلى عامتهم، وكان بعضهم له على ما يجب. قال: فلما اختلف أمر الناس، ومات يزيد، وامتد سلطان بن الزبير، وغلظ شأنه وعظم أمره، وخلع أهل البصرة طاعة بني أمية، وبايعوا بن الزبير، خرج عبيد الله بن زياد إلى المسجد، فقام خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أيها الناس، إن الذي كنا نقاتل على طاعته قد مات، واختلف أمر الناس، وتشئت كلمتهم، وانشقت عصاهم، فإن أمرتوني عليكم حببت فيكم، وقاتلت بكم عدوكم، وحكمت بينكم، وأنصفت مظلومكم، وأخذت على يد ظالمكم حتى يجتمع الناس على خليفة. فقام يزيد بن الحارث بن رويم الشكري وقال: الحمد لله الذي أراحنا من بني أمية وأخزى بن سُميعة، لا والله ولا كرامة، فأمر به عبيد الله فلبب، ثم انطلق به إلى السجن، فقامت بكر بن وائل، فحالت بينه وبين ذلك. ثم خرج الثانية عبيد الله

بن زياد إلى المنبر، فخطب الناس، فحصبه الناس ورموه بالحجارة وسبوه، وقام قوم فدنوا منه، فترل فاجتمع الناس في المسجد. فقالوا: نؤمر رجلاً حتى تجتمع الناس على خليفة، فاجتمع رأيهم على أن يؤمروا عمرو بن سعد بن أبي وقاص وكان الذين قاموا بأمره هذا الحي الذي من كندة، فبينما هم على ذلك إذ أقبل النساء يكيين وينعين الحسين، وأقبلت همدان حتى ملأوا المسجد، فأطافوا بالمنبر متقلدين السيوف، وأجمع رأي أهل البصرة والكوفة على عامر بن مسعود بن أمية بن خلف، فأمره عليهم حتى يجتمع الناس، وكتبوا إلى عبد الله بن الزبير يبايعونه بالخلافة، فأقره عبد الله بن الزبير عاملاً عليهم نحواً من سنة، واستعمل العمال في الأمصار، فبلغ أهل البصرة ما صنع أهل الكوفة، فاجتمعوا وأخرجوا الريات، فلم يبق أحد إلا خرج، وذلك لسوء آثار عبيد الله بن زياد فيهم، يطلبون قتله. ثم قام بن أبي ذؤيب فقال: يا هؤلاء من ينصر الله ينصر الكعبة، من يغار على بن سمية، سارعوا أيها الناس إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض، واجتنبوا هذه الدعوة، وأقيموا أود هذه البيعة، فإنها بيعة هدى، فإنه من قد علمتهم عبد الله بن الزبير حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته وابن أسماء بنت أبي بكر الصديق، أما والله لو أن أبا بكر علم أنه بقي على الأرض من هو خير منه وأولى بهذه البيعة، ما مدّ يده، ولا نازعته إليها نفسه، أما والله لقد علمتم ما أحد على وجه الأرض خير ولا أحق بها إلا هذا الشيخ عبد الله بن عمر، المتبرئ من الدنيا، المعتزل عن الناس الكاره لهذا الأمر، ثم خرجت الخوارج من سجون عبيد الله بن زياد، واجتمعوا على حدة، والقبائل كل قبيلة في المسجد معتزلة على حدة، وعبيد الله بن زياد في القصر، وقد أخذ بأبوابه وقد تمنع أن يدخل القصر أحد، وقد أخذت العرب بأفواه السكك والدروب، وكان عبيد الله أول من جفا العرب، وأخذ منهم المحاربة اثني عشر ألفاً ليعتز بهم، فوالله ما زادوه إلا ذلاً، فلما رأى ذلك عبيد الله بن زياد لم يدر كيف يصنع، وخاف تميماً وبكر بن وائل أن يستجير بهم ولم يأمن غدرهم، فأرسل إلى الحارث بن قيس الجهمي من الأزدي، فدخل عليه الحارث، فقال: يا حارث، قد أكرمتم زياداً، وحفظتم منه ما كنتم أهله، وقد استجرت بكم، فأنشدكم الله في. قال الحارث: أخاف أن لا تقدر على الخروج إلينا، لما أرى من سوء رأي العامة فيك مع سوء آثارك في الأزدي قال: فتهياً عبيد الله، فلبس لبس امرأة في خمرتها وعقيصتها، فأردفه الحارث خلفه، فخرج به على الناس فقالوا: يا حارث ما هذه؟ قال: تنحوا رحمكم الله، هذه امرأة من أهلي، كانت زائرة لأهل بن زياد، أتيت أذهب بها. فقال عبيد الله للحارث: أين نحن؟ قال: في بني سليم، فقال: سلمنا الله. قال: ثم سار قليلاً، ثم قال: أين نحن؟ قال: في بني ناجية من الأزدي، قال: نجونا إن شاء الله. قال: فأتى به مسعود بن عمرو وهو يومئذ سيد الأزدي، فقال: يا أبا قيس؟ قد جئت بك بعبيد الله مستجيراً. قال: ولم جئتني بالعبد؟ قال: نشدتك الله، فقد اختارك على غيرك، فلما رآهم عبيد الله يتراضون ويتناشدون، قال: قد بلغني الجهد والجوع، فقال

مسعود: يا غلام: ائت البقال،

فأتنا من خبزه وتمره. قال: فجاء به الغلام فوضع. قال: فأكل، وإنما أراد بن زياد أن يتحرم بطعامه. ثم قال: أدخل فدخل، ومنارات الناس يومئذ من القصب، وكان منزل مسعود يومئذ قاصياً. قال: فكأن عبيد الله خاف. فقال: يا غلام، اصعد إلى السطح بحزمة من قصب، فأشعل أعلاه ناراً، ففعل ذلك في جوف الليل، فأقبلت الأزدي على الخيل وعلى أرجلها حتى شحوا السكك وملؤوها. فقالوا: ما لسيدنا؟ قال: شيء حدث في الدار. قال: فعرف عبيد الله عزته ورفعته، وما هو عليه. قال: هذا والله العز والشرف، فأقام عنده أياماً، وعنده امرأتان امرأة من الأزدي، وامرأة من عبد قيس، فكانت العبدية تقول: أخرجوا العبد وكانت الأزدي تقول: استجار بك على بغضه إياك، وجفوته لك، وتحدث الناس أنه لجأ إلى مسعود بن عمرو، فاجتمعت القبائل في المسجد والخوارج، وهم في أربعة آلاف، فقال مسعود: ما أظنني إلا خارجاً إلى البصرة معذراً إليهم من أمر عبيد الله. ثم قال: وكيف آمن عليه وهو في منزلي، ولكني أبلغه مأمنه، ثم اعتذر إليهم. قال: وكان مسعود قد أجار عنده بن زياد أربعين ليلة. قال: فأقبل مسعود يوماً على بردون له، وحوله عدة من الأزدي عليهم السيوف، وقد عصب رأسه بسير أحمر، قال الهيثم: فقلت لابن عباس: لم عصب رأسه بسير أحمر؟ قال: قد سألت عن ذلك قبلك. فقال شيخ من الأزدي، كان ضخماً الهامة، وكانت له ضفيران، فعصب لذلك بالسير. قال بن عباس: فذكرت ذلك لعمر بن هرم، وكان معنا بواسط. فقال: حدثك من لا يعرف هذا شيء كانت العرب تصنعه إذا أراد الرجل الاعتذار من الذنب، عصب السير ليعلموا أنه معذر. قال: فأقبل مسعود حتى انتهى إلى باب المسجد، ومعه أصحابه رجاله، بين يديه وخلفه وكان كبيراً فلم يستطع التزول والقبائل في المسجد بأجمعها، فدخل المسجد بدابته، فبصرت به الخوارج، فظنوا أنه عبيد الله، فأقبلوا نحوه متقلدين السيوف، وجال الناس جولة، فضربوه بأسيا فمهم حتى مات. قتله نفر من بني حنيفة من الخوارج، وجال الناس ونهضوا من مجالسهم، وبلغ ذلك الأزدي، فأقبلوا على كل صعب وذلول، وأقبل عباد بن الحصين لينظر إلى عبيد الله فإذا هو بمسعود. فقال: مسعود ورب الكعبة، إنا لله وإنا إليه راجعون، أبا قيس قد وفيت، ما كان أغنى أهل مصر عما صنعت من ذلك، فجعتهم بنفسك. ثم ألقى عليه كساءه، ثم أقبلت الأزدي، فكان بينهما وبين مضر ما وقع ذكره في غير هذا الكتاب حتى اصطلحوا، وتراضوا على بيعة بن الزبير. قال الهيثم: قال بن عباس: حدثني عوكل الشكري قال: إنا مع عبيد الله بن زياد في ليلة مظلمة، فإذا نحن بنار من بعد. فقال عبيد الله: يا عوكل كيف الطريق؟ قال: اجعل النار على حاجبك، فقال: بل على حاجبك. قال عوكل: فوالله إنا لنسير بالسمارة، إذ قال عبيد الله: قد كرهت البعير، فابغوا لي ذا حافر. قال: فإذا نحن بأعرابي من كلب معه حمار أقمر ضخماً. فقلت: تبيعه بكم؟ فقال: بأربع مئة درهم، لا

أنقصكم درهماً، فأشار إلينا عبيد الله أن خذوه. قال: فجعلنا ننقده الدراهم. قال: لست أدري ما هذه. ولكن بيني وبينكم هذا المولى، يعني عبيد الله بن زياد، وكان عبيد الله أحمر أقمر، شبيهاً بالموالي. قال: فأخذناه منه فقال عبد الله: ارحلوا لي عليه، فرحلنا له عليه، فلما قدم ليركب، قال الأعرابي: أنا أقسم بالله إن لكم لشأناً، وما أظن صاحبكم إلا والي العراق، فاستقفاه عبيد الله بالعصا، فضربه بها، فوقع، ثم شدوه وثاقاً. قال: وجعلوا يتجنبون المياه. قال عوكل: ثم إن عبيد الله بينا هو على راحلته، إذ هجعت عينه. فقلت له: أراك نائماً. فقال: ما كنت بنائم. فقلت له: ما أعلمني بما كنت تحدث به نفسك قال: وبأي شيء كنت أحدث نفسي؟ قال: قلت: ليتني لم أبن البيضاء، ولم أستعمل الدهاقين، وليتني لم أتخذ المحاربة، قال: ما خطر لي هذا على بال، أما قولك: ليتني لم أبن البيضاء، فما كان عليّ منها إثم، بناها يزيد من ماله، وأما استعمال الدهاقين، فقد استعملهم أي ومن كان قبله، وأما المحاربة: فوالله ما اتخذهم الا وقاية، لأني كنت أقتل بهم أهل المعصية، فلو أمرت عشائهم بهم لم يقتلوهم ولشق ذلك عليهم، فجعلت ذلك بيني وبينهم، من لا آل بينه وبينهم، ولكني كنت أحدث نفسي أي ندمت على تركي أربعة آلاف في السجن من الخوارج، فوددت أي كنت أضمرت البيضاء عليهم، حتى آتي على آخرهم ووددت أي جمعت آل بيتي وموالي، وناذت أهل المصر على سواء، حتى يموت الأعجل، ووددت أي قدمت الشام ولم يبايع أهلها بعد.

قتل المختار عمرو بن سعد:

قال: وذكروا أن المختار بن أبي عبيد كتب إلى عبد الله بن الزبير من الكوفة، وقال لرسوله: إذا جئت مكة فدفعت كتابي إلى عبد الله بن الزبير، فأنت المهدي محمد بن علي، وهو بن الحنفية، فاقرأ عليه مني السلام، وقل له: يقول لك أخوك أبو إسحاق: إني أحبك، وأحب أهل بيتك، قال: فأتاه الرسول فقال له ذلك. قال: كذبت، وكتب أبو إسحاق معك، كيف يحبني ويحب أهل بيتي، وهو يجلس عمرو بن سعد بن أبي وقاص على وسائده، وقد قتل الحسين بن علي أخي. قال: فلما قدم عليه رسوله أخبره بما قال محمد بن علي. فقال المختار لأبي عمرو صاحب حرسه: استأجر لي نوائح ييكن الحسين على باب عمرو بن سعد بن أبي وقاص. قال: ففعل، فلما جئن ييكن الحسين قال عمرو لابنه حفص: يا بني أئت الأمير، فقل له: ما شأن النوائح ييكن الحسين على بابي؟ قال: فأتاه فقال له ذلك، فقال له: إنه أهل أن ييكن عليه، فقال: أصلحك الله، انههن عن ذلك. قال: نعم. ثم دعا أبا عمرو، فقال: اذهب إلى عمرو بن سعد فأنتي برأسه، قال: فأتاه، فقال: قم إلي أبا حفص، فقام إليه وهو ملتحف، فجلبه بالسيف، ثم جاء برأسه إلى المختار، وحفص جالس عنده على الكرسي، فقال: هل تعرف هذا الرأس؟ قال: نعم، رحمة الله عليه،

قال: أتحب أن ألحقك به؟ قال: وما خير الحياة بعده. قال: فضرب رأسه فقتله.

قال: ثم أرسل عبد الله بن الزبير يزيد بن زياد على العراق، فكان بالكوفة حتى مات يزيد، وأحرقت الكعبة، ورجع الحسين هارباً إلى الشام. قال: ثم أرسل عبد الله بن مطيع إلى الكوفة، ثم بعث المختار بن أبي عبيد على الكوفة، وعزل عبد الله بن مطيع، وسيره إلى المدينة، وسار عبيد الله بن زياد بعد ذلك إلى المختار، وجهه عبد الملك بن مروان أميراً على العراق، وندب معه جيشاً عظيماً من أهل الشام، فأقبل إلى الكوفة يريد المختار، فالتقوا بجازر، فاقتتلوا، فقتل المختار عبيد الله بن زياد ومن معه، وكان معه الحصين بن نمير، وذو الكلاع، وغلبة من كان معه ممن شهد وقعة الحرة من رؤسهم.

قتل مصعب بن الزبير المختار بن أبي عبيد الله:

قال: وذكروا أن أبا معشر، قال: لما قتل عبيد الله بن زياد ومن معه، ارتضى أهل البصرة عبد الله بن الحارث بن نوفل، فأمروه على أنفسهم، ثم أتى عبد الله بن الزبير، وأم عبد الله بن الحارث هند بنت أبي سفيان، وكانت أمه تنزله وهو صغير بيه، فلقب ببيه، ثم بعث عبد الله بن الزبير الحارث بن عبيد الله بن أبي ربيعة عاملاً على البصرة، ثم بعث حمزة بن الزبير بعده، ثم بعث مصعب بن الزبير أخاه، وضم إليه العراقيين جميعاً الكوفة والبصرة، فلما ضم إليه الكوفة، وعزل المختار عنها خلع المختار عبد الله بن الزبير بالكوفة، ودعا إلى آل الرسول، وأراد أن يعقد البيعة لحمد بن الحنفية، ويخلع عبد الله بن الزبير. فكتب عبد الله إلى أخيه مصعب، أن سر إلى المختار بمن معك، ثم لا تبليه ريقه، ولا تمهله حتى يموت الأعجل منكما، فأتاه مصعب بمن معه فقاتله ثلاثة أيام حتى هزمه وقتله، وبعث مصعب برأس المختار إلى أخيه. وقتل مصعب أصحاب المختار، قتل منهم ثمانية آلاف صبراً، ثم قدم حاجاً في سنة إحدى وسبعين، فقدم على أخيه عبد الله بن الزبير، ومعه رؤساء العراق ووجوههم وأشrafهم. فقال: يا أمير المؤمنين قد جئتكم برؤساء أهل العراق وأشrafهم، كل مطاع في قومه، وهم الذين سارعوا إلى بيعتك، وقاموا بإحياء دعوتك، ونابدوا أهل معصيتك، وسعوا في قطع عدوك، فأعطهم من هذا المال، فقال له عبد الله بن الزبير: جئتني بعبيد أهل العراق وتأمرني أن أعطيهم مال الله! لا أفعل، وأيم الله لوعدت أي أصرفهم كما تصرف الدنانير بالدراهم: عشرة من هؤلاء برجل من أهل الشام. قال: فقال رجل منهم: علقناك وعلقت أهل الشام، ثم انصرفوا عنه وقد يئسوا مما عنده، لا يرجون رفته، ولا يطمعون فيما عنده، فاجتمعوا وأجمعوا رأيهم على خلعه، فكتبوا إلى عبد الملك بن مروان أن أقبل إلينا.

خلع ابن الزبير

قال: وذكروا أن أبا معشر قال: لما أجمع القوم على خلع بن الزبير، وكتبوا إلى عبد الملك بن مروان، أن سر إلينا، فلما أراد عبد الملك أن يسير إليهم، وخرج من دمشق، فأغلق عمرو بن سعيد باب دمشق - وخالف عليه -، فقبل لعبد الملك ما تصنع؟ أتذهب إلى أهل العراق، وتدع دمشق؟ أهل الشام أشدّ عليك من أهل العراق. فأقام مكانه، فحاصر أهل دمشق أشهراً، حتى صالح عمرو بن سعيد، على أنه الخليفة بعده، ففتح دمشق، ثم أرسل عبد الملك إلى عمرو، وكان بيت المال في يد عمرو، أن أخرج للحرس أرزاقهم. فقال عمرو: إن كان لك حرس فإن لنا حرساً، فقال عبد الملك: أخرج لحرسك أرزاقهم أيضاً.

قتل عبد الملك عمرو بن سعيد:

قال: وذكروا أن أبا معشر قال: لما اصطلى عبد الملك وعمرو بن سعيد على أنه الخليفة بعده أرسل عبد الملك إلى عمرو بن سعيد نصف النهار أن ائتني أبا أمية. قال: فخرج ليأتيه، فقالت له امرأته: لا تذهب إليه فإني أخوفه عليك، وإني لأجد ربح دم مسفوح. قال: فما زالت به حتى ضربها بقائم سيفه، فشجها، فتركته، فأخرج معه أربعة آلاف رجل من أهل دولته، لا يقدر على مثلهم، متسلحين، فأحدقوا بخضراء دمشق، وفيها عبد الملك بن مروان. فقالوا لعمرو: إن دخلت على عبد الملك يا أبا أمية وراك منه شيء فأسمعنا صوتك، فقال لهم: إن خفي عليكم صوتي ولم تسمعه، فالزوال بيني وبينكم ميعاد، إن زالت الشمس ولم أخرج إليكم، فاعلموا أني مقتول أو مغلوب، فضعوا أسيافكم ورماحكم حيث شئتم، ولا تغمدوا سيفاً حتى تأخذوا بثأري من عدوي. قال: فدخل، وجعلوا يصيحون: يا أبا أمية، أسمعنا صوتك. وكان معه غلام أسحم شجاع. فقال له: اذهب إلى الناس فقل لهم: ليس عليه بأس، ليسمع عبد الملك أن وراءه ناساً، فقال له عبد الملك: أتمكر يا أبا أمية عند الموت! خذوه، فأخذوه، فقال له: إن أمير المؤمنين قد أقسم لي يجعلن في عنقك جامعة منه، ثم نتر إلى الأرض نتره، فكسرت ثنيته. قال: فجعل عبد الملك ينظر إليه. فقال عمرو: لا عليك يا أمير المؤمنين، عظم انكسر. فقال عبد الملك لأخيه عبد العزيز: اقتله حتى أرجع إليك. قال: فلما أراد عبد العزيز أن يضرب عنقه، قال له عمرو: تمسك بالرحم يا عبد العزيز أنت تقتلني من بينهم فتركه، فجاء عبد الملك فرآه جالساً، فقال له: لم لا تقتله؟ لعنه الله ولعن أمّاً ولدته! قال: فإنه قال: تمسك بالرحم فتركته. قال: فأمر رجلاً عنده يقال له بن الزويرع، فضرب عنقه، ثم أدرجه في بساط، ثم أدخله تحت السرير. قال: فدخل عليه قبيصة بن ذؤيب الخزاعي، وكان أحد الفقهاء، وكان رضيع عبد الملك بن مروان، وصاحب خاتمه ومشورته، فقال له عبد الملك: كيف رأيك في عمرو بن سعيد. فأبصر قبيصة رجل عمرو تحت السرير، فقال: اضرب عنقه يا أمير المؤمنين. فقال له عبد الملك:

جزاك الله خيراً، فما علمتك إلا ناصحاً أميناً موافقاً، قال له: فما ترى في هؤلاء الذين أحذقوا بنا، وأحاطوا بقصرنا؟ قال قبيصة: اطرح رأسه إليهم يا أمير المؤمنين، ثم اطرح عليهم الدنانير والدراهم يتشاغلون بها. قال: فأمر عبد الملك برأس عمرو أن يطرح إليهم من أعلى القصر، فطرح إليهم، وطرح الدنانير، ونثرت الدراهم، ثم هتف عليهم الهاتف ينادي: إن أمير المؤمنين قد قتل صاحبكم، بما كان من القضاء السابق، والأمر النافذ، ولكم على أمير المؤمنين عهد الله وميثاقه، أن يحمل راجلكم، ويكسو عاريكم، ويغني فقيركم، ويبلغكم إلى أكمل ما يكون من العطاء والرزق، ويبلغكم إلى المئتين في الديوان، فاعترضوا على ديوانكم، واقبلوا أمره، واسكنوا إلى عهده، يسلم لكم دينكم ودنياكم. قال: فصاحوا نعم نعم نعم، سمعاً وطاعة لأمر المؤمنين.

قال: فلما تمت البيعة لعبد الملك بن مروان بالشام، أراد أن يخرج إلى مصعب، فجعل يستفز أهل الشام، فيطئون عليه. فقال له الحجاج بن يوسف، وكان يومئذ في حرس أبان بن مروان: يا أمير المؤمنين، سلطني عليهم، فأعطاه ذلك فقال له عبد الملك: اذهب قد سلطتك عليهم. قال: فكان لا يمر على بيت رجل من أهل الشام تخلف إلا أحرق عليه بيته، فلما رأى ذلك أهل الشام خرجوا، قال: فأصابهم من ذلك غلاء في الأسعار، وشدة من الحال، وصعوبة من الزمان، قال: وكانوا يصنعون لعبد الملك بن مروان الأرز. فسار بأهل الشام إلى العراق ومعه الحجاج بن يوسف.

مسير عبد الملك إلى العراق:

قال: وذكروا أن عبد الملك لما سار بأهل الشام ومعه الحجاج بن يوسف إلى العراق، خرج مصعب بن الزبير بأهل البصرة والكوفة، فالتقيا بين الشام والعراق، وكان عبد الملك ومصعب قبل ذلك متصافيين، وصديقين متحابين، لا يعلم بين اثنين من الناس ما بينهما من الإخاء والصدقة، فبعث إليه عبد الملك أن ادن مني أكلمك. قال: فدنا كل واحد من صاحبه، وتنحى الناس عنهما، فسلم عبد الملك عليه، وقال له: يا مصعب، قد علمت ما أجرى الله بيني وبينك منذ ثلاثين سنة، وما اعتقدته من إخواني وصحبي، والله أنا خير لك من عبد الله، وأنفع منه لدينك ودنياك، فثق بذلك مني، وانصرف إلى وجوه هؤلاء القوم، وخذ لي بيعة هذين المصرين، والأمر أمرك، لا تُعصى ولا تخالف، وإن شئت اتخذتك صاحباً لا تخفى، ووزيراً لا تعصى. فقال له مصعب: أما ما ذكرت في من ثقتي بك، ومودتي وإخواني، فذلك كما ذكرته ولكنه بعد قتل عمرو بن سعيد لا يُطمأن إليك، وهو أقرب رحماً مني إليك، وأولى بما عندك، فقتلته غدراً، والله لو قتلتني في ضرب ومحاربة لمسك عاره، ولما سلمت من إثمه. وأما ما ذكرت من أنك خير لي

من أخي، فدع عنك أبا بكر، وإياك وإياه، لا تتعرض له واتركه ما تركك، واربح عاجل عافيته وارج الله في السلامة من عاقبته فقال له عبد الملك: لا تخوّفي به، فوالله إني لأعلم منه مثل ما تعلم، إن فيه لثلاث خصال لا يسود بها أبداً: عجب قد ملأه، واستغناء برأيه، وبخل التزمه، فلا يسود بها أبداً.

قتل مصعب بن الزبير:

قال: وذكروا أن عبد الملك لما أيس من مصعب، كتب إلى أناس من رؤساء أهل العراق يدعوهم إلى نفسه، ويجعل لهم أموالاً عامة، وشروطاً وعهوداً، وموثيقاً وعقوداً، وكتب إلى إبراهيم بن الأشتر يجعل له وحده مثل جميع ما جعل لأصحابه، على أن يخلعوا عبد الله بن الزبير إذا التقوا. فقال إبراهيم بن الأشتر لمصعب: إن عبد الملك قد كتب إلي هذا الكتاب، وكتب لأصحابي كلهم فلان وفلان بذلك، فادع بهم في هذه الساعة، فاضرب أعناقهم واضرب عنقي معهم. فقال مصعب ما كنت لأفعل ذلك حتى يستبين لي ذلك من أمرهم. قال إبراهيم: فأخري، قال: وما هي؟ قال: أحبسهم في السجن حتى يتبين ذلك، فأبى، فقال له إبراهيم بن الأشتر: عليك السلام ورحمة الله وبركاته، ولا تراني والله بعد في مجلسك هذا أبداً. وقد كان قال له قبل ذلك: دعني أدعو أهل الكوفة بدعوة لا يخلعونها أبداً، وهي ما شرطه الله. فقال له مصعب: لا والله لا أفعل، لا أكون قتلتهم بالأمس، وأستنصر بهم اليوم، قال: فما هو إلا أن التقوا فحوّلوا رؤوسهم ومالوا إلى عبد الملك بن مروان. قال: فبقي مصعب في شردمة قليلة. قال: فجاءه عبيد الله بن زياد، بن ظبيان، فقال: أين الناس أيها الأمير؟ فقال: غدرتم يا أهل العراق. قال: فرفع عبيد الله سيفه ليضربه، فبدره مصعب بالسيف على البيضة، فنشب فيها، فجعل يقلب السيف ولا ينتزع من البيضة. قال: فجاء غلام لعبيد الله - بن زياد - بن ظبيان، فضرب مصعباً بالسيف فقتله، ثم جاء عبيد الله برأسه إلى عبد الملك، يدّعي أنه قتله، فطرح رأسه وقال:

نطيع ملوك الأرض ما أقسطوا لنا وليس علينا قتلهم بمحرم

قال: فوقع عبد الملك ساجداً، فتحامل عبيد الله على ركابه ليضرب عبد الملك بالسيف. فرفع عبد الملك رأسه وقال: والله يا عبيد الله لولا منتك لألحقتك سريعاً به. قال: فبايعه الناس، ودخل الكوفة فبايعه أهلها.

ذكر حرب بن الزبير وقتله

قال: وذكروا أنه لما تمت البيعة لعبد الملك بن مروان من أهل العراق، وأتاه الحجاج بن يوسف فقال: يا

أمير المؤمنين، إني رأيت في المنام كأني أسلخ عبد الله بن الزبير، فقال له عبد الملك: أنت له فاخرج إليه، فخرج إليه الحجاج في ألف وخمسة مئة رجل من رجال أهل الشام حتى نزل الطائف، وجعل عبد الملك يرسل إليه الجيوش رسلاً، حتى توافى الناس عنده قدر ما يظن أنه يقدر على قتال عبد الله بن الزبير، وكان ذلك في ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين فصار الحجاج من الطائف، حتى نزل منى، فحج بالناس وعبد الله بن الزبير محصور بمكة، ثم نصب الحجاج المنجنيق على أبي قبيس، ونواحي مكة كلها، فرمى أهل مكة بالحجارة، فلما كانت الليلة التي قتل في صبيحتها، جمع عبد الله بن الزبير القرشيين، فقال لهم: ما ترون؟ فقال رجل منهم من بني مخزوم: والله لقد قاتلنا معك حتى ما نجد مقاتلاً، لئن صبرنا معك ما نزيد على أن نموت معك، وإنما هي إحدى حصلتين: إما أن تأذن لنا فنأخذ الأمان لأنفسنا ولك، وإما أن تأذن لنا فنخرج. فقال عبد الله قد كنت عاهدت الله أن لا يبايعني أحد، فأقبله بيعته إلا بن صفوان. قال بن صفوان: والله إنا لنقاتل معك، وما وفيت لنا بما قلت، ولكن خذني لحفيظة أن لا أدعك عند مثل هذه حتى يموت معك. فقال رجل آخر: اكتب إلى عبد الملك. فقال له عبد الله: وكيف؟ أكتب إليه: من عبد الله أبي بكر أمير المؤمنين، فوالله لا يقبل هذا مني أبداً، أم أكتب إليه: لعبد الملك أمير المؤمنين من عبد الله بن الزبير، فوالله لأن تقع الخضراء على الغبراء أحب إلي من ذلك. قال عروة أخوه وهو جالس معه على السرير: يا أمير المؤمنين، قد جعل الله لك أسوة. فقال عبد الله: من هو أسوتي؟ قال: الحسن بن علي بن أبي طالب، خلع نفسه وبايع معاوية. فرفع عبد الله رجله وضرب عروة حتى ألقاه ثم قال: يا عروة، قلبي إذن مثل قلبك، والله لو قبلت ما تقولون ما عشت إلا قليلاً، وقد أخذت الدنية، وما ضربة بسيف إلا مثل ضربة بسوط، لا أقبل شيئاً مما تقولون. قال: فلما أصبح دخل على بعض نسائه فقال: اصنعي لي طعاماً، فصنعت له كبداً وسناماً. قال: فأخذ منها لقمة فلاكها ساعة، فلم يسغها فرماها، وقال: اسقوني لبناً، فأتي بلبن فشرب، ثم قال هيئوا لي غسلاً، قال: فاغتسل، ثم تخط وطيب، ثم تقلد سيفه وخرج وهو يقول:

ولا ألين لغير الحق أسأله حتى يلين لضرب الماضغ الحجر

ثم دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق، وهي عمية من الكبر، قد بلغت من السن مئة سنة. فقال لها: يا أمه، ما ترين؟ قد خذلي الناس وخذلي أهل بيتي. فقالت: يا بني لا يلعبن بك صبيان بني أمية، عش كريماً، ومت كريماً. فخرج وأسند ظهره إلى الكعبة، ومعه نفر يسير فجعل يقاتل بهم أهل الشام، فيهمزهم، وهو يقول: ويل أمه فتحا لو كان له رجال! قال: فجعل الحجاج يناديه: قد كان لك رجال، ولكنك ضيعتهم. قال: فجاءه حجر من حجارة المنجنيق وهو يمشي، فأصاب قفاه، فسقط، فما درى

أهل الشام أنه هو حتى سمعوا جارية تبكي وتقول: وأمير المؤمنين، فاحتزوا رأسه، فجاءوا به إلى الحجاج، وقتل معه عبد الله بن صفوان بن أمية، وعمار بن عمرو بن حزم، ثم بعث برؤوسهم إلى عبد الملك، وقتل سبع عشرة ليلة مضين من جمادى الأولى، سنة ثلاث وسبعين.

قال أبو معشر: ثم أقام الحجاج بالمدينة عاملاً عليها وعلى مكة والطائف ثلاث سنين، يسير بسيرته فيما يقولون، قال: فلما مات بشر بن مروان، وكان على الكوفة والبصرة، كتب إليه عبد الملك: أن سر إلى العراقيين، واحتل لقتلهم، فإنه قد بلغني عنهم ما أكره. واستعمل عبد الملك على المدينة يحيى بن حكيم بن أبي العاص.

ولاية الحجاج على العراقيين

قال: وذكروا أن عبد الملك لما كتب إلى الحجاج يأمره بالمسير إلى العراقيين ويحتال لقتلهم، توجه ومعه ألفا رجل من مقاتلة أهل الشام وحماتهم، وأربعة آلاف من أخلاط الناس وتقدم بألفي رجل، وتحرى دخول البصرة يوم الجمعة في حين أوان الصلاة، فلما دنا من البصرة، أمرهم أن يتفرقوا على أبواب المسجد، على كل باب مئة رجل بأسياهم تحت أريدتهم، وعهد إليهم أن إذا سمعتم الجلبة في داخل المسجد، والواقعة فيهم، فلا يخرجوا خارج من باب المسجد حتى يسبقه رأسه إلى الأرض، وكان المسجد له ثمانية عشر باباً، يدخل منها إليه. فافترق القوم عن الحجاج فبدروا إلى الأبواب، فجلسوا عندها مرتدين ينتظرون الصلاة، ودخل الحجاج وبين يديه مئة رجل، وخلفه مئة كل رجل منهم مرتد بردائه، وسيفه قد أفضى به إلى داخل إزاره. فقال لهم: إني إذا دخلت فسأكلم القوم في خطبتي، وسيحصبوني، فإذا رأيتموني قد وضعت عمامتي على ركبتي، فضعوا أسياهم، واستعينوا بالله، واصبروا إن الله مع الصابرين؛ فلما دخل المسجد، وقد حانت الصلاة، صعد المنبر فحمد الله ثم قال: أيها الناس إن أمير المؤمنين عبد الملك أمير استخلفه الله عز وجل في بلاده، وارتضاه إماماً على عبادته، وقد ولاي مصركم، وقسمة فينكم، وأمرني بإنصاف مظلومكم، وإمضاء الحكم على ظالمكم، وصرف الثواب إلى المحسن البري، والعقاب إلى العاصي المسيء، وأنا متبع فيكم أمره، ومنفذ عليكم عهده، وأرجو بذلك من الله عز وجل المجازاة، ومن خليفته المكافأة وأخبركم أنه قلدي بسيفين حين توليته إياي عليكم: سيف رحمة، وسيف عذاب ونقمة؛ فأما سيف الرحمة فسقط مني في الطريق، وأما سيف النقمة فهو هذا. فحصبه الناس. فلما أكثروا عليه خلع عمامته، فوضعها على ركبته، فجعلت السيوف تברי الرقاب؛ فلما سمع الخارجون الكائنون على الأبواب وقيعة الداخلين، ورأوا تسارع الناس إلى الخروج، تلقوهم بالسيوف، فردعوا الناس

إلى جوف المسجد، ولم يتركوا خارجاً يخرج، فقتل منهم بضعة وسبعين ألفاً، حتى سالت الدماء إلى باب المسجد، وإلى السكك.

قال أبو معشر: لما قدم الحجاج البصرة، صعد المنبر، وهو معتجر بعمامته متقلد سيفه وقوسه. قال: فنعس على المنبر، وكان قد أحيا الليل، ثم تكلم بكلام فحصبوه، فرفع رأسه ثم قال: إني أرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها. فهابوه وكفوا، ثم كلمهم فحصبوه وأكثروا، فأمر بهم جنداً من أهل الشام، وكانوا قد أحاطوا به من حوله ومن حول أبواب المسجد. قال: فلما فرغ منهم وأحكم شأنه فيهم، بعث عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث إلى سجستان، عاملاً ومعه جيش. فكتب إليه الحجاج أن يقاتل حصن كذا وكذا، فكتب إلى الحجاج: إني لا أرى ذلك صواباً، إن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب. فكتب إليه الحجاج: أنا الشاهد، وأنت الغائب، فانظر ما كتبت به إليك، فامض له، والسلام.

خروج بن الأشعث على الحجاج:

قال: وذكروا أن عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث لما خرج على الحجاج جمع أصحابه، وفيهم عبد الرحمن بن ربيعة بن الحارث بن نوفل، وبنو عون بن عبد الله، وعمر بن موسى بن معمر بن عثمان بن عمرة، وفيهم محمد بن سعد بن أبي وقاص. فقال لهم: ما ترون؟ فقالوا: نحن معك، فاخلع عدو الله وعدو رسوله، فإن خلعه من أفضل أعمال البر، فخلعه وأظهر خلعه. فلما أظهر ذلك قدم عليهم سعيد بن جبير، فقالوا له: إنا قد حبسنا أنفسنا عليك، فما الرأي؟ قال: الرأي أن تكفوا عما تريدون، فإن الخلع فيه الفتنة، والفتنة فيها سفك الدماء، واستباحة الحرم، وذهاب الدين والدنيا. فقالوا: إنه الحجاج وقد فعل ما فعل، فذكروا أشياء، ولم يزلوا به حتى سار معهم وهو كاره. قال: وانتهى الخبر إلى الحجاج، فقبل له: إن عبد الرحمن قد خلعه ومن معه فقال: إن معه سعيد بن جبير، وأنا أعلم أن سعيداً لا يخرج، وإن أرادوا ذلك فسيكفهم عنه. فقبل له: إنه رام ذلك، ثم لم يزلوا به حتى فتنوه، وسار معهم. فبعث الحجاج الغضبان الشيباني ليأتيه بخير عبد الرحمن بن الأشعث من كرمان، وتقدم إليه أن لا يكتمه من أمره شيئاً، فتوجه الغضبان إلى عبد الرحمن. فقال له عبد الرحمن: ما وراءك يا غضبان؟ قال: شر طويل، تغد بالحجاج قبل أن يتعشى بك. ثم انصرف من عنده، فترل رملة كرمان، وهي أرض شديدة الحر، فضرب بها قبة وجلس فيها، فبينما هو كذلك إذ ورد أعرابي من بكر بن وائل على قعود، فوقف عليه وقال: السلام عليك. فقال له الغضبان: السلام كثير، وهي كلمة مقولة. قال الأعرابي: من أين أقبلت؟ قال: من الأرض الذلول. قال: وأين تريد؟ قال: أمشي في مناكبها، وأكل من رزق الله الذي أخرج لعباده منها.

قال الأعراي: فمن غلب اليوم؟ قال الغضبان: المتقون. قال: فمن سبق؟ قال: حزب الله الفائزون. قال الأعراي: ومن حزب الله؟ قال: هم الغالبون. فعجب الأعراي من منطقته، وحضور جوابه. ثم قال: أتعرض؟ قال الغضبان: إنما تعرض الفأرة. قال: أفتنشد؟ قال: إنما تنشد الضالة. قال: أفتسجع؟ قال: إنما تسجع الحمامة. قال: أفتنطق؟ قال: إنما ينطق كتاب الله. قال: أفتقول؟ قال: إنما يقول الأمير. قال الأعراي: تالله ما رأيت مثلك قط. قال الغضبان: بل رأيت ولكنك نسيت، قال الأعراي: فكيف أقول؟ قال: أخذتك الغول، في العاقول، وأنت قائم تبول. قال الأعراي: أتأذن لي أن أدخل عليك؟ قال الغضبان: وراؤك أوسع لك، قال الأعراي: قد أحرقتني الشمس. قال الغضبان: الآن يفيء عليك الفيء إذا غربت. قال الأعراي: إن الرمضاء قد أحرقت قدمي. قال الغضبان: بل عليها تبرد. قال الأعراي: إن الوهج شديد. قال الغضبان: مالي عليه سلطان. قال الأعراي: إني والله ما أريد طعامك ولا شرابك. قال الغضبان: لا تعرض بهما، فوالله لا تذوقهما. قال الأعراي: وما عليك لو ذقتهما؟ قال الغضبان: نأكل ونشبع. فإن فضل شيء من الأكرياء والغلمان، فالكلب أحق به منك. قال الأعراي: سبحان الله! قال الغضبان: نعم، من قبل أن يطلع رأسك وأضراسك إلى الدنيا، قال الأعراي: ما عندك إلا ما أرى؟ قال الغضبان: بل عندي هراوتان أضرب بهما رأسك حتى ينشتر دماغك. قال الأعراي: إنا لله وإنا إليه راجعون. قال الغضبان: أظلمك أحد؟ قال الأعراي: ما أرى. ثم قال الأعراي: يا آل حارث بن كعب، فقال الغضبان: بئس الشيخ ذكرت. قال الأعراي: ولم ذلك؟ قال الغضبان: لأن إبليس يسمى حارثاً. قال الأعراي: إني لأحسبك مجنوناً. قال الغضبان: اللهم اجعلني من خيار الجن. قال الأعراي: إني لأظنك حرورياً. قال الغضبان: اللهم اجعلني ممن يتحرى الخير. قال الأعراي: إني لأراك منكراً. قال الغضبان: إني لمعروف فيما أوتي. فولى عنه وهو يقول: إنك لبذخ أحق، وما أنطق الله لسانك إلا بما أنت لاق وعما قليل تلتف ساقك بالساق. فلما قدم الغضبان على الحجاج قال له: أنت شاعر؟ قال: لست بشاعر، ولكني خابر. قال: أفرّاف أنت؟ قال: بل وصّاف. قال: كيف وجدت أرض كرمان؟ قال الغضبان: أرض ماؤها وشل، وسهلها جبل، وثمرها دقل، ولصها بطل - والخيل بها ضعاف -، إن كثر الجيش بها جاعوا، وإن قل بها ضاعوا. قال: صدقت، أعلمت من كان الأعراي؟ قال: لا، قال: كان ملكاً خاصمك، فلم تفقه عنه لبذخك، اذهبوا به إلى السجن فإنه صاحب المقالة: تغدّ بالحجاج قبل أن يتعشى بك. وأنت يا

غضبان قد أنذرك خصمك على نطق لسانك، فما الذي به دهاك؟ قال الغضبان: جعلني الله فداك أيها الأمير، أما إنما لا تنفع من قيلت له، ولا تضر من قيلت فيه. فقال الحجاج: أجل ولكن أترك تنجو مني بهذا؟ والله لأقطعن يديك ورجليك، ولأضربن بلسانك عينيك. قال الغضبان: أصلح الله الأمير، قد آذاني

الحديد وأهون ساقى القيود، فما يخاف من عدلك البريء، ولا يقطع من رجائك المسيء. قال الحجاج: إنك لسمين. قال الغضبان: القيد والرتعة، ومن يك ضيف الأمير يسمن. قال: إنا حاملوك على الأدهم. قال الغضبان: مثل الأمير أصلحه الله يحمل على الأدهم والأشقر. قال الحجاج: إنه لحديد. قال الغضبان: لأن يكون حديداً خير من أن يكون بليداً. قال الحجاج: اذهبوا به إلى السجن، قال الغضبان: "فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون" يس: 50. فاستمر في السجن إلى أن بنى الحجاج خضراء واسط، فقال لجلسائه: كيف ترون هذه القبة؟ قالوا: ما رأينا مثلاً قط. قال الحجاج: أما إن لها عيباً فما هو؟ قالوا: ما نرى بها عيباً. قال: سأبعث إلى من يخبرني به، فبعث، فأقبل بالغضبان وهو يرسف في قيوده؛ فلما مثل بين يديه. قال له يا غضبان كيف قبتى هذه. قال: أصلح الله الأمير نعمت القبة! حسنة مستوية! قال: أخبرني بعيبها. قال: بنيتها في غير بلدك، لا يسكنها ولدك، ومع ذلك فإنه لا يبقى بناؤها، ولا يدوم عمراتها، وما لا يبقى ولا يدوم، فكأنه لم يكن. قال الحجاج: صدق، ردوه إلى السجن. فقال الغضبان: أصلح الله الأمير، قد أكلني الحديد، وأوهن ساقى القيود، وما أطيق المشي. قال: احملوه. فلما حمل على الأيدي قال: "سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين" الزخرف: 13، قال: أنزلوه، فلما أنزلوه. قال: "رب أنزلي منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين" المؤمنون: 29، قال الحجاج: جروه. قال الغضبان وهو يجر: "بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم" هود: 41. قال الحجاج: اضربوا به الأرض، فقال: "منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى" طه: 55، فضحك الحجاج حتى استلقى على قفاه ثم قال: ويحكم، قد غلبني والله هذا الخبيث، اطلقوه إلى صفحي عنه. قال الغضبان: "فاصفح عنهم وقل سلام" الزخرف: 89. فبجا من شره بإذن الله، وكانت براءته فيما انطلق على لسانه.

حرب الحجاج مع بن الأشعث وقتله:

قال: وذكروا أن الحجاج لما قدم العراق أميراً، زوّج ابنه محمداً ميمونة بنت محمد بن الأشعث بن قيس الكندي، رغبة في شرفها، مع ما كانت عليه من جمالها، وفضلها في جميع حالاتها، وأراد من ذلك، استمالة جميع أهلها وقومها إلى مصافاته، ليكونوا له يداً على من ناوأه، وكان لها أخ يقال له عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي، له أهمة في نفسه. وكان جميلاً بهياً منطقيّاً، مع ما كان له من التقدم والشرف، فازدهاه ذلك وملاه كبيراً وفخراً وتطاولاً، فألزمه بنفسه، وألحقه بأفاضل أصحابه وخاصة وأهل سرّه، وأجرى عليه العطايا الواسعة، صلة لصهره، وحباً لإتمام الصنيعة إليه، وإلى جميع أهله. فأقام

عبدالرحمن كذلك حيناً مع الحجاج، لا يزيده الحجاج إلا إكراماً، ولا يظهر له إلا قبولاً، وفي نفس الحجاج من عجبه ما فيها، لتشمخه زاهياً بأنفه حتى إنه كان ليقول إذا رآه مقبلاً: أما والله يا عبد الرحمن، إنك لتقبل عليّ بوجه فاجر، وتدبر عني بقفاء غادر، وأيم الله لتبتلين حقيقة أمرك على ذلك. فمكث بهذا القول منه دهرًا، حتى إذا عيل صبر الحجاج على ما يتطلع من عبد الرحمن، أراد أن يتلي حقيقة ما يتفرس فيه من الغدر والفجور، وأن ييدي منه ما يكتم من غائلته، فكتب إليه عهده على سجستان. فلما بلغ ذلك أهل بيت عبد الرحمن، فزعوا من ذلك فرعاً شديداً، فأتوا الحجاج، فقالوا له: أصلح الله الأمير، إنا أعلم به منك، فإنك به غير عالم، ولقد أدبته بكل أدب، فأبى أن ينتهي عن عجبه بنفسه، ونحن - نتخوف أن يفتق فتقاً، أو يحدث حدثاً، يصيبنا فيه منك ما يسؤونا. فقال الحجاج: القول كما قلت، والرأي كالذي رأيتم، ولقد استعملته على بصيرة، فإن يستقم فلنفسه نظر، وإن يفترج سبيله عن بصائر الحق يهد إليها إن شاء الله. فلما توجه عبد الرحمن إلى عمله، توجه وهو مصرّ لخلعان طاعة الحجاج، وصار بذلك مسيره أجمع حتى نزل مدينة سجستان، ثم مر على خلعانه عام كامل، فلما أجمع عبد الرحمن على إظهار خلعان الحجاج، كتب إلى أيوب بن القرية التميمي، وهو مع الحجاج في عسكره، خاص المترلة منه، وكان مفوهاً كليماً يسأله أن يصدر إليه رسالة الحجاج، يخلع فيها طاعة الحجاج، فكتب له بن القرية رسالة فيها: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، إلى الحجاج بن يوسف: سلام على أهل طاعة الله، أوليائه الذين يحكمون بعدله، ويوفون بعهده، ويجاهدون في سبيله، ويتورعون لذكره، ولا يسفكون دمًا حراماً، ولا يعطلون للرب أحكاماً، ولا يدرسون له أعلاماً، ولا يتنكبون النهج، ولا يبرمون السي، ولا يسارعون في الغي، ولا يدللون الفجرة، ولا يترضون الجورة، بل يتمكنون عند الاشتباه، ويتراجعون عند الإساءة. أما بعد: فإني أحمد إليك الله حمداً بالغاً في رضاه، منتهياً إلى الحق في الأمور الحقيقية لله علينا. وبعد: فإن الله أهضني لمصاولتك، وبعثني لمناضلتك، حين تحيرت أمورك، وتهتكت ستورك، فأصبحت عريان حيران، مبتهتاً لا توافق وفقاً، ولا ترافق رفقاً. ولا تلازم صدقاً، أو مل من الله الذي ألهمني ذلك، أن يصيرك في حبالك، أو أن يجيء بك في القرن، ويسحبك للذنق وينصف منك من لم تنصفه من نفسك، ويكون هلاكك بيدي من أهمته وعاديته. فلعمري لقد طال ما تناولت، وتمكنت وأخطيت، وخلت أن لن تبور، وأنت في فلك الملك تدور، وأظن مصداق ما أقول ستخبره عن قريب فسر لأمرك، ولاق عصاة خلعتك من حبالها خلعتها نعالها. وتدرّعت جلالها، تجرّعها مطالها، لا يحذرون منك جهداً، ولا يرهبون منك وعيداً، يتأملون خزايتك، ويتجرعون إمارتك، عطاشاً إلى دمك، يستطعمون الله لحمك، وأيم الله لينا فتنك منهم الأبطال، الذين بيتهم فيما يحاولونك به على طاعة الله، شروا أنفسهم تقرباً إلى الله، فأغض عن ذلك بابن أم

الحجاج. فسنحمل عليك إن شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، والسلام على أهل طاعة الله. فلما قدم الكتاب على الحجاج، خرج موائلاً قد أخذ بطرف ردائه، وألقى الطرف الآخر يجره من خلفه حتى صعد المنبر ونودي: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس ثم قال:

نقاتلهم ولم نشتم عدواً **وشر عداوة المرء السباب**

امرؤ وعظ نفسه بنفسه، امرؤ تعاهد غفلة نفسه وتفقدها جهده، امرؤ وعظ بغيره فاتعظ، قد تبين لكم ما تأتون وما تبغون، العجب العجب، وما هو أعجب من العير الأبتري، إني وجهته ومن معه من المنافقين لسبع مئة وزن سبعة سواء، فانطلقوا في نحر العدو، ثم أقبلوا على راياتهم لقتال أهل الإسلام، من أجل عير أبتري، ومن كيده ما هو أعجب العجب، على حين أننا قد أمنا الخوارج، وأطفأنا الفتن، فكان من شكركم يا أهل العراق ليد الله فيكم، ونعمته عليكم، وإحسانه إليكم، جرأتكم على الله، وانتهاكم حرمة، واغتراركم بنعمة الله، ألم يأتكم شبيب مهزوماً ذليلاً، فهلا توجهت إليه منكم خمسة وعشرون أمير جيش، ليس منهم من أمير جيش إلا وهو في جنده بمنزلة العروس التي يزف بها إلى خدرها، فيقتل أميرهم وهم وقوف ينظرون إليه، لا يرون له حرمة في صحبة، ولا ذماماً في طاعة، فقبحت تلك الوجوه! فما هذا الذي يتخوف منكم يا أهل العراق، أما هذا الذي نتقي؟ والله لقد أكرمنا الله بهوانكم وأهانكم بكرامتنا، في مواطن شتى تعرفونها، وتعرفون أشياء حرمكم الله اتخاذها، وما الله بظلام للعبيد. ثم خذلانكم لهذه العلوجاء المقصصة انحرافاً، أولى لهذه العلوجاء وأخلاطها من أهل العراق! لقد هممت أن أترك بكل سكك منها جيفاً منتفخين، شائلة أرجلهم، تنهشهم الطير من كل جانب. يا أهل الشام: أهدوا قلوبكم، وأحدوا سيوفكم، ثم قال:

قد جد أشياءكم فجذوا **والقوس فيها وترّ عرد**

مثل ذراع البكر أو أشدّ

هيهات: ترك الخداع من أجرى من المنة، ومن لم يزد عن حوضه يهدم، وأرى الحزام قد بلغ الطبيين، والتقت حلقتا البطان، ليس سلامان كعهدين، أنا بن العرقية. وابن الشيخ الأعز، كذبتم وربّ الكعبة، ما الرأي كما رأيتم، ولا الحديث كما حدثتم، فافطنوا لعيوبكم وإياكم أن أكون أنا وأنتم كما قال القائل:

إنك إن كلفنتني ما لم أطق **سأعك ما سرّك مني من خلق**

والمخبر بالعمل ليس كالراجم بالظنون، فالتقدّم قبل التندّم، وأخو المرء نصيحته ثم قال:

لذي الحلم قبل اليوم ما تفرّع العصا **وما علّم الإنسان إلا ليعلم**

ثم قال: احمدا ربكم، وصلوا على نبيكم صلى الله عليه وسلم، ثم نزل وقال: اكتب يا نافع، وكان نافع مولاه و كاتباً يكتب بين يديه: بسم الله الرحمن الرحيم، من الحجاج بن يوسف إلى عبد الرحمن بن الأشعث، سلام على أهل التزوع من التزيغ وأسباب الرداء، لا إلى معادن السيِّ، والتقحم في الغي، فإني أحمد الله الذي خلّك في حيرتك، إذ بهتك في السيرة، ووهلك للضرورة حق أقحمك أموراً أخرجت بها عن طاعته، وجانبت ولايته، وعسكرت بها في الكفر، وذهلت بها عن الشكر، فلا تشكر في السراء، ولا تصبر في الضراء أقبلت مستنناً بحريم الحرّة، وتستوقد الفتنة لتصلّى بحرّها، وجلبت لغيرك ضرّها، وقلت وثاق الاحتجاج، ومبارزة الحجاج، ألا بل لأملك الهبل، وعزة ربك لتكبن لنحرك. ولتقلبن لظهرك، ولتخبطن فريصتك، ولتدحضن حجتك ولتذمن مقامك، ولتشتغلن سهامك، كأني بك تصير إلى غير مقبول منك. إلا السيف هوجاً هوجاً، عند كشوف الحرب عن ساقها، ومبارزة أبطالها، والسلام على من أناب إلى الله وسمع وأجاب.

ثم قال: من هاهنا من فتية بني الأشعث بن قيس؟ قيل: سعيد بن جبير. قال: فأني به. قال له: انطلق بهذا الكتاب إلى هذا الطاغية، الذي قد فُتن وفُتن، فاردعه عن قبيح ما دخل فيه، وعظيم ما أصر عليه من حق الله، وحرمة ما انتهك عدوّ الله، إلى ما في ذلك من سفك الدماء، وإباحة الحريم، وإنفاق الأموال، فإني لولا معرفتي بأنك قد حويت علماً، وأصببت فقهاً، أخاف أن يكون عليك لا لك، لعهدت لك به عهداً تقفل به، ولكن انطلق مرتك هذه قبل الكتاب إليه، واحمله على البريد. فخرج سعيد به متوجّهاً، حتى انتهى إليه.

فلما قرأ عبد الرحمن الكتاب، تبينت رعيته جزعاً منه، وهيبة له، وسمع بذلك من كان يتابعه، وهوى كل ذي هوى، وضم سعيد بن جبير فلم يظهره للناس، وكتّم الكتاب وجعل يستخلي بابن جبير في الليل فيسمر معه، ويسأله عبد الرحمن الدخول معه فيما رأى هو من خلع الحجاج، فأبى سعيد ذلك عليه، فمكث بذلك شهراً كريئاً. فأسعفه سعيد بن جبير بطلبته، وسارع معه في رغبته، وخلعان طاعة الحجاج، ثم إن عبد الرحمن، تجهز من سجستان مقبلاً، يقود من يقوده من أهل هواه وأهل رأيه، وخرج الحجاج إليه بمن معه من أجناده من أهل الشام، ومن معه يومئذ من أهل الطاعة من أهل العراق، حتى لقيه بدير من أديار الأهواز، يسمى بنيسابور، فناصره للقتال ستة أشهر كريئة، لا له ولا عليه، حتى إذا كان في جوف ليلة من الليالي، خلا الحجاج بعنيسة بن سعيد بن العاص، ويزيد بن أبي مسلم، وعليّ بن منقذ مولاه، وبعبد الرحمن بن زياد مولاه، وكان يزيد بن أبي مسلم حاجبه على ما وراء بابه وأما يحيى فوكله بالقيام خلف ظهره، إذا هو نسي أو غفل نخسه بمنخسه، ثم قال: اذكر الله يا حجاج، فيذكر ما بدا له أن

يذكر. وأما عبد الرحمن بن زياد، فكان ذا رأي ومشورة وأدب وفقه ونصيحة. أما عنبسة، فكان بعيد الهمة، طويل اللسان، يديه الجواب، فاصل الخطاب، موفق الرأي، فاستشارهم لما طال به وبعبء الرحمن القتال، لا يظفر واحد منهما بصاحبه - ومع عبد الرحمن سعيد بن جبير والشعي، فكان هذا فقيه أهل الكوفة، وهذا فقيه أهل البصرة - في أن يبيت، فكره ذلك مواليه، وأشار عنبسة أن يبيت، فقال الحجاج: أصبت، أصاب الله بك الخير، وما الأمر إلا النصيحة، والرأي شعوب، فمخطئ منها أو مصيب، غداً الاثنين، فصوموا ونصوم، واستعينوا الله بالخيرة، وبيتهم الليلة المقبلة، ليلة الثلاثاء، فسوف أترجل، ويترجل أهل مودتي ونصيحتي، من ولدي وغيرهم. ففعل: وأصبح صائماً، وبيتهم ليلة الثلاثاء وهو يقول: اللهم إن كان الحق لهم فلا تمتنا على الضلالة، وإن كان الحق لنا فانصرنا عليهم، فحمل عليهم والنيران توقد، فأصاب منهم، وأصيب منه، وانهمز بن الأشعث في سواد الليل، وأصاب الحجاج عسكره، وأسر سعيد بن جبير، وأفلت عامر بن سعيد الشعي مع بن الأشعث، فلما أتى الحجاج بسعيد بن جبير، قال له: ويحك يا سعيد! أما تستحيي مني؟ ومدك الشيطان في طغيانك، ألا استحييت من المراقب لي ولك، والحافظ علي وعليك؟ فقال: أصلح الله الأمير، وأمتع به! هي بلية وقعت، وعذاب نزل، والقول كما قال الأمير، وكما نسب به وأضافه إليه، إلا أي أتيت رجلاً قد أزهى وطغى، ولبسته الفتنة، وركب الشيطان كتفيه، ونفت في صدره، وأملى علي لسانه فخفته واتقيته بالذي فعلت؟ فإن تعاقب فبذنب، وإن تعف فسحبة منك. فقال له الحجاج: فإننا قد عفونا عنك، وسنردك إليه تارة أخرى. ثم كتب كتاباً، ووجهه مع سعيد بن جبير إلى عبد الرحمن، فلما كان سعيد ببعض الطريق، حرق الكتاب. وقدم عبد الرحمن فأخبره، فنفر عبد الرحمن، وخرج موثقاً إلى أهل البصرة، وقد قدمت عليه كتبهم، يستبطلونه ويستعجلونه حتى قدم عليهم، وبلغ ذلك الحجاج فسبقه إلى البصرة فدخل الحجاج المسجد متنكباً قوساً، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وحرّض الناس على قتال بن الأشعث، وحضهم على طاعة عبد الملك، وتكلم رجل من أهل البصرة، يقال له سلمة المنقري من بني تميم، وكان رجلاً منطقياً، وله هوى في الخوارج، وكان الحجاج به خابراً. فلما رآه عرف أنه يريد الكلام. فقال له: ادن يا سلمة، فدنا. فقال له: قل: رضينا بالله رباً، وبمحمد نبياً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن إماماً، وبأمر المؤمنين خليفة، وبالحجاج بن يوسف والياً. قال: والله لو كنا زمعاً وبني زمع ما رضينا أن نكون تبعاً لهذا الحائك، أمير المؤمنين أعزّه الله، وأعز أمره، أقرب قرابة وأوجب حقاً، ونحن ألزم لطاعة الأمير أكرمهم الله، من أن نسارع له في معصية أو نبطئ عنه في طاعة، فأجابه الحجاج فقال: يا سلمة، هذا قول حسن، لا أدخله صدري، ولأردنه في نحر، حتى نبلي حقيقته إن شاء الله؛ وكان قوله هذا على المنبر، وقد عسكر بأجناده بالزاوية، والزاوية في طرف من ناحية البصرة في طرف بني تميم. ثم إنه خرج من المسجد، وحشد الناس من كان في الطاعة

يومئذ من أهل العراق، وقد كان انهزم لابن الأشعث غير مرة، وقتل له بن الأشعث خلقاً لا تحصى كثرة، قبل هذه المرة، حتى يئس من نفسه وقال: أترون العجوز، ابنة الرجل الصالح كذبتني؟ يعني أسماء بنت أبي بكر الصديق، لئن صدقت أسماء لا أقتل اليوم. وكان الحجاج لما فرغ من قتال عبد الله بن الزبير، بعث إلى أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق أن تأتيه، فأبت أن تأتيه. فقال: والله لئن لم تأتي لأبعثن إليها من يجربقرون رأسها، ويسحبها حتى تصل إليّ، فقبل ذلك لها. فقالت: والله لا أسير إليه حتى يبعث إلي من يجربقرون رأسي. فأقبل الحجاج حتى وقف عليها، فقال لها: كيف رأيت ما فعل الله تعالى بابنك، عدو الله؟ الشاق لعصا المسلمين، المفني لعباده والمشتت لكلمة أمة نبيه؟ فقالت: رأيته اختار قتالك، فاختر الله ما عنده، إذ كان إكرامه خيراً من إكرامك. ولكن يا حجاج بلغني أنك تنتقصني بنطقي هذين، أوتدري ما نطقاقي؟ أما النطاق الآخر، فأوثقت به خطام بعيره. فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما إن لك به نطاقين في الجنة، فانتقص علي بعد هذا أو دع، ولكن لا إخالك يا حجاج، أبشر فيني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "منافق ثقيف يملأ الله به زاوية من زوايا جهنم، يبيد الخلق، ويقذف الكعبة بأحجارها، ألا لعنة الله عليه!" فأفحم الحجاج ولم يحرج جواباً. قال: وسار بن الأشعث بعدما هزم الحجاج مراراً إلى الكوفة حتى نزل دير الجماجم، فقتل للحجاج فيه خلق كثير، وكتب إلى عبد الملك بن مروان أن أمدني بالرجال، قال: فأمدته بمحمد بن مروان في أناس من بني أمية كثير، وجعل الحجاج أميراً عليهم، فسار الحجاج إلى بن الأشعث، فاقتتلوا أياماً بدير الجماجم، حتى كثر القتل في الفريقين جميعاً، ثم إن بن الأشعث لما حشد العسكر والحجاج بالبصرة. عسكر على مسير ثلاثة أميال من البصرة على نهر يقال له نهر بن عمر، فكتب بن الأشعث يسأله أن يتنحى عنهم لما كرهوا ولايته، حتى يستعمل عليهم أمير المؤمنين غيره، من هو أحب إليهم منه. فلما انتهى إليه رسوله قال الحجاج: أدخلوه، فلما دخل سلم عليه بالإمارة، قال: من أنت؟ قال: رجل من خزاعة. قال: من أهل البصرة أنت، أم من أهل الكوفة؟ قال: لا، بل من أهل سجستان. قال: هل تأخذ لأمر المؤمنين ديواناً؟ قال: لا، قال: أفمن وزراء بن الأشعث أنت علينا في هذه الفتنة يا أخا خزاعة؟ قال: والله ما هويتها، ولقد جلبني إليك مكرهاً، قال: فكيف تسليمتك على صاحبك إذا انصرفت إليه؟ قال: بالإمرة، قال: فهل ترى في ذلك أنك صادق؟ قال: الله أعلم بأي الأمرين هو في نفسك أعلى الصواب أم على الخطأ؟ قال: الله أعلم أي الأمرين في نفسي. قال: أما إنك يا أخا خزاعة قد رددت الأمر إليه وهو تعالى أعلم، انطلق إلى صاحبك بكتابك كما جئت به، وأعلمه بالذي كان من ردنا عليك، فإنه جوابه عندنا، ونحن مناجزوه القتال، ومحاكموه إلى الله من يوم الأربعاء إن شاء الله، فليعد وليستعد لذلك، فإن الله مع الذين

اتقوا والذين هم محسنون، وذلك يوم الأحد. قال: فلما انصرف رسوله إليه ناوله الكتاب، فلما رآه بخاقمه، أي مثل ما بعثه كفّ، فلم يسأله أمام من حضر، حتى ارتفع الناس، ثم دعاه فأخبره الخبر. قال: وما وراء ظهرك إلا هذا؟ قال له: في دون ما جئت بك به ما يكفيك، فقد رأيت أمراً صعباً ليس وراءه إلا المناجزة. ثم إن الحجاج هتف هتفة أن اجتمعوا للعطية، ففرق العطية في ثلاثة مواضع، وكان قواده يومئذ ثلاثة: سفيان بن الأبرد الكلبي على ميمنته، وسعيد بن عمرو الجرشي على القلب، وعبد الرحمن بن عبد الله العكي على ميسرته، فأعطى الناس على هذا وأقام في معسكره متربصاً ومنتظراً ليوم الأربعاء. فلما رأى بن الأشعث أنه لا يتقدم لقتاله، وأنه متربص ليوم الأربعاء، بعث رجلاً من معسكره، حتى دنا من معسكر الحجاج، فترل قريباً منه، على مقدار خضر الفرس، رجاء أن يتحرش له أحد من معسكر الحجاج، فينشب القتال قبل يوم الأربعاء، فراراً منه، وتطيراً به. فلما رأى الحجاج ذلك علم ما أراده والذي توقع، فتقدم إلى أمراء أجناده وقواده، وإلى أهل عسكره عامة، ألا يكلم أحد منهم أحداً من معسكر بن الأشعث، ولا يعرضه على نفسه، وإن أمكنته الفرصة منه إلا يوم الأربعاء، فلما كانت صبيحة يوم الأربعاء، وهو يوم يتطير به أهل العراق، فلا يتناكحون، ولا يسافرون فيه، ولا يدخلون من سفر، ولا يبايعون فيه بشيء، ولا بالبغل الأغرّ الأشقر. قال: فدعا الحجاج ببغلة شقراء محجلة، فركبها خلافاً لرأيهم، واستشعاراً بطيرهم، وتوكلاً على الله، ونادى مناديه في معسكره: أن انهضوا إلى قتال بن الأشعث، وأمر خاصته فركبوا معه، وقدم رجالاته، وآخر خلفه مقاتلته، حتى إذا كانوا من عسكر بن الأشعث على مثال الأسهم وقف فصف أصحابه وعبأهم للقتال، وفعل مثل ذلك بن الأشعث، وترجل الحجاج وخاصته، ووضع له منبراً من حديد، فجلس عليه وترامى الناس، حتى إذا كاد القتال ينشب، خرج رجل من أصحاب بن الأشعث وهو ينادي: ألا هل من مبارز؟ فقام إليه عنيسة بن سعيد القرشي وهو يمشي مشية قد لامه الحجاج عليها، وكرهها له. فلما رآه الحجاج وهو يمشي تلك المشية، قال الحجاج: ظلمتك يا عنيسة، لو كنت تاركها يوماً من دهرك لتركته يومك هذا. فلما دنا من الرجل، قال له عنيسة: فمن أنت يا منتخي؟ فقال: رجل من بني تميم، ثم من بني دارم، فحمل عليه عنيسة، فبدره بالضربة فقتله، ثم انصرف إلى مجلسه فجلس، وقد تبين للناس حسن صنعه، ثم زحف الفريقان بعضهم إلى بعض، واشتد قتالهم، وانتحى سفيان على مركزه لم يرم والجرشي على مركزه لم يرم، وكانت ميلتهم على الميسرة، فنحوا عبدالرحمن العكي. فلما رآه الحجاج قد انكسرت ناحيته، وزال عنها، بعث إليه بن عمه الحكم بن أيوب في خيل. فقال: انطلق إلى عدو الله فاضرب وجهه بالسيف حتى ترده إلى مقامه، ففعل، وبعث إلى سفيان بن الأبرد يأمره بقتال القوم ومحاربتهم، فحمل عليهم سفيان وهم مشغولون بالميسرة قد طمعوا فيها، وكان بإذن الله الفتح

والغلبة من ناحية سفيان، وقد بعث إليه الجرشي يستأذنه للقتال، فمنعه الحجاج وقال له: لا، إلا أن ترى أمراً مقبلاً، وتمكنا من فرصة، فاجتمع الأمر، وثاب العكي، وانهمز بن الأشعث، واستحقت هزيمته، فدعا الحجاج بدابته فركبها، وركب من كان مترجلاً معه، بعد سجود ودعاء، وشكر كان منه، على ما صنع الله به ومن كان معه، وحمدوا الله تعالى كثيراً، وكبروا تكبيراً عالياً، ثم انتهى إلى ربوة فأومأ إليها، ثم استقبل ناحيتهم والسيوف تأخذهم، وحسر بيضته عن رأسه، فجعل يقرع رأسه بخيزران في يده، وهو يمثل بهذه الأبيات، وهي من قول عبيد بن الأبرص، أو من قول اليشكري:

كيف يرجون سقاطي بعد ما	جلل الرأس بياض وصلع
ساء ما ظنوا وقد أوريتهم	عند غايات الوغى كيف أفع
رب من انضجت غيظاً قلبه	قد تمنى لي موتاً لم يطع
ويراني كالشجي في حلقة	عسراً مخرجه ما ينتزع
مربد يهدر ما لم يرني	فإذا أسمعته صوتي انقمع
ويحييني إذا لاقيته	وإذا يخلو له الحمى رتع
ورث البغضاء عن والده	حافظاً منه الذي كان استمع
ولساني صيرفي صارم	كذاب السيف ما مسّ قطع

قال: فلما فرغ الحجاج من هذه الأبيات كبر، ثم حمد الله بما هو أهله، للذي كان من صنعه به وبجماعته، فبينما هو كذلك، إذ أتاه من يخبره أن بن الأشعث قد انخزل من أصحابه في نفر يسير، متوجهاً إلى ناحية خراسان، فدعا الحجاج بن عم له، كان يعرفه بالنصيحة والهوى، فقطع معه ليلاً، وأرسله في طلب بن الأشعث إلى مواضع شتى، وعهد إليهم أن لا يدركوا أحداً إلا أتوا به أو برأسه أو يموت؛ فوقف الحجاج طويلاً في مكانه ذلك المرتفع ينظر إلى معسكر بن الأشعث، وأصحابه ينتهبونه، ثم رجع إلى معسكره فتزل، ودخل فسطاطه فجلس، وأذن لأصحابه فدخلوا عليه، فقام كل واحد منهم يهتته بالفتح، وجعل بن جبلة يأتيه بالأسرى، فكلما أتى بأسير أمر به فضربت عنقه، فكان ذلك فعله يومه ذلك إلى الليل؛ فلما أصبح وتراجع إليه أكثر خيله، أمر مناديه ينادي بالقفل، فقفل وقفلت معه أجناده، وجميع أصحابه إلى مدينة واسط، فكان فيها وهو الذي كان بناها، قال: وضرب بن الأشعث ظهراً لبطن، ليلاً ونهاراً حتى لحق بخراسان، ورجا في لحوقه بما النجاة من الحجاج، والحذر لنفسه، ولم يشعر بالخيل التي بعثت في طلبه حتى غشيت، فلم تزل تطلبه من موضع إلى موضع، حتى استغاث بقصر منيف، فحصره بن عم الحجاج

فيه، وأحاطت به الخيل من كل جانب، حتى ضيق عليه، ودعا بالنار ليحرقه في القصر فلما رأى بن الأشعث أنه لا محيص له ولا ملجأ، وخاف النار، رمى بنفسه من بعض علالي القصر، وطمع أن يسلم ولا يشعر به فيدخل في غمار النار، فيخفى أمره، ويكتم خبره، فسقط فانكسرت ساقه، وانخلد ظهره ووقع مغشياً عليه، قال: فشعر به أصحاب الحجاج فأخذوه، وقد أفاق بعض الإفاقة، ولا يقدر على النهوض فأتوا به إلى بن عم الحجاج، فلما رآه بتلك الحال أيقن أنه لا يقدر على أن يبلغ الحجاج حتى يموت، فأمر به فضربت رقبته، وانطلق برأسه إلى الحجاج، فلما قدم عليه أحدث لله شكراً وحمداً فيما كان من تمام الصنع، وما هياً له من التأييد والظفر، وأقام كذلك لا يمرّ عليه يوم إلا وهو يؤتى فيه بأسرى، فلما رأى كثرتهم ازداد حنقاً وغيظاً لمسارعتهم في اتباع بن الأشعث، ومخالفتهم عن الحجاج، فيأمر بقتلهم حرّاً على الخوارج، ورجاء أن يستأصلهم، فلا يخرج عليه خارجي بعدها، فلما رأى كثرة من يؤتى به من الأسرى تحرى، فجعل إذا أتى بأسير يقول له: أمؤمن أنت أم كافر؟ ليعرف بذلك الخوارج من غيرهم، فمن بدأ على نفسه بالكفر والنفاق عفا عنه ومن قال أنا مؤمن ضرب عنقه.

الحجاج والشعبي:

وأسر عامر بن سعيد الشعبي فيمن أسر، وكان مع بن الأشعث في جميع حروبه، وكان خاص المترلة منه، ليس لأحد منه مثلها للذي كان عليه من حاله، إلا سعيد بن جبير، وأفلت سعيد بن جبير فلحق بمكة، وأتى الشعبي إلى الحجاج في سورة غضبه، وهو يقتل الأسرى الأول فالأول، إلا من باء على نفسه بالكفر والنفاق؛ فلما سار عامر بن سعيد الشعبي إلى الدخول عليه لقيه رجل من صحابة الحجاج يقال له يزيد بن أبي مسلم وكان مولاه وحاجبه، فقال: يا شعبي، لهفي بالعلم الذي بين دفتيك، وليس هذا بيوم شفاعة إذا دخلت على الأمير، فبؤ له بالكفر والنفاق عسى أن تنجو؛ فلما دخل الشعبي على الحجاج صادفه واضعاً رأسه لم يشعر، فلما رفع رأسه رآه قال له: وأنت أيضاً يا شعبي فيمن أعان علينا وألب! قال: أصلح الله الأمير إني أمرت بأشياء أقولها لك، أرضيك بها وأسخط الرب، ولست أفعل، ولكني أقول: أصلح الله الأمير وأصدقك القول، فإن كان شيء ينفع لديك فهو في الصدق إن شاء الله أحن بنا المترل، وأحذب الجناح، واكتحلنا السهر، واستحلنا الخوف، وضاق بنا الجحد العريض، فوقعنا في خزية لم نكن فيها بررة أتقياء، ولا فجرة أقوياء، فقال له الحجاج: كذلك. قال: نعم، أصلح الله الأمير، وأمتع به، قال: فنظر الحجاج إلى أهل الشام فقال: صدق والله يا أهل الشام ما كانوا بررة أتقياء فيتورعوا عن قتالنا، ولا فجرة أقوياء فيقووا علينا، ثم قال: انطلق يا شعبي فقد عفونا عنك، فأنت أحقّ بالعفو ممن يأتينا وقد تلطخ

بالدماء ثم يقول: كان وكان، قال: وكان قد أحضر بالباب رجلاً، وأحدهما من بكر بن وائل، والآخر من تميم، وكانا قد سمعا ما قيل للشعي بالباب أن يقوله، فلما أدخلوا. قال الحجاج للبكري: أمناق أنت؟ قال: نعم، أصلح الله الأمير، لكن أخو بني تميم لا ييؤ على نفسه بالنفاق. قال التميمي: أنا على دمي أأخذ؟، بل أنا - أصلح الله الأمير - منافق مشرك فتبسم الحجاج وأمر بتخليفة سبيلهما.

قال الشعي: فوالله ما أتى لذلك الأمر إلا نحو من شهرين، حتى رفعت إليه فريضة أشكلت عليه، وهي أم، وجد، وأخت. فقال: مَنْ هاهنا نسأله عنها. قال: فدلّ عليّ، فأرسل إليّ، وقال يا شعبي ما عندك في هذه الفريضة؟ أم، وأخت وجد؟ فقلت: أصلح الله الأمير. قال فيها خمسة من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم. قال: من قال فيها؟ قلت: قال فيها علي بن أبي طالب، وأمير المؤمنين عثمان بن عفان، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت. قال: هات ما قال فيها علي. فأخبرته. قال: فما قال فيها بن مسعود؟ فأخبرته، قال: فما قال فيها بن عباس؟ فوالله لقد كان متفقهاً فأخبرته. قال: فما قال فيها أمير المؤمنين عثمان؟ فأخبرته. قال: فما قال زيد بن ثابت؟ قلت: أخذها من تسعة أسهم، فأعطى الأم ثلاثة أسهم، وأعطى الجد أربعة أسهم، وأعطى الأخت سهمين. فلما سمع ما كان من قول كل واحد منهم، وعرف رأيهم فيها. قال يا غلام: قل للقاضي بمضيها على ما قال أمير المؤمنين عثمان.

قال الشعي: ودخلت عليه الترك، قد شدوا أوساطهم بعمائمهم، وانتزعت السيوف من أعناقهم وأخذوا الطوامير بأيامهم، فدخل عليه رجل من قبل أمير المؤمنين عبد الملك. فقال له الحجاج: كيف تركت أمير المؤمنين وأهله وولده وحشمه؟ فأنبأه عنه وعنهم بصلاح. فقال: ما كان وراءك من غيث؟ قال: نعم، أصلح الله الأمير، أصابني سحابة في موضع كذا، فواد سائل، وواد تارع، فأرض مدبرة، وأرض مقبلة، حتى صدعت عن الكمأة أماكنها، فما أتيتك إلا في مثل مجرى الضب. فقال للحاجب: ائذن للناس فدخل عليه رجل أتاه من قبل نجد. فقال له: ما كان وراءك من غيث؟ فقال: كثير الإعصار، واغبرّ البلاد، وأكل ما أشرف من الحشيشة، فاستيقنا أنه عام سنة. فقال: بئس المخبر أنت. قال: أخبرتك بالذي كان. فقال للحاجب: ائذن للناس، فدخل عليه رجل أتاه من قبل اليمامة. فقال: هل كان وراءك من غيث؟ قال: نعم. وسمعت الرّواد يدعون إلى رباها، وسمعت رائداً يقول: هلموا أطعمكم محلة تطفو فيها النيران، وتشتكي فيها النساء، وتنافس فيها المعز. فقال له: ويحك، إنما تحدث أهل الشام فأفهمهم. فقال: أصلح الله الأمير، أما تطفوا النيران، فيستكثر فيها الزبد واللبن والتمر، فلا توقد نار - يختبز بها -، وأما أن يشتكي النساء: فإنه من جذبها على إبريق لبنها فتظل تمخض لبنها فتبيت ولها أنين من عضديها، وأما تنافس المعز: فإنها ترأ من نوار النبات وألوان الثمر ما يشبع بطونها، ولا يشبع عيونها، فتبيت، وقد

امتلاأت أكراشها، لها من الكظة شرة تتزل به الدرّة. ثم قال للحاجب: ائذن للناس، فدخل عليه رجل من الموالي، كان أشجع الناس في زمانه، يقال له عمرو بن الصلت. فقال له الحاجب: هل كان وراءك من غيث؟ قال: نعم. أصلح الله الأمير، أصابتني سحابة بموضع كذا وكذا، فلم أزل أطأ في أثرها، حتى دخلت على الأمير. فقال له الحاجب: أما والله لئن كنت في المطر أقصرهم خطبة، إنك بالسيف لأطولهم باعاً وخطوة.

ولما انهزم بن الأشعث، قام بعده عبد الرحمن بن عياش بن ربيعة، فقاتل الحاجب ثلاثة أيام، ثم انهزم، فوقع بأرض فارس، ثم صار إلى السند، فمات هناك. وتحصن ناس من أصحاب بن الأشعث في قلعة بأرض فارس، منهم عبد الرحمن بن الحارث بن نوفل، والفضل بن عياش، وعمرو بن موسى التميمي، ومحمد بن سعد بن أبي وقاص، وعبيد الله، ومحمد، وإسحاق، وعون، بنو عبد الله بن الحارث في ناس من قريش، ولحق سعيد بن جبير بمكة، فأشعر به الحاجب، فغفل عنه ولم يهيجه، فبعث الحاجب يزيد بن المهلب، فحاصروهم بفارس.

قال أبو معشر: حدثني عون قال: كتب إلينا يزيد بن المهلب، أن أخبروني بآية بيني وبينكم حتى أخرجكم. قال: فكتب إليه عبد الله بن الحارث: كنت يوم كذا وكذا في دارنا. قال: فأخرجه وبنيه، فسكننا عمان. وأسر من بقي، وأسروا اثني عشر رجلاً من وجوه الناس عامتهم من قريش، منهم عمرو بن موسى التميمي ومحمد بن سعد بن أبي وقاص، فبعث بهم إلى الحاجب فحبسهم عنده، وكتب إلى عبد الملك يخبره بأمرهم، وجعل يذكر في كتابه أن سعيداً قد أنكر الخروج مع هؤلاء القوم، فكتب إليه عبد الملك يأمره بضرب أعناقهم ويقول في كتابه: لم أبعثك مُشفّعاً وإنما بعثتك منفذاً لأهل الخلاف والمعصية. فأبرزهم الحاجب، فقال لعمرو بن موسى: يا عاتق قريش وكان شاباً جميلاً، مالك أنت وللخروج، إنما أنت عاتق صاحب ثياب ولعبط فقال له عمرو: أيها الرجل، امض لما تريد، فإنما نزلت بعهد الله وميثاقه، فإن شئت فأرسل يدي، وبرئت مني الذمة. فقال له الحاجب: كلا، حتى أقدمك إلى النار، فضربت رقبته، ثم جيء بمحمد بن سعد، فقال له: يا ظل الشيطان، وكان رجلاً طويلاً، ألسنت بصاحب كل موطن؟ أنت صاحب الحرة، وصاحب يوم الزاوية، وصاحب الجماجم. فقال له: إنما نزلت بعهد الله وميثاقه، أرسل يدي وبرئت مني الذمة، قال: لا، حتى أقدمك إلى النار، ثم قال لرجل من أهل الشام. اضرب لي مفرق رأسه، فضرب، فمال نصفه هاهنا، ونصفه هاهنا، ثم قتل الباقيين.

ذكر قتل سعيد بن جبير

قال: وذكروا أن مسلمة بن عبد الملك، كان والياً على أهل مكة، فبينما هو يخطب على المنبر، إذ أقبل خالد بن عبد الله القسري من الشام والياً عليها، فدخل المسجد؛ فلما قضى مسلمة خطبته، صعد خالد المنبر، فلما ارتقى في الدرجة الثالثة، تحت مسلمة، أخرج طوماراً مختوماً، ففضه، ثم قرأه على الناس، فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين إلى أهل مكة، أما بعد: إني وليت عليكم خالد بن عبد الله القسري، فاسمعوا له وأطيعوا، ولا يجعلن امرؤ على نفسه سبيلاً، فإنما هو القتل لا غير، وقد برئت الذمة من رجل آوى سعيد بن جبير، والسلام.

ثم التفت إليهم خالد وقال: والذي نحلف به، ونحج إليه، لا أجده في دار أحد إلا قتلته، وهدمت داره، ودار كل من جاوره، واستبحت حرمة. وقد أجلت لكم فيه ثلاثة أيام، ثم نزل، ودعا مسلمة برواحله ولحق بالشام، فأتى رجل إلى خالد فقال له: إن سعيد بن جبير بواد من أودية مكة، محتفياً بمكان كذا، فأرسل خالد في طلبه، فأتاه الرسول، فلما نظر إليه الرسول قال: إنما أمرت بأخذك، وأتيت لأذهب بك إليه، وأعوذ بالله من ذلك، فالحق بأي بلد شئت، وأنا معك. قال له سعيد بن جبير: ألك هاهنا أهل وولد؟ قال: نعم. قال: إنهم يؤخذون وينالهم من المكروه مثل الذي كان ينالني. قال الرسول: إني أكلهم إلى الله. فقال سعيد: لا يكون هذا. فأتى به إلى خالد فشده وثاقاً، وبعث به إلى الحجاج. فقال له رجل من أهل الشام: إن الحجاج قد أنذر بك وأشعر قبلك، فما عرض له، فلو جعلته فيما بينك وبين الله لكان أزكى من كل عمل يتقرب به إلى الله. فقال خالد، وقد كان ظهره إلى الكعبة قد استند إليها: والله لو علمت أن عبد الملك لا يرضى عني إلا ينقض هذا البيت حجراً حجراً لنقضته في مرضاته. فلما قدم سعيد على الحجاج، قال له: ما اسمك؟ قال: سعيد. قال: بن من؟ قال: بن جبير. قال: بل أنت شقي بن كسير؟ قال سعيد: أمي أعلم باسمي واسم أبي. قال الحجاج: شقيت وشقيت أمك. قال سعيد: الغيب يعلمه غيرك. قال الحجاج: لأوردنك حياض الموت، قال سعيد: أصابت إذاً أمي اسمي. فقال الحجاج: لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى. قال سعيد: لو أني أعلم أن ذلك بيدك لاتخذتك إلهاً. قال الحجاج: فما قولك في محمد؟ قال سعيد: نبي الرحمة، ورسول رب العالمين إلى الناس كافة بالموعظة الحسنة. فقال الحجاج: فما قولك في الخلفاء قال سعيد: لست عليهم بوكيل، كل امرئ بما كسب رهين. قال الحجاج: أشتتهم أم أمدحهم؟ قال سعيد: لا أقول ما لا أعلم، إنما استحضت أمر نفسي. وقال الحجاج: أيهم أعجب إليك؟ قال: حالاهم يفضل بعضهم على بعض. قال الحجاج: صف لي قولك في علي. أفي الجنة هو، أم في النار؟ قال سعيد: لو دخلت الجنة فرأيت أهلها علمت، ولو رأيت من في النار علمت، فما سؤالك عن غيب قد

حفظ بالحجاب؟ قال الحجاج: فأني رجل أنا يوم القيامة؟ فقال سعيد: أنا أهون على الله من أن يطلعني على الغيب. قال الحجاج: أبيت أن تصدقني؟ قال سعيد: بل لم أرد أن أكذبك. فقال الحجاج فدع عنك هذا كله، أخبرني ما لك لم تضحك قط؟ قال: لم أر شيئاً يضحكني، وكيف يضحك مخلوق من طين، والطين تأكله النار، ومنقلبه إلى الجزاء، واليوم يصبح ويمسي في الابتلاء. قال الحجاج: فأنا أضحك. فقال سعيد: كذلك خلقنا الله أطواراً. قال الحجاج: هل رأيت شيئاً من الله؟ قال: لا أعلمه. فدعا الحجاج بالعود والناي. قال: فلما ضرب العود، ونفخ في الناي بكى سعيد. قال الحجاج: ما يبكيك؟ قال: يا حجاج ذكرتني أمراً عظيماً، والله لا شبت ولا رويت ولا اكتسيت، ولا زلت حزناً لما رأيت. قال الحجاج: وما كنت رأيت هذا الله؟ فقال سعيد: بل هذا والله الحزن يا حجاج، أما هذه النفخة، فذكرتني يوم النفخ في الصور، وأما هذا المصراة فمن نفس ستحشر معك إلى الحساب، وأما هذا العود فنبت بحق، وقطع لغير حق. فقال الحجاج: أنا قاتلك. قال سعيد: قد فرغ من تسبب في موتي. قال الحجاج: أنا أحب إلى الله منك. قال سعيد: لا يقدم أحد على ربه حتى يعرف منزلته منه، والله بالغيب أعلم. قال الحجاج: كيف لا أقدم على ربي في مقامي هذا، وأنا مع إمام الجماعة، وأنت مع إمام الفرقة والفتنة؟ قال سعيد: ما أنا بخارج عن الجماعة، ولا أنا براض عن الفتنة، ولكن قضاء الرب نافذ لا مرد له. قال الحجاج: كيف ترى ما نجمع لأمر المؤمنين؟ قال سعيد: لم أر، فدعا الحجاج بالذهب والفضة، والكسوة والجوهر، فوضع بين يديه. قال سعيد: هذا حسن إن قمت بشرطه قال الحجاج: وما شرطه؟ قال: أن تشتري له بما تجمع الأمن من الفرع الأكبر يوم القيامة، وإلا فإن كل مرضعة تذهل عما أرضعت، ويضع كل ذي حمل حملة، ولا ينفعه إلا ما طاب منه. قال الحجاج: فترى طيباً؟ قال: برأيك جمعته، وأنت أعلم بطيبه. قال الحجاج: أتحب أن لك شيئاً منه؟ قال: لا أحب ما لا يحب الله. قال الحجاج: ويلك. قال سعيد: الويل لمن زحزح عن الجنة فأدخل النار. قال الحجاج: اذهبوا به فاقتلوه. قال: إني أشهدك يا حجاج أن لا

إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أستحفظكنهن يا حجاج حتى ألقاك. فلما أدبر ضحك. قال الحجاج: ما يضحكك يا سعيد؟ قال: عجبت من جرأتك على الله، وحلم الله عليك قال الحجاج: إنما أقتل من شق عصا الجماعة ومال إلى الفرقة التي هوى الله عنها، اضربوا عنقه. قال سعيد: حتى أصلي ركعتين، فاستقبل القبلة وهو يقول: وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين. قال الحجاج: اصرفوه عن القبلة إلى قبلة النصارى، الذين تفرقوا واختلفوا بغياً بينهم، فإنه من حزبهم، فصرف عن القبلة. فقال سعيد: "فأينما تولوا فثم وجه الله" الكافي بالسرائر.. قال الحجاج: لم نوكل بالسرائر، وإنما وكلنا بالظواهر. قال سعيد: اللهم لا تترك له ظلمي، واطلبه بدمي،

واجعلني آخر قتيل يقتل من أمة محمد. فضربت عنقه، ثم قال الحجاج: هاتوا من بقي من الخوارج، ف قرب إليه جماعة فأمر بضرب أعناقهم، وقال: ما أخاف إلا دعاء من هو في ذمة الجماعة من المظلومين، فأما أمثال هؤلاء فإنهم ظالمون حين خرجوا عن جمهور المسلمين، وقائد سبيل المتوسمين. وقال قائل: إن الحجاج لم يفرغ من قتله حتى حولط في عقله، وجعل يصيح قيودنا، يعني القيود التي كانت في رجل سعيد بن جبير، ويقول: متى كان الحجاج يسأل عن القيود أو يعبأ بها؟ وهذا يمكن القول فيه لأهل الأهواء في الفتح والإغلاق.

ذكربيعة الوليد وسليمان ابني عبد الملك:

قال: وذكروا أنه لما فرغ الحجاج من قتل الخوارج، وتم له أمر العراق، فاستقرّ ملك عبد الملك، كتب إليه الحجاج أن يبايع للوليد ابنه، ويكتب له عهده للناس؟ فأبى ذلك عبد الملك، لأن أخاه عبد العزيز كان حياً، وكان قد استعمله عبد الملك على مصر، وكتب إلى الحجاج يوبخه، ويقول له ما لك أنت والتكلم بهذه؟ وكانت البيعة بالشام لهما جميعاً، إذ مات مروان، وكان عبد العزيز نظير عبد الملك في الحزم والرأي والعقل والذكاء، وكان عبد الملك لا يفضل عبد العزيز في شيء إلا باسم الخلافة، حتى لربما كان عبد الملك يأمر بالشيء، فيريد عبد العزيز غيره، ويرى خلافه، فيرده إلى رأيه ولا يعضيه، وكان لا ينكر ذلك عبد الملك.

فلما كانت سنة إحدى وثمانين عقد عبد الملك لموسى بن نصير على إفريقية وما حولها، ووجهه إلى من بها من البربر يقاتلهم، وضمّ إليه برقة، فلما قدم موسى بن نصير متوجّهاً، انتهى ذلك إلى عبد العزيز، فردّه من مصر إلى الشام، وبعث قرّة بن حسان الثعلبي، فانصرف موسى بن نصير إلى الشام لعبد الملك، وذكر امتهاناً ناله من عبد العزيز وما استقبله به إلى كلام كثير، فقال له عبد الملك: إن عبد العزيز صنو أمير المؤمنين، وقد أمضينا فعله، فتوجه قرّة بن حسان إلى أفريقية، فهزم بها، وقتل غالب أصحابه. فلما كانت سنة أربع وثمانين، توفي عبد العزيز بن مروان بمصر، ثم ولي محمد بن مروان إلى سنة ست وثمانين، فلما توفي عبد العزيز، أجمع عبد الملك علىبيعة الوليد، ثم من بعد الوليد سليمان، فكتب إلى الحجاج بيعة الوليد وسليمان، فبايع الحجاج لهما بالعراق، فلم يختلف عليه أحد، وبويع لهما بالشام ومصر واليمن، وكتب عبد الملك إلى هشام بن إسماعيل؛ وهو عامله على المدينة، أن يأخذ بيعة أهل المدينة، فلما أتت البيعة لهما، كره ذلك سعيد بن المسيب، وقال: لم أكن لأبايع بيعتين في الإسلام بعد حديث سمعته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا كانت بيعتان في الإسلام فاقتلوا الأحدث منهما" فأتاه عبد

الرحمن بن عبد القاري، فقال: إني مشير عليك بثلاث خصال، اختر أيها شئت. قال: وما هي؟ قال له: إنك تقوم حيث يراك هشام بن إسماعيل، فلو غيرت مقامك؟ قال: ما كنت لأغير مقاماً قمته منذ أربعين سنة لهشام بن إسماعيل. قال: فثانية. قال: وما هي؟ قال: أخرج معتمراً، قال سعيد: ما كنت لأجهد نفسي، وأنفق مالي في شيء ليس لي فيه نية. قال له: فثالثة، قال: وما هي؟ قال: تباع للوليد، ثم لسليمان، قال سعيد: أرايت إن كان الله قد أعمى قلبك كما أعمى بصرك فما علي؟ قال: وكان عبد الرحمن هذا أعمى. قال: فدعاه هشام بن إسماعيل إلى البيعة، وكان بن عم سعيد بن المسيب، فلما علم بذلك القرشيون، أتوا هشاماً فقالوا له: لا تعجل على بن عمك حتى نكلمه ونخوفه القتل، فعسى به أن يبايع ويحيب. قال: فاجتمع القرشيون، فأرسلوا إلى سعيد مولى له كان في الحرس. فقالوا له: اذهب إليه، فخوفه القتل، وأخبره أنه عقتول، فلعله يدخل فيما دخل فيه الناس. فجاءه مولاه، فوجده قائماً يصلي في مسجده، فبكى مولاه بكاءً شديداً، قال له سعيد: ما يبكيك ويحك! قال: أبكي مما يراد بك. قال له سعيد: وما يراد بي، ويحك. قال: جاء كتاب من عبد الملك بن مروان، إلى هشام بن إسماعيل، إن لم تباع وإلا قتلت، فجئت لتطهر وتلبس ثياباً طاهرة وتفرغ من عهدك إن كنت لا تريد أن تباع. فقال له سعيد: لا أم لك قد وجدتني أصلي في مسجدي، أفتراي كنت أصلي ولست بطاهر، وثيابي غير طاهرة! وأما ما ذكرت من أن أفرغ من عهدي، فما كنت لأوخر عهدي بعد ما حدثني به عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما حق امرئ مسلم يبيت ليلتين له شيء يوصي به إلا ووصيته مكتوبة"، فإذا شاؤوا فليفعلوا، فإني لم أكن لأبائع بيعتين في الإسلام. قال: فرجع إليهم المولى فأخبرهم بما ذكر، فكتب صاحب المدينة هشام بن إسماعيل إلى عبد الملك يخبره أن سعيد بن المسيب كره أن يبايع لهما - للوليد وسليمان - فكتب عبد الملك إليه: ما لك ولسعيد، وما كان علينا منه أمر نكرهه، وما كان حاجتك أن تكشف عن سعيد، أو تأخذه ببيعة؟ ما كنا نخاف من سعيد؟ فأما إذ قد ظهر ذلك وانتشر أمره في الناس، فادعه إلى البيعة، فإن أبي فاجلده مئة سوط، أو أحلق رأسه ولحيته وألبسه ثياباً من شعر وأوقفه في السوق على الناس لكيما لا يجترئ علينا أحد غيره. قال: فلما وصل الكتاب أرسل إليه هشام، فانطلق سعيد إليه، فلما أتاه دعاه إلى البيعة، فأبى أن يجيبه، فألبسه ثياباً من شعر، وجرده وجلده مئة سوط، وحلق رأسه ولحيته، وأوقفه في السوق، وقال: لو أعلم أنه ليس إلا هذا ما نزعنا ثيابي طائعاً ولا أجبت إلى ذلك قال بعض الأيليين الذين كانوا في الشرطة بالمدينة: لما علمنا أنه لا يلبس الثياب طائعاً قلنا له: يا أبا محمد إنه القتل فاستر بهاعورتك، قال: فلبس فلما تبين له أنا خدعناه قال: يا معلجة أهل أيلة، لولا أبي ظننت أنه القتل ما لبسته. قال: فكان هشام بن إسماعيل بعد ذلك إذا خطب الناس يوم الجمعة تحوّل إليه سعيد بن

المسيب، أي يقبل عليه بوجهه ما دام يذكر الله، حتى إذا وقع في مدح عبد الملك وغيره أعرض سعيد عنه بوجهه فلما فطن هشام لذلك، أمر حرسياً يحصب وجه سعيد إذا تحوّل عنه ففعل ذلك به، فقال سعيد: إنما هي ثلاث، وأشار بيده. قال: فما مرّ به إلا ثلاثة أشهر حتى عزل هشام.

موت عبد الملك وبيعة الوليد

قال: وذكروا أن عبد الملك بن مروان لما حضرته الوفاة، جمع بنيه وقال لهم: اتقوا الله ربكم، وأصلحوا ذات بينكم، وليجلّ صغيركم كبيركم، وكبيركم صغيركم، انظروا أخاكم مسلمة، فاستوصوا به خيراً، فإنه شيخكم ومجنكم الذي به تستجنون، وسيفكم الذي به تضربون، أوصيكم به خيراً، وانظروا بن عمكم عمر بن عبد العزيز، فاصدروا عن رأيه، ولا تَخْلُوا عن مشورته اتخذوه صاحباً لا تحفوه، ووزيراً لا تعصوه، فإنه من علمتم فضله ودينه، وذكاء عقله، فاستعينوا به على كل مهم، وشاوروه في كل حادث. قال: ثم دخل عليه خالد وعبد الرحمن ابنا يزيد بن معاوية بن أبي سفيان. فقال لهما: أتحبان أن أسألكما بيعة الوليد وسليمان؟ فقالا: يا أمير المؤمنين، معاذ الله من ذلك. قال: فأوماً بيده إلى مصلى كان مضطجعا عليه، فأخرج من تحته سيفاً مصلتاً. فقال لهما: والله لو قلتما غير ذلك لضربت أعناقكما بهذا السيف، ثم خرجا من عنده، ودخل عليه عمر بن عبد العزيز. فقال عبد الملك: يا أبا حفص استوص خيراً بأخويك الوليد وسليمان، إن زلا فشلهما وإن مالا فأقمهما، وإن غفلا فذكرهما، وإن ناما فأيقظهما، وقد أوصيتهما بك، وعهدت إليهما أن لا يقطعاً شيئاً دونك. فقال عمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين أوصيتهما بكتاب الله فليقيماه في عباده وبلاده، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فليحييها، ويحمله الناس عليها. فقال عبد الملك: قد فعلت ووليت فيكم الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين. ثم قال: وقد علمت يا عمر مكان فاطمة مني، ومحلها من قلبي، وإني آثرتك بها على جميع آل مروان، لفضلك وورعك، فكن عند ظني بك، ورجائي فيك، وقد علمت أنك غير مقصر، ولا مضيع حقها، ولكن الله قد قضى أن الذكرى تنفع المؤمنين، قوموا عصمكم الله وكفاكم. ثم خرجوا من عنده. قال: ثم دعا عبد الملك بالوليد وسليمان، فدخلا عليه. فقال للوليد: اسمع يا وليد، قد حضر الوداع، وذهب الخداع، وحل القضاء. قال: فبكى الوليد. فقال له عبد الملك: لا تعصر عينيك علي كما تعصر الأمة الوكساء، إذا أنا مت فاغسلني، وكفني، وصلّ عليّ وأسلمني إلى عمر بن عبد العزيز يدليني في حفرتي، وأخرج أنت إلى الناس، والبس لهم جلد نمر، واقعد على المنبر، وادع الناس إلى بيعتك، فمن مال بوجهه عنك كذا، فقل له بالسيف كذا، وتنكر للصديق والقريب، واسمع للبعيد، وأوصيك بالحجّاج خيراً، فإنه هو الذي وطأ لكم المنابر، وكفاكم تقحم تلك الجرائم.

قال: فلما توفي عبد الملك، ومات من يومه ذلك، خرج الوليد إلى الناس، وقعد على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: نعمة ما أجلها، ومصيبة ما أعظمها، وإنا لله وإنا إليه راجعون. نقل الخلافة، وفقد الخليفة، ثم دعا الناس إلى البيعة، فلم يختلف عليه أحد، ثم كان أول ما ظهر من أمره، وتبين من حكمه، أن أمر يهدم كل دار ومترل، من دار عبد الملك إلى قبره، فهدمت من ساعتها، وسويت بالأرض، لئلا يُعرج بسرير عبد الملك يميناً وشمالاً، وليكون النهوض به إلى حفرة تلقاء مترله، ثم كتب ببيعته إلى الآفاق والأمصار، وإلى الحجاج بالعراق فبايع له الناس ولم يختلف عليه أحد. فدخل عليه سليمان بن عبد الملك. فقال له: يا أمير المؤمنين، اعزل الحجاج بن يوسف عن العراقيين فإن الذي أفسد الله به أكثر مما أصلح. فقال له الوليد: إن عبد الملك قد أوصاني به خيراً. فقال سليمان: عزل الحجاج والانتقام منه من طاعة الله، وتركه من معصية الله. فقال الوليد: سنرى في هذا الأمر، وترون إن شاء الله، ثم كتب الحجاج إلى الوليد: أما بعد، فإن الله تعالى استقبلك يا أمير المؤمنين في حادثة سنك بما لا أعلمه استقبل به خليفة قبلك من التمكين في البلاد، والملك للعباد، والنصر على الأعداء، فعليك بالإسلام، فقوم أوده، وشرائه وحدوده، ودع عنك محبة الناس وبغضهم وسخطهم، فإنه قل ما يؤتى الناس من خير أو شر، إلا أفشوه في ثلاثة أيام، والسلام.

تولية موسى بن نصير البصرة

قال: وحدثنا يزيد بن سعيد مولى مسلم، أن عبد الملك بن مروان لما أراد أن يولي أخاه بشر بن مروان على العراق، كتب إلى أخيه عبد العزيز بن مروان هو بمصر، وبشر معه يقود الجنود، وكان يومئذ حديث السن: إني قد وليت أخاك بشراً بالبصرة، فأشخص معه موسى بن نصير، وزيراً ومشيراً، وقد بعثت إليك بديوان العراق، فادفعه إلى موسى، وأعلمه أنه المأخوذ بكل خلل وتقصير، فشخص بشر من مصر إلى العراق، ومعه موسى بن نصير، حتى نزل البصرة؛ فلما نزلها دفع إلى موسى بن نصير خاتمه، وتخلّى عن جميع العمل، فلبث موسى مع بشر ما لبث، ثم إن رجلاً من أهل العراق دخل على بشر بن مروان فقال له: هل لك أن أسقيك شراباً لا تشيب معه أبداً، بعد أن أشرت عليك شروطاً؟ قال بشر: وما هي؟ قال: لا تغضب ولا تركب، ولا تجامع امرأة في أربعين ليلة، ولا تدخل حماماً، فقبل ذلك بشر وأجابه، وشرب ما أسقاه، واحتجب عن قريب الناس وبعيدهم، وخلا مع جواريه وخدامه، فكان كذلك حتى أتته ولاية الكوفة وقد ضمت إليه مع البصرة، فأتاه من ذلك ما لم يحمل فرحه، ولا السرور به، فدعا بركاب ليركبها، فأتاه الرجل، فناشده لا يخرج ولا يركب، وأن لا يتحرك بحركة من مكانه، فلم يلتفت بشر إلى

كلامه، ولم يقبل ما أمره به، فلما رأى الرجل عزمه قال له: فاشهد لي على نفسك بأنك قد عصيتني ففعل بشر ذلك، وأشهد أنه قد أبرأه، فركب وهو يريد الكوفة، فلم يسر إلا أميالاً، حتى وضع يده على لحيته، فإذا هي في كفه قد سقطت من وجهه، فلما رأى ذلك انصرف إلى البصرة، فلم يلبث إلا قليلاً حتى هلك؛ فلما بلغ عبد الملك موته، وجه الحجاج بن يوسف والياً عليها. فقال موسى بن نصير: ما فاتك فلا يفوتك، وكان عبد الملك قد أراده لأمر عتب عليه منه. فكتب خالد بن أبان، من الشام إلى موسى بن نصير: إنك معزول، وقد وجه إليك الحجاج بن يوسف، وقد أمر فيك بأغلظ أمر، فالنجاة، والوحي الوحي، فإذا أن تلحق بالفرس فتأمن وإما أن تلحق بعبد العزيز بن مروان مستجيراً به، ولا تمكن ملعون ثقيف من نفسك فيحكم فيك. فلما أتاه الكتاب: ركب النجائب ولحق بالشام، وبها يومئذ عبد العزيز بن مروان قد وفد بأموال مصر. فكتب الحجاج من العراق: يا أمير المؤمنين، إنه لا قدر لما اقتطعه موسى بن نصير من أموال العراق، وليس بالعراق، فابعث به إلي.

دخول موسى بن نصير على عبد الملك بن مروان:

قال: وذكروا أن عبد الرحمن بن سالم حدثهم عن أبيه، أنه حضر يومئذ شأن موسى، ودخوله على عبد الملك. قال: وكانت لموسى يد عظيمة عند عبد العزيز بن مروان يطول ذكرها قال سالم، قال لي موسى: لما قدمت الشام لقيت بها عبد العزيز، وكان ذلك من صنع الله، فأدخلني على عبد الملك، فلما رأي عبد الملك قلت: موسى. قال: ما تزال تعرض لحيتك علينا؟ قال: قلت: لم يا أمير المؤمنين؟ قال: لجرأتك عليّ واقتطاعك الفيء. قال: فقلت: ما فعلت يا أمير المؤمنين، وما ألوتك نصحاً واجتهاداً وإصلاحاً، قال: أقسم لتؤدين دينك خمسين مرة. قال: قلت: لم يا أمير المؤمنين؟ قال: فما تركني أتمها حتى قال: قم لتؤدينها مئة مرة، فذهبت لأتكلم، فأشار علي عبد العزيز أن قل نعم. فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، ثم خرجت فأعاني عبد العزيز بخمسين ألفاً، وأدبت خمسين ألفاً في ثلاثة أشهر نجّمها علي.

تولية موسى بن نصير على إفريقية:

قال: وذكروا أن عبد العزيز لما رجع إلى مصر، سار موسى معه. فكان من أشرف الناس عنده، فأقام بها ما أقام حتى قدم حسان بن النعمان من إفريقية يريد الشام إلى عبد الملك وقد فتح له بها فتحة، وقتل الكاهنة، فأجازه عبد الملك وزاده برقة، وردّه إليها، أي إلى إفريقية والياً، فأقبل حتى نزل مصر، وبعث معه بعثاً من هناك، فأخذوا أعطيائهم منه، ثم ساروا حتى نزلوا ذات الجماجم. قال: فبلغ ذلك عبد العزيز

وأن حسان بن النعمان يطلب برقة من عند عبد الملك، وأنه قد ولاه أياماً، فبعث إليه فقال له: أولاك أمير المؤمنين برقة؟ قال: نعم. فقال له عبد العزيز: لا تعرض، وكان عليها مولى لعبد العزيز. فقال حسان: ما أنا فاعل. فغضب عبد العزيز وقال له: ائت بعهدك عليها إن كنت صادقاً. قال: فأتى به حسان، فلما أقرأه عبد العزيز وجدها فيه، فالتفت إلى حسان فقال: ما أنت بتاركها؟ قال: والله لا أنعزل عما ولانيه أمير المؤمنين. قال: فاقعد في بيتك، فسيولى هذا الأمر من هو خير منك وأولى به منك، في تجربته وسياسته، ويغني الله أمير المؤمنين عنك. ثم أخذ عبد العزيز عهده ومزقه، ودعا بموسى بن نصير فعقد له على أفريقية يوم الخميس في صفر سنة تسع وسبعين، فتجهز موسى بن نصير، وحمل الأموال إلى ذات الجماحم، وبها الجيوش ينتظرون واليهم فقدم عليهم موسى بن نصير، فلما صار على الجيش الأول أتى عصفور حتى وقع على صدره، فأخذه موسى، فدعا بسكين، فذبجه موسى، ولطخ بدمه صدره من فوق الثياب، ورتف ريشه وطرحه على صدره وعلى نفسه، ثم قال: الفتح ورب الكعبة، والظفر إن شاء الله.

خطبة موسى بن نصير رحمه الله:

قال: وذكروا أن موسى لما قدم ذات الجماحم، وقد توافدت الجيوش بها، جمع الناس فقام خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إن أمير المؤمنين أصلحه الله رأى رأياً في حسان بن النعمان، فولاه نغركم، ووجهه أميراً عليكم، وإنما الرجل في الناس بما أظهر، والرأي فيما أقبل، وليس فيما أدبر، فلما قدم حسان بن النعمان على عبد العزيز أكرمه الله كفر النعمة، وضيع الشكر، ونازع الأمر أهله، فغير الله ما به، وإنما الأمير أصلحه الله صنو أمير المؤمنين وشريكه، ومن لا يتهم في عزمه ورأيه، وقد عزل حسان عنكم، وولاني مكانه عليكم، ولم يأل أن أجهد نفسه في الاختبار لكم، وإنما أنا رجل كأحدكم، فمن رأى مني حسنة، فليحمد الله، وليحض على مثلها، ومن رأى مني سيئة فلينكرها، فإني أخطئ كما تخطئون، وأصيب كما تصيبون، وقد أمر الأمير أكرمه الله لكم بعطاياكم وتضعيفها أثلاثاً، فخذوها هنيئاً مريئاً، ومن كانت له حاجة فليرفعها إلينا، وله عندنا قضاؤها على ما عز وهان، مع المواساة إن شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

دخول موسى بن نصير أفريقية:

قال: وذكروا أن موسى لما سار متوجهاً إلى المغرب، بقية صفر، ثم ربيع وريبع، ودخل في جمادى الأولى، يوم الاثنين، لخمس خلون منه، سنة تسع وسبعين، فأخذ سفيان بن مالك الفهري وأبا صالح الفهري،

فغرم كل واحد منهما عشرة آلاف دينار، ووجههما إلى عبد الملك في الحديد. قال: وكان قدوم موسى أفريقية وما حولها مخوفاً، بحيث لا يقدر المسلمون أن يبرزوا في العيدين، لقرب العدو منهم، وإن عامة بيوتها الخصوص وأفضلها القباب، وبناء المسجد يومئذ شبيه بالخطير، غير أنه قد سقف ببعض الخشب، وقد كان بن النعمان بنى القبلة وما يليها بالمدر، بنياناً ضعيفاً، وكانت جبالها كلها محاربة لاترام، وعامة السهل.

خطبة موسى بأفريقية:

قال: وذكروا أن موسى لما قدم أفريقية، ونظر إلى جبالها، وإلى ما حولها، جمع الناس ثم صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنما كان قبلي على أفريقية أحد رجلين: مسالم يحب العافية، ويرضى بالدون من العطية، ويكره أن يُكلم، ويجب أن يسلم، أو رجل! ضعيف العقيدة، قليل المعرفة، راض بالهويني، وليس أخو الحرب إلا من اكتحل السهر، وأحسن النظر، وخاض الغمر، وسمت به همته، ولم يرض بالدون من المغنم لينجو، ويسلم دون أن يكلم أو يُكلم، ويُبلغ النفس عذرها في غير خرق يريده، ولا عنف يقاسيه، متوكلاً في حزمه، جازماً في عزمه، مستزيداً في علمه، مستشيراً لأهل الرأي في إحكام رأيه، متحنكاً بتجاربه، ليس بالمتجabin إقحاماً، ولا بالمتخاذل إحجاماً، إن ظفر لم يزد الظفر إلا حذراً، وإن نكب أظهر جلادة وصيراً، راجياً من الله حسن العاقبة، فذكر بها المؤمنين، ورجاهم إياها لقول الله تعالى: "إن العاقبة للمتقين" هود: 49 أي الحذرين. وبعد: فإن كل من كان قبلي كان يعمد إلى العدو الأقصى، ويترك عدواً منه أدنى، ينتهز منه الفرصة، ويدل منه على العورة، ويكون عوناً عليه عند النكبة، وأيم الله لا أرى هذه القلاع والجبال الممتنعة حتى يضع الله أرفعها، ويدل أمنعها، ويفتحها على المسلمين بعضها أو جمعها، أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين.

فتح زعوان:

قال: وذكروا أنه كان بزعوان قوم من البربر، يقال لهم عبدوه، عليهم عظيم من عظمائهم يقال له: ورقطان، فكانوا يغيرون على سرح المسلمين، ويرصدون غرهم، والذي بين زعوان وبين القيروان يوم إلى الليل، فوجه إليهم موسى خمس مئة فارس، عليهم رجل من خشين يقال له: عبد الملك فقاتلهم فهزمهم الله، وقتل صاحبهم ورقطان، وفتحها الله على يد موسى، فبلغ سبيهم يومئذ عشرة آلاف رأس، وأنه كان أول سبي دخل القيروان في ولاية موسى، ثم وجه ابناً له يقال له عبد الرحمن بن موسى، إلى بعض

نواحيها، فأتاه بمئة ألف رأس ثم وجه ابناً له يقال له مروان، فأتاه بمثلها فكأن الخمس يومئذ ستين ألف رأس.

قدوم كتاب الفتح على عبد العزيز بن مروان:

قال: وذكروا أن موسى بن نصير كتب إلى عبد العزيز بن مروان بمصر يخبره بالذي فتح الله عليه، وأمكن له، ويعلمه أن الخمس بلغ ثلاثين ألفاً، وكان ذلك وهماً من الكاتب. فلما قرأ عبد العزيز الكتاب، دعا الكاتب وقال له: ويحك! اقرأ هذا الكتاب. فلما قرأه قال: هذا وهم من الكاتب فراجعه. فكتب إليه عبد العزيز: إنه بلغني كتابك، وتذكر فيه أنه قد بلغ خمس ما أفاء الله عليك ثلاثين ألف رأس، فاستكثرت ذلك، وظننت أن ذلك وهم من الكاتب، فكتب إلي بعد ذلك على حقيقة، واحذر الوهم. فلما قدم الكتاب على موسى كتب إليه: بلغني أن الأمير أبقاه الله، يذكر أنه استكثر ما جاءه من العدة، التي أفاء الله علي، وأنه ظن أن ذلك وهم من الكاتب، فقد كان ذلك وهماً على ما ظنه الأمير، والخمس أيها الأمير ستون ألفاً حقاً ثابتاً بلا وهم. قال: فلما أتى الكتاب إلى عبد العزيز وقرأه ملأه سروراً.

إنكار عبد الملك تولية موسى بن نصير:

قال: وذكروا أن عبد العزيز لما ولي موسى وعزل حسان كما تقدم، وفتح الله لموسى بلغ ذلك عبد الملك بن مروان، فكره ذلك وأنكره، ثم كره رد رأي عبد العزيز، ثم هم بعزل موسى لسوء رأيه فيه، ثم رأى أن لا يرد ما صنع عبد العزيز. فكتب عبد الملك إلى عبد العزيز: أما بعد، فقد بلغ أمير المؤمنين ما كان من رأيك في عزل حسان، وتوليتك موسى مكانه، وعلم الأمر الذي له عزله، وقد كنت أنتظر منك مثلاً في موسى، وقد أمضى لك أمير المؤمنين من رأيك ما أمضيت، وولایتك من وليت، فاستوص بحسان خيراً فإنه ميمون الطائر، والسلام.

جوابه:

فلما قدم الكتاب على عبد العزيز كتب إلى أخيه عبد الملك: أما بعد، فقد بلغني كتاب أمير المؤمنين في عزل حسان، وتوليقي موسى بن نصير، وقد كان لمثلها مني منتظراً في موسى، ويعلمي أنه قد أمضى لي من رأيي فيما أمضيت، وولايي من وليت، وقد علمت أن أمير المؤمنين يتفائل بحسان للذي فتح الله على يديه، ولم أعد مع نظري لأمر المؤمنين، بأن عزلت حسان، ووليت موسى في يمن طائره، وحسن أثره.

فأما قول أمير المؤمنين: قد كنت أنتظرها منك في موسى، فلعمري لقد كنت لها فيه مرصداً، ولأمير المؤمنين أن يسبق بها إليه منتظراً، حتى حضر أمر جهدت فيه نفسي لأمير المؤمنين. ولنفسي الرأي والنصيحة، والسلام.

كتاب عبد العزيز بالفتح إلى عبد الملك:

قال: وذكروا أن عبد العزيز كتب إلى عبد الملك، أما بعد: فإني كنت وأنت يا أمير المؤمنين في موسى وحسان كالمتراهنين، أرسلنا فرسيهما إلى غايتهما فأتيا معاً، وقد مدت الغاية لأحدهما، ولك عنده مزيد إن شاء الله، وقد جاءني يا أمير المؤمنين كتاب من موسى، وقد وجهته إليك لتقرأه، وتحمد الله عليه، والسلام.

جوابه:

فكتب إليه عبد الملك: أما بعد، فقد بلغ أمير المؤمنين كتابك، وفهم المثل الذي مثلته في حسان وموسى، ويقول لك عند أحدهما مزيد، وكل قد عرف الله على يده خيراً ونصراً، وقد أجريت وحدك. وكل بحر بالخلاء مسرور، والسلام.

ثم وجه عبد الملك رجلاً إلى موسى ليقبض ذلك منه على ما ذكر موسى، وعلى ما كتب به. فلما قدم الرسول على موسى: دفع إليه ما ذكر، وزاده ألفاً للوفاء.

فتح هواره، وزناته، وكتامة

قال: وذكروا أن موسى أرسل عياش بن أخيل إلى هواره وزناته في ألف فارس، فأغار عليهم وقتلهم وسباهم، فبلغ سبيهم خمسة آلاف رأس، وكان عليهم رجل منهم يقال له كمامون، فبعث به موسى إلى عبد العزيز في وجوه الأسرى، فقتله عند البركة التي عند قرية عقبة، فسميت بركة كمامون، فلما أوجع عياش فيهم دعوا إلى الصلح، فقدم على موسى بوجوههم، فصالحوهم وأخرجوهم، وكانت كتامة قد قدمت على موسى فصالحته، وولى عليهم رجلاً منهم، وأخذ منهم رهونهم، وكتب أحدهم إلى موسى، إنما نحن عبدانك، قتل أحدهنا صاحبه، وأنا خير لك منه، فلم يشك موسى أن ذلك إنما كان عن مملأة من كتامة، وقد كانت رهون كتامة استأذنوا موسى قبل ذلك بيوم ليتصيدوا، فأذن لهم، فلما أتاه ما أتاه تحقق ظنه فيهم، وأنهم إنما هربوا، فوجه الخيول في طلبهم، فأتي بهم، فأراد صلبهم. فقالوا: لا تعجل أيها الأمير بقتلنا حتى يتبين أمرنا، فإن آباءنا وقومنا لم يكونوا ليدخلوا في خلاف أبداً، ونحن في يدك وأنت على

البيان أقدر منك على استحيائنا بعد القتل، فأوقرهم حديداً، وأخرجهم معه إلى كتامة، وخرج هو بنفسه. فلما بلغهم خروج موسى، تلقاه وجوه كتامة معتذرين، فقبل منهم، وتبينت له براءتهم، واستحيا رهوئهم.

فتح صنهاجة:

قال: وذكروا أن الجواسيس أتوا موسى، فقالوا له: إن صنهاجة بغرة منهم وغفلة، وإن إبلهم تنتج، ولا يستطيعون براحاً، فأغار عليهم موسى بأربعة آلاف من أهل الديوان، وألفين من المتطوعة، ومن قبائل البربر، وخلف عياشاً على أنقال المسلمين وعيالهم بطيبة في ألفي فارس، وعلى مقدمة موسى عياض بن عقبة، وعلى ميمنته المغيرة بن أبي بردة، وعلى ميسرته زُرعة بن أبي مدرك، فسار موسى حتى غشي صنهاجة، ومن كان معها من قبائل البربر، وهم لا يشعرون، فقتلهم قتل الفناء، فبلغ سبيهم يومئذ مئة ألف رأس، ومن الإبل والبقر والغنم والخيل والحرث والثياب ما لا يحصى، ثم انصرف قافلاً إلى القيروان، وهذا كله في سنة ثمانين فلما سمعت الأجناد بما فتح الله على موسى وما أصاب معه المسلمون من الغنائم رغبوا في الخروج إلى الغرب، فخرج نحو مما كان معه، فالتقى المغيرة وصنهاجة، فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم إن الله منحه أكتافهم وهزمهم، فبلغ سبيهم ستين ألف رأس ثم انصرف قافلاً.

فتح سجوما:

قال: وذكروا أنه لما كان سنة ثلاث وثمانين، قدم على موسى نجدة عبد الله بن موسى في طالعة أهل مصر. فلما قدم عليه، أمر الناس بالجهاد والتأهب، ثم غزا يريد سجوما وما حولها، واستخلف عبد الله بن موسى على القيروان، ثم خرج وهو في عشرة آلاف من المسلمين، وعلى مقدمته عياض بن عقبة، وعلى ميمنته زُرعة بن أبي مدرك، وعلى ميسرته المغيرة بن أبي بردة القرشي، وعلى ساقته نجدة بن مقسم، فأعطى اللواء ابنه مروان، فسار حتى إذا كان بمكان يقال له سجن الملوك، خلف به الأتقال، وتجرّد في الخيول، وخلف على الأتقال عمرو بن أوس في ألف، وسار بمن معه حتى انتهى إلى نهر يقال له ملوية، فوجده خاملاً، فكره طول المقام عليه، خوفاً من نفاد الزاد، وأن يبلغ العدو مخرجه ومكانه، فأحدث مخاضة غير مخاضة عقبة بن نافع، وكره أن يجوز عليها. فلما أحاز وانتهى إليهم، وجدهم قد أندرأوا به وتأهبوا، وأعدوا للحرب، فاقتتلوا قتالاً شديداً في جبل منيع، لا يوصل إليهم إلا من أبواب معلومة، فاقتتلوا يوم الخميس ويوم الجمعة ويوم السبت إلى العصر، فخرج إليهم رجل من ملوكهم، فوقف والناس مصطفون، فنادى بالمبارزة، فلم يجبه أحد، فالتفت موسى إلى مروان ابنه، فقال له: أخرج إليه أي بني،

فخرج إليه مروان، ودفع اللواء إلى أخيه عبد العزيز بن موسى. فلما رآه البربري ضحك، ثم قال له: ارجع، فإني أكره أن أعدم منك أباك. وكان حديث السن. قال: فحمل عليه مروان فردّه، حتى ألجأه إلى جبله، ثم إنه زرق مروان بالمزراق، فتلقاه مروان بيده وأخذه، ثم حمل مروان عليه وزرقه به زرقه وقعت في جنبه، ثم لحقت حتى وصلت إلى جوف برذونه، فمال فوقه به البرذون ثم التقى الناس عليه فاقتتلوا قتالاً شديداً أنساهم ما كان قبله، ثم إن الله هزمهم، وفتح للمسلمين عليهم، وقتل ملكهم كسيلة بن لمزم وبلغ سبيهم مئتي ألف رأس، فيهم بنات كسيلة، وبنات ملوكهم، وما لا يحصى من النساء السلسات، اللاتي ليس لهن ثمن ولا قيمة. قال: فلما وقفت بنات الملوك بين يدي موسى، قال: عليّ بمروان ابني. قال: فأني به قال له: أي بني اختر. قال: فاختر ابنة كسيلة فاستسرها، فهي أم عبد الملك بن مروان هذا. قال: قاتل يومئذ زرعة بن أبي مدرك قتالاً شديداً أبلى فيه حتى اندقت ساقه قال: فألى موسى أن لا يحمل إلا على رقاب الرجال، حتى يدخل القبروان، وأن يحمله خمسون رجلاً، كل يوم يتعاقبون بينهم، ثم انصرف موسى وقد دانت له البلاد كلها، وجعل يكتب إلى عبد العزيز بفتح بعد فتح، وملأت سبائاه الأجناد، وتمایل الناس إليه، ورغبوا فيما هنالك لديه، فكان عبد الملك بن مروان كثيراً ما يقول إذا جاءه فتوح موسى: لتهنئك الغلبة أبا الأصبع. ثم يقول: عسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً. قال: وبعث موسى إلى عياض وعثمان وإلى عبدة بني عقبة، فقال: اشتفوا، وضعوا أسيافكم في قتلة أبيكم عقبة. قال: فقتل منهم عياض ست مئة رجل صبراً من خيارهم وكبارهم، فأرسل إليه موسى أن أمسك. فقال: أما والله لو تركني ما أمسكت عنهم، ومنهم عين تطرف.

قدوم الفتح على عبد الملك بن مروان:

قال: وذكروا أن موسى لما قدم، وجه بذلك الفتح إلى عبد العزيز بن مروان، مع علي بن رباح، فسار حتى قدم على عبد العزيز بمصر، فأجازه ووصله، ووجهه إلى عبد الملك بن مروان أخيه، فلما قدم عليه أجازه أيضاً، وزاد في عطائه عشرين. فلما انصرف، قال له عبد العزيز: كم زادك أمير المؤمنين؟ قال: عشرين. قال: لولا كرهه أن أفعل مثل ما فعل لزدتك مثلها، ولكن تعدلها زيادة عشرة. وكتب عبد الملك إلى موسى يعلمه أنه قد فرض لجميع ولده في مئة. وبلغ به هو إلى المئتين، وفرض في مواليه، وأهل الجزاء والبلاء ممن معه خمس مئة رجل ثلاثين ثلاثين، وكتب إليه أن أمير المؤمنين قد أمر لك بمئة ألف التي أغرمها لك، فخذها من قبلك من الأخماس. قال: فلما قدم على موسى كتاب عبد الملك بن مروان، يأمره بأخذ المئة الألف مما قبله. قال: فإني أشهدكم أنه ردّ على المسلمين، ومعونة لهم، وفي الرقاب.

وكان موسى إذا أفاء الله عليه شيئاً، اشترى من ظن منهم أنه يقبل الإسلام وينجّب فيعرض عليه الإسلام، فإن رضي قبله من بعد أن يحص عقله، ويجرب فطنة فهمه، فإن وجده ماهراً أمضى عتقه وتولاه، وإن لم يجد فيه مهارة رده في الخمس والسهماء. قال: وكتب موسى إلى عبد العزيز ببلاء زرة بن أبي مدرك وما أوصله، وأنه لولا ذلك أوفده إلى أمير المؤمنين، ففرض له عبد العزيز في مئة، وفرض لثلاثين رجلاً من قومه، وانصرف موسى قافلاً، وذلك في سنة أربع وثمانين.

غزوة موسى في البحر

قال: وذكروا أن موسى أقام بالقيروان بعد قفله شهر رمضان وشوال، فأمر بدار صناعة بتونس وجر البحر إليها، فعظم عليه الناس ذلك، وقالوا له: هذا أمر لا نطيقه، فقام إلى موسى رجل من مسالمة البربر، ممن حسن إسلامه، فقال له: أيها الأمير، قد مر علي مئة وعشرون سنة، وإن أبي حدثني أن صاحب قرطاجة لما أراد بناء قناتها، أتاه الناس يعظمون عليه ذلك فقام إليه رجل فقال له: أيها الملك، إنك إن وضعت يدك بلغت منها حاجتك، فإن الملوك لا يعجزها شيء بقوتها وقدرتها، فضع يدك أيها الأمير، فإن الله تعالى سيعينك على ما نويت، ويأجرك فيما توليت. فسر بذلك موسى، وأعجبه قول هذا الشيخ. فوضع يده، فبنى دار صناعة بتونس، وجر البحر إليها مسيرة اثني عشر ميلاً، حتى أقحمه دار الصناعة، فصارت مشتي للمراكب إذا هبت الأنواء والأرياح. ثم أمر بصناعة مئة مركب، فأقام بذلك بقية سنة أربع وثمانين، وقدم عطاء بن أبي نافع الهذلي في مراكب أهل مصر، وكان قد بعثه عبد العزيز يريد سردانة، فأرسله بسوسة، فأخرج إليه موسى الأسواق، وكتب إليه أن ركوب البحر قد فات في هذا الوقت وفي هذا العام. فأقم لا تغرر بنفسك. فإنك في تشرين الآخر، فأقم بمكانك حتى يطيب ركوب البحر قال: فلم يرفع عطاء لكتاب موسى رأساً، وشحن مراكبه، ثم رفع فصار حتى أتى جزيرة يقال لها سلسلة، وافتتحها، وأصاب فيها مغام كثيرة، وأشياء عظيمة من الذهب والفضة والجواهر، ثم انصرف قافلاً، فأصابته ريح عاصف، فغرق عطاء وأصحابه، وأصيب الناس، ووقعوا بسواحل أفريقية. فلما بلغ ذلك موسى، وجه يزيد بن مسروق في خيل إلى سواحل البحر، يفتش على ما يلقي البحر من سفن عطاء وأصحابه فأصاب تابوتاً منحوتاً قال: فمنه كان أصل غناء يزيد بن مسروق. قال: ولقد لقيت شيخاً متوكناً على قصبة، فذهبت لأفتشه فنازعني، فأخذت القصبة من يده فضربت بها عنقه فانكسرت، فتناثر منها اللؤلؤ والجواهر والدنانير، ثم إن موسى أمر بتلك المراكب ومن نجا من النواتية، فأدخلهم دار الصناعة بتونس، ثم لما كانت سنة خمس وثمانين أمر الناس بالتأهب لركوب البحر، وأعلمهم أنه راكب فيه بنفسه،

فرغب الناس وتسارعوا، ثم شحن فلم يبق شريف ممن كان معه إلا وقد ركب حتى إذا ركبوا في الفلك، ولم يبق إلا أن يرفع هو، دعا برمح فعقده لعبد الله بن موسى بن نصير، وولاه عليهم وأمره، ثم أمره أن يرفع من ساعته، وإنما أراد موسى بما أشار من مسيره، أن يركب أهل الجلد والنكاية والشرف، فسميت غزوة الأشراف، ثم سار عبد الله بن موسى في مراكبه، وكانت تلك أول غزوة غزيت في بحر أفريقية. قال: فأصاب في غزوته تلك صقلية، فافتتح مدينة فيها، فأصاب ما لا يدري، فبلغ سهم الرجل مئة دينار ذهباً، وكان المسلمون ما بين الألف إلى التسع مئة، ثم انصرف قافلاً سالماً. فأتت موسى وفاة عبد العزيز بن مروان، واستخلاف الوليد بن عبد الملك سنة ست وثمانين، فبعث إليه بالبيعة، وافتتح عبد الله بن موسى، وما أفاء الله على يده، ثم إن موسى بعث زرعة بن أبي مدرك إلى قبائل من البربر، فلم يلق حرباً منهم ورغبوا في الصلح، فوجه رؤوسهم إلى موسى، فأعطاهم الأمان، وقبض رهوئهم، وعقد لعياش بن أخيل على مراكب أهل أفريقية، فشتا في البحر، وأصاب مدينة يقال لها سرقوسة، ثم قفل في سنة ست وثمانين، ثم إن عبد الله بن مرة قام بطالعة أهل مصر على موسى في سنة تسع وثمانين فعقد له موسى على بحر أفريقية، فأصاب سردانية، وافتتح مدائنهما، فبلغ سبيها ثلاثة آلاف رأس، سوى الذهب والفضة والحارث وغيره.

غزوة السوس الأقصى:

قال: وذكروا أن موسى وجه مروان ابنه إلى السوس الأقصى، وملك السوس يومئذ مزدانة الأسواري، فسار في خمسة آلاف من أهل الديوان فلما اجتمعوا، ورأى مروان أن الناس قد تعجلوا إلى قتال العدو، وأن في يده اليمنى القناة، وفي يده اليسرى الترس، وإنه ليشير بيده إلى الناس أن كما أنتم. فلما التقى مروان ومزدانة، اقتتل الناس إذ ذاك قتالاً شديداً، ثم انهزم مزدانة ومنح الله مروان أكتافهم، فقتلوا قتلة الفناء، فكانت تلك الغزوة استئصال أهل السوس على أيدي مروان، فبلغ السبي أربعين ألفاً، وعقد موسى على بحر أفريقية حتى نزل بمبورقة فافتتحها.

قدوم الفتوحات على الوليد بن عبد الملك:

قال: وذكروا أن خادماً للوليد بن عبد الملك بن مروان أخبرهم قال: إني لقريب من الوليد بن عبد الملك، وبين يديه طشت من ذهب، وهو يتوضأ منه، إذ أتى رسول من قبل قتيبة بن مسلم من خراسان بفتح من فتوحاتها، فأعلمته قال: خذ الكتاب منه، فأخذه فقراه، فما أتى على آخره، حتى أتى رسول آخر من قبل

موسى بن نصير، بفتح السوس من قبل مروان بن موسى، فأعلمته. قال: هاته، فقرأه، فحمد الله، وخر ساجداً لله حامداً، ثم التفت إلي قال: أمسك الباب لا يدخل أحد. قال: وكان عنده بن له يحبو بين يديه. فلما خر الوليد ساجداً لله شاكراً، جاء الصبي إلى الطشت فاضطرب فيه وصاح، فما التفت إليه. قال: وصرت لا أستطيع أن أغيثه لما أمرني به من إمساك الباب، وأطال السجود حتى خفي صوت الصبي، ثم رفع رأسه فصاح بي، فدخلت وأخذت الصبي، وإنه لما به روح.

فتح قلعة أرساف:

قال: ثم إن صاحب قلعة أرساف، أغار على بعض سواحل أفريقية، فنال منهم، وبلغ موسى خبره، فخرج إليه بنفسه فلم يدركه، فاشتد ذلك على موسى. قال: قتلني الله إن لم أقتله وأنا مقيم هنا. قال: فأقام موسى ما أقام، ثم إنه دعا رجلاً من أصحابه، فقال له: إني موجهك في أمر وليس عليك فيه بأس ولك عندي فيه حسن الثواب، خذ هذين الأذنين فسر فيهما بمن معك، حتى تأتي موضع كذا وكذا، في مكان كذا، فإنك تجد كنيسة، وتجد الروم قد جعلوها لعيدهم، فإذا كان الليل فادن من ساحلها، ودع إحدى هذين الأذنين بما فيها ثم انصرف إلي بالأذن الأخرى، وبعث معه موسى قبة من الخبز والوشى، ومن طرائف أرض العرب شيئاً مليحاً، وكتب كتاباً بالرومية جواباً لكتاب، كأنه كان كتب به إلى موسى يسأله الأمان، على أن يدلّه على عورة الروم، وكتاب فيه أمان من موسى مطبوع، فسار حتى انتهى إلى الموضع الذي وصف له موسى، فترك الأذن بما فيها، وانصرف راجعاً في الأذن الأخرى حتى قدم على موسى، وأن الروم لما عثروا على أذن موسى استكروها، فارتفع أمرها إلى بطريق تلك الناحية، فأخذ ما فيها. فلما رأى ما فيها من الكتب والهدية هاب ذلك، فبعث بها كما هي إلى الملك الأعظم. فلما أفضت إليه، وقرأ الكتب تحقق ذلك عنده، فبعث إلى أرساف رجلاً وملكه عليها، وأمر أن يضرب عنق صاحبها الذي أغار على سواحل أفريقية، ففعل، فقتله الله بحيلة موسى.

فتح الأندلس

قال: وذكروا أن موسى وجه طارقاً مولاه إلى طنجة وما هنالك، فافتتح مدائن البربر وقلاعها، ثم كتب إلى موسى: إني قد أصبت ستّ سفن، فكتب إليه موسى. أتممها سبعة، ثم سر بها إلى شاطئ البحر، واستعد لشحنها، واطلب قبلك رجلاً يعرف شهور السريانيين، فإذا كان يوم أحد وعشرين من شهر آذار بالسرياني، فاشحن على بركة الله ونصره في ذلك اليوم، فإن لم يكن عندك من يعرف شهور

السريان، فشهور العجم، فإنها موافقة لشهور السريان، وهو شهر يقال له بالأعجمية مارس، فإذا كان يوم أحد وعشرين منه، فاشحن على بركة الله كما أمرتك إن شاء الله، فإذا أجريت فسر حتى يلقاك جبل أحمر، وتخرج منه عين شرقية، إلى جانبها صنم فيه تمثال ثور، فاكسر ذلك التمثال، وانظر فيمن معك إلى رجل طويل أشعر، بعينه قَبْل، ويده شلل، فاعقد له على مقدمتك، ثم أقم مكانك حتى يغشاك إن شاء الله. فلما انتهى الكتاب إلى طارق كتب إلى موسى: إني منته إلى ما أمر الأمير ووصف، غير أني لم أجد صفة الرجل الذي أمرتني به إلا في نفسي، فسار طارق في ألف رجل وسبع مئة، وذلك في شهر رجب سنة ثلاث وتسعين، وقد كان لذريق ملك الأندلس، قد غزا عدواً يقال له البشكنس، واستخلف ملكاً من ملوكهم يقال له تدمير. فلما بلغ تدمير مكان طارق، ومن معه من المسلمين. كتب إلى لذريق: إنه قد وقع بأرضنا قوم لا ندري أمن السماء نزلوا أم من الأرض نبعوا. فلما بلغ لذريق ذلك أقبل راجعاً إلى طارق في سبعين ألف عنان، ومعه العجل تحمل الأموال والزخرف، وهو على سرير بين دابتين، وعليه قبة مكللة بالؤلؤ وبالياقوت والزبرجد، ومعه الحبال، ولا يشك في أسرهم. فلما بلغ طارقاً دنوه منهم. قام في أصحابه، فحمد الله، ثم حض الناس على الجهاد، ورغبهم في الشهادة، وبسط لهم في آمالهم. ثم قال: أيها الناس، أين المفر، البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، فليس ثمَّ والله إلا الصدق والصبر، فإنهما لا يغلبان، وهما جندان منصوران، ولا تضر معهما قلة، ولا تنفع مع الخور والكسل والفشل والاختلاف والعجب كثرة. أيها الناس، ما فعلت من شيء فافعلوا مثله، إن حملت فاحملوا، وإن وقفت فقفوا، ثم كونوا كهيئة رجل واحد في القتال، ألا وإني عامد إلى طاغيتهم، بحيث لا أقصيه حتى أخالطه أو أقتل دونه، فإن قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا، ولا تنازعوا فتفشلوا، وتذهب ويحكم، وتولوا الدبر لعدوكم، فتبددوا بين قتيل وأسير. وإياكم إياكم أن ترضوا بالدية، ولا تعطوا بأيديكم، وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة، والراحة من المهانة والذلة، وما قد أجل لكم من ثواب الشهادة، فإنكم إن تفعلوا، والله معكم ومعذكم، تبوؤوا بالخسران المين، وسوء الحديث غداً بين من عرفكم من المسلمين. وها أنا ذا حامل حتى أغشاه، فاحملوه بحملي، فحمل وحملوا. فلما غشيهم اقتتلوا قتالاً شديداً، ثم إن الطاغية قتل، وانهمز جميع العدو، فاحتز طارق رأس لذريق، وبعث به إلى موسى بن نصير، وبعث به موسى مع ابنه، وجهز معه رجالاً من أهل أفريقية، فقدم به على الوليد بن عبد الملك، ففرض له في الشرف، وأجاز كل من كان معه، وردّه إلى أبيه موسى، وأن المسلمين قد أصابوا مما كان مع لذريق ما لا يدرى ما هو ولا ما قيمته.

قال: وكتب طارق إلى مولاه موسى: إن الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية، فالغوث الغوث، فلما أتاه الكتاب نادى في الناس وعسكر، وذلك في صفر سنة ثلاث وتسعين، وكان أحبّ الخروج إليه يوم

الخميس أول النهار، فاستخلف عبد الله بن موسى على أفريقية وطنجة والسوس، وكتب ساعة قدم عليه كتاب طارق إلى مروان، يأمره بالمسير، فسار مروان بمن معه، حتى أجاز إلى طارق، قبل دخول أبيه موسى، وخرج موسى بن نصير والناس معه حتى أتى الحجاز، فأجاز بمن زحف معه في جموعه، وعلى مقدمته طارق مولاه، فوجد الجموع قد شردت إليه من كل مكان، فسار حتى افتتح قرطبة وما يليها، من حصونها وقلاعها ومدائنها، فغلّ الناس يومئذ غلواً لم يسمع بمثله، ولم يسلم من الغلول يومئذ إلا أبو عبد الرحمن الجبلي. ثم إن موسى سار لا يرفع له شيء إلا هذه، يفتح له المدائن يميناً وشمالاً، حتى انتهى إلى مدينة الملوك، وهي طليطلة، فوجد فيها بيتاً يقال له بيت الملوك، وجد فيه أربعة وعشرين تاجاً، تاج كل ملك ولي الأندلس، كان كلما هلك ملك جعل تاجه في ذلك البيت، وكتب على التاج اسم صاحبه، وابن كم هو، ويوم مات، ويوم ولي، ووجد في ذلك البيت أيضاً مائدة عليها اسم سليمان بن داود عليه السلام، ومائدة من جزع، نعمد موسى إلى التيجان والآنية والموائد، فقطع عليها الأغشية، وجعل عليها الأماناء ليس منها شيء يدرى ما قيمته. فأما الذهب والفضة والمتاع، فلم يكن يحصيه أحد.

اتهام الوليد موسى بالخلع:

قال: وذكروا أن الوليد بن عبد الملك بن مروان لما بلغه مسير موسى بن نصير إلى الأندلس ووصفت له، ظنّ أنه يريد أن يخلع، ويقيم فيها، ويمتنع بها، وقيل ذلك له، وأبطأت كتب موسى عليه، لاشتغاله بما هنالك من العدو، وتوطيئه لفتح البلاد. فأمر الوليد القاضي أن يدعو على موسى إذا قضى صلاته، وأن موسى لما دخل طليطلة، بعث عليّ بن رباح بفتحها، وأوفد معه وفداً، فسار حتى قدم دمشق صلاة العصر، فدخل المسجد فألقى القاضي يدعو على موسى. فقال: أيها الناس، الله الله في موسى، والدعاء عليه، والله ما نزع يداً من طاعة، ولا فارق جماعة، وإنه لفي طاعة أمير المؤمنين، والذبّ عن حرّات المسلمين، والجهاد للمشرّكين، وإني لأحدثكم عهداً به، وما قدمت الآن إلا من عنده، وإن عندي خبره، وما أفاء الله على يده لأمر المؤمنين، وما أمد به المسلمين، ما تقرّ به أعينكم، ويسرّ به خليفتم.

دخول وفد موسى على الوليد بن عبد الملك:

قال: وذكروا أن الوليد لما بلغه خبر هذا المتكلم الوافد من عند موسى، أرسل إليه، فأدخل عليه، ثم قال له: ما وراءك؟ فقال: كل ما تحب يا أمير المؤمنين، تركت موسى بن نصير في الأندلس، وقد أظهره الله ونصره، وفتح على يديه ما لم يفتح على يد أحد، وقد أوفدني إلى أمير المؤمنين في نفر من وجوه من معه، بفتح من فتوحه، فدفع إليه الكتاب من عند موسى، فقرأه الوليد. فلما أتى على آخره خر ساجداً؛ فلما

رفع رأسه أتاه فتح آخر، فخر أيضاً نقص صفحة 90، 91 حميد، عن أبيه أنه قال: قدمت الأندلس امرأة عطارة فخرجت بخمس مئة رأس، فأما الذهب والفضة والآنية والجوهر فذلك لا يحاط بعلمه. قال: وحدثني ياسين بن رجاء، أنه قدم عليهم رجل من أهل المدينة شيخ، فجعل يحدثنا عن الأندلس، وعن دخول موسى إياها، فقلنا له: فكيف علمت هذا؟ قال: إني والله من سبيه، ولأخبركم بعجيب، والله ما اشترياني الذي اشترياني إلا بقبضة من فلفل لمطبخ موسى بن نصير. فقلنا له: ما أقدمك؟ فقال: أبي كان من وجوه الأندلس. فلما سمع بموسى بن نصير عمد إلى عين ما له من الذهب والفضة والجوهر، وغير ذلك، فدفنه في موضع قد عرفته، فتقدمت أنا للخروج إلى ذلك الموضع لاستخراجه. قلنا له: وكم لك منذ فارقه؟ قال: سبعون سنة. قلنا له: أفنسيته؟ قال: نعم، فلم ندر بعد ما فعل.

غزوة موسى بن نصير البشكنس والأفرنج:

قال: وذكروا أن موسى خرج من طليطلة بالجموع غازياً يفتح المدائن جميعاً، حتى دانت له الأندلس، وجاءه وجوه حليقية، فطلبوا الصلح فصالحهم، وغزا البشكنس فدخل في بلادهم حتى أتى قوماً كالبهائم، ثم مال إلى أفرنجة، حتى انتهى إلى سرقسطة فافتتحها، وافتتح ما دونها من البلاد إلى الأندلس. قال: فأصاب فيها ما لا يدري ما هو، ثم سار حتى جاوزها بعشرين ليلة، وبين سرقسطة وقرطبة شهر أو أربعين يوماً.

قال: وذكروا أن عبد الله بن المغيرة بن أبي بردة، قال: كنت ممن غزا مع موسى الأندلس حتى بلغنا سرقسطة، وكانت من أقصى ما بلغنا مع موسى إلا يسيراً من ورائها، فأتينا مدينة على بحر، ولها أربعة أبواب. قال: فبينما نحن محاصروها إذ أقبل عياش بن أخيل، صاحب شرطة موسى، فقال: أيها الأمير، إنا قد فرقنا الجيش أربعاً على نواحي المدينة، وقد بقي الباب الأقصى، وعليه رتبة. قال: له موسى بن نصير: دع ذلك الباب فإننا سننظر فيه. قال: ثم إن موسى التفت إلي فقال لي: كم معك من الزاد؟ قلت: ما بقي معي غير تليس، قال: فأنت لم يبق معك غير تليس، وأنت من أمراء الجيش، فكيف غيرك! اللهم أخرجهم من ذلك الباب. قال المغيرة: فأصبحنا من تلك الليلة وقد خرجوا من ذلك الباب، فدخلها موسى منه، ووجه ابنه مروان في طلبهم فأدركهم، فأسرع القتل فيهم، وأصابوا مما كان معهم، ومما في المدينة شيئاً عظيماً. قال: وذكروا أن جعفر بن الأشتر، قال: كنت فيمن غزا الأندلس مع موسى، فحاصرنا حصناً من حصونها عظيماً، بضعاً وعشرين ليلة، ثم لم نقدر عليه. فلما طال ذلك عليه نادى فينا، أن أصبحوا على تعبئة، وظننا أنه قد بلغه مادة من العدو، وقد دنت منا، وأنه يريد التحول عنهم، فأصبحنا على

تعبته، فقام فحمد الله، ثم قال: أيها الناس، إني متقدم أمام الصفوف، فإذا رأيتموني قد كبرت وحملت، فكبروا واحملوا. فقال الناس: سبحان الله، أترى فقد عقله أم عزب عنه رأي، يأمرنا نحمل على الحجارة وما لا سبيل إليه! قال: فتقدم بين يدي الصفوف حيث يراه الناس، ثم رفع يديه وأقبل على الدعاء والرغبة، فأطال ونحن ركوب منتظرون تكبيره، فاستعددنا، ثم إن موسى كبر، وكبر الناس، وحمل الناس، فأنهت ناحية الحصن التي تلينا، فدخل الناس منها، وما راعني إلا خيل المسلمين تمزج فيها، وفتحها الله علينا، فأصبنا من السي والجواهر ما لا يحصى.

قال: وحدثني مولاة لعبد الله بن موسى، وكانت من أهل الصدق والصلاح، أن موسى حاصر حصنها الذي كانت من أهله، وكان تلقاه حصن آخر. قالت: فأقام لنا محاصراً حيناً، ومعه أهله وولده، وكان لا يغزو إلا بهم لما يرجو في ذلك من الثواب. قالت: ثم إن أهل الحصن خرجوا إلى موسى فقاتلوه قتالاً شديداً، ففتح الله عليه. قالت: فلما رأى ذلك أهل الحصن الآخر، نزلوا على حكمه، ففتحهما موسى في يوم واحد، فلما كان في اليوم الثاني، أتى حصناً ثالثاً، فالتقى الناس فاقتلوا قتالاً شديداً أيضاً، حتى جال المسلمون جولة واحدة. قال: فأمر موسى بسراده فكشط عن نسائه وبناته حتى برزن. قال: فلقد كسرت بين يديه من أعماد السيوف ما لا يحصى، وحمي المسلمون، واحتدم القتال، ثم إن الله فتح عليه ونصره، وجعل العاقبة له.

وقال عبد الرحمن بن سلام: كنت فيمن غزا مع موسى في غزواته كلها. فلم ترد له راية قط، ولا هزم له جمع قط، حتى مات.

وقال بن صخر: لما قدم موسى الأندلس قال أسقف من أساقفتها: إنا لنجدك في كتب الحدثنان، عن دانيال. بصفتك صياداً تصيد بشبكتين، رجل لك في البر، ورجل في البحر، تضرب بهما هاهنا وهاهنا فتصيد. قال: فسر بذلك موسى وأعجبه.

وقال عبد الحميد بن حميد، عن أبيه: إن موسى لما غل وجاوز سرقسطة، اشتد ذلك على الناس وقالوا: أين تذهب بنا؟ حسبنا ما في أيدينا، وكان موسى قال حين دخل أفريقية، وذكر عقبة بن نافع: لقد كان غرر. بنفسه حين غل في بلاد العدو والعدو عن يمينه وعن شماله وأمامه وخلفه، أما كان معه رجل رشيد؟ فسمعه حبيش الشيباني قال: فلما بلغ موسى ذلك المبلغ، قام حبيش فأخذ بعنانه. ثم قال أيها الأمير! إني سمعتك وأنت تذكر عقبة بن نافع تقول: لقد غرر بنفسه وبمن معه، أما كان معه رجل رشيد؟ وأنا رشيدك اليوم، أين تذهب؟ تريد أن تخرج من الدنيا، أو تلمس أكثر وأعظم مما آتاك الله عز وجل، وأعرض مما فتح الله عليك، ودوخ لك، إني سمعت من الناس ما لم تسمع، وقد ملأوا أيديهم، وأحبوا

الدعة. قال: فضحك موسى ثم قال: أرشدك الله، وكثر في المسلمين مثلك. ثم انصرف قافلاً إلى الأندلس فقال موسى يومئذ: أما والله لو انقادوا إليّ لقدتهم إلى رومية، ثم يفتحها الله على يديّ إن شاء الله.

خروج موسى بن نصير من الأندلس:

قال: وذكروا أن عبد الرحمن بن سلام أخبرهم، وكان مع موسى بن نصير بالأندلس قال: أقام موسى بقية سنته تلك، وأشهرًا من سنة أربع وتسعين، ثم خرج وافداً إلى الوليد بن عبد الملك، وكان ما أقام بها موسى عشرين شهراً، واستخلف عبد العزيز بن موسى، فجاز موسى البحر على الأندلس، فغزا بالناس حتى بلغوا أربونة، ومعه أبناء الملوك من الإفرنج، وبالتيجان والمائدة والآنية والذهب والفضة، والوصفاء والوصائف، وما لا يحصى من الجواهر والطرائف، وخرج معه بوجوه الناس. قال: وذكروا عن صفة المائدة عن عبد الحميد أنه قال: كانت مائدة خوان، ليست لها أرجل، قاعدتها منها، وكانت من ذهب وفضة خليطين، فهي تتلون صفرة وبياضاً، مطوّقة بثلاثة أطواق، طوق لؤلؤ، وطوق ياقوت، وطوق من زُمرّد، قال: قلت: فما عظمها؟ قال: كنا بموضع والناس معسكرون، إذ قلت بغل لرجل من موالي موسى يقال له صالح أبو ريشة، على رَمَكَة، فكردّها في العسكر، فقام الناس إليه بأعمدة الأخبية، وجال في العسكر جولة، فتطلع موسى قال: ما هذا؟ وتطلع الحواري فإذا هو بالبغل يكرّد الرمكة، وقد أدلى، فغار موسى وقال: احمّلوا عليه المائدة، فلم يبلغ بها إلا منقلة حتى تقتخت قوائمه لكثرة ثقلها على هذا البغل القوي.

قدوم موسى أفريقية:

قال: وذكروا أن يزيد بن مسلم مولى موسى، أخبرهم أنه لما جاز موسى الحصن أمرهم بصناعة العجل، فعملت له ثلاثون ومئة عجلة، ثم حمل عليها الذهب والفضة والجواهر، وأصناف الوشي الأندلسي، حتى أتى أفريقية. فلما قدمها بقي بها سنة أربع وتسعين، ثم قفل، واستخلف ابنه عبد الله على أفريقية وطنجة والسنوس، وخرج معه ولده مروان بن موسى، وعبد الأعلى بن موسى وعبد الملك بن موسى، وخرج معه مئة رجل من أشرف الناس، من قريش والأنصار وسائر العرب ومواليها، منهم عياض بن عقبة، وعبد الجبار بن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، والمغيرة بن أبي بردة، وزرعة بن أبي مدرّك، وسليمان بن نجدة ووجوه من وجوه الناس وأخرج معه من وجوه البربر مئة رجل فيهم بنو كسيلة، وبنو قصدر، وبنو ملوك البربر، وملك السنوس مزدانة ملك قلعة أرساف وملك ميورقه، وخرج بعشرين ملكاً من ملوك جزائر الروم، وخرج معه مئة من ملوك الأندلس، ومن الإفرنجيين، ومن القرطبيين، وغيرهم، وخرج معه

أيضاً بأصناف ما في كل بلد من بزّها ودوايها ورقيقها وطرائفها وما لا يحصى، فأقبل يجر الدنيا وراءه جرّاً لم يسمع بمثله، ولا يمثل ما قدم به.

قدوم موسى إلى مصر:

قال: وذكروا أن يزيد بن سعيد بن مسلم أخبرهم قال: لما أتى موسى مصر، وانتهى ذلك إلى الوليد بن عبد الملك، كتب إلى قرّة بن شريك، أن أدفع إلى موسى من بيت مال مصر ما أراد، فأقبل موسى حتى إذا كان في بعض الطريق، لقيه خبر موت قرّة بن شريك، ثم قدم مصر سنة خمس وتسعين، فدخل المسجد فصلى عند باب الصوال، وكان قرّة قد استخلف بن رفاعه على الجند حتى توفي، فلما سمع بموسى خرج مبادراً حتى لحقه حين استوى على دابته فلقية فسلم عليه، فقال له موسى: من أنت يا بن أخي؟ فانتسب له. فقال: مرحباً وأهلاً، فسار معه حتى نزل منية عمرو بن مروان، فعسكر بها موسى، فكلّمه حينئذ رفاعه في المال الذي كان استخرجه من سفيان بن مالك الفهري، وذلك بعد مهلك سفيان. فقال: هو لك. قال: فأمر بدفع عشرة آلاف دينار إلى ولد سفيان بن مالك. قال: فأقام موسى ثلاثة أيام، تأتيه أهل مصر في كل يوم، فلم يبق شريف إلا وقد أوصل إليه موسى صلة ومعروفاً كثيراً، وأهدى لولد عبد العزيز بن مروان فأكثر لهم، وجاءهم بنفسه فسلم عليهم، ثم سار متوجهاً حتى أتى فلسطين، فتلقاه آل روح بن زنباع، فترّل بهم، فبلغني أنهم نَحَرُوا له خمسين جزوراً، وأقام عندهم يومين، وخلف بعض أهله وصغار ولده عندهم، وأجاز آل مروان وآل روح بن زنباع بجوائز من الوصائف، وغير ذلك من الطرف.

قدوم موسى على الوليد رحمهما الله تعالى:

قال: وذكروا أن محمد بن سليمان وغيره من مشايخ أهل مصر، أخبروهم أن موسى لما قدم على الوليد، وكان قدومه عليه وهو في آخر شكايته التي توفي فيها، وقد كان سليمان بن عبد الملك بعث إلى موسى من لقيه في الطريق قبل قدومه على الوليد، يأمره بالتشبّط في مسيره، وألا يعجل، فإن الوليد بآخر رmqه. فلما أتى موسى بالكتاب من سليمان وقرأه، قال: خنت والله وغدرت وما وفيت، والله لا تربصت، ولا تأخرت، ولا تعجلت، ولكني أسير بمسيري، فإن وافيته حياً لم أتخلف عنه، وإن عجلت منيته فأمره إلى الله. فرجع الرسول إلى سليمان فأعلمه فألى سليمان لئن ظفر بموسى ليصلبته، أو ليأتين على نفسه. قال: فلما قدم موسى على الوليد وكان الوليد لما بلغه قدوم موسى واقترا به منه، وجه إليه كتاباً يأمره بالعجلة في مسيره، خوفاً أن تعجل به منيته قبل قدوم موسى عليه، وأنه أراد أن يراه وأن يحرم سليمان ما جاء به

من الجواهر والطرائف التي لا قيمة لها، فلم يكن لموسى شيء يثبطه حين أتاه كتاب الوليد، فأقبل حتى دخل عليه، وقدم تلك الطرائف من الدر والياقوت والزبرجد، والوصفاء والوصائف والوشى، ومائدة سليمان بن داود عليه السلام، ومائدة ثانية من جزع ملون والتيجان. قال: فقبض الوليد الجميع وأمر بالمائدة فكسرت، وعمد إلى أفخر ما فيها، والتيجان والجزع، فجعله في بيت الله الحرام، وفرق غير ذلك، ولم يلبث الوليد أن مات رحمه الله.

خلافة سليمان بن عبد الملك وما صنع بموسى بن نصير:

قال: وذكروا أن عبد الرحمن بن سلام أخبرهم أن سليمان بن عبد الملك لما أفضت الخلافة إليه، بعث إلى موسى، فأتي به، فعنفه بلسانه، وكان فيما قال له يومئذ: أعليّ اجترأت، وأمرني خالفت، والله لأقللنّ عددك، ولأفرقنّ جمعك، ولأبدنّ مالك، ولأضعنّ منك ما كان يرفعه غيري ممن كنت تمنيه أماني الغرور، وتخدعه من آل أبي سفيان، وآل مروان، فقال له موسى: والله يا أمير المؤمنين ما تعتلّ عليّ بذنّب، سوى أنني وفيت للخلفاء قبلك، وحافظت على من ولي النعمة عندي فيه، فأما ما ذكر أمير المؤمنين: من أنه يقلّ عددي، ويفرقّ جمعي ويبدّد مالي، ويخفّض حالي، فذلك بيد الله، وإلى الله، وهو الذي يتولى النعمة على الإحسان إليّ، وبه أستعين، ويعيد الله عزّ وجلّ أمير المؤمنين ويعصمه أن يجري على يديه شيئاً من المكروه لم أستحقّه، ولم يبلغه ذنب اجترمته. فأمر به سليمان أن يوقف في يوم صائف شديد الحرّ على طريقه. قال: وكانت بموسى نسمة، فلما أصابه حر الشمس، وأتعبه الوقوف، هاجت عليه. قال: وجعلت قرب العرق تنصب منه، فما زال كذلك حتى سقط، وعمر بن عبد العزيز حاضر، إلى أن نظر سليمان إلى موسى، وقد وقع مغشياً عليه، قال عمر بن عبد العزيز: ما مر بي يوم كان أعظم عندي، ولا كنت فيه أكرب من ذلك اليوم، لما رأيت من الشيخ موسى، وما كان عليه من بعد أثره في سبيل الله، وما فتح الله على يديه وهذا يُفعل به. قال: فالتفت إليّ سليمان فقال: يا أبا حفص، ما أظنّ إلاّ أني قد خرجت من يميني. قال عمر: فاغتنتم ذلك منه فقلت يا أمير المؤمنين شيخ كبير بادن، وبه نسمة قد أهلكته، وقد أتت على ما فيه من السلامة لك من يميناك، وهو موسى البعيد الأثر في سبيل الله، العظيم الغناء عن المسلمين قال عمر: والذي منعي من الكلام فيه ما كنت أعلم من يميناك وحقده عليه، فخشيت إن ابتدأته أن يلح عليه، وهو لحوج. قال: فلما قال لي ما قال آخرأ، حمدت الله على ذلك، وعلمت أن الله قد أحسن إليه، وأن سليمان قد ندم فيه. فقال سليمان: من يضمه؟ فقال يزيد بن المهلب: أنا أضمه يا أمير المؤمنين. قال: وكانت الحال بين يزيد وموسى لطيفة خاصة. قال سليمان: فضمه إليك يا يزيد، ولا

تضييق عليه. قال: فانصرف به يزيد، وقد قدم إليه دابة ابنه مخلد، فركبها موسى، فأقام أياماً. قال: ثم إنه تقارب ما بين موسى وسليمان في الصلح، حتى افتدى منه موسى بثلاثة آلاف ألف دينار.

عدة موالي موسى بن نصير:

قال: وذكرنا عن بعض البصريين، أن رجلاً منهم أخبرهم أن يزيد قال لموسى ذات ليلة وقد سهر سهرًا طويلاً: يا أبا عبد الرحمن، كم تعدّ مواليك وأهل بيتك؟ فقال: كثير. قال: يكونون ألفاً؟ قال له موسى: نعم وألفاً وألفاً حتى ينقطع النفس، لقد خلفت من الموالي ما أظن أن أحداً لا يخلف مثلهم. قال له يزيد: إنك لعلی مثل ما وصفت، وتعطي بيدك؟ ألا أقمت بدار عزك، وموضع سلطانك، وبعثت بما قدمت به، فإن أعطيت الرضا أعطيت الطاعة، وإلا كنت على التخيير من أمرك. فقال موسى: والله لو أردت ذلك ما تناولوا طرفاً من أطرافي إلى أن تقوم الساعة، ولكن آثرت حق الله، ولم أر الخروج من الطاعة والجماعة. قال: ثم خرج يزيد من عنده، فنظر إليه موسى، قال لمن عنده: والله إن في رأس أبي خالد لنفرة وليأتين عليها.

ذكر ما رآه موسى بالمغرب من العجائب:

قال: وذكرنا عن محمد بن سليمان، عن مشايخ أهل مصر، قال: لما بعث موسى رحمه الله بالخمسة الذي أفاء الله عليه، وكان مئة ألف رأس، فزلوا الإسكندرية، ونزل بعضهم كنيسة فيها، فسميت كنيسة الرقيق إلى اليوم، ونزلوا موضعاً بالفسطاط فتسوّقوا فيه، فسمي سوق البربر إلى اليوم، قال محمد بن سليمان، ومحمد بن عبد الملك: إن موسى اتخذ لنفسه داراً وسكناً حتى كان من أمر سليمان ما قد ذكر، وهو الذي أخرجهم وأهله من المغرب.

قال: وحدثنا بعض أهل أفريقية أن موسى ركب يوماً حتى خرج من القيروان، فوقف قريباً من أفريقية على رأس أميال، فأخذ بيده تراباً فشمه من ثم، ثم أمر بحفر بئر وابتنى داراً ومنية واتخذ فيها خيلاً فسميت بئر منية الخيل، فليس يعلم بالمغرب بئر أعذب منها.

وحدثنا الكري أبو بكر عبد الوهاب بن عبد الغفار شيخ من مشايخ تونس قال: إن موسى انتهى إلى صنم يشير بأصبعه إلى خلفه ثم تقدم إلى صنم أمام الصنم الأول، فإذا هو يشير بأصبعه إلى السماء، ثم تقدّم فإذا بصنم على نهر ماء جار، يشير بأصبعه تحت قدميه، فلما انتهى موسى إلى الصنم الثالث. قال موسى: احفروا، فإذا بمحدث مختوم الرأس، قد أخرج، فأمر به موسى فكسر، فخرجت ريح شديدة، فقال موسى

للجيش: أتدرون ما هذا؟ قالوا: لا والله أيها الأمير ما ندري. قال: ذلك شيطان من الشياطين التي سجنها نبي الله سليمان بن داود.

قال: وحدثنا بعض مشايخ أهل المغرب أن موسى أرسل ناساً في مراكب فأمرهم أن يسبوا حتى ينتهوا إلى صنم يشير بأصبعه أمامه في جزيرة في البحر، ثم يسبوا حتى يأتوا صنماً آخر في جزيرة يشير بأصبعه أمامه ثم يسير الليالي والأيام ويجد في السير حتى يأتوا صنماً آخر في جزيرة في البحر، فيها أناس لا يعرف كلامهم. قال: فإذا بلغت ذلك فارجعوا، وذلك في أقصى المغرب ليس وراءه أحد من الناس إلا البحر المحيط، وهو أقصى المغرب في البر والبحر.

قال: وحدثنا بعض المشايخ من أهل المغرب أن موسى بلغ فحراً من أقصى المغرب، فإذا عليه في الشق الأيمن أصنام ذكور، وفي الأيسر أصنام إناث، وأن موسى لما انتهى إلى ذلك الموضع خاف الناس فيه، فلما رأى ذلك منهم رجع بالناس، ثم مضى في وجهه ذلك حتى انتهى إلى أرض تميد بأهلها، ففزع الناس وخافوا فرجع بهم.

قالوا: وحدثنا عبد الله بن قيس، قال: بلغني أن موسى لما جاوز الأندلس أتى موضعاً، فإذا فيه قباب من نحاس، فأمر بقبة منها فكسرت، فخرج منها شيطان نفخ ومضى، فعرف موسى أنه شيطان من الشياطين التي سجنها سليمان بن داود، فأمر موسى بالقباب فتركت على حالها، وسار بالناس قدماً.

قال: وحدثنا عمارة بن راشد، قال: بلغنا أن موسى كان يسير في بعض غزواته وهو بأقصى المغرب، إذ غشى الناس ظلمة شديدة، فعجب الناس منها وخافوا، وسار بهم موسى في ذلك، إذ هجم على مدينة عليها حصن من نحاس، فلما أتاها أقام عليها، وطاف بها، فلم يقدر على دخولها، فأمر بنبل ورماح، وندب الناس فجعل يقول: من يصعد هذه، وله خمس مئة دينار؟ فصعد رجل، فلما استوى على سورها تردى فيها، ثم ندب الناس موسى ثانية، وقال: من يصعد وله ألف دينار؟ فصعد آخر، ففعل به مثل ذلك، ثم ندب الناس ثالثة: قال: من يصعد وله ألف وخمس مئة دينار، فصعد رجل ثالث، فأصابه ما أصاب صاحبيه، فكلّم الناس موسى فقالوا: هذا أمر عظيم، أصيب إخواننا، وغررت بهم حتى هلكوا. فقال لهم: على رسلكم يأتيكم الأمر على ما تحبون إن شاء الله، ثم أمر موسى بالمنجنيق، فوضعت على حصن

المدينة، ثم أمر أن يرمى الحصن، فلما علم من في الحصن ما عمل موسى، ضجوا وصاحوا. وقالوا: يا أيها الملك، لسنا بغيتك، ولا نحن ممن تريد، نحن قوم من الجن، فانصرف عنا، فقال لهم موسى: أين أصحابي، وما فعلوا؟ قالوا: هم عندنا على حالهم. فقال: أخرجوهم إلينا. قالوا: نعم. فأخرج الثلاثة النفر، فسألهم موسى عن أمرهم وما صنع بهم. فقالوا: ما درينا ما كنا فيه، وما أصابتنا شوكة حتى أخرجنا إليك. فقال

موسى: الحمد لله كثيراً، ثم تقدم بالناس سائراً يفتح كل ما مر به.
ثم نرجع إلى حديث سليمان بن عبد الملك.

تولية سليمان بن عبد الملك أخاه مسلمة وما أشار به موسى عليه:

قال: وذكروا أن سعيد بن عبد الله أخبرهم، قال: إن سليمان بن عبد الملك بعث أخاه مسلمة إلى أرض الروم، ووجه معه خمس مئة وثلاثين ألف رجل، وخمس مئة رجل ممن قد ضمه الديوان واكتب في العطاء وتقلب في الأرزاق، ثم دعا سليمان بموسى، بعد أن رضي عنه على يد عمر بن عبد العزيز فقال سليمان له: أشر علي يا موسى، فلم تنزل مبارك الغزوة في سبيل الله، بعيد الأثر، طويل الجهاد. فقال له موسى: أرى يا أمير المؤمنين أن توجهه بمن معه، فلا يمر بحصن إلا صير عليه عشرة آلاف رجل حتى يفرق نصف جيشه، ثم يمضي بالباقي من جيشه، حتى يأتي القسطنطينية، فإنه يظفر بما يريد يا أمير المؤمنين. قال: فدعا سليمان مسلمة فأمره بذلك من مشورة موسى وأوعز إليه. فلما علم مسلمة بالمشورة فكأنه كره ذلك، وكان في مسلمة بعض الإباية، ثم رجع إلى قول موسى فيما صنع بأرض الروم، حين ظفر بطريق ليس فوقه إلا ملك الروم: فقال البطريق لمسلمة: آمني على نفسي وأهلي ومالي وولدي، وأنا آتيك بالملك، فأمنه، ومضى البطريق إلى الملك الأعظم، فأعلمه بما فعل مسلمة، وما ظفر به منه، ومن حصون الروم؛ فلما رأى ذلك ملك الروم، أعظم ذلك وسقط في يديه. فقال البطريق له عند ذلك: مالي عليك إن صرفت مسلمة عنك وجميع من معه؟ فقال الملك: أجعل تاجي على رأسك، وأقعدك مكانى. فقال البطريق: أنا أكفيك ذلك. فرجع البطريق إلى مسلمة، فقال: أخربي ثلاثاً حتى آتيك بالملك، فبعث البطريق إلى جميع الحصون، فأمرهم بالتقلع إلى الجبال، وحمل ما قدروا عليه من الطعام، وأمر بإحراق الزرع، وغير ذلك مما يؤكل وينتفع به، مما كان خلفه مسلمة وجنده، وما بين المسلمين وملك الروم، فلما فعلوا ما أمروا به، وعلم البطريق أنه أحكم أمره، بعث إلى مسلمة فقال له: لو كنت امرأة لفعلت بك كما يفعل الرجل بامرأته. قال: فتغيظ مسلمة وآلى ألا يرح حتى يظفر بملك الروم.

سؤال سليمان موسى عن المغرب:

قال: وذكروا أن محمد بن سليمان، أخبرهم أن سليمان بن عبد الملك قال لموسى: من خلفت على الأندلس؟ قال له: عبد العزيز بن موسى. قال: ومن خلفت على أفريقية وطنجة والسوس؟ قال: عبد الله ابني. فقال له سليمان: لقد أنجبت يا موسى، فقال موسى: ومن أنجبني يا أمير المؤمنين، إن ابني مروان

أتى بملك الأندلس، وابني عبد الله أتى بملك ميورقة وصقلية وسردانية، وإن ابني مروان أتى بملك السوس الأقصى فهم متفرقون في الأمصار، وغيرهم يغيرون فيأتون من السبي بما لا يحصى، فمن أنجبُ مني يا أمير المؤمنين؟ قال: فغضب سليمان، فقال: ولا أمير المؤمنين ليس بأنجب منك؟ فقال موسى: شأن أمير المؤمنين شأن ليس فوقه شأن، وكل شأن وإن عظم دونه، لأنه به ومنه، وعلى يديه وأمره. قالوا: وحدثنا عبد الله بن شريح، قال: بلغني أن موسى لما نزل الحيرة عند قدومه من المغرب أتاه رجل من بني أمية، فقال له: يا موسى، أنت ملك المغرب، وأعلم الناس تخرج إلى الوليد، وتعلم من سليمان؟ فقال له موسى: يا بن أخي، حسبك من قريش، ثم من بني أمية ما تعلم، ألا ترى يا بن أخي أن الصبي يأخذ العظم فيعقفه بحبل، ثم ينصبه ويهيئ طريقاً، ويضع فيه حبة بر أو ذرة، فينصب للهدد العالم بما تحت الأرض، فيستنفر، ثم تدفعه المقادير إلى الوقوع فيه، فاحذر يا بن أخي أن تراك الشام أو تراها. فخرج موسى إلى الوليد بدمشق، فمات الوليد، واستخلف سليمان أخاه، فلقى منه موسى ما ذكرنا، وخرج القرشي إلى الشام، فضربت عنقه.

ذكر قدوم موسى على الوليد:

قال: وذكروا أن موسى لما قدم على الوليد، وذلك يوم الجمعة، في حين جلوس الوليد بن عبد الملك على المنبر، وكان موسى قال لبعض من وفد معه، بأن يلبس كل رجل من الأسرى تاجاً، وثياب ملك ذلك التاج، ثم يدخلوا معه المسجد. قال: فألبس ثلاثين رجلاً ثلاثين تاجاً وهياهم هيئة الملوك، وأمر بأبناء ملوك البربر فهيئوا وأمر بأبناء ملوك الجزائر والروم فهيئوا كذلك، ولبسوا التيجان، وأمر بأبناء ملوك الأشبان، فهيئوا. يمثل ذلك وأمر بالأموال والجواهر واللؤلؤ والياقوت والزبرجد والجزع والوطاء والكساء المنسوج بالذهب والفضة، المحرّش باللؤلؤ والياقوت والزبرجد، فوقف الجميع بباب الوليد، وأبناء ملوك أفرنجة وأقبل موسى بالذين ألبسهم التيجان، حتى دخل مسجد دمشق، والوليد على المنبر، يحمّد الله وهو موهون، قد أثرت فيه العلة، وأنهمكه المرض وإنما كان متحماً لأجل قدوم موسى ومن معه. فلما رآهم بهت إليهم، وقال الناس: موسى؟ موسى، ثم أقبل حتى سلم على الوليد، ووقف الثلاثون بالتيجان، عن يمين المنبر وشماله ثم إن الوليد أخذ في حمد الله تعالى والثناء عليه، والشكر لما أيدّه الله ونصره، فتكلم بكلام لم يسمع بمثله، وأطال حتى فات وقت الجمعة، ثم صلى بالناس فلما فرغ جلس، ثم دعا بموسى، فصب عليه الوليد الخلع ثلاث مرات، وأجازته بخمسين ألف دينار، وفرض لولده جميعاً في الشرف، وفرض لخمس مئة من مواليه، ثم أدخل عليه موسى ملوك البربر، وملوك الروم، وملوك الأشبان، وملوك أفرنجة،

ثم أدخل عليه رؤس أهل البلاد ممن كان معه من قريش والعرب، فأحسن جوائزهم، وفرض لهم في الشرف، ثم أقام موسى عند الوليد أربعين يوماً، ثم إن الوليد هلك.

ذكر اختلاف الناقلين في صنع سليمان بموسى:

قالوا: لما استخلف سليمان بعد أخيه الوليد، فكان أحق الناس على الحجاج وموسى بن نصير، وكان يخلف لئن ظفر بهما ليصلبنهما، وكان حنقه عليهما لأمر يطول ذكره. قال: فأرسل سليمان إلى عمر بن عبد العزيز فأتاه، فقال: إني صالب غداً موسى بن نصير، فبعث عمر إلى موسى فأتاه. فقال له: يا بن نصير، إني أحبك لأربع. الواحدة: بعد أترك في سبيل الله، وجهادك لعدو الله. والثانية: حبك لآل محمد صلى الله عليه وسلم. والثالثة: حبك عياض بن عقبة لما تعلم من حسن رأيي فيه، وكان عياض من عباد الله الصالحين، والرابعة: أن لأبي عندك يداً وصنيعة، وأنا أحب أن تتم يده وصنيعته حيث كانت، وقد سمعت أمير المؤمنين يذكر أنه صالبك غداً، فأحدث عهدك، وانظر فيما أنت فيه ناظر من أمرك. فقال له موسى: قد فعلت، وأسندت ذلك إليك. فقال له عمر: لو قبلتُ ذلك من أحد قبلت منك، ولكن أسند إلى من أحببت. فانصرف، فلما أصبح اغتسل وتحنط وراح، ولم يشك في الصلب. فلما انتصف النهار، واشتد الحر، وذلك في حمارة الصيف، دعا سليمان موسى، فأدخل عليه متعباً، وكان بادناً جسيماً، به نسمة لا تزال تعرض له. فلما وقف بين يديه، شتمه وخوّفه وتوعده، فقال له موسى: أما والله يا أمير المؤمنين ما هذا بلائي، ولا قدر جزائي، إني لبعيد الأثر في سبيل الله العظيم الغناء عن المسلمين، مع قُدْمة آبائي مع آبائك، ونصيحتي لهم. قال: فيقول له سليمان: كذبت، قتلي الله إن لم أقتلك. فلما أكثر على موسى قال له: أما والله لمن في بطن الأرض أحب إلي من على ظهرها. فقال سليمان: ومن أولئك واستطير. فقال له موسى: مروان، وعبد الملك والوليد أخوك، وعبد العزيز عمك. قال: فكاد سليمان ينكسر. ثم يقول: قتلي الله إن لم أقتلك. فيقول له موسى: ما أنت بفاعل يا أمير المؤمنين؟ فيقول: ولم؟ لا أم لك. فيقول له موسى: إني لأرجو ألا يكرم موسى بهوان أمير المؤمنين وموسى حينئذ قائم في الشمس، قد ارتفع نفسه، وعظم بُهره، ثم التفت سليمان إلى عمر بن عبد العزيز، فقال: ما أرى يميني إلا قد برئت يا عمر. قال عمر: فاغتنمتها منه، ولم أبال أن يحنث بإحياء رجل من المسلمين. فقلت: أجل يا أمير المؤمنين، امرؤ كبرت سنه، وكثر لحمه، وبه نسمة وبهر وسقم. فما أراه إلا ميتاً. قال: ثم التفت سليمان إلى جلسائه فقال: من يأخذ هذا الشيخ، فيستخرج منه هذه الأموال؟ فقال يزيد بن المهلب: أنا يا أمير المؤمنين قال: فخذه ولا تمسه، وضع العذاب على ابنه مروان، وعبد الأعلى، فخرج به يزيد فحمله على

دابة ابنه، ثم انصرف به إلى منزله، فأكرمه وبرّه. وقال له: أطع أمري، وأجب أمير المؤمنين إلى مقاضاته عن نفسك وعن ابنك، وحملني كل ما قاضيته عليه. فقال له موسى: أما إذا كنت أنت صاحب هذا الشأن، فأنا غير مخبرك فيما ضمنت لأمر المؤمنين، وأيم الله لو أمر سواك بي، وأمره بالبسط عليّ، لكان أحبّ إليّ أن ألقى الله عز وجل، وأقرب إليّ من أن يأخذوا مني ديناراً واحداً، ولكن أديا يا ابني عن أنفسكما وعن أبيكما، فقالا: نعم، فغدا يزيد بن المهلب إلى سليمان، فأعلمه بذلك، وبرضا موسى بمقاضاته، فأدخله سليمان عليه. فقال موسى: أرايت لو لم أقاضك ما كنت فاعلاً؟ فقال سليمان: أضع العذاب عليك وعلى ابنك حتى أبلغ ما أريد، أو آتي على أنفسكم. فقال موسى: الآن طابت نفسك يا أمير المؤمنين فأعطني أربع خصال، ولك ما دعوتني إليه من هذا المال. فقال: وما هن؟ قال: لا تعزل عبد الله بن موسى عن أفريقية وجميع عمله سنتين، وأن كلّ ما جباه عبد الله بأفريقية، وعبد العزيز بالأندلس، فهو لي فيما قاضيت عليه أمير المؤمنين، وأن تدفع إلي طارقاً مولاي، وأكون أملاً به عيناً وبماله. فقال له سليمان: أما ما سألت من إقرار عبد العزيز وعبد الله على مكاتهما فذلك لك. وأما ما سألت من دفع طارق إليك فتكون أملاً به عيناً وبماله، فليس هذا جزاء أهل النصيحة لأمر المؤمنين، فلست بفاعل، ولا محل بينك وبين عقوبته، ولا أخذ ماله، فقاضاه موسى على مال، فأجله في ذلك، وخلقى سبيله.

نسخة القضية:

هذا ما قاضى عليه عبد الله سليمان أمير المؤمنين موسى بن نصير، قاضاه على أربعة آلاف ألف دينار، وثلاثين ألف دينار، وخمسين ديناراً ذهباً طيبة وازنة يؤديها إلى أمير المؤمنين، وقد قبض منها أمير المؤمنين مئة ألف، وبقي على موسى سائر ذلك، أجله أمير المؤمنين إلى سير رسول أمير المؤمنين إلى ابني موسى الذي بالأندلس، والذي بإفريقية، يمكث شهراً بالأندلس، وليس له أن يمكث وراء ذلك يوماً واحداً، حتى يقفل راجعاً بالمال، إلى ما كان من أفريقية وما دونها، وليس لموسى أن يتكثّر بشيء مما كان عليه من العمل، منذ استخلف الله أمير المؤمنين من ذمة أو فيء أو أمانة، فهو لأمر المؤمنين يأخذه ويقتضيه، ولا يحسبه موسى من غرامته، فإن أدى موسى الذي سمى أمير المؤمنين في كتابه هذا من المال، إلى ما قد سمى أمير المؤمنين من الأجل، فقد برئ موسى وبنوه وأهله ومواليه، وليست عليهم تبعة ولا طلبية في المال ولا في العمل، يُقرّون حيث شاؤوا، وما كان قبض موسى أو بنوه من عمال موسى إلى قدوم رسول أمير المؤمنين أفريقية، فهو من الذي على موسى من المال، يحسب له من الذي عليه، ما لم يقبض قبل وصول رسول أمير المؤمنين، فليس منه في شيء، وقد خلقى أمير المؤمنين بين موسى وبين أهله ومواليه، ليس له

ظلم أحد منهم، غير أن أمير المؤمنين لا يدفع إليه طارقاً مولاه، ولا شيئاً من الذي قد أباه عليه أول يوم. شهد أيوب بن أمير المؤمنين، وداود بن أمير المؤمنين، وعمر بن عبد العزيز، وعبد العزيز بن الوليد، وسعيد بن خالد، ويعيش بن سلامة، وخالد بن الريان، وعمر بن عبد الله، ويحيى بن سعيد، وعبد الله بن سعيد، وكتبه جعفر بن عثمان في جمادى سنة تسع وتسعين.

فلما تقاضيا أمر سليمان يزيد بن مهلب بتخلية موسى وابنيه، والكف عنه، فأعانه يزيد بن المهلب بمئة ألف دينار، فأهدى إليه موسى حقاً فيه ثلاث خرزات، فبعث بهن إلى بن المهلب فقومهن، فقوبلن بثلاث مئة ألف دينار. فقال بن المهلب لموسى: أتدري لم قلت لأمر المؤمنين أنا أضمه؟ قال: لا، قال: خفت أن يجيبه قبلي من لا يرى فيك ما أنا عليه لك، وكانت لك يد عند المهلب رحمه الله. فأحببت أن أجزيك بها عنه، وبالله لو لم تفعل وأبيت عن المقاضاة ما شاككتك عندي شوكة حتى لا يبقى لآل المهلب مال ولا ثوب. قال: فجراه موسى خيراً.

ذكر يد موسى إلى المهلب:

قال: وذكروا أن مخبراً أخبرهم من شيوخ الشام ممن أدرك القوم وصحبهم قال: كانت اليد التي أسداها موسى إلى المهلب، أن عبد الملك بن مروان لما ولى العراق بشراً أخاه، جعل منه موسى بن نصير وزيراً ومديراً لأمره، وقد كانت الأزارقة أفسدت ما هنالك، فأمر عبد الملك بشر بن مروان أن يولي المهلب قتلهم، وكان بشر للمهلب مسيئاً؛ فلما قدم بشر العراق، وعلم المهلب برأيه، اعتزل بشراً، فلم يأت، فولى بشر بن مروان قتال الأزارقة، الوليد بن خالد، فانهزم واقتضح، ثم ولى بشر رجلاً آخر، فلم يصنع شيئاً، فكتب عبد الملك إلى بشر أخيه، يفند رأيه فيما صنع، ويوبخه لما خالف أمره، فصمم بشر على رأيه؛ فلما استغلظ أمر الأزارقة، استشار بشر بن مروان أسماء بن خارجة، وعكرمة بن ربعي، وموسى بن نصير في أمر المهلب. فأما عكرمة وأسماء فوافقا هواه فيه، وأما موسى فقال له: إن أمير المؤمنين لا يحتملك على المعصية، وليس مثل المهلب في فضله وشرفه، وقدره في قومه ومعرفته، أقصيت أو جفوت، فإن كان بلغك أمر يقال إنه أتاه، فاكشفه عنه، حتى تعلم عذره فيه أو ذنبه، فلم يزل موسى يرفد أمر المهلب على بشر، وبعطفه عليه، بعد أن كان هم بقتله، إن ظفر به، حتى أرسل إليه بشر فجاءه المهلب فتنصل إليه المهلب، فقبل منه بشر، وولاه ما كان يلي، فبعث إليه موسى بخمسين فرساً ومئة بعير. وقال له: استعن بها على حربك، ثم لم يزل موسى قائماً بأمره عند بشر، حتى هلك بشر.

قالوا: وأخبرنا محمد بن عبد الملك أن المهلب في الأيام التي كان يخاف فيها بشر بن مروان على نفسه،

خرج إلى مال له، فكان فيه وحده، فأتى رجل إلى بشر وعنده موسى، فقال له: إن كان لك أيها الأمير بالمهلب حاجة فابعث خيلاً إلى موضع كذا وكذا، فإنه فيه في غار وحده، وليس معه فيه رجل من قومه. فبعث بشر خيلاً. قال: فنهض من مجلسه موسى، فوجه إليه غلاماً له، ثم قال له: أنت حر لوجه الله، إن أنت سبقت هذه الخيل حتى تنتهي إلى موضع كذا وكذا، فتأتي المهلب فتقول له: إن موسى يقول لك: النجاة بنفسك، فخرج غلام موسى حتى انتهى إلى المهلب فأعلمه، فاستوى على فرسه فذهب، وأتت الخيل فلم تجد أحداً هناك، فانصرفوا راجعين إلى بشر فأعلموه بذلك.

ذكر قتل عبد العزيز بن موسى بالأندلس:

قال: وذكروا أن محمد بن عبد الملك أخبرهم قال: أقام موسى بن نصير مع سليمان بن عبد الملك يطلب رضاه، حتى رضي عنه، وابنه عبد الله بن موسى على أفريقية وطنجة والسوس، وابنه عبد العزيز على الأندلس كما هو، فلما بلغ عبد العزيز الذي فعل سليمان بأبيه موسى تكلم بكلام خفيف حملته عليه حمية لما صنع بأبيه على حسن بلائه، فتميت إلى سليمان، فخاف سليمان أن يخلع، فكتب إلى حبيب بن أبي عبيدة، وابن وعلة التميمي، وسعد بن عثمان بن ياسر، وعمر بن زياد اليحصبي، وعمر بن كثير، وعمر بن شرحبيل، كتب إلى كل رجل منهم كتاباً يعلمه بالذي بلغه عن عبد العزيز بن موسى، وما هم به من الخلع، وأنه قد كتب إلى عبد الله بن موسى يأمره بإشخاصهم إلى عبد العزيز، وأعلمه إنما دعاه إلى ذلك الذي أحب من مكانتكم، لأنه بإزاء العدو، وأعطاهم العهود، أن من قتله منهم فهو أمير مكانه. وكتب إلى عبد الله بن موسى: إني نظرت فإذا عبد العزيز بإزاء عدو يحتاج فيه إلى الغناء والبلاء. فسأل أمير المؤمنين فأخبر أن معك رجالاً، منهم فلان وفلان، فأشخصهم إلى عبد العزيز بن موسى، وكتب سليمان إلى عبد العزيز: أما بعد، فإن أمير المؤمنين علم ما أنت بسبيله من العدو، وحاجتك إلى الرجال أهل النكاية والغناء، فذكر له أن بأفريقية رجالاً منهم، فكتب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن موسى يأمره بإشخاصهم إليك، فولهم أطرافك وثغورك، واجعلهم أهل خاصتك. وكتب إليهم سليمان: إني قد بعثت لكم بكتاب إلى أهل الأندلس بالسمع والطاعة لكم، والغدر في قتله، فإذا ولاكم أطرافه فأقروا عهدي على من قبلكم من المسلمين، ثم ارجعوا إليه حتى تقتلوه. فلما قدم الكتاب على عبد الله بن موسى بأفريقية، أشخص القوم، فخرجوا حتى قدموا على عبد العزيز بالأندلس بكتاب سليمان في إلفهم وإكرامهم، فقرّبهم عبد العزيز وأكرمهم وحياهم، وقال لهم: اختاروا أيّ نواحي وثغوري شئتم، فضربوا الرأي فقالوا: إنكم إن فعلتم ما أنتم فاعلون، ثم رجعتم إليه من أطرافه، لم نأمن أن يعيل معه عظيم الناس، فإن في يديه الأموال والقوة، من مواليه وغيرهم ولكن اعملوا رأيكم في الفتك به. قالوا: فإن هاهنا رجالاً

إن دخل معنا استقام لنا الأمر، ووصلنا إلى ما أردنا، وهو أيوب بن حبيب بن أخت موسى. قال: فلقوه ودعوه إلى أنه إن قتله فهو مكانه، فقبل وبايعوه على ذلك، ثم إنهم أتوا عبد الله بن عبد الرحمن الغافقي، وكان سيد أهل الأندلس صلاحاً وفضلاً فأعلموه، ثم أقرأوه كتاب سليمان. فقال لهم: قد علمتم يد موسى عند جميعكم، صغيركم وكبيركم، وإنما بلغ أمير المؤمنين أمر كذب عليه فيه، والرجل لم يترع يداً من الطاعة، ولم يخالف فيستوجب القتل وأنتم ترون وأمير المؤمنين لا يرى، فأطيعوني ودعوا هذا الأمر، فأبوا، ومضوا على رأيهم، فأجمعوا على قتله، فوقفوا له. فلما خرج لصلاة الصبح، ودخل القبلة وأحرم، وقرأ بأم القرآن الكريم، واستفتح "إذا وقعت الواقعة" ضربه حبيب بن أبي عبيدة ضربة، فدهش ولم يصنع شيئاً، فقطع عبد العزيز الصلاة وخرج، وتبعوه فقتله بن وعلة التميمي، وأصبح الناس، فأعظموا ذلك، فأخرجوا كتاب سليمان بذلك، فلم يقبله أهل الأندلس، وولوا عليهم عبد الله بن عبد الرحمن الغافقي، ووفد حبيب بن أبي عبيدة" برأس عبد العزيز بن موسى رحهما الله.

قدوم رأس عبد العزيز بن موسى على سليمان:

قال: وذكروا أن سليمان لما ظن أن القوم قد دخلوا الأندلس، وفعلوا ما كتب به إليهم، عزل عبد الله بن موسى عن أفريقية وطنجة والسوس، في آخر سنة ثمان وتسعين في ذي الحجة، وأقبل هؤلاء حتى قدموا على سليمان، وموسى بن نصير لا يشعر بقتل عبد العزيز ابنه. فلما دخلوا على سليمان، ووضع الرأس بين يديه، بعث إلى موسى، فأتاه، فلما جلس وراء القوم قال له سليمان: أتعرف هذا الرأس يا موسى؟ فقال: نعم هذا رأس عبد العزيز بن موسى، فقام الوفد فتكلموا بما تكلموا به. ثم إن موسى قام فحمد الله، ثم قال: وهذا رأس عبد العزيز بين يديك يا أمير المؤمنين، فرحمة الله تعالى عليه، فلعمر الله ما علمته نهاره إلا صوّماً، وليله إلا قواماً، شديد الحب لله ولرسوله، بعيد الأثر في سبيله، حسن الطاعة لأمر المؤمنين، شديد الرأفة بمن وليه من المسلمين، فإن يك عبد العزيز قضى نحبه، فغفر الله له ذنبه، فوالله ما كان بالحياة شحيحاً، ولا من الموت هائباً، وليعز على عبد الملك وعبد العزيز والوليد أن يصرعوه هذا المصرع، ويفعلوا به ما أراك تفعل، وهو كان أعظم رغبة فيه، وأعلم بنصيحة أبيه، أن يسمعوا فيه كاذبات الأقاويل، ويفعلوا به هذه الأفاعيل. فرد سليمان عليه قال: بل ابنك المارق. من الدين، والشاق عصا المسلمين، المنابذ لأمر المؤمنين، فمهلاً أيها الشيخ الخرف. فقال موسى: والله ما بي من خرف، ولا أنا من الحق بذئ جنف ولن تردّ محاورة الكلام مواضع الحمام، وأنا أقول كما قال العبد الصالح. "فصبر جميل، والله المستعان على ما تصفون" يوسف: 18، قال: ثم قال موسى: أفتأذن في رأسه يا أمير المؤمنين؟

واغرورقت عيناه، فقال له سليمان: نعم، فخذ، فقام موسى فأخذه، وجعله في طرف قميصه الذي كان عليه، ثم أدير في السماطين، فوقع الطرف الآخر عن منكبيه، وهو يجره لا يحفل به ولا يرفعه. فقال له خالد بن الريان: ارفع ثوبك يا بن نصير، فالتفت موسى وقال: ما أنت وذاك يا خالد. قال سليمان: دعه، حسب ما فعلنا به. فلما توارى موسى قال سليمان: دعه إن في الشيخ لبقية بعد. ثم إن موسى التفت إلى حبيب بن أبي عبيدة فكلمه بكلام غليظ حتى ذكر أمراً خفياً من نسبه فأفحمه ثم إن سليمان كشف عن أمر عبد العزيز، فألقى ذلك باطلاً، وأن عبد العزيز لم يزل صحيح الطاعة، مستقيم الطريقة، فلما تحقق عند سليمان باطل ما رفع إليه عن عبد العزيز ندم، وأمر بالوفد فأخرجوا، ولم ينظر في شيء من حوائجهم، وأهدر عن موسى بقية القضية، التي كان سليمان قاضاه عليها، وكان سليمان قد آلى قبل خلافته، لئن ظفر بالحجاج بن يوسف وموسى بن نصير ليعزلنهما، ثم لا يليان معه من أمور الناس شيئاً. فلما رضي عن موسى جعل يقول: ما ندمت على شيء ندامتي، أن لا كنت خلواً من اليمين على موسى في أن لا أوليه شيئاً، ما مثل موسى أستغني عنه.

قال: وإن موسى دخل على سليمان في آخر يوم من شعبان عند المغرب، وهو مستشرف على سطح وعنده الناس. فلما رآه سليمان قال: عندكم والله من إن سألتموه عن الهلال ليخبرنكم أنه قد رآه وقد غم الهلال يومئذ على سليمان والناس. فلما دنا موسى وسلم قال له سليمان: أرايت الهلال بعد يا موسى؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين ها هو ذاك، وأشار بأصبعه إلى ناحية، وهو مقبل على سليمان بوجهه، فرمى الناس بأبصارهم حيث أشار موسى، فأبصروا الهلال فلما جلس موسى قال: إني والله لست بأحدكم بصراً، ولكني أعلمكم بمطالعه ومناسقه. وقال: فخرج فلقية يزيد بن المهلب، فقال له: يا أبا عبد الرحمن، بينا أنت أدهى الناس وأعلمهم، أقبلت تسوق نفسك حتى تضعها في يد سليمان. فقال له موسى: أما علمت يا أبا خالد، أن الهدهد يهتدي إلى الماء ويعرفه من الأرض الفضاء ومن الحزونة والسهل، ويصير القريب منه والبعيد، ثم ينصب له الصبي الفخ بالدودة وما أشبهها، فلا يصبر ذلك حتى يقع فيه فيؤخذ؟ وذلك أنه لا حذر ينجي من قدر، ولا رأي ولا بصر، وكذلك كنت وسليمان بن عبد الملك.

قال: وذكروا أن سليمان خرج يوماً إلى بعض أمواله متزّهاً فخرج معه موسى بن نصير، فعرضت عليهم غنم حلب، نحو من ألف رأس، فأعجب سليمان ما رأى منها، والتفت إلى موسى، فقال له: هل رأيت مثلاً قط؟ قال: نعم، إن لأدنى موالٍ لأصنافاً كثيرة، فالتفت إليه سليمان، وقال له: أدنى مواليك؟ قال: نعم فرددها سليمان كالمغضب عليه. قال موسى: نعم يا أمير المؤمنين، وما هذا فيما أفاء الله عز وجل

على يدي، لقد كانت الألف تباع بعشرة دراهم أو دونها، ولقد كانت في بعض المواطن وما لها قيمة، ولا يلتفت إليها أحد يا أمير المؤمنين، ولغير ذلك مما أفاء الله عليهم، ولقد رأيت العليج العتل، والوصيف الفاره، والجارية الحسناء، وإن أكثر ما تبلغ خمسين درهماً، لكثرة ذلك من صنوفه كلها. ولقد رأيت الذود من الإبل، لا تبلغ قيمته عشرين درهماً، أكثر يا أمير المؤمنين ما أعلمتك فيما تسمع؟ قال سليمان: لا، وحمد الله.

قال: وذكروا أن موسى دخل على سليمان يوماً وعنده الناس، فلما رآه سليمان قال: ذهب سلطان الشيخ، وأبصره موسى حين تكلم، فلم يفهم ما قال فلما سلم قال: يا أمير المؤمنين رأيتك لما نظرتني داخلاً تكلمت بكلام ظننتك عنيتني به. قال: نعم. قلت: ذهب سلطان الشيخ. قال له موسى: أما والله لئن ذهب سلطان الشيخ لقد أثر الله به في دينه أثراً حسناً، ولقد كنت طويل الجهاد في الله حريصاً على إظهار دين الله، حتى أظهره الله، وكنت ممن أتم الله به موعده لنبيه، ولئن أدبر معك، لقد كان مع آبائك ناضر الغصن، ميمون الطائر، فقال سليمان: هو ذاك. فقال موسى: وهو ذاك، لم يزل يرددها سليمان، ويرددها موسى حتى سكت سليمان.

سؤال سليمان بن عبد الملك موسى عن أخباره وأفعاله:

قال: وذكروا أن سليمان قال لموسى: ما الذي كنت تفرع إليه في مكان حربك من أمور عدوك؟ قال: التوكل، والدعاء إلى الله يا أمير المؤمنين. قال له سليمان: هل كنت تمتنع في الحصون والخنادر، أو كنت تخندق حولك؟ قال: كل هذا لم أفعله. قال: فما كنت تفعل. قال: كنت أنزل السهل، وأستشعر الخوف والصبر، وأتخصن بالسيف والمغفر، وأستعين بالله، وأرغب إليه في النصر. قال له سليمان: فمن كان من العرب فرسانك؟ قال حمير. قال: فأي الخيل رأيت في تلك البلاد أصبر؟ قال: شقرها. قال: فأأي الأمم كانوا أشد قتالاً؟ قال: إنهم يا أمير المؤمنين أكثر مما أفهمهم. قال له: أخبرني عن الروم. قال: أسود في حصونهم، عقبان على خيولهم، نساء في مواكبهم إن رأوا فرصة افتصرها، وإن خافوا غلبة فأوعال، ترقل في أجبال، لا يرون عاراً في هزيمة تكون لهم منجاة. قال: فأخبرني عن البربر. قال: هم يا أمير المؤمنين أشبه العجم بالعرب، لقاء ونجدة، وصبراً وفروسية، وسماحة وبادية، غير أنهم يا أمير المؤمنين غدر. قال: فأخبرني عن الأشبان، قال: ملوك مترفون، وفرسان لا يجبنون. قال: فأخبرني عن الإفرنج. قال: هناك يا أمير المؤمنين العدد والعدة، والجلد والشدة وبين ذلك أمم كثيرة، ومنهم العزيز، ومنهم الذليل، وكلاً لقيت بشكله، فمنهم المصالح، ومنهم المحارب المقهور، والعزيز البذوخ. قال: فأخبرني كيف كانت الحرب بينك وبينهم، أكانت عقباً؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، ما هزمت لي راية قط، ولا فض لي جمع، ولا نكب

المسلمون معي نكبة، منذ اقتحمت الأربعين، إلى أن شارفت الثمانين. قال: فضحك سليمان وقال: فأين الراية التي حملتها يوم مرج راهط مع الضحاك؟ قال: تلك يا أمير المؤمنين زبيرية، وإنما عنيت المروانية. فقال: صدقت، وأعجبه قوله.

وذكروا أن محمد بن عبد الملك حدثهم عن ريان بن عبد العزيز بن مروان قال: إنا لجلوس عند سليمان وهو على سطح فسيح، والناس يدخلون حتى دخل موسى من الباب، فتحرك بنا سقف السطح من شدة وطئه، فسلم ثم جلس، فذكر سليمان بيت الذهب الذي فتحه قتيبة بن مسلم، فجعل يردد فيه. فقال له موسى: وما هذا يا أمير المؤمنين؟ بيت لا يكون فيه عشرة آلاف دينار، والله لقد بعثت إلى أخيك الوليد بثور من زمرد أخضر، يصبّ فيه اللبن فيخضر وإنه لمن أدنى ما بعثت به إليه. ولقد أصبت كذا وكذا، وأصاب المسلمون كذا وكذا، وجعل يحدث سليمان بالعجائب. قال ريان: حتى والله أمهته. ولم يزل موسى بباب سليمان عظيم المتزلة عنده. فلما كانت سنة ثمان وتسعين تجهز سليمان للحج، وأمر موسى بالشخص والحج معه، فذكر له أنه ضعيف، فأمر له سليمان بثلاثين نجيباً موقورة جهازاً، وبحجرة من حجره وجائزة، فحج سليمان، وحجّ معه موسى؛ فبينما هو يسير يوماً إذ دعا موسى، فناده خالد بن الريان، وكان موسى يسائر رجلاً، فلم يلتفت موسى إلى ندائه، ثم دعا به، فناده خالد أيضاً، فلم يلتفت إليه. فقال له الرجل: غفر الله لك، ألم تسمع دعاء أمير المؤمنين؟ إني أخافه وأخاف أن يغضب. فقال موسى: ذاك لو كان عبد الملك أو الوليد. فأما هذا فإنه يرضيه ما يرضي الصبي، ويسخطه ما يسخطه، وسترى ذلك. ثم تقدم موسى حتى لحق ولصق بسليمان. فقال له: أين كنت يا بن نصير؟ فقال له: يا أمير المؤمنين أين دوابنا من دوابك؟ إني لمنذ دعائي أمير المؤمنين لفي كدّ، حتى لحقت أمير المؤمنين، فضحك سليمان وأمر له بدواب من مراكبه، فسأيره وحادثه، ثم انصرف عنه، فلحق الرجل به. فقال له موسى: كيف رأيت؟ قال: أنت كنت به أعلم، فسار سليمان حتى نزل المدينة في دار يزيد بن رومان. قال: فحدثني بعض أهل المدينة، أن موسى قال يوماً لبعض من يثق به: ليموتنّ إلى يومين رجل قد بلغ ذكره المشرق والمغرب، فلم نظن إلا أنه يعني الخليفة، فلما كان اليوم الثاني، لم أشعر وأنا في مسجد الرسول، حتى سمعت الناس يقولون: مات موسى بن نصير، فإذا هو وصلى سليمان عليه، ودفن رحمه الله. وذكروا أن عبد الله بن صخر أخبرهم قال: بينما موسى يسير يوماً على دابة له، وكان طويلاً جسيماً، فمر به رجلان من قريش، وقد تدلت رجلاه وانحنتا، وهما لا يعرفانه. فقالا: أدبر والله الشيخ، فسمعهما موسى، فقال لهما: من أنتما؟ فانتسبا له. فقال: أما والله إن أميكما لما أفاء الله على يدي هذا الشيخ، فأهداهما إلى أبويكما. فقالا له: ومن أنت يرحمك الله؟ قال: موسى بن نصير، فقالا: فمرحباً وأهلاً.

صدقَ وبررتَ، والله ما عرفناك: فقال: لا عليكما، قد والله أدبر عني وبقي مني.
وذكروا أن إبراهيم بن سليمان أخبرهم عن حدثه عن موسى، أن الناس قحطوا بأفريقية عاماً، فخرج موسى بالناس فاستسقى، فأمر رجلاً فقص على الناس ورقهم، فجعل يذكر، ثم إنه انتحى في الدعاء للوليد بن عبد الملك فأكثر. فأرسل إليه موسى: إنا لم نأت هاهنا للدعاء للوليد، فأقبل على ما له جئنا فعدنا، فلم يلتفت، ورجا أن يبلغ الوليد، فأمر به فسحب، حتى خرج من الناس، ثم قام موسى ودعا بالناس، فما برحنا حتى انصبت السماء بمثل القرب، فأتى موسى بدابة من دوابه. فقال: والله لا ركبت، ولكن أخوض الطين، وانصرف ماشياً، ومشى الناس، فسمعت يومئذ يردد في دعائه: اللهم الشهادة في سبيلك، أو موتاً في مدينة رسولك.

قال: فذكروا أن عرفة بن عكرمة حدثهم عن مشايخ من مراد عن رجل منهم كان مع موسى بالأندلس قال: كنت أبصر من مجاري الشمس والقمر شيئاً، فوقع في عند موسى، وقيل له عنده علم، فوالله ما شعرت حتى أتيتُ فأخذت، فأدخلت عليه، فإذا بين يديه عصفور مذبح، مشقوق البطن قال لي: أدخل يدك فانظر. قلت: أصلح الله الأمير، طلقت امرأته البتة إن كان يعلم قليلاً أو كثيراً، إلا ما يعلم الناس من مجاري الشمس والقمر. قال: فأمر بي فنحيت، ثم دعا برجل من الأعاجم، قال: أدخل يدك، فانظر ماذا ترى، وكان من الأسارى، فأدخل يده في جوف العصفور، فحركه طويلاً، ثم قلبه، ثم قال للترجمان بلسانه: إنه ليس يموت هاهنا، ولكنه يموت بالمشرق في بلاد العرب، فنظر إليه موسى، ثم قال له: قاتلك الله ما أعلمك، قال: ثم أمر به فقتل، ثم دعاني، فأخذ علي الأيمان أن لا أتكلم به ما بقي، ففعلت. وكان دخول موسى المغرب سنة تسع وسبعين، في جمادى الأولى، وكان يومئذ بن ستين سنة، فأقام بأفريقية ست عشرة سنة، وقفل منها سنة خمس وتسعين، ومات سنة ثمان وتسعين، وولى عبد الله بن موسى بأفريقية وطنجة والسوس، بعد موسى أبيه سنتين، وكان عزله عنها في ذي الحجة، سنة سبع وتسعين، وقيل سنة تسع وتسعين.

ذكر ولاية الأندلس بعد موسى بن نصير:

قال: وذكروا أن عبد العزيز بن موسى ولي الأندلس بعد أبيه سنة، ثم قتل، وولى بعده أيوب بن حبيب ستة أشهر، ثم الحارث بن عبد الرحمن ثلاث سنين ونصفاً، ثم عنبسة سنتين وتسعة أشهر، ثم يحيى بن سلمة سنة وثلاثة أشهر، ثم الهيثم بن عبيد سنة وشهرين، ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي أربع سنين، ثم عبد الملك بن قطن الفهري أيضاً سنة، ثم بلج بن بشر القشيري ستة أشهر، ثم ثعلبة بن سلامة الجذامي

خمسة أشهر، ثم أبو الخطار - حسام - بن ضرار الكلبي ثلاث سنين، ثم ثوبة بن مسلمة سنة وشهراً. فلما وهن سلطان بني أمية بالمشرق، ولوا على أنفسهم يوسف بن عبد الرحمن القرشي الفهري، من غير عهد من الخليفة، فملك الأندلس عشر سنين، إلى أن دخل عليه عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان.

ذكر حج سليمان مع عمر بن عبد العزيز:

وذكروا أن عبيد الله بن عبد المؤمن أخبرهم عن رجاء بن حيوة: أنه لما حج سليمان بن عبد الملك، ومعه عمر بن عبد العزيز، وذلك في سنة ثمان وتسعين فلما انتهى إلى عقبة عسفان، نظر سليمان إلى السراقات، قد ضربت له ما بين أحمر وأخضر وأصفر، وكان يوسف بن عمر قد عمل له باليمن ثلاثة سراقات، فكانت تضرب له، وكان الذي منها للناس من خز أخضر، والذي يليه من خز أصفر، ثم الذي يكون هو فيه من وشي أحمر، محبر من حبرات اليمن، مزرر بالذهب والفضة، وفي داخله فسطاط، فيه أربعة أفرشة من خز أحمر، مرافقها من وشي أصفر، وضربت حجب نسائه من وراء فسطاطه، وحجر بنيه وكتابه وحشمه قرب ذلك. فلما استوى سليمان في قبة العقبة، ونظر إلى ما نصب له. قال: يا عمر، كيف ترى هاهنا؟ قال: أرى دنيا عريضة، يأكل بعضها بعضاً، أنت المسؤول عنها، والمأخوذ بها، فبينما هما كذلك، إذ طار غراب من سرادق سليمان، في منقاره كسرة، فصاح الغراب. فقال سليمان: ما يقول هذا الغراب يا عمر؟ قال عمر: ما أدري، ولكن إن شئت أخبرتك بعلم. قال سليمان: أخبرني. فقال عمر: هذا غراب طار من سرادقك بكسرة، هو يأكلها، وأنت المأخوذ بها، والمسؤول عنها من أين دخلت، وأين خرجت؟ قال سليمان: إنك لتجيء بالعجائب يا أبا حفص. فقال عمر: أفلا أخبرك بأعجب من هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: أخبرني. قال: من عرف الله تعالى كيف يعصاه، ومن عرف الشيطان كيف يطيعه، ومن أيقن بالموت كيف يهنيه العيش ويسوغ له الطعام، ومن أيقن بالنار كيف يضحك! فقال سليمان: نغصت علينا ما نحن فيه يا أبا حفص، ومن يطيق ما تطيق أنت يا عمر؟ أنت والله الموفق المطيع.

ما قال طاووس اليماني لسليمان بمكة:

قالوا: إن إبراهيم بن مسلم أخبرهم عن رجاء بن حيوة، أنه نظر إلى طاووس اليماني يصلي في المسجد الحرام، فانصرف رجاء إلى سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ بمكة قد حج ذلك العام. فقال: إني رأيت

طاووس في المسجد، فهل لك أن ترسل إليه؟ قال: فأرسل إليه سليمان. فلما أتاه قال رجاء لسليمان: يا أمير المؤمنين، لا تسأله عن شيء حتى يكون هو الذي يتكلم. فلما قعد طاووس سكت طويلاً. ثم قال: ما أول شيء خلق! قلنا: لا ندري. فقال أول شيء خلق: القلم. ثم قال: أتدرون ما أول شيء كتب؟ قلنا: لا، قال: فإن أول ما كتب بسم الله الرحمن الرحيم، ثم كتب القدر خيره وشره إلى يوم القيامة. ثم قال: أتعلمون من أبغض الخلق إلى الله؟ قلنا: لا، فقال: إن أبغض الخلق إلى الله تعالى عبد أشركه الله في سلطانه، فعمل فيه بمعاصيه، ثم نهض. قال رجاء: فأظلم عليّ البيت، فما زلت خائفاً عليه حتى توارى، فرأيت سلمان يحك رأسه بيده، حتى خشيت أن تخرج أظفاره لحم رأسه.

ما قال أبو حازم لسليمان:

قالوا: وإن يحيى بن المغيرة أخبرهم عن عبد الجبار بن عبد العزيز بن أبي حازم، قال: لما حج سليمان، ودخل المدينة زائراً لقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعه بن شهاب الزهري ورجاء بن حيوة، فأقام بها ثلاثة أيام، فقال: أما هاهنا رجل ممن أدرك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقليل له: بلى هاهنا رجل يقال له أبو حازم، فبعث إليه، فجاءه، وهو أقور أعرج، فدخل عليه، فوقف منتظراً للإذن. فلما طال عليه الإذن: وضع عصيته ثم جلس. فلما نظر إليه سليمان: ازدرت عينه. فقال له: يا أبا حازم. ما هذا الجفاء الذي ظهر منك، وأنت توصف برؤية أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، مع فضل ودين تذكر به؟ فقال أبو حازم: وأي جفاء رأيت مني يا أمير المؤمنين؟ فقال سليمان: إنه أتاني وجوه أهل المدينة وعلماءها وخيارها، وأنت معدود فيهم ولم تأتني. فقال أبو حازم: أعيزك بالله أن تقول ما لم يكن، ما جرى بيني وبينك معرفة آتيك عليها. قال سليمان: صدق الشيخ، فقال: يا أبا حازم: ما لنا نكره الموت؟ فقال أبو حازم: لأنكم أحرقتكم، وعمرتم دنياكم، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب. قال سليمان: صدقت يا أبا حازم. فكيف القدوم على الآخرة؟ قال: نعم، أما المحسن فإنه يقدم على الآخرة كالغائب يقدم على أهله من سفر بعيد. وأما قدوم المسيء فكالعبد الآبق، يؤخذ فيشد كتافه، فيؤتى به إلى سيد فظ غليظ، فإن شاء عفا، وإن شاء عذب. فبكى سليمان بكاء شديداً، وبكى من حوله. ثم قال: ليت شعري مالنا عند الله يا أبا حازم؟ فقال: اعرض نفسك على كتاب الله، فإنك تعلم ما لك عند الله. قال سليمان: يا أبا حازم، وأين أصيب تلك المعرفة في كتاب الله، قال عند قوله تعالى: "إن الأبرار لفي نعيم، وإن الفجار لفي جحيم" الانفطار: 14. قال سليمان: يا أبا حازم، فأين رحمة الله؟ قال: رحمة الله قريب من المحسنين، قال سليمان: يا أبا حازم من أعقل الناس؟ قال أبو حازم:

أعقل الناس من تعلم العلم والحكمة وعلمهما الناس. قال سليمان: فمن أحقق الناس؟ فقال: من حط في هوى رجل وهو ظالم، فباع آخرته بدنياه غيره. قال سليمان: فما أسمع الدعاء؟ قال أبو حازم: دعاء المحبتين الخائفين. فقال سليمان: فما أزكى الصدقة عند الله؟ قال: جهد المقل. قال: فما تقول فيما ابتلينا به؟ قال: أعفنا عن هذا وعن الكلام فيه أصلحك الله، قال سليمان: نصيحة تلقىها - إلي - . فقال: ما أقول في سلطان استولى عنوة بلا مشورة من المؤمنين، ولا اجتماع من المسلمين؟ فسفكت فيه الدماء الحرام، وقطعت به الأرحام، وعطلت به الحدود، ونكثت به العهود، وكل ذلك على تنفيذ الطينة، والجمع لمتاع الدنيا المشينة، ثم لم يلبثوا أن ارتحلوا عنها، فيا ليت شعري ما تقولون؟ وماذا يقال لكم؟ فقال بعض جلسائه: بئس ما قلت يا أقور، أمير المؤمنين يستقبل بهذا؟ فقال أبو حازم: اسكت يا كاذب، فإنما أهلك فرعون هامان، وهامان فرعون، إن الله قد أخذ على العلماء ليبينه للناس ولا يكتُمونه، أي لا ينبذونه وراء ظهورهم. قال سليمان: يا أبا حازم كيف لنا أن نصلح ما فسد منا؟ فقال: المأخذ في ذلك قريب يسير يا أمير المؤمنين، فاستوى سليمان جالساً من اتكائه. فقال: كيف ذلك؟ فقال: تأخذ المال من حله، وتضعه في أهله، وتكف الأكف عما نُهيَت، وتمضيها فيما أُمرت به. قال سليمان: ومن يطبق ذلك؟ فقال أبو حازم: من هرب من النار إلى الجنة، ونبذ سوء العادة إلى خير العباد. فقال سليمان: أصبحنا يا أبا حازم، وتوجه معنا تصب منا ونصب منك. قال أبو حازم: أعوذ بالله من ذلك، قال سليمان: ولم يا أبا حازم؟ قل: أخاف أن أركن إلى الذين ظلموا، فيذيقني الله ضعف الحياة، وضعف الممات. فقال سليمان: فتزورنا. قال أبو حازم: إنا عهدنا الملوك يأتون العلماء ولم يكن العلماء يأتون الملوك، فصار في ذلك صلاح الفريقين، ثم صرنا الآن في زمان صار العلماء يأتون الملوك، والملوك تقعد عن العلماء، فصار في ذلك فساد الفريقين جميعاً. قال سليمان: فأوصنا يا أبا حازم وأوجز. قال: اتق الله ألا يراك حيث هناك، ولا يفقدك من حيث أمرك. قال سليمان: ادع لنا بخير. فقال أبو حازم: اللهم إن كان سليمان وليك فبشره بخير الدنيا والآخرة، وإن كان عدوك فخذ إلى الخير بناصيته. قال سليمان: زدني. قال: قد أوجزت، فإن كنت وليه فاغبط، وإن كنت عدوه فاتعظ، فإن رحمته في الدنيا مباحة، ولا يكتبها في الآخرة إلا لمن اتقى في الدنيا، فلا نفع في قوس ترمى بلا وتر. فقال سليمان: هات يا غلام ألف دينار، فأتاه بها، فقال: خذها يا أبا حازم. فقال: لا حاجة لي بها، لأنني وغيري في هذا المال سواء، فإن سويت بيننا وعدلت أخذت، وإلا فلا، لأنني أخاف أن يكون ثمناً لما سمعت من كلامي. وإن موسى بن عمران عليه السلام لما هرب من فرعون ورد ماء مدين، ووجد عليه الجاريتين تذودان. فقال: ما لكما مُعين؟ قالتا: لا، فسقى لهما، ثم تولى إلى الظل. فقال: رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير، ولم يسأل الله أجراً. فلما أعجل الجاريتان الانصراف، أنكر ذلك أبوهما.

فقال لهما: ما أعجلكما اليوم؟ قالتا: وجدنا رجلاً صالحاً قوياً سقى لنا. قال: ما سمعتماه يقول؟ قالتا: تولى إلى الظل وهو يقول: "رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير". فقال ينبغي لهذا أن يكون جائعاً. تنطلق إحداكما له، فتقول له: "إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا"، فأتته إحداهما تمشي على استحياء، أي على إجلال له، قالت: إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا. فجزع موسى من ذلك، وكان طريداً في الفيافي والصحاري. فقال لها: قولي لأبيك إن الذي سقى يقول: لا أقبل أجراً على معروف اصطنعتة، فانصرفت إلى أبيها فأخبرته. فقال: اذهبي فقولي له: أنت بالخيار بين قبول ما يعرض عليك أبي وبين تركه، فأقبل، فإنه يحب أن يراك، ويسمع منك، فأقبل والجارية بين يديه، فهبت الريح فوصفتها له، وكانت ذات خلق كامل. فقال لها: كوني ورائي، وأريني سمت الطريق. فلما بلغ الباب قال: استأذني لنا، فدخلت على أبيها، فقالت: إنه مع قوّته لأمين. فقال شعيب: وبم علمت ذلك؟ فأخبرته ما كان من قوله عند هبوب الريح عليها. فقال: أدخله فدخل، فإذا شعيب قد وضع الطعام؛ فلما سلم رحب به وقال: أصب من طعامنا يا فتى. فقال موسى: أعوذ بالله. قال شعيب: لم؟ قال: لأني من بيت قوم لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهباً. قال شعيب: لا والله ما طعامي لما تظن، ولكنه عادي وعادة آبائي، نقري الضيف، ونطعم الطعام، فجلس موسى فأكل. وهذه الدنانير يا أمير المؤمنين إن كانت ثمناً لما سمعت من كلامي، فإن أكل الميتة والدم في حال الضرورة، أحب إليّ من أن آخذها.

فأعجب سليمان بأمره إعجاباً شديداً. فقال بعض جلسائه: يا أمير المؤمنين، إن الناس كلهم مثله. قال: لا. قال الزهري: إنه لجاري منذ ثلاثين سنة، ما كلمته قط، فقال أبو حازم: صدقت، لأنك نسيت الله ونسيتني، ولو ذكرت الله لذكرتني. قال الزهري: أتشتمي؟ قال له سليمان: بل أنت شتمت نفسك، أو ما علمت أن للجار على الجار حقاً. قال أبو حازم: إن بني إسرائيل لما كانوا على الصواب كانت الأمراء تحتاج إلى العلماء، وكانت العلماء تفرّ بدینها من الأمراء، فلما رئي قوم من أراذل الناس تعلموا العلم، وأتوا به الأمراء، استغنت الأمراء عن العلماء، واجتمع القوم على المعصية، فسقطوا وهلكوا، ولو كان علماؤنا هؤلاء يصونون علمهم، لكانت الأمراء قهائم، وتعظم. فقال الزهري: كأنك إياي تريد، وبى تعرض؟ قال: هو ما تسمع. قال سليمان: يا أبا حازم عظمي وأوجز. قال: حلال الدنيا حساب، وحرامها عذاب، وإلى الله المآب فاتق عذابك أو دع. قال: لقد أوجزت، فأخبرني ما مالك؟ قال: الثقة بعدله، والتوكل على كرمه، وحسن الظن به، والصبر إلى أجله، واليأس مما في أيدي الناس. قال يا أبا حازم: ارفع إلينا حوائجك؟ قال: رفعتها إلى من لا تخذل دونه، فما أعطاني منها قبلت، وما أمسك عني رضيت مع أي قد نظرت فوجدت أمر الدنيا يؤول إلى شيئين: أحدهما لي، والآخر لغيري. فأما ما كان لي، فلو

احتلت عليه بكل حيلة ما وصلت إليه قبل أوانه وحينه الذي قد قدر لي. وأما الذي لغيري: فذلك لا أطمع فيه، فكما منعي رزق غيري، كذلك منع غيري رزقي، فعلام أقتل نفسي في الإقبال والإدبار؟ قال سليمان: لا بد أن ترفع إلينا حاجة نأمر بقضائها. قال: فتقضيها؟ قال: نعم، قال: فلا تعطيني شيئاً حتى أسألكه، ولا ترسل إلي حتى آتيك، وإن مرضت فلا تعدني، وإن مت فلا تشهدي. قال سليمان: أبيت يا أبا حازم أبيت، قال: أتأذن لي أصلحك الله في القيام، فإني شيخ قد زَمَنْت. قال سليمان: يا أبا حازم، مسألة ما تقول فيها؟ قال: إن كان عندي علم أخبرتك به، وإلا فهذا الذي عن يسارك، يزعم أنه ليس شيء يسأل عنه إلا وعنده له علم، يريد محمداً الزهري، فقال له الزهري: عائد بالله من شرك أيها المرء. قال: أما من شري فستعفى، وأما من لساني فلا. قال سليمان: ما تقول في سلام الأئمة من صلاتهم: أواحدة أم اثنتان، فإن العلماء لدينا قد اختلفوا علينا في ذلك أشد الاختلاف؟ قال: على الخير سقطت، أرميك في هذا بخبر شاف: حدثني عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه سعد، أنه شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يسلم في الصلاة عن يمينه، حتى يرى بياض خده الأيمن، ثم يسلم عن يساره، حتى يرى بياض خده الأيسر، سلاماً يجهر به. قال عامر: وكان أبي يفعل ذلك. وأخبرني سهل بن سعد الساعدي: أنه رأى عمر بن الخطاب وابن عمر يسلمان من الصلاة كذلك. فقال الزهري: أعلم ما تحدث به أيها الرجل، فإن الحديث عن رسول الله صعب شديد إلا بالثبوت واليقين. قال أبو حازم: قد علمته ورويته قبل أن تطلع أضراسك في رأسك. فالتفت الزهري إلى سليمان قال: أصلحك الله. إن هذا الحديث ما سمعت به من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قط، فضحك أبو حازم، ثم قال: يا زهري، أحطت بحديث رسول الله كله؟ قال: لا. قال: فثلاثة أرباعه؟ قال: لا، قال: فثلاثة؟ فقال: أراي ذلك قد رويت وبلغني. فقال أبو حازم: فهذا من الثلث الذي لم يبلغك، وبقي عليك سماعه. فقال سليمان: ما ظلمك من حاجك، ثم قام مأذوناً له. فأتبعه سليمان بصره، ينظر إليه، ويعجب به. ثم التفت إلى جلسائه فقال: ما كنت أظن بقي في الدنيا مثل هذا. قال: ثم انصرف سليمان من الحج قافلاً إلى الشام.

وذكروا أن غلماناً لسليمان نازعوا غلماناً لعمر بن عبد العزيز، فتعدى غلمان عمر على غلمان سليمان، فرفع ذلك إلى سليمان، وأغرى بعمر. فقال له سليمان: ألا تنصف غلmani، وهو كالمغضب مما فعل بهم؟ فقال عمر: ما علمت هذا قبل هذا الوقت، وما سمعت هذا إلا في مقامي هذا. فقال سليمان: كذبت لقد علمته. فقال عمر: كذبت والله ما كذبت ولا تعمدت كذباً منذ شددت مئزري على نفسي، وإن في الأرض عن مجلسك لسعة ثم خرج عمر، فتجهز وهو يريد مصر ليسكنها، فبلغ ذلك سليمان، فندم على

ما كان من قوله، وأرسل إليه أن لا يبرح، وأمر رجلاً يقول له: لا تعاقب أمير المؤمنين على قوله، ولا تذكر له هذا، فترك عمر الخروج وجلس، وأقل الاختلاف إلى سليمان.

ذكر وفاة سليمان واستخلافه عمر بن عبد العزيز

قال: وذكروا أن خالد بن أبي عمران أخبرهم، وكان قد أدرك القوم، قال: مرض سليمان مرضه الذي مات فيه، وذلك في شهر صفر سنة تسع وتسعين، فدخل عليه عمر بن عبد العزيز عائداً، فدعا سليمان بنين له صغاراً، فقلدهم السيوف، فوقعوا في الأرض. فقال سليمان: قد أفلح من كان له بنون كبار. فقال عمر: ليس هكذا قال الله. فقال سليمان: وكيف قال الله؟ فقال عمر: قال الله تعالى: "قد أفلح من تركي، وذكر اسم ربه فصلى" الأعلى: 24 - 25، فقال سليمان: إني أريد أن أعهد إليك، وأوليك أمور الناس بعدي. فقال عمر: لا حاجة لي بذلك. فقال سليمان: ولم ذلك؟ فقال: لأني لا أريد أخذ أموالهم، فإذا لم أرد أخذ أموالهم، فما الذي يدعوني إلى ضرب ظهورهم؟ فقال سليمان: لا بد من هذا. فقال عمر: ولم ذلك؟ ولك في ولد عبد الملك سعة، فأعفني من هذا يعف الله عنك. فقال له سليمان: والله لا أوليها غيرك بعدي. فقال عمر: وما الذي يدعوك إلى هذا؟ فقال سليمان: إني رأيت في منامي قائلاً يقول لي: إن عمر بن عبد العزيز لك جنة ووقاية وجسر تتخطاه. فأولت ذلك - إن شاء الله - أن أوليك الأمر من بعدي، لتكون توليتي لك جنة من النار، وجسراً أركبه، لأنجو عليه من عذاب يوم القيامة ثم ليزيد بعدك، فإنه أرشد ولد عبد الملك. فقال عمر: إن هذا الأمر لا يسعني بيني وبين الله عز وجل، أن أتقدم على أمة محمد، وفيهم خير مني. فقال سليمان: أما في آل أمية وعبد شمس فلا أعلم خيراً منك. فقال عمر: إن لم يكن في آل أمية وعبد شمس خير مني بقولك، ففي آل عبد مناف وآل هاشم من هو خير مني. فقال سليمان: لا، فقال عمر: ففي آل تيم وعدي خير مني، وملء الأرض مثلي. فقال سليمان: إنما تريد القاسم وسالماً؟ قال: نعم، إياهما أردت. فقال سليمان: رجلان صالحان ذكرت، ولكنهما ليسا للملك، ولا الملك لهما، ولا من معدن الملك هما، مع أنه ليس بزمان خلافة، ولا أيام يملك فيها مثل القاسم وسالم، إنما هو زمان ملك وسيف وإنما هي ذئاب تعدو ليست على غنم تؤمن. فقال عمر: الله المعين، المصلح لمن أراده. فسكت سليمان، وظن أن عمر رضي بما قال له، ثم دعا سليمان بصحيفة ثم كتب ويده ترتعش من شدة العلة، لا يعلم أحد بما يخط، فكتب عهد عمر، ثم من بعد عمر ليزيد، ثم ختم عليه بيده، متحاملاً لذلك، وعمر لا يشك أن الأمر فيه قد صار لغيره، ثم دعا سليمان برجاء بن حيوة، فقال له: خذ هذا الكتاب فإنه عهدي، فاجمع إليه قريشاً، وأمراء الأجناد، وأعلمهم أنه عهدي، وأن من كان اسمه في

كتابي هذا فهو الخليفة بعدي، فمن نزع عن ذلك وأباه، فالسيف السيف، والقتل القتل، ثم رفع سليمان يديه إلى السماء فقال: اللهم إن ذنوبي قد عظمت وجلت، وهي صغيرة يسيرة في جنب عفوك، فاعف عني يا من لا تضره الذنوب، ولا تنقصه المغفرة، اعف عني ما بيني وبينك من الذنوب، واحمل عني ما بيني وبين خلقك، وأرضهم بما شئت، يا أرحم الراحمين. اللهم إن كنت تعلم مني وتطلع من ضميري، أي إنما أردت بعهدي هذا وتولييتي من وليت فيه وجهك ورضاك فاغفر لي وارحمي. ثم تخلخل لسانه، فلم يقو على الكلام من ثقل العلة، ثم سكت وأغمي عليه. قال رجاء: فخرجت وعمر معي. فقلت له: ما أراك إلا صاحب الأمر، فقال عمر: ما أحسب ذلك. فقلت: ومن عسى أن يكون في آل مروان من يريد سليمان توليته غيرك؟ فقال عمر: ما أراه عهد إلا لأحد الرجلين: القاسم أو سالم. قال رجاء: فقلت له: أسمعت ذلك منه. فقال عمر ما سمعته ولكن دار بيني وبينه كلام آنفاً قبل دخلتك، لأ أشك أنه أراد أحدهما. قال رجاء: فقلت: والله هذا الاختلاف في أمة محمد، والفتن الظاهرة القاصمة للظهور، المفنية للأنفس. فقال عمر: ولم ذلك؟ فقال رجاء: لأن قريشاً ونحوها لا ترضى بهذا، ولا تصير إليه، ولا آل أمية وعبد شمس حيث كانت من الأرض. فقال عمر: إن الأمر لله من قبل ومن بعد، يؤتي الملك من يشاء، فقال رجاء: فخرجت إلى الناس وأعلمتهم بعهد أمير المؤمنين. فقالوا: سمعاً وطاعة، ثم أعلمتهم بابتهاله ورغبته إلى الله، وما قال، فلم يشك الناس أن عمر بن عبد العزيز صاحبهم، فأرادوا أن يسلموا عليه بالخلافة، وذلك لما أيقنوا بهلاك سليمان. فقلت لهم: لا تعجلوا فإن عمر قال لي: أرى سليمان ما أراد إلا القاسم أو سالمًا، وهذا أفطن مني بهذا الأمر لأنه كان حاضراً، وسليمان يكتب العهد بيده، فضج الناس من ذلك واختلفوا. فقالت فرقة: سمعنا وأطعنا، لمن استخلف علينا، كان من كان. وقالت فرقة: لا، والله لا نقر بهذا، ولا نطيعه، ولا يستخلف علينا إلا مروان، ولا تبقى منا عين تطرف في الدنيا. فقال رجاء لعمر: كيف ترى قولي، والله لئن كان هذا إنه. لهو البلاء المبين، وإلها الفتنة قد فتح بابها. فقال عمر: أرجو الله أن يغلقه إن شاء الله.

قال رجاء: فقلت لعمر: ما نحن صانعون إن كان هذا؟ فقال عمر: لا أدري ما أقول في موقفى هذا. قال رجاء: ولم؟ فقال عمر: لأني والله ما وقفت موقفاً قط، لا رأي لي فيه ولا بصيرة، إلا موقفى هذا، فإني قد أجدني قد ذهب روعي، وفقدت رأيي، ولا أدري ما أستقبل من أمري، ولا ما أستدبر، ولو استطعت الفرار لفررت من موضعي هذا، حيث لا أدرك ولا أرى. قال رجاء: فلما قاوولي بهذا علمت أنه للذي قال من فقدته لرأيه وبصيرته. قال رجاء: فقلت له: يا أبا حفص، فأين نحن من المفرع إلى الله، والرغبة في الصلاح علينا وعلى المسلمين، ويعزم لنا على ما فيه الخير والخيرة؟ فقال عمر: بلى والله هذا الملجأ وهذا الحصن الحصين والمقل الشديد. قال رجاء: فبتنا ليلتنا لا نألو على أنفسنا في الدعاء، والاستخارة لله،

فلما أصبحنا قلت لعمر: ما ترى يا أبا حفص؟ فقال: أرى أن أسمع وأطيع لمن في هذا الكتاب فإن كان أخذ الرجلين قدم سمعت له وأطعت، ورددت من أدبر عنه بمن أقبل عليه حتى أموت. قال فبينما هما كذلك إذ أقبل وصيف يسعى إليهما يقول: قد قضى أمير المؤمنين نجه، فخرجا، فإذا بالعويل والنوح، فرجعا إلى المسجد ترعد فرائصهما، والناس يسلمون على عمر بالخلافة وهو يقول؛ لمست به، حتى دخل المسجد، وقد اجتمع الناس، وهم مستعدون للفتنة والقتال، إن خالف العهد ما يريدون.

فقام رجاء إلى جانب المنبر: فحمد الله، وحض الناس على الطاعة، ولزوم الجماعة، وأعلمهم بما في الفرقة والاختلاف، من ذهاب الدين والدنيا، ثم أخرج العهد، ففضه بمحضر منهم، ثم قرأه عليهم. فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد به عبد الله سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين، وخليفة المسلمين عهد أنه يشهد لله بالربوبية والوحدانية، وأن محمداً عبده ورسوله، بعثه إلى محسني عباده بشيراً، وإلى مذنبهم نذيراً، وأن الجنة حق، وأن النار حق مخلوقتان، خلق الجنة رحمة لمن أطاعه، والنار عذاباً لمن عصاه، وأوجب العفو لمن عفا عنه، وأن إبليس في النار، وأن سليمان مقرر على نفسه بما يعلم الله من ذنوبه وبما تعلمه نفسه من معصية ربه، موجب على نفسه استحقاق ما خلق من النعمة راج لما وعد من الرحمة ووعد من العفو، والمغفرة، وأن المقادير كلها خيرها وشرها من الله، وأنه هو الهادي وهو الفاتن، لم يستطع أحد لمن خلق الله لرحمته غواية، ولا لمن خلق لعذابه هداية، وأن الفتنة في القبور بالسؤال عن دينه ونبيه الذي أرسل إلى أمته حق يقين، لا منجي لمن خرج من الدنيا إلى الآخر من هذه المسألة إلا لمن استثناه عز وجل في علمه. وسليمان يسأل الله بواسع فضله وعظيم منته، الثبات على الحق عند تلك المسألة، والنجاة من أهوال تلك الفتنة، وأن الميزان حق يقين، يضع الموازين القسط ليوم القيامة، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون، ومن خفت موازينه يومئذ، فأولئك هم الخاسرون، وأن حوض محمد صلى الله عليه وسلم يوم الحشر والموقف حق، عدد آنيته كنجوم السماء، من شرب منه لم يظمأ أبداً. وسليمان يسأل الله برحمته أن لا يرده عنه عطشان. وأن أبا بكر وعمر خير هذه الأمة، بعد نبينا صلى الله عليه وسلم، والله يعلم بعدهما حيث الخير، وفيمن الخير من هذه الأمة، وأن هذه الشهادة المذكورة في عهده هذا، يعلمها الله، من سره وإعلانه، وعقد ضميره، وأن بها عبد ربه في سالف أيامه، وماضي عمره، وعليها أتاها يقين ربه، وتوفاه أجله، وعليها يبعث بعد الموت إن شاء الله، وأن سليمان كانت له بين هذه الشهادة بلایا وسيئات، لم يكن له عنها محيص، ولا دونها مقصر بالقدر السابق والعلم النافذ في محكم الوحي، فإن يعف ويصفح، فذلك ما عرف منه قديماً، ونسب إليه حديثاً، وتلك الصفة التي وصف بها نفسه في كتابه الصادق، وكلامه الناطق، وإن يعاقب منتقم فيما قدمت يداه، وما الله بظلام للعبيد، وإني

أخرج علي من قرأ عهدي، وسمع ما فيه من حكمه، أن ينتهي إليه في أمره ونهيه، بالله العظيم وبمحمد؟ صلى الله عليه وسلم، وأن يدع الإحن، ويأخذ بالمكارم، ويرفع يديه إلى السماء بالابتهاال الصحيح، والدعاء الصحيح، والصفح، الصريح، كسأله العفو عني، والمغفرة لي، والنجاة من فرعي، والمسألة في قري، لعل الودود، أن يجعل منكم بحاب الدعوة بما آمن الله علي من صفحه يعود إن شاء الله. وإن ولي عهدي فيكم، وصاحب أمري بعد موتي في جنده ورعيته وخاصته وعامته، في كل من استخلفني الله عليه، الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز بن عمي لما بلوت من باطن أمره وظاهره، ورجوت الله بذلك وأردت رضاه ورحمته إن شاء الله، ثم ليزيد بن عبد الملك من بعده، فإني ما رأيت منه إلا خيراً، ولا اطلعت له على مكروه، وصغار ولدي وكبارهم إلى عمر، إذ رجوت ألا يألوهم رشداً وصلاحاً، والله خليفتي عليهم وعلى جماعة المؤمنين والمسلمين، وهو أرحم الراحمين، وأقرأ عليكم السلام ورحمة الله. ومن أبي عهدي هذا وخالف أمري فالسيف، ورجوت أن لا يخالفه أحد، ومن خالفه فهو ضال مضل يستعيب فإن أعتب، وإلا فالسيف، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله القديم الإحسان.

أيام عمر بن عبد العزيز:

قال: وذكروا عن خالد بن أبي عمران أنه قال: إني لحاضر يوم قرئ عهد سليمان في المسجد بدمشق على الناس، فما رأيت يوماً أكثر باكياً ولا داعياً له بالرحمة من ذلك اليوم، فلم يبق محب ولا مبغض ولا خارجي ولا حروري إلا أخذ الله له بقلوبهم، وابتهلوا بالدعاء وأخلصوا له بالسؤال بالعفو من الله، ورضي الناس أجمعون فعله، قال خالد: ثم بايع الناس لعمر في المسجد بيعة تامة جامعة طيبة بها النفوس، لا يشوبها غش، ولا يخالطها دنس، قال خالد: وسمعت رجاء يقول لما تمت البيعة: إني مهما شككت في شي فإني لم أشك يوم البيعة لعمر بالنجاة، والرحمة لسليمان إن شاء الله، واستفتح عمر ولايته ببيع أموال سليمان، ورباعه وكسوته، وجميع ما كان يملكه، فبلغ ذلك أربعة وعشرين ألف دينار، فجمع ذلك كله، وجعله في بيت المال، ثم دخل على زوجته فاطمة ابنة عبد الملك، قال لها: يا فاطمة، فقالت: لبيك يا أمير المؤمنين، فجعل يبكي، وكان لها محباً، وبها كلفاً، ثم استفاق من بكائه، فقال لها: اختاريني، أو اختاري الثوب الذي عمل لك أبوك، وكان قد عمل لها أبوها عبد الملك ثوباً منسوجاً بالذهب، منظوماً بالدر والياقوت، أنفق عليه مائة ألف دينار. فقال لها: إن اخترتني فإني أخذ الثوب فأجلعه في بيت المال، وإن اخترت الثوب، فلست لك بصاحب. فقال: أعوذ بالله يا أمير المؤمنين من فراقك، لا حاجة لي بالثوب. فقال عمر: وأنا أفعل بكل خصلة، أجعل الثوب في آخر بيت المال، وأنفق ما دونه، فإن وصلت إليه

أنفقتة في مصالح المسلمين، وإنما هو من أموال المسلمين أنفقت فيه، وإن بقي الثوب ولم أحتج إليه، فلعل أن يأتي بعدي من يردّه إليك. قالت: افعل يا أمير المؤمنين ما بدا لك. ثم دخل عليه ابنه، وعليه قميص تدعزع. فقال له عمر: ارفع قميصك يا بني، فوالله ما كنت قط بأحوج إليه منك اليوم.

ذكر قدوم جرير بن الخطفي على عمر بن عبد العزيز:

قال: وذكروا عن عبد الأعلى بن أبي المشاور، أنه أخبرهم قال: قدم جرير شاعر أهل العراق وأهل الحجاز على عمر، أول ما استخلف، فأطال المقام ببابه، لا يصل إليه حتى قدم عليه عون بن عبد الله الهذلي، وكان من عباد الناس وخيارهم، وعليه جبة صوف وعمامة صوف قد أسدلها خلفه، فجعل يتخطى رقاب الناس من قریش، بني أمية وغيرهم، لا يمنع ولا يحجب هو ومثله من أكابر الناس وخيارهم، وفضلاء العباد، وقریش لا يصلون ولا يدخلون فلما خرج عون بن عبد الله، اتبعه جرير بن الخطفي وهو يقول:

يا أيها الرجل المرخي عمامته هذا زمانك إني قد مضى زمني
أبلغ خليفتنا إن كنت لآقيه أني لدى الباب كالمصفود في قرن
فاحلل صفادي فقد طال المقام به وشطت الدار عن أهلي وعن وطني

قال: فضمن له عون بن عبد الأعلى أن يدخله عليه. فلما دخل على عمر قال: يا أمير المؤمنين، هذا جرير بن الخطفي بالباب، يريد الإذن. فقال عمر: ما كنت أرى أحداً يحجب عني. قال: إنه يريد إذناً خاصاً. قال له عمر: أله عن ذكره، ثم حدثه طويلاً، ثم قال: يا أمير المؤمنين إن جريراً بالباب: فقال: أله عن ذكره. قال: إذا لا أسلم من لسانه. فقال عمر: أما إذ قد بلغ منك خوف لسانه ما أرى فأذن له. فدخل جرير. فلما كان قيد رمح أو رمحين وعمر منكس رأسه قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله، ثم قال: إن الخلفاء كانت تتعاهدني فيما مضى بجوائز وصلات، وقد أصبحت إلى ذلك منك محتاجاً. ثم أنشأ يقول:

قد طال قولي إذا ما قمت مبتهلاً يا رب أصلح قوام الدين والبشر
إننا لنرجو إذ ما الغيث أخلفنا من الخليفة ما نرجو من المطر
أذكر الجهد والبلوى التي نزلت أم قد كفاني ما بُلغت من خبر
ما زلت بعدك في هم يُورقني قد طال في الحي إصعادي ومنحدري
لا ينفع الحاضر المجهود بادية ولا يعود لنا بادٍ على حضرٍ
كم باليمامة من شعناء أرملة ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر

مساءً من الجن أو مساءً من البشر
أوتتج منها فقد أنجيت من ضرر

يدعوك دعوة ملهوف كأن به
فإن تدعهم فمن يرجون بعدكم

فمن لحاجة هذا الأرمل الذكر
لسنا إليكم ولا في دار منتظر
تعصى الهوى وتقوم الليل بالسور

هذي الأراملُ قد قضيت حاجتها
خليفة الله ماذا تأمرون بنا
أنت المبارك والمهدي سيرته

قال: فبكى عمر، وهملت عيناه، وقال: ارفع حاجتك إلينا يا جرير. قال جرير: ما عودتني الخلفاء قبلك. قال: وما ذلك؟ قال: أربعة آلاف دينار، وتوابعها من الحملان والكسوة. قال عمر: أمن أبناء المهاجرين أنت؟ قال: لا. قال: أفمن أبناء الأنصار أنت؟ قال: لا. قال: أفقير أنت من فقراء المسلمين؟ قال: نعم. قال: فأكتب لك إلى عامل بلدك، أن يجري عليك ما يجري على فقير من فقرائهم. قال جرير: أنا أرفع من هذه الطبقة يا أمير المؤمنين. قال: فانصرف جرير. فقال عمر: ردوه عليّ. فلما رجع قال له عمر: قد بقيت خصلة أخرى، عندي نفقة وكسوة أعطيك بعضها، ثم وصله بأربعة دنانير. فقال: وأين تقع مني هذه يا أمير المؤمنين؟ فقال عمر: إنها والله لمن خالص مالي، ولقد أجهدت لك نفسي. فقال جرير: والله يا أمير المؤمنين إنها لأحب مال كسبته. ثم خرج، فلقية الناس فقالوا له: ما وراءك؟ قال: جئتكم من عند خليفة يعطي الفقراء، ويمنع الشعراء وإني عنه لراض.

دخول الخوارج على عمر بن عبد العزيز:

قال: وذكروا أن بن حنظلة أخبرهم قال: بعثني وعون بن عبد الله عمر بن عبد العزيز إلى خوارج خرجت عليه بالحيرة، رأسهم رجل من بني شيبان يقال له شوذب، وكتب معنا كتاباً إليهم، فقدمنا عليهم، فبعثوا معنا إليه رجلين أحدهما من العرب، فأتينا بهما عمر، فدخلنا عليه وتركناهما بالباب. فقلنا له: إنا قد بلغنا عنك، وقد بعثوا معنا رجلين هما بالباب. قال: فتشوهما لا يكون معهما حديد أو شيء، ففعلنا، ثم إننا أدخلناهما عليه. فلما دخلا قالوا: السلام عليكم. قال: وعليكم السلام، اجلسا. فلما جلسا قال لهما عمر: ما الذي أخرجكم علينا؟ فقال العربي، وكان أشدهما كلاماً، وأتمهما عقلاً، أما إنا لم ننكر عليك عدلك ولا سيرتك، ولكن بينا وبينك أمر، هو الذي يجمع ويفرق بيننا، فإن أعطيتنا فنحن منك وأنت منا، وإن لم تعطنا فلسنا منك ولست منا. فقال عمر: فما هو؟ فقال: خالفت أهل بيتك، وسميتهم الظلمة، وسميت

أعمالهم المظالم، فإن زعمت أنك على الحق وأنهم على الباطل، فالعنهم وتبرأ منهم. فقال عمر: إنكم لم تتركوا الأهل والعشائر وتعرضتم للقتال إلا وأنتم في أنفسكم مصيبون، ولكنكم أخطأتم وضللتهم، وتركتم الحق. أخبراني عن الدين، أو أحد أو اثنان؟ قالوا: لا بل واحد. قال: أفيستعكم في دينكم شيء يعجز عني؟ قالوا: لا. قال: فأخبراني عن أبي بكر وعمر ما حالهما عندكم؟ قالوا: أفضل الناس أبو بكر وعمر. قال: أليستما تعلمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما توفي ارتدت العرب، فقاتلهم أبو بكر، فقتل الرجال، وسبى النساء والذرية؟ قالوا: بلى. قال عمر: فلما توفي أبو بكر وقام عمر، ورد تلك النساء والذراري إلى عشائرهما، فهل تبرأ عمر من أبي بكر، ولعنه بخلافه إياه؟ قالوا: لا. قال: فتتولوهما على خلاف سيرتهما. قالوا: نعم. قال عمر: فما تقولان في بلال بن مرداس؟ قالوا: من خير أسلافنا. قال: أفليس قد علمتم أنه لم يزل كافاً عن الدماء والأموال وقد لطح أصحابه أيديهم فيها، فهل تبرأت إحدى الطائفتين من الأخرى، أو لعنت أحدهما الأخرى؟ قالوا: لا فتتولوهما على خلاف سيرتهما. قال عمر: فأخبراني عن عبد الله بن وهب حين خرج بأصحابه من البصرة يريدون أصحابهم، فمروا بعبد الله بن حباب فقتلوه، وبقرؤا بطن جاريته، ثم عدوا على قوم من بني قطيبة، فقتلوا الرجال، وأخذوا الأموال وغلوا الأطفال في المراحل، ثم قدموا على أصحابهم من الكوفة وهم كافون عن الدماء والفروج والأموال، هل تبرأت إحدى الطائفتين من الأخرى، أو لعنت أحدهما الأخرى، قالوا: لا. قال: فتتولوهما على خلاف سيرتهما؟ قالوا: نعم. فقال عمر: فهؤلاء الذين اختلفوا بينهم في السيرة والأحكام لم يتبرأ بعضهم من بعض، ولا لعن بعضهم بعضاً، وأنتم تتولونهم على خلاف سيرتهم فهل وسعكم في دينكم ذلك، ولا يسعني حين خالفت أهل بيتي في الأحكام والسيرة حتى ألعنهم وأتبرأ منهم. أخبراني عن اللعن: فرض على العباد؟ قالوا: نعم. فقال عمر: متى عهدك بلعن فرعون؟ قال: ما لي به من عهد منذ زمان. قال عمر: هذا رأس من رؤوس الكفار ليس لك عهد بلعنه منذ زمان، وأنا لا يسعني أن ألعن من خالفتم من أهل بيتي، أليستم أنتم الذين تؤمنون من كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخيفه، وتخيفون من كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤمنه؟ فقالوا: نبرأ إلى الله تعالى من هذه الصفة. فقال: بلى فسأخبركما عن ذلك، أليستما تعلمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج والناس أهل كفر، فدعاهم أن يقرؤا بالله ورسوله، فمن أبي قاتله وخوفه، ومن أقر بهما أمنه وكف عنه، وأنتم اليوم من مرّ بكم يقرّ بهما قتلتموه، ومن لم يقرّ بهما أمتتموه وخليتم سبيله، فقال العربي: تالله ما رأيت حَجِيجاً أقرب مأخذاً، ولا أوضح منهجاً منك، أشهد أنك على الحق، وأنا على الباطل. وقال الآخر: لقد قلت قولاً حسناً، وما كنت لأقتات على أصحابي حتى ألقاهم فلحق بأصحابه، وأقام الآخر عند عمر، فأجرى عليه العطاء والرزق حتى مات عنده.

وفاة عمر بن عبد العزيز

قال: وذكروا أن عبد الرحمن بن يزيد أخبرهم قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى بن أبي زكريا، أما بعد: فإذا نظرت في كتابي فأقدم: فقدم عليه فقال: مرحباً بابن أبي زكريا. قال: وبك يا أمير المؤمنين. قال: حاجة لي قبلك. قال: بين الأنف والعين حاجتك يا أمير المؤمنين، إن قدرت عليها. قال: لست أكلفك إلا ما تقدر عليه. قال: نعم، قال: أحب أن تثني على الله بمبلغ علمك، حتى إذا فرغت سألت الله أن يقبض عمر. فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، بشئ وافد أمه محمد أنا، هذا لا يحل لي. قال: فيني أعزم عليك بحق الله وبحق رسوله، وبحقي إن كان لي عليك حق إلا ما فعلته، فبكى ثم استرجع، ثم أقبل يثني على الله، وإنه ليبيكي حتى إذا فراغ قال: اللهم إن عمر سألني بحقك وبحق رسولك وبحقه علي أن أدعو في قبضه إليك، فاقبض عمر إليك كما سأل ولا تبقي بعده، وجاء حينئذ بني لعمر فسقط في حجره، فقال: وهذا أي ربي معنا فيني أحبه. قال: فما كانوا إلا كخرزات في خط فانقطع الخيط، فأتبع بعضها بالسقوط بعضاً.

ذكر رؤيا عمر بن عبد العزيز:

قال: وذكروا عن مزارحم مولى عمر قال: أخبرني فاطمة ابنة عبد الملك امرأة عمر قالت: كان لعمر بن عبد العزيز مكان يخلو فيه، فأبطأ علي ذات ليلة فقلت لآتينه، فوجدته نائماً، فهبته أن أوقظه، فما لبث إلا قليلاً حتى رفع رأسه فقال: من هذا؟ فقلت: أنا فاطمة. فقال: يا فاطمة لقد رأيت رؤيا ما رأيت أحسن منها. فقلت: حدثني بها يا أمير المؤمنين. قال: رأيت كأني في أرض خضراء لم أر أحسن منها، ورأيت في تلك الأرض قصراً من زبرجد، ورأيت جميع الخلائق حول ذلك القصر، فما لبثت إلا قليلاً حتى خرج المنادي. فقال: أين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب؟ فقام النبي عليه الصلاة والسلام فدخل القصر، فقلت: سبحان الله، أنا في جمع فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلم عليه، فما لبثت إلا قليلاً حتى خرج المنادي فنادى: أين أبو بكر بن أبي قحافة؟ فقام أبو بكر فدخل، فما لبثت إلا قليلاً حتى خرج المنادي فنادى: أين عمر بن الخطاب، أين الفاروق؟ فقام عمر فدخل، فقلت: سبحان الله، أنا في ملا فيهم جدي لم أسلم عليه، فما لبثت إلا يسيراً حتى خرج المنادي فقال: أين عثمان بن عفان؟ فقام عثمان فدخل، فما لبثت إلا قليلاً حتى خرج المنادي فنادى: أين علي بن أبي طالب؟ فقام فدخل، فما لبثت إلا قليلاً حتى خرج المنادي فنادى: أين عمر بن عبد العزيز. قال: فقممت فدخلت، فلما صرت في القصر

رأيت النبي صلى الله عليه وسلم، وأبا بكر عن يمينه، وعمر عن شماله، وعثمان وعلياً أمامه. فقلت: أين أقعد؟ لا أقعد إلا إلى جنب عمر. قال: فرأيت فيما بين النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر شاباً حسن الوجه حسن الهيئة. فقلت لعمر: من هذا؟ قال: هذا عيسى بن مريم عليه السلام، فما لبثت إلا قليلاً حتى خرج عثمان بن عفان وهو يقول: الحمد لله الذي نصرني ربي، ثم خرج علي وهو يقول: الحمد لله الذي غفر لي ربي، ثم نودي لي: أين عمر بن عبد العزيز، فقممت فصرت بين يدي ربي فحاسني، فلقد سألتني عن النقيير والقتيل والقطمير، حتى خفت أن لا أنجو، ثم قممت فخرجت فقيل لي: أثبت وتمسك على ما أنت عليه، فبينما أنا سائر، فإذا بجيفة قد علا تنتها الخلائق، فضربت بها برجلي، وقلت لمن معي: لمن هذه الجيفة؟ فقيل لي: هذا الحجاج بن يوسف، فضربت به برجلي، فقلت له: ما فعل الله بك يا حجاج. قال: يا أمير المؤمنين والله لقد قتلت بكل قتيل قتلته بسيف من نار، ولقد قتلت بسعيد بن جبير اثنين وسبعين قتلة. فقلت: فأمرك ما هو؟ قال: أنا ها هنا أنتظر ما ينتظر من وحد الله، وآمن برسوله.

قالت فاطمة: فلم يبق عمر بعد هذه الرؤيا إلا يسيراً، حتى مرض مرضه الذي مات فيه، فدخل عليه مسلمة بن عبد الملك، فقال له: يا أمير المؤمنين، إنك لتترك ولدك عالة على الناس، فأوص بهم إلي، أكفك أمرهم، فإنك لم تمولهم شيئاً، ولم تعطهم. فقال عمر: يا أبا سعيد، إن ولدي لهم الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين، ثم دعاهم عمر وهم أربعة عشر غلاماً، فنظر إليهم عمر، وقد لبسوا الخشن من قباطي مصر فاغروورقت عيناه بالدموع. قال لهم أوصيكم بتقوى الله العظيم، وليجل صغيركم كبيركم، وليرحم كبيركم صغيركم. ثم قال لمسلمة: يا أبا سعيد، إنما ولدي على أحد أمرين: إما عامل بطاعة الله فلن يضيعه الله، وإما عامل بمعصيته فلا أحب أن يعينه بالمال، قوموا عصمكم الله ووفقكم. ثم دعا رجاء بن حيوة فخلا به. فقال: يا رجاء، إن قد نزل، وأنا أعهد إليك عهداً لا أعهد به إلى غيرك، إذا أنا مت فكن ممن أفي، فإذا سوّيت عليّ اللبن، فارفع لبنة، ثم اكشف عن وجهي وانظر إليه، فإني قبرت ثلاثة رجال بيدي، وكشفت عن وجوههم، فنظرت وجوههم قد اسودت وغيوهم قد برزت من وجوههم، فاكشف عن وجهي يا رجاء وانظر إليه فإن رأيت شيئاً من هذا، فاستر عليّ، ولا تعلم به أحداً؛ وإن رأيت غير ذلك فاحمد الله عليه. قال رجاء: ففعلت ذلك، فلما سوّينا عليه اللبن، رفعت وكشفت وجهه، فإذا وجهه مثل القمر ليلة البدر، وإذا على صدره صكّ فيه خط ليس من كتابة الآدميين: بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب بالقلم الجليل، من الله العزيز العليم، براءة لعمر بن عبد العزيز من العذاب الأليم.

ما علم به موت عمر رحمه الله في الأمصار:

قال: وذكروا أن رجلاً من أهل المدينة قال: وفد قوم من أهل المدينة إلى الشام فترلوا برجل في أوائل الشام موسع عليه، تروح عليه إبل كثيرة، وأبقار وأغنام، فنظروا إلى شيء لا يعلمونه، غير ما يعرفون من غضارة العيش، إذ أقبل بعض رعاته فقال: إن السبع عدا اليوم على غنمي، فذهب منها بشاة. فقال الرجل: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم جعل يأسف أسفاً شديداً فقلنا بعضنا لبعض: ما عند هذا خير، يتأسف ويتوجع من شاة أكلها السبع، فكلمه بعض القوم قال له: إن الله تعالى قد وسع عليك، فما هذا التوجع والتأسف؟ قال: إنه ليس مما ترون، ولكن أخشى أن يكون عمر بن عبد العزيز قد توفي الليلة، والله ما تعدى السبع على الشاة إلا لموته، فأثبتوا ذلك اليوم، فإذا عمر قد توفي في ذلك اليوم. وذكروا أنهم سمعوا رجلاً يحدث ويقول: بينا رجل باليمن نائم على سطح له ذات ليلة، إذ تسوّر عليه كلب، فسمعه وهو يقول لهرة له: أي جنة، هل من شيء أصيبه، فإني والله أكال؟ فقال له الهرة: ما ثم شيء، لقد غطوا الإناء، وأكفئوا الصحيفة، فقال لها: هل تدنيني من يد صبي، أو قدر لم تغسل، أشمها لترتد لي روحي؟ قالت الهرة: ما كنت لأخونهم أمانتي، فمن أين أقبلت تشكو الكلل والجوع؟ قال: من الشام، شهدت وفاة عمر بن عبد العزيز، وحضرت جنازته. قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون. نور كان في الدنيا فطمس، ثم زالت عنه، وتنحت وفرت منه، وهابته خوفاً من أن يعدو عليها، ثم انسل الكلب ذاهباً، فلما أصبح الرجل جعل يقول للهرة: أي جنة، جزاك الله عنا خيراً قال: فاستوبرت الهرة، وذهبت فلم ترد بعد، فكتب ذلك اليوم فجاءهم موت عمر في ذلك اليوم. وذكروا أن زياد بن عبد الله أخبرهم قال: كان رجل في بعض كور الشام يعالج أندراً له مع زوجته، وكان قد استشهد بن لهما منذ زمان طويل، فنظر الرجل إلى فارس مقبل نحوهما. فقال الرجل لزوجته: يا فلانة، هذا والله ابني وابنك مقبلاً، فنظرت المرأة فقالت: أأحدعك الشيطان؟ إنك مفتون بابنك، وانك تشبه به الناس كلهم، كيف يكون ابنك، وابنك استشهد منذ حين، فاستعاذ الرجل بالله من الشيطان الرحيم، ثم أقبل على أندره يعالجه، ودنا منهما الفارس، ثم نظر ثانية، قال: يا فلانة، ابني والله وابنك، فنظرت ودنا منهما الفارس، فلما وقف عليهما فإذا هو ابنهما. قال: فسلم عليهما وسلمما عليه. فقالا له: يا بني أما كنت استشهدت منذ حين؟ قال: نعم. إلا أن عمر بن عبد العزيز توفي الليلة، فاستأذن الشهداء ربه عز وجل في شهود جنازته، فأذن لهم، وكنت فيهم، فاستأذنت ربي في زيارتكما والنظر، فأذن لي، ثم ودعاه، وسلمما عليه، ودعا لهما، ثم ذهب.

ولاية يزيد بن عبد الملك بن مروان

قال: وذكروا أن الأمر صار بعد عمر بن عبد العزيز، إلى يزيد بن عبد الملك، بعهد سليمان أخيه إليه بذلك، وإلى عمر، وكان يزيد قبل ولايته محبوباً في قريش بجميل مأخذه في نفسه، وهديه وتواضعه وقصده، وكان الناس لا يشكون إذا صار إليه الأمر، أن يسير بسيرة عمر لما ظهر منه. فلما صارت الخلافة حال عما كان يظن به، وسار بسيرة الوليد أخيه، واحتذى على مثاله، وأخذ مأخذه، حتى كأن الوليد لم يمت، فعظم ذلك على الناس، وصاروا من ذلك إلى أحوال يطول ذكرها، حتى هموا بخلعه، وجاءهم بذلك قوم من أشراف قريش، وخيار بني أمية، وكانت قلوبهم قد سكنت إلى هدي عمر، واطمأنت إلى عدله بعد النفر، والإنكار لسيرته، وعاد ذلك من قلوبهم إلى الرضا بأمره، والقنوع بقصده عليهم، وتقصيره في إدراك المطامع، والعطايا عليهم، واتهم منهم نفر بالخلع والخروج، فأخذهم عمه محمد بن مروان بن الحكم، فأسكنهم السجن عشرين شهراً، ثم دس لهم السم، فماتوا جميعاً، وأقصى من سائر قريش ثلاثين رجلاً، بعد أن أغرمهم مئة ألف ألف وباع عقر أموالهم ورباعهم، وحمل العذاب عليهم والنكال، حتى أصارهم عالة يتكففون الناس، متفرقين في كور الشام، وآفاق البلاد، وصلب من الناس جملة ممن ألف هؤلاء القوم، واتهم بمصانعتهم ومصاحبتهم، وكانت ولايته في ربيع الأول سنة إحدى ومئة، ومات سنة ست ومئة.

ولاية هشام بن عبد الملك

قال: وذكروا أن عبد الملك بن مروان، بينما هو يوماً في بعض بوادي الشام يتطوف، إذ نظر إلى ساع يسعى إليه، فوقف منتظراً له، فلما قاربه قال له: ما وراءك؟ فقال: ولدت المخزومية غلاماً، قال: فما سمته؟ قال: هشاماً. قال: هشم الله رأسها. فقال له قبيصة بن ذؤيب: ولم يا أمير المؤمنين؟ قال: أخبرني أبي مروان، أنه سمع بشرة بنت صفوان تقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "راحة أصحابي معاوية، ولا راحة لهم بعد معاوية وراحة العرب هشام، ولا راحة لهم بعد هشام".

وذكروا أن هشاماً صارت إليه الخلافة في سنة ست ومئة، فكان محمود السيرة، ميمون النقيبة، وكان الناس معه في دعة وسكون وراحة، لم يخرج عليه خارج، ولم يقم عليه قائم، إلا ما كان من قيام زيد بن علي بن الحسين، في بعض نواحي الكوفة، فبعث إليه بن هبيرة، وكان عامل الكوفة، فأخذ زيد، فأتى به بن هبيرة، فأمر بقتله دون رأي هشام، فلما بلغ ذلك هشاماً، عظم عليه وأعظم فعل بن هبيرة، واجترأه على قتل قرشي دون مشورة حتى جعل يقول: مثل زيد بن علي في شرفه وفضله يقتله بن هبيرة، وما كان عليه من قيامه، إن هذا هو البلاء المبين، وما يزال بن هبيرة مبغضاً لأهل هذا البيت من آل هاشم وآل عبد المطلب، ووالله لا زلت لهم محباً حتى أموت، ثم شول بن لجرية عن الكوفة، وأغرمه ألف ألف، ولم يل له

شيئاً حتى مات، وكانت أيام هشام عشرين سنة، ولي سنة ست ومئة، وتوفي سنة ست وعشرين ومئة، بعد أن حج إحدى عشرة حجة، وهو خليفة.

قدوم خالد بن صفوان بن الأهمم على هشام:

قال: وذكروا أن شبيب بن شبة، أخبرهم عن خالد بن صفوان بن الأهمم، قال: أوفدي يوسف بن عمر إلى هشام في وفد العراق، فقدمت عليه، وقد خرج منتدباً في قرابته وأهله وحشمه، وحاشيته، من أهله إلى بعض بوادي الرصافة، فزل في قاع صحصح أفيح، في عام قد بكر وسميه وقد ألبرت الأرض أنواع زهرتها، وأخرجت ألوان زينتها، من نور ربيعها فهي في أحسن منظر وأجمل مخبر، بصعيد كأن ترابه قطع الكافور، فلو أن قطعة دينار ألقيت فيه لم تترب، وقد ضرب له سرادقات من حبرات اليمن مزرورة بالفضة والذهب، وضرب له فسطاطه في وسطه، فيه أربعة أفرشة من خز أحمر، مثلها مرافقها، وعليه دراعة خز أحمر وعمامة مثلها، وضربت حجر نسائه من وراء سرادقه، وعنده أشراف قريش، وقد ضربت حجر بنيه وكتابه وحشمه بقرب فسطاطه، ثم أمر الربيع حاجبه، فأذن للناس إذناً عاماً، فدخلوا عليه، وأخذ الناس مجالسهم، قال خالد: فأدخلت رأسي من ناحية السماط فأطرق، ثم رفع رأسه ونظر إلى شبه المستنكر، وكنت قد حليت عنده ببلاغة، وفهم وحكمة. فقلت: أقر الله نعمته عليك يا أمير المؤمنين وكرامته، وسوغك شكره يا أمير المؤمنين ومد لك في المزيد فيها بفضلته، ثم وصلها بعد بطول العمر، وتتابع الكرامة الباقية التي لا انقطاع لها، ولا نفاذ لشيء منها، حتى يكون آجل ذلك خيراً من عاجله، وآخره أفضل من أوله، وعاقبته خيراً من ابتدائه، وجعل ما قلدك من هذا الأمر رشداً، وعاقبته تؤول إلى أحمد ودرك الرضا، وأخلص لك ذلك بالتقوى، وكثره لك بالنماء، ولا كدر عليك منك ما صفا، ولا خالط سروره أذى، فقد أصبحت للمسلمين ثقة وسترأ، يفزعون إليك في أمورهم ويقصدونك في حوائجهم، وما أجد يا أمير المؤمنين جعلني الله فداك شيئاً، أبلغ في حقك وتوقير مجلسك، إذ من الله علي بمجالستك، والنظر إلى وجهك مني، وما أجد فيما أظهر ذلك إلا في مذاكرتك نعم الله التي أنعم بها عليك، وأحسن فيها إليك، وأنبهك إلى شكرها، ثم إني لا أجد شيئاً هو أبلغ في ذلك، ولا أجمع من ذكر حديث للملك خلا من الملوك، كان في سالف الأمم، فإن أذن أمير المؤمنين أكرمه الله حدثه. قال: وكان هشام متكئاً، فاستوى جالساً وقال: هات يا بن الأهمم، قال: قلت: يا أمير المؤمنين، إن ملكاً كان فيما خلا من الملوك، مجتمعاً له فيها فتاء السن واعتدال الطبائع، وتمام الجمال، وكثرة المال، وتمكين الملك، وكان له ذلك إلى البطر والمرح داعياً، وعلى الغفلة والذهول معيناً، فخرج متراً إلى بعض منازل. فصعد

جوسقاً له، فأشرف على أرض، قد أخضلها ربيع عامه، كان شبيهاً بعامك هذا يا أمير المؤمنين، في خصبه وعشبه، وكثرة زهره، وحسن منظره، فنظر فرجع إليه بصره كليلاً عن بلوغ أقصى أمواله من الضياع والإبل والخيل والنعم. فقال لنفر من ناديه: لمن هذا؟ قيل له: لك، فأعجبت نفسه، وما بسط له من ذلك، حتى أظهر فرحه وزهوه، ثم قال لجلسائه: هل رأيتم مثل ما أنا فيه، أم هل أوتي أحد مثل ما أوتيت. وكان عنده رجل من بقايا حملة والعلم، والمضي على أدب الحق ومنهاج الصدق في الضمير والمقالة، وقد قيل: إن الله الجليل، لم يخل الأرض منذ هبط آدم، من قائم يقوم بحجة الله فيها، وكان ذلك الرجل ممن يسامره. قال: أيها الملك، قد سألت عن أمر أفتأذن لي بالجواب فيه؟ قال: نعم. قال: رأيته هذا الذي أعجبك مما عليه اطلع، نظرك، واستطال ملكك وسلطانك، شيء لم يزل لك ولم يزل عنك، أم شيء أكان لغيرك، فرال عنه إليك، ثم هو صائر إلى غيرك كما صار إليك؟ قال الملك: بل كما ظننت ومثلت. قال: فإني أراك أعجبت بما يفنى، وزهدت فيما يبقى، وسررت بقليل، وحسابه غداً طويل. قال: ويحك فكيف المطلب، وأين المهرب، وما الحيلة في المخرج؟ قال: إحدى حصلتين، إما أن تقيم في ملكك، فتعمل فيه بطاعة ربك على ما سررك وساءك وأمضك، وإما أن تضع تاجك ونجارك، وتذكر ذنوبك، وتلحق في الخلاء بمن يغفر لك، فتعبد فيه ربك حتى يوافيك أجلك، وتنقضي مدتك، وأنت عامل لربك فيما يعطيك. قال: فإذا فعلت ذلك فما لي؟ فقال: ملك خالد لا يفنى، ونعيم لا ينقضي، ومزيد وكرامة، وصحة لا تستقيم أبداً، وسرور لا ينصرم، وشباب لا يشوبه هرم، وقرار لا يخالطه هم. قال الملك: سأنظر إلى نفسي في الاختيار لها مما ذكرت لي، فإذا كان وقت السحر، فاقرع علي بابي لتعرف رأيي، فإني مختار إحدى المترلتين، فإن

أقيمت في ملكي، واخترت ما أنا فيه، كنت وزيراً لا تعصى، وإن خلوت كنت رفيقاً لا تحفى. فلما كان السحر، قرع عليه بابه، فإذا هو قد وضع تاجه، ولبس أطماره، فلاحقا بالجليل، فلم يزالا يعبدان الله فيه، حتى بلغ أجلهما، وانقضى عمرهما. فبكى هشام حتى بل لحيته، ثم نكس رأسه طويلاً، ثم أمر بتزع أبنيته وانتقاله، وأقبلت العامة من الموالي على بن الأهتم، فقالوا له: ما أردت لأمر المؤمنين، أفسدت عليه لذته، ونغصت عليه شهوته، وقد حرمتنا ما أملنا فيه. قال: إليكم عني، فإني عاهدت الله ري، أي لا أخلو بملك إلا ذكرته الله، ونبهته ورشدته. ثم رجع خالد إلى فسطاطه، كئيباً حزيناً، متخوفاً يظن أنه قد هلك، وكان للربيع صديقاً. فبينما هو كذلك، إذ أتاه رسول الربيع، فقال: يا صفوان، يقول لك أخوك الربيع: من كان في حاجة الله، كان الله في حاجته. إنك لما وليت من عند أمير المؤمنين جعل يقول: لله در بن الأهتم، أي رجل دنيا وأخرى، مره يا ربيع، فليرجع حوائجه، وليغد إلينا بما نقضها له. فقال الربيع: فاغد علينا بحوائجك رحمك الله، واحمده على مما صنع، وأذهب من مخافتك. فغدا عليه بحوائجه فقطيت.

وذكروا أنه لم يكن في بني أمية ملك أعظم من هشام، ولا أعظم قدراً، ولا أعلى صوتاً منه، دانت له البلاد، وملك جميع العباد، وأدّيت له الجزية من جميع الجهات، من الروم والفرس والترك والإفرنج والزنج والسند والهند، وكان قريباً من الضعفاء، مهتماً بإصلاح الأدواء، لم يجترئ أحد معه على ظلامته، ولم يسلك أحد معه إلا سبيل الاستقامة، وكان له موضع بالرصافة أفيح من الأرض، يبرز فيه، فتضرب له به السراقات، فيكون فيه ستين ليلة، بارزاً للناس، مباحاً للخلق، لا يفني أيامه تلك إلا برد المظالم، والأخذ على يد الظالم من جميع الناس، وأطراف البلاد، ويصل إلى مخاطبته بذلك الموضع، راعي السوام، والأمة السوداء، فمن دونهما، قد وكل رجالاً أدباء عقلاء، بإدناء الضعفاء والنساء اليتامى منه، وأمرهم بإقصاء أهل القوة والكفاية عنه، حتى يأتي على آخر ما يكون من أمره، فيما يرفع إليه، لا ينضم إليه رجل يريد الوصول إليه، فينظروا أوضع منه إلا أدنوا الأوضع وأبعدوا الأرفع، حتى ينظر في شأنه، ويعرف أمره، وينفذ فيه ما أمر، ولا يرفع إليه ضعيف، ولا امرأة أمراً، وظلامة على غطريف من الناس مرتفع القدر، ولا مستخدم به إلا أمر باقتضاء يمينه، وأغداه بمطلبه، لا يقبل لهم حجة، ولا يسمع لهم بينة، حتى لربما تمر به المرأة والرجل أو عابر سبيل، لا حاجة له فيما مر به. فيقال له: ما حاجتك، وما قصتك، وما ظلامتك؟ فيقول: إنما سلكت أريد موضع كذا، أروم بلد كذا، فيقول له: لعلك ظلمك أحد من آل الخليفة فهاب أمره، وتتوقع سطوته، فذلك الذي منعك عن رفع ظلامتك إلى أمير المؤمنين، فيقول: لا، والله لا أبغي إلا ما قلت. فيقال له: اذهب بسلام، حتى لربما أتت عليه تارات من الليل، وساعات من النهار لا ينظر في شيء، ولا يأتيه أحد في خصومة لاستغناء الناس عن المطالب، وتعففاً من المظالم، ووقاية من سطواته، وتخوفاً من عقوبته، وقد وسع العباد أمنه، وأشعرهم عدله، وصارت البلاد المتناثية الشاسعة، كدار واحدة، ترجع إلى حاكم قاض، يرقبه الناس في المواضع النائية عنه كما يرقبه من معه، وقد وضع العيون والجواسيس من خيار الناس، وفضلاء العباد، في سائر الأمصار والبلدان، يحصون أقوال الولاة والعمال، ويحفظون أعمال الأخيار والأشرار، قد صار هؤلاء أعقاباً يتعاقبون، ينهض قوم بأخبار ما بلوا في المصر الذي كانوا فيه، ويقبل آخرون يدخلون مسترقين، ويخرجون متفرقين، لا يعلم منهم واحد، ولا يرى لهم عابر، فلا خبر يكون، ولا قصة تحدث، من مشرق الأرض ولا مغربها إلا وهو يتحدث به في الشام، وينظر فيه هشام، وقد قصر نفسه على هذه الحال، وحببت إليه هذه الأفعال، فكانت أيامه عند الناس أحمد أيام مرت بهم، وأعفاها وأرجاها، قد لبس جلباب الهيبة على أهل العنود والكيود، وارتمى برداء التواضع إلى أهل الخشوع والسكون، وكان قد حبب إليه تكاثر من الدنيا، والاستمتاع بالكساء، لم يلبس ثوباً قط يوماً، فعاد إليه، حتى لقد كان كساء ظهره، وثياب مهنته، لا يستقل بها، ولا يحملها إلا سبعة

مئة بعير، من أجلد ما يكون من الإبل، وأعظم ما يحمل عليه من الجمال، وكان مع ذلك يتقللها، وطالت أيامه، واستبطأ صاحب العهد بموته، فناوأه وعاداه، وانتقل عن الموضع الذي كان به هو والوليد بن يزيد بن عبد الملك، فمات هشام والوليد غائب، فأتاه موته، فأمر بقفل الخزان، فلم يجدوا لهشام ما يكفونه به، واستؤذن الوليد في إقباله، فلم يدفن هشام حتى قدم الوليد، وذلك في ثلاثة أيام.

بدء الفتن والدولة العباسية

قال: وذكروا أن الهيثم بن علي أخبرهم، قال: اختلفت روايات القوم الذين عنهم حملنا وروينا ذكر الدولة، فحملنا عنهم ما اختلفوا فيه وألفناه، فكان أول ما اختلفت فيه الرواية، ولم تلائمه الحكاية، أشياء سنذكرها في موضعها من هذا الكتاب إن شاء الله، واقتصرنا على معانيها، وقيدنا بعض ألفاظها لطول أخبارها، واجتنبنا الجزل السمين من اللفظ، ورددنا هزيله لئلا يثقل فائدته، وقلة عائدته، وقد اختصرنا وأشبعنا إذ لم نترك من المعاني المتقدمة شيئاً، والله الموفق للصواب.

فكان مما ألفنا بدءاً من ذكر الدولة، وما أخبرنا عن الهيثم بن عدي، عن الرجال الذين حدثوه. قالوا: لما سلم الحسن بن علي الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان، قامت الشيعة من أهل المدينة، وأهل مكة، وأهل الكوفة، واليمن، وأهل البصرة، وأرض خراسان، في ستر وكتمان؟ فاجتمعوا إلى محمد بن علي، وهو محمد بن الحنفية، فبايعوه على طلب الخلافة إن أمكنه ذلك، وعرضوا عليه قبض زكاهم، لينفقوها يوم الثوب على فرصته، فيما يحتاج من النفقة على مجاهدته، فقبلها، وولى على شيعة كل بلد رجلاً منهم، وأمره باستدعاء من قبله منهم، في سر وتوصية إليهم، ألا ييؤخوا بمكتومهم، إلا لمن يوثق به، حتى يرى للقيام موضعاً. فأقام محمد بن الحنفية: إمام الشيعة قابضاً لزكاهم، حتى مات. فلما حضرته الوفاة، ولى عبد الله ابنه من بعده، وأمره بطلب الخلافة إن وجد إلى ذلك سبيلاً، وأعلم الشيعة بتوليته إياه، فأقام عبد الله بن محمد بن علي، وهو أمير الشيعة، فبلغ ذلك سليمان بن عبد الملك، في أول خلافته، أن الشيعة قد بايعت عبد الله بن محمد بن علي، بعد أبيه، فبعث إليه، وقد أعد له في أفواه الطرق رجالاً، معهم أشربة مسمومة، وأمرهم إذا خرج من عنده أن يعرضوا عليه الشراب. فلما دخل على سليمان، أجلسه إلى جانبه. ثم قال له: بلغني أن الشيعة بايعتك على هذا الأمر، فجحدك عبد الله وقال: بلغك الباطل، وما زال لنا أعداء يبلغون الأئمة قبلك عنا مثل ما بلغك، ليغروهم بنا، فيدفع الله عنا كيد من ناوأنا. وأنا بما يلزمني من مؤنني أشغل مني بطلب هذا الأمر، ثم خرج من عنده في وقت شديد الحر، فكان لا يمر بموضع إلا قام إليه الرجل بعد الرجل، يقول له: هل لك في شربة سويق اللوز، وسويق كذا وكذا يا بن بنت رسول الله،

ونفسه موجسة منهم، فيقول: بارك الله لكم، حتى إذا خرج إلى آخر الطريق، خرج إليه رجل من خبائه، ويبيده عس، فقال له: هل لك في شربة من لبن يا بن بنت رسول الله؟ فوقع في نفسه أن اللبن مما لا يسم، فشرب منه ثم مضى، فلم ينشب أن وجد للسهم حساً، فاستدل على الطريق إلى الحميمة، وبها جماعة آل عباس، وقال لمن معه: إن مت ففي أهلي، ثم توجه فترل على محمد بن علي بن عبد الله بن عباس فأخبره الخبر؛ وقال له: إليك الأمر، والطلب للخلافة بعدي، فولاه، وأشهد له من الشيعة رجالاً، ثم مات. فأقام محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، ودعوة الشيعة له حتى مات، فلما حضرته الوفاة، ولى محمد بن إبراهيم الأمر، فأقام وهو أمير الشيعة، وصاحب الدعوة بعد أبيه.

دخول محمد بن علي على هشام:

قال: وذكروا أن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس دخل، وهو شيخ كبير قد غشي بصره على هشام بن عبد الملك، متوكئاً على ولديه أبي العباس وأبي جعفر، فسلم ثم قال له هشام: ما حاجتك؟ ولم يأذن له في الجلوس، فذكر قرابته وحاجة به، ثم استجده. فقال هشام: ما هذا الذي بلغني عنكم يا بني العباس، ثم يأتي أحدكم وهو يرى أنه أحق بما في أيدينا منا، والله لا أعطيتك شيئاً؟ فخرج محمد بن علي، فقال هشام كالستهزئ: إن هذا الشيخ ليرى أن الأمر سيكون لولديه هذين، أو لأحدهما، فرجع محمد نحوه فقال: أما والله إني أرى ذلك على رغم من رَغِم. فضحك هشام وقال: أغضبنا الشيخ، ثم مضى محمد بن علي.

ولاية الوليد بن يزيد وفتن الدولة:

قال: وذكروا أن الوليد بن يزيد لما تولى الأمر بعد هشام، أساء السيرة، وانتحى على أهله وجماعة قريش، وأحدث الأحداث العظيمة، وسفك الدماء وأباح الحريم، وكانت ولايته في سنة ست وعشرين ومئة. فلما استولى على الأمر بعث إلى أشراف الأجناد، فقدموا عليه وقدم خالد فيمن قدم، فلم يأذن لواحد منهم، وكان مشغلاً بلهوه ولعبه، ومرض خالد، فاستؤذن له في الإنصراف فأذن له، فانصرف إلى دمشق، فأقام بها شهراً. ثم كتب إليه الوليد: إن أمير المؤمنين قد علم الخمسين ألف التي تعلم، فأقم بها على أمير المؤمنين مع رسوله، فقد أمره أن لا يعجلك عن جهازك، فبعث خالد إلى عدة من ثقاته، فيهم عمارة بن أبي كلثوم، فأقرأهم كتاب الوليد وقال: أشيروا علي برأيكم. فقالوا: إن الوليد ليس بمأمون، فالرأي أن تدخل مدينة دمشق، فتأخذ بيوت الأموال، وتدعو إلى من أحببت، والناس قومك، ولم يختلف منا عليك اثنان. فقال لهم: وماذا؟ قالوا: تأخذ بيوت الأموال، وتجمع إليك قومك حتى تتوثق

لنفسك. قال: وماذا؟ قالوا: نتواري. فقال: أما قولكم أن أدعو إلي من أحببت، فإني أكره أن تكون
الفرقة على يدي، وأما قولكم أن آخذ بيوت الأموال حتى أتوثق لنفسي، فأنتم لا تأمنوني عليها ولا ذنب
لي، فكيف لي ترجون وفاء بما يعطيني. وقد فعلت ما فعلت، وأما قولكم في التواري، فوالله ما قنعت
رأسي خوفاً من أحد قط، فالآن وقد بلغت من السن ما بلغت؟، ولكني أمضي، وأستعين بالله تعالى.

قتل خالد بن عبد الله القسري:

قال: وذكروا أن خالد بن عبد الله القسري، شخص إلى الوليد بن يزيد حتى قدم على معسكره، فلم يدع
به الوليد ولم يكلمه، وهو يختلف إليه غدوة وعشية، حتى قدم برأس يحيى بن زيد بن علي بن الحسين من
خراسان، فجمع الناس الإذن، فحضر الأشراف، وجلس الوليد، وجاء خالد إلى الحاجب فقال: إن حالي
كما ترى، لا أقدر على المشي، وإنما أحمل في الكرسي. قال الحاجب: ما يدخل أحد على أمير المؤمنين
على هذه الحال، ثم أذن له فحمله على كرسيه، ثم دخل على الوليد وهو جالس في سريره، والمائدة
موضوعة.

فلما دخل عليه قال له الوليد: أين ولدك يزيد بن خالد؟ فقال: قد أصابه من هشام ظفر، فخلى سبيله، ثم
طلب فهرب، فكنا نراه عند أمير المؤمنين حتى استخلفه الله. فقال له الوليد: لكنك خلفته طلباً للفتنة.
فقال خالد: قد علم أمير المؤمنين أنا أهل بيت طاعة أنا وأبي وجدي. فقال له الوليد: لتأتيني بابنك أو
لأرهبك نفسك، فقال له خالد: هذا الذي تدور عليه، وهو الذي تريد؟ والله لو أن ابني تحت قدمي ما
رفعتهما لك، فاصنع ما بدا لك. فأمر الوليد غيلان صاحب حرسه بالبسط عليه والأخذ له، وقال له:
أسمعني صوته؛ فذهب به غيلان إلى رحله، فعذبه بالسلاسل والحديد، فلم يتكلم بكلمة، فرجع غيلان إلى
الوليد فقال له: والله لا أعذب إنساناً لا يتكلم. فقال له: كف عنه واحتبسه، ففعل، فقام يوسف بن عمر
فقال: أنا أشتريه بخمسين ألف ألف، فأرسل الوليد إلى خالد أن يوسف بن عمر قد سأل أن يشتريه
بخمسين ألف ألف، فإن ضمنتها لأمرير المؤمنين، وإلا دفعتك إليه. قال خالد: ما عهدنا العرب تباع، فدفعه
إلى يوسف بن عمر، فترع ثيابه، وألبسه عباءة وألحفه أخرى، وحمله على محمل ليس تحته وطاء، فبسط
عليه وعذبه، وخالد لا يكلمه بكلمة، ثم ارتحل، حتى إذا كان ببعض الطريق عذبه يوماً، ثم وضع المضرس
على صدره، فقتله في الليل، فدفن في الحيرة، وذلك في المحرم سنة سبع وعشرين ومئة.

وثوب أهل دمشق على الوليد بن يزيد وقتله:

قال: وذكروا أن يزيد بن خالد دب في أهله، وتحمل في عشائره، فاجتمع أمرهم على الوليد بن يزيد، فبينما هم يدبرون أمرهم، إذ انطلق ساع إلى الوليد قال له: أدلك على يزيد بن خالد؟ قال: نعم. فبعث الوليد مولى له، وأمره أن يكمن النهار، ويسير الليل، حتى أتى دمشق ليلاً، ويزيد مختف بدمشق في منزل رجل عند باب السوق، فاقتحم عليه المنزل فأخذه، وشخص به من ساعته حتى قدم على الوليد، فأمر بالبعث به إلى يوسف بن عمر بالعراق، قال له يزيد: يا أمير المؤمنين، أنا أدفع لك الخمسين ألف ألف التي طلبت من خالد في ثلاث سنين، على أن تكتب إلى الآفاق، بأمان من كانت لي عنده وديعة، وأمان فيه ذمتي وموالي، فقبل منه الوليد ذلك، فأمر بالكتب إلى العراق والحجاز وكور الشام في ذلك، واحتبس يزيد عنده، وجعل عليه القيود والحرس، ثم ارتحل الوليد ومعه خدمته وشرطته، وتواعد أهل اليمن أن يثوروا إذا وصلوا العتمة، في المسجد، وكانت العلامة بينهم أن يلتمس أحدهم صاحبه، فلما تفرق أهل المسجد، خرجوا، فاستخرجوا يزيد بن الوليد من منزله، ثم أتوا به القصر، وعلى دمشق يومئذ رجل من بني الحجاج، وكان قد خرج من الطاعون، واستخلف رجلاً من قيس، فدخلوا عليه، فأوثقوه كتافاً، وأوثقوا كل من خافوا خلافه، فتسلل رجل حتى أتى الوليد بن يزيد، فأخبره الخبر، فلما أصبحوا غدوا إلى الوليد، فبعث الوليد في طلب يزيد بن خالد، وهو عنده في الحديد. فقال له: إن قومك قد خرجوا بين يدي الوليد، فارددهم عن أمير المؤمنين، ولك الله أن أوليك العراق، وأدفع إليك يوسف تقتله بأبيك، فقال له يزيد بن خالد: وتوثقني يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، فتوثق له وحلف، قال: فأرسلني إليهم حتى أردتهم عنك. فقال له الوليد: بل اكتب إليهم. قال: إن كتابي لا يغني شيئاً، وقد علموا أنني في يديك، وأني سأكتب بما تريد، فأمر بإطلاقه من الحديد، وردده إلى حبسه، وأمر الحرس يتحفظون به، ثم ارتحل الوليد بيزيد بن خالد معه، فلما كان الفجر، صبحته أوائل الخيل، خيل أهل اليمن، فأرسل الوليد إلى يزيد بن خالد. فقال له يزيد: خلّ عني حتى أردهم عنك، فبينما هم على ذلك، إذ التقى القوم، فشدت الميمنة، وقد طلعت الشمس، واختلط الناس وكثر القتل، وتخلص يزيد بن خالد من الحرس، فأتوه ببرذون من براذين الوليد، وأتى بسيف فتقلده، ثم نادى مناديه: من جاء برأس الوليد، فله مئة ألف دينار، ونودي في العسكر: من دخل رحله فهو آمن. فنادى الوليد: يا أهل الشام، ألم أحسن إليكم، ألم أفعل كذا، فعدد إحسانه، فقال عبد السلام: بلى قد فعلت، ولكنك عمدت إلى شيخنا وسيدنا خالد بن عبد الله قد عزله الخليفة قبلك، وأخذ أمواله، ثم خلى عنه، فدفعه إلى يوسف بن عمر بالبيع فأدرعه، ثم حمّله على محمل بلا وطاء، ثم انطلق به فعذبه، حتى قتل شر قتل يكون. فقال لهم الوليد: فاخلعوني في قميصي هذا، وولوا من شئتم، فانصرفوا إلى قومهم، فأعلموهم بما رضي من الخلع. فقالوا: لا إلا رأسه، فتدلى القوم إلى القصر،

وانتهى يزيد بن خالد إلى الباب، وعليه سلسلة، فأمر بها فكسرت، وكسر الباب، وخرج الوليد يسعى، حتى دخل بيتاً من بيوت القصر، ودخل عليه نحو من ثلاثين رجلاً، وهو قائم بيده السيف، منكساً رأسه لا ينظر إليهم، وهو يذب عن نفسه، فضربه رجل، ضربة، ثم صرعه، ثم أكب عليه فاحتز رأسه، فخرج به وانصرف الناس إلى دمشق فبايع الناس ليزيد بن الوليد بن عبد الملك وذلك في ذي الحجة من سبع وعشرين ومئة، فكان خليفة ستة أشهر، ثم مات في جمادى الأولى. ثم ولي إبراهيم بن الوليد فبويع له في جمادى الأولى، مكث ثلاثة أشهر، ثم خلع وهرب.

ولاية مروان بن محمد بن مروان بن الحكم

قال: وذكروا أنه لما خلع إبراهيم بن الوليد، خرج مروان بن محمد في صفر، سنة سبع وعشرين ومئة، ومعه أهل الجزيرة، وأهل حمص، فدعا إلى نفسه بالبيعة، ووعد الناس خيراً فرضي به أكثر الناس لشجاعة كانت فيه وسخاء يوصف به، فملك الشام، واستقل له الأمر، وغلظ شأنه، واستعلى سلطانه، بايع له أهل العراق والحجاز، وهابه الناس وخافوه، واستعمل العمال في الآفاق والأمصا، وكانت الشيعة تنكأ على الكتان لذلك، وتتلاقى على السر. قال: فلما كانت سنة ثمان وعشرين ومئة اجتمعت الشيعة.

خروج أبي مسلم الخراساني:

قال: وذكروا أن الشيعة لما اجتمعت، وغلظ أمرهم بخراسان، قدم منهم سليمان بن كثير، وقحطبة بن شبيب، فلقوا إبراهيم بمكة. فقالوا: قد قدمنا بحال. قال: وكم هو؟ قالوا عشرين ألف دينار ومائتي ألف درهم وبمسك ومتاع قال: ادفعوه إلى عروة مولى محمد بن علي، ففعلوا، فكان يحيى بن محمد يتبعهم ويسألهم، فيقول: ما قصتكم وفي أي شيء جئتم؟ فلا يخبرونه، فذكروا ذلك لإبراهيم. فقال: احفروه، فإنه قليل العقل، ضعيف الرأي. فجاء إلى إبراهيم فقال له: إن علي ديناً، والله لئن لم تعطني قضاء ديني، لأرفعن أمرك إلى عبد العزيز بن عمر، وهم يومئذ على الموسم، فأعطاه خمسة آلاف درهم، وقدموا بأبي مسلم معهم، وقد خرج أصحابه من السجن، فأعلموا إبراهيم أنه مولاه. فقال لسليمان: قد ربأ أمركم، فأنت على الناس، فاخرج إلى خراسان، وقد كان أبو مسلم قدم على إبراهيم قبل أن ينصرف أصحابه، فرأى عقله وظرفه. فكتب إلى أصحابه: إني قد أمرته على خراسان، وما غلب عليها، فأتاهم فلم يقبلوا قوله، وخرجوا من قابل، فالتقوا بمكة، فأعلمهم أبو مسلم أنهم لم ينفذوا كتابه. قال إبراهيم: إنه قد يجمع

رأيه على هذا، فاسمعوا له وأطيعوا. ثم قال لأبي مسلم: يا أبا عبد الرحمن إنك رجل منا أهل البيت، فاحفظ وصيتي، انظر هذا الحي من اليمن فأكرمهم فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم، وانظر هذا الحي من ربيعة، فإنهم معهما، وانظر هذا الحي من مضر، فإنهم العدو القريب الدار، فاقتل من شككت في أمره، ومن وقع في نفسك منه قهمة. فقال: أيها الإمام، فإن وقع في أنفسنا من رجل هو على غير ذلك، أحبسه حتى تستبينه؟ قال: لا، السيف السيف، لا تتقي العدو بطرف. ثم قال للشيعة: من أطاعني فليطع هذا، يعني أبا مسلم، ومن عصاه فقد عصاني. ثم قال له: إن استطعت أن لا تدع بخراسان أرضاً فيها عربي فافعل، وأما غلام بلغ خمسة أشبار، فاقمته فاقتله، ولا تخالف هذا الشيخ، يعني سليمان بن كثير، ولا تعصه، فشحصوا إلى خراسان.

ووقعت العصبية بخراسان، بين نصر بن سيار، وكان عامل مروان عليها، وبين الكرمان. فدخل على نصر بن سيار رجل فقال له: إن مروان بن محمد قد خالف ما ظن به الناس، وقد كان رُجي وأثل، وما أرى أمره إلا وقد انتقض، واجترأت عليه الخوارج، وانتقضت عليه البلاد، وخرج عليه ثابت بن نعيم، ورأى الاشتغال بلذاته أهم عليه، فلو اجتمعت كلمتك مع الكرمان فيني خائف لمن يوقعك هذا الخلاف فيما نكره وأنت شيخ العرب وسيدها، وأرى والله في هذه الكور شيئاً، وأسمع أموراً أخاف أن تذهب، أو تذهل منها العقول. فقال نصر بن سيار: والله ما أهتم عقلك ولا نصيحتك، ولكن اكفف عن هذا القول، فلا يسمعن منك، فالتحم ما بين الرجلين، وهاجت الحرب وتقاتلوا، وجعلت رجال الشيعة تجتمع في الكور الألف والألفان، فيجتمعون في المساجد، ويتعلمون: أي يتعارفون بينهم، فبلغ ذلك نصراً، واغتم لذلك، وخاف إن وجه إليهم من يقاتلهم أن يتجاوزوا إلى الكرمان، فلما استفحل أمر القوم، وقام بأمرهم أبو مسلم الخراساني، ثم اجتمعوا وأظهروا أمرهم. كتب نصر بن سيار إلى مروان بن محمد:

أرى خلل الرماد وميض نار	ويوشك أن يكون له ضرام
فإن النار بالعودين تذكى	وإن الحرب أولها الكلام
أقول من التعجب: ليت شعري	أليقظ أمية أم نيام
فإن كانوا لحينهم نياماً	فقل قوموا فقد حان القيام
ففري عن رحالك ثم قل لي	على الإسلام والعرب السلام

فكتب إليه مروان: إن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب. فقال نصر لما قرأ الكتاب: أما صاحبكم فقد أعلمكم أن لا نصر عنده، وجعل أبو مسلم يكتب الكتب، ثم يقول للرسول: مروا بها على اليمانية، فإنهم

يتعرضون لكم، ويأخذون كتبكم، فإذا رأوا فيها أي رأيت المضرة لا وفاء لهم، ولا خير فيهم، فلا تثق بهم، ولا تطمئن إليهم، فإني أرجو أن يريك الله في اليمانية ما تحب، ويرسل رسولا آخر يمثل ذلك على اليمانية. فيقول: مرّ على المضرة، فكان الفريقان جميعاً معه، وجعل يكتب إلى نصر بن سيار، وإلى الكرمانى: أن الإمام قد وصاني بكم، ولست أعدو رأيكم فيكم، فجعل نصر يقول: يا عباد الله، هذه والله الذلة، رجل بين أظهرنا يكتب إلينا يمثل هذا، لا نقدر له على ضر ولا نفع، فلما تبين القوم أن لا نصير لهم كتب أبو مسلم إلى أصحابه في الكور، أن أظهروا أمركم، فكان أول الناس من سود أسيد بن عبد الله، فنادى: يا محمد، يا منصور، فسود معه العكي، ومقاتل بن حكم، وعمر بن غزوان، وأقبل أبو مسلم حتى نزل الخندقين فهابه الفريقان جميعاً. فقال: لست أعرض لواحد منكم، إنما ندعو إلى آل محمد، فمن تبعنا فهو منا، ومن عصانا فالله حسيبه. فلما جعل أصحابه يكثرون عنده. وهو يطمع الفريقين جميعاً في نفسه. كتب نصر بن سيار: إلى مروان بن محمد، يذكر استعلاء أمر أبي مسلم، ويعلمه بحاله وخروجه، وكثرة شيعته، وأنه قد خاف أن يستولي على خراسان، وأنه يدعو إلى إبراهيم بن محمد، فأتى مروان الكتاب، وقد أتاه رسول أبي مسلم بجواب إبراهيم، فأخذ جواب إبراهيم، وفيه لعن إبراهيم لأبي مسلم، حين ظفر بالرجلين، ألا يدع بخراسان عريباً إلا قتله، فانطلق الرسول بالكتاب إلى مروان، فوضعه في يده. فكتب مروان إلى الوليد بن معاوية، وهو على دمشق: أن اكتب إلى عاملك بالبلقاء، فليأخذ إبراهيم بن محمد فليشده وثاقاً، ثم يبعث به إليك، ثم وجه به إلي، فأتى إليه وهو جالس في مسجد القرية، فأخذ إلى دمشق، ودخل على مروان، فأنبه وشتمه، فاشتد لسان إبراهيم عليه، ثم قال: يا أمير المؤمنين، ما أظن ما يروي الناس عنك إلا حقاً في بعض بني هاشم. فقال: أدركك الله بأعمالك، اذهب به، فإن الله لا يأخذ عبداً عند أول ذنب، اذهب به إلى السجن. فقال أبو عبيدة: فكنت آتية في السجن، ومعه عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، فوالله إني ذات ليلة في سقيفة السجن، بين النائم واليقظان، إذ مولى لمروان قد استفتح، ومعه عشرون رجلاً من موالي مروان، من الأعاجم، ومعه صاحب السجن، ففتح لهم فدخلوا، وأصبحنا فإذا عبد الله بن عمر، وإبراهيم بن محمد ميتين، فانكسر لذلك مسلم بخراسان، إذا بلغه موت إبراهيم، وانكسرت الشيعة، واستعلى أمر الكرمانى؛ فلما رأى أبو مسلم ذلك قال له: إنا معك، ثم دارت الأحوال بين نصر والكرمانى، حتى غدر نصر بالكرمانى فقتله وصلبه، فخاف نصر على نفسه من أبي مسلم.

ذكر ما أمال أصحاب الكرمانى إلى أبي مسلم:

قال: وذكروا أن أبا مسلم كتب إلى نصر: إنه قد جاءنا من الإمام كتاب فهلّم نعرضه عليك، فإن فيه بعض ما تحب. فدخل عليه رجل فقال: "إن الملاء يأثمرون بك ليقتلوك، فاخرج إني لك من الناصحين" القصص: 20.

فقال نصر: ادخل فالبس ثيابي، فدخل بستاناً له، وقد تقدم إلى صاحب دوابه، فأتاه بدواب، فركب وهرب، معه داود بن أبي داود، وهرب معه بنوه، وتفرق أصحابه، وجاء القوم إلى أبي مسلم فأعلموه أنه قد خرج، ولا يدرون أين توجه، فاستولى أبو مسلم على خراسان، فاستعمل عليها عماله، ثم وجه أبا عون في ثلاثين ألفاً إلى مروان؛ فلما بلغ مروان الخبر خرج حتى أتى حران، فتخمل بعياله وبناته وأهله، وقد كان يتعصب قبل، فجفا أهل اليمن وأهل الشام وغيرهم، وقتل ثابت بن نعيم، والسمط بن ثابت، وهدم مدائن الشام، وتحول إلى الجزيرة. قال إسماعيل بن عبد الله القسري: دعاني مروان فقال: يا أبا هاشم وما كان يكتنني قبلها، قد ترى ما حل من الأمر وأنت الموثوق به، ولا مخبأ بعد بؤس، ما الرأي؟ فقلت: يا أمير المؤمنين على ما أجمعت؟ قال: على أن أرتحل بموالي وعيالي وأموالي، ومن تبعني من الناس حتى أقطع الدرب، ثم أميل إلى مدينة من مدائن الروم، فأنزله، وأكاتب صاحب الروم، وأستوثق منه، فما يزال يأتيني الخائف والمهارب حتى يلتف أمري. قال إسماعيل: وذلك والله الرأي. فلما رأيت ما أجمع عليه، ورأيت سوء آثاره في قومي - من قحطان -، وبلائه القبيح عندهم، قلت له: أعيزك بالله يا أمير المؤمنين من هذا الرأي، أن تحكم فيك أهل الشرك، وفي بناتك وحرملك، وهم الروم لا وفاء لهم، ولا تدري ما تأتي به الأيام، فإن أنت حدث عليك حادث بالروم، ولا يحدث إلا خير، ضاع أهلك من بعدك، ولكن أقطع الفرات، ثم استدع الشام جنداً جنداً، فإنك في كنف وجماعة وعزة، ولك في كل جند صارم؛ يسرون معك، حتى تأتي مصر، فإنها أكثر أرض الله مالاً - وخيلاً -، ورجالاً، ثم الشام أمامك، وأفريقية خلفك، فإن رأيت ما تحب انصرفت إلى الشام، وإن كانت الأخرى مضيت إلى أفريقية.

قال: صدقت، ثم استخار الله وقطع الفرات، فمر بكور من كور الشام، فوثبوا عليه، فأخذوا مؤخر عسكره فانتهبوه، ثم مر بمحص فصنعوا له مثل ذلك، ثم مر بأهل دمشق فوثبوا عليه، ووثب به الوليد بن معاوية، وكان عامل مروان على دمشق، ثم مضى إلى الأردن، فوثب بن هاشم بن عمر، ثم مرّ بفلسطين فوثب به الحكم، ثم مضى إلى مصر فاتبعه الحجاج بن زمل السكسكي. فقليل له: أتبعه وقد عرفت بغضه لقومك؟ فقال: ويحكم إنه أكرمني لمثل هذا اليوم لآخذ له، وتبعه أيضاً أبو سلمة الخلال وثعلبه بن سلامة، وكان عامله على الأردن، وتبعه أيضاً الرّحس فقال: إني لأسير مع مروان حيث جزنا فلسطين. فقال: يا

رماحس انفرجت عني قيس انفراج الرأس ما تبغي منهم أحد، وذلك أنا وضعنا الأمر في غير موضعه، وأخرجناه من قوم أيدنا بهم، وخصصنا به قوماً، والله ما رأينا لهم وفاء ولا شكراً.

تولية أبي مسلم قحطبة بن شبيب قتال مروان:

قال: وذكروا أن الهيثم بن عديّ أخبرهم عن رجال أدركوا الدولة وصحبوا أهلها. قالوا: لما استولى أبو مسلم على خراسان، وولى قحطبة الطائي قتال مروان بن محمد، وبعث معه ثلاثين ألفاً من رجال اليمن وأهل الشيعة، وفرسان خراسان، وخرج مروان وهو يريد أبا مسلم بخراسان، ومعه مئة ألف فارس سوى أصحاب الحمولة، فهرب من بين يديه أبو العباس، وأبو جعفر، وعيسى بن علي بن عبد الله بن عباس، فلاحقوا بالكوفة، فبعث أبو العباس إلى أبي سلمة الخلال، واسمه حفص بن سليمان، وكان والياً لإبراهيم بن محمد على الشيعة بالكوفة فأمره إن بلغه أمر فيه قوة لأبي مسلم بخراسان أن يظهر أمره بالكوفة، ويدعو إليه، ويناهض صاحب الكوفة، ففعل ذلك أبو سلمة، فلما غلظ أمر أبي مسلم بخراسان، واستولى عليها، وبعث الجيوش إلى مروان أظهر أمره بالكوفة، وطرد عامل الكوفة، فخرج هارباً.

ذكر البيعة لأبي العباس بالكوفة

قال: وذكروا أن أبا مسلم لما بلغه أن أبا سلمة قد أظهر أمره بالكوفة، ودعا إلى محمد، وجه رجلاً من قواده إلى الكوفة في ألفي فارس، وأمره أن يسرع السير حتى يأتيها، فأقبل ذلك القائد حتى دخل الكوفة، فلقني غلاماً أسود لأبي العباس، فقال له: أين مولاك؟ قال: هو في دار هاهنا. قال: دلي عليه، فدله على الدار، فاستفتح الباب، ثم دخل عليه، فسلم عليه بالخلافة، وكان أبو سلمة يريد صرف الخلافة إلى ولد عليّ بن أبي طالب، وكان ينهى أبا العباس عن الخروج، ويقول له: إن الأمر لم يتم، وإن موالي بني أمية قائمون بالحرب، والأمر أشد مما كان. فقال أبو العباس: إن أبا سلمة منعني عن الخروج حتى يولي العمال، ويعمل الخراج. فقال القائد: لعن الله أبا سلمة، والله لا أجلس حتى تخرج إلى الناس، فخرج له مع رجاله إلى المسجد، ونودي الصلاة جامعة؛ فصعد أبو العباس المنبر، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه، ثم ذكر بني أمية وسوء آثارهم، وذكر العدل فحضر عليه، ووعد الناس خيراً، ورجا لهم الإصلاح وقسمة الفيء على وجهه، ثم دخل الإمارة، وجلس الناس؛ فلما بلغ أبا سلمة خروجه أتاه يعتذر إليه، فقبل ذلك منه، وأراه المكانة منه، والخاصة به، وقد كان علم أبو العباس الذي أراد أبو سلمة من صرف الخلافة إلى ولد علي بن أبي طالب.

حرب مروان بن محمد وقتله

قال: وذكروا أن قحطبة بن شبيب، لما انتهى إلى بعض كور الشام، التقى بمروان فقاتله، فانهزم مروان، فأقحم قحطبة في طلب مروان فرسه في الفرات، فحمله الماء، فمات فيه، وقد أصاب أهل عسكر قحطبة من أموال مروان، وأمتعة عسكره ما لا يحصى كثرة، فتناول اللواء حميد بن قحطبة، وعبر الفرات حتى أتى الشام، فقبل له: إن مروان ترك الطريق إلى دمشق وذهب صالح بن علي بن عبد الله بن عباس، وكان بناحية من الشام، وقد اجتمع إليه الناس لما علموا من قرابته لأmir المؤمنين؛ فلما اجتمع مع حميد بن قحطبة سلم إليه الأمر؛ وقال الناس: إنه خرج بإظهار الدعوة لأبي العباس من غير أمره، فلما سلم الأمر إلى صالح بن علي، أتاه كتاب أبي مسلم، أن يرجع بن قحطبة ببعض عساكره إلى العراق، فيكون فيها حتى يأتيه أمره، فأتى صالح بن علي كتابه بأنه قد صير إليه الشام، وما وراءها إلى المغرب، ويأمره فيه ببعثه الجيوش في طلب مروان، فولى صالح بن علي رجلاً من الأزد، يقال له أبو عون على مصر، وأمره بطلب مروان في أرض المغرب، وبعثه في عشرين ألفاً، وكان سليمان بن هشام بن عبد الملك قد نافر مروان بن محمد، وقتله مراراً قبل أن يشتد أمر أبي مسلم، فسار إليه في أربعة آلاف، وذلك بعد خروج قحطبة من عند أبي مسلم، فترل به سليمان، وكانت بينه وبين أبي العباس مودة قديمة، فبايع أبا مسلم على طاعة أبي العباس، فسر به أبو مسلم وشيعته، ثم سيره في طلب قحطبة ممدداً له، وقد قاتل مروان قحطبة قبل قدوم سليمان بيومين، فلما نظر مروان إلى دخول سليمان بن هشام في عسكر قحطبة، وكثرة من جاء معه انهزم، فمضى سليمان مع حميد بن قحطبة في طلبه، ولم يكن مروان انهزم عنه غلبة، ولكنه كان نظر في كتب الحدثنان، فوجد فيها أن طاعة المسودة لا تجاوز الزاب، فقال ذلك لوزرائه. فقبل له: إن بمصر زاباً آخر. قال: فإليها نذهب إذاً، والزاب الذي أراد علمه هو بأرض المغرب، فأقبل مروان وهو يريد مصر، فالتقت الخيل، فانهزمت خيل أبي عون، وأسر جماعتهم وصاحب أمرهم، فأتى مروان بالأسارى، فقال مروان لجماعته: شدوا أيديكم بالأسرى، فقد أجننا الليل، وبات مسروراً. فلما أصبح جعل يهنئ أصحابه للقاء القوم، فأقبل سليمان بن هشام، وأبو عون وكان مروان قد أرخى حبال الجسر، وتوسط أصحابه فيما هنالك وهم آمنون فقال أبو عون للقبط: هل لهذا النهر من مخاضة، فقالوا له: ما علمنا ذلك، ولا بلغنا أن أحداً خاضه قط، فقطع عما قصد وأراد. فكتب إلى صالح بن علي بذلك، وسأله أن يبعث إليه بمراكب ساحل البحر عاجلاً، فبينما هو في ذلك، إذ أتاه رجل من القبط فقال له: إن أبي كان يقرأ الكتاب، وكان يحدثنا بأمور تكون بعده، ويصف لنا موضعاً يجعله الله لكم تخوض فيه الخيل

عند تلك الأمور، وقد اختبرت ذلك الليلة، فسرّ بذلك أبو عون، ثم بعث معه الخيل إلى ذلك الموضع، بعد أن وصله ووعدته خيراً وكان مروان نظراً إلى الرايات السود بناحية مصر، ونظر إلى الخيل تعدو النهر، ولا يشك أنهم لا يجدون سبيلاً إلى عبوره، فلم ينشب أهل عسكر مروان أن ينظروا إلى خيل أبي عون قد جاوزت النيل، فعبأ مروان أصحابه وأهل بيته، ثم خطبهم وحضهم على الصبر. وقال لهم: إن الجزع لا يزيد في الأجل، وإن الصبر لا ينقص الأجل وأقبل القوم فاقتتلوا من وقت صلاة الصبح إلى أن مالت الشمس، فأصيب عبد الله ومحمد ابنا مروان وبنو أبيه أكثرهم، وولد عبد العزيز، وصابر القوم، فلما لم يبق حوله إلا قدر الثلاثين، حمل على القوم فأكردهم ورجع، فجعل أصحابه يفترقون عنه. فلما رأى ذلك نزل عن فرسه وأنشأ يقول متمثلاً:

وكلاً أراه وخيماً وبيلاً

فسيري إلى الموت سيراً جميلاً

ذلّ الحياة وهول الممات

فإن كان لا بد من ميتة

فوئب رجل إلى فرسه فأخذه. فقال له مروان: أكرمه فإنه أشقر مروان. ثم كسر غمد سيفه، وقاتل قتلاً شديداً، ثم أصيب، فترل أبو عون، فأمر بضرب قبابه، وأمر سليمان بن هشام بطلب المنهزمين، حتى أصيب عامتهم واستأسر منهم من استأسر، وكان فيمن أسر منهم عبد الحميد كاتبه، وحكم المكي مؤذنه، فاستبقاهما أبو عون، وبعث بهما إلى صالح بن علي، ثم أمر أبو عون بطلب جثة مروان على شاطئ النيل. فلما كان من الغد، ركب أبو عون وسليمان بن هشام لينظرا مروان، فنظرا إليه، ثم تحول أبو عون إلى سليمان. فقال: الحمد لله الذي شفى صدرك قبل الموت من مروان، فهل لك يا أبا أيوب أن تذهب إلى أمير المؤمنين بكتابي وبما هيا الله على يديك وشفا به صدرك، فيفعل بك خيراً، ويعرف من قرابتك ونصحك ما أنت أهله؟ فرضي بذلك سليمان، فكتب وسار. فلما قدم سليمان بن هشام على أبي العباس أمير المؤمنين، رحب به وقربه؟ واستلطفه، وأنزله بعض دور الكوفة، وفعل به ما لم يفعل بأحد سواه، من البر والإكرام، وكان سليمان يختلف إلى مائدة أبي العباس في كل يوم، فيتغدى معه، ويتعشى، وكان كأحد وزرائه وفوقهم، وكان يجلس أبا جعفر عن يمينه، وسليمان عن يساره.

قتل أبي سلمة الخلال:

قال: وذكروا أن أبا العباس لما تمت له الأمور واستوثقت، استشار وزراءه في قتل أبي سلمة، فأدار القوم الرأي فيه، وكان أبو سلمة يظهر الإدلال والقدرة على أمير المؤمنين، وكان يقيم عنده في كل ليلة إلى

حين من الليل، فإذا أراد الخروج والرجوع إلى منزله، قربت إليه دابته إلى المجلس، فركب منه دون غيره، ثم يخرج إلى داره. فقالوا له: إنك إن قتلته ارتاب أبو مسلم، ولم تأمن أن يحدث لذلك حدثاً، ولكن الرأي أن تكتب إليه بالذي رابك منه، والذي يريده من فسخ ما أنت فيه، فكتب إلى أبي مسلم بذلك، وكان أبو العباس وأبو جعفر لا يسميان عبد الرحمن - يعني أبا مسلم إلا عمّاً - . فلما قدم الكتاب إلى أبي مسلم، كتب إلى أبي العباس: إن كان رابك منه ريب فاضرب عنقه. فلما أتاه الكتاب قال له وزراؤه: إنك لا تأمن من أن يكون ذلك غدرًا من أبي مسلم، وأن يكون إنما يريد أن يجد السبيل إلى ما تتخوف منه، ولكن اكتب إليه أن يبعث إليك برجل من قواده يضرب عنقه. فكتب إليه بذلك، وذكر في كتابه: إني لا أقدم ولا أؤخر إلا برأيك. فبعث إليه برجل يقال له مرار الضبي. فلما قدم على أبي العباس أمر ذلك الضبي أن يقعد له في الظلمة، في داخل الإمارة بالكوفة، فإذا خرج ضربه بالسيف برأسه، فقتله، ثم أمر بصلبه، فلما أصبح الناس إذا هم بأبي سلمة مصلوباً على دار الإمارة.

قتل رجال بني أمية بالشام:

قال: وذكروا أن أبا العباس ولى عمه عبد الله بن علي، الذي يقال له السفاح: الشام، وأمره أن يسكن فلسطين، وأن يجد السير نحوها، وهنأه بما أصاب من أموال بني أمية، وكتب إلى صالح بن علي أن يلحق بمصر والياً عليها. فقدم السفاح فلسطين، وتقدم صالح إلى مصر، فأثاها بعد قتل مروان بيومين، وأن السفاح بعث إلى بني أمية، وأظهر للناس أن أمير المؤمنين وصاه بهم، وأمره بصلبتهم، وإلحاقهم في ديوانه، ورد أموالهم عليهم، فقدم عليه من أكابر بني أمية وخيارهم، ثلاثة وثمانون رجلاً، وكان فيهم عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك، وأبان بن معاوية بن هشام، وعبد الرحمن بن معاوية، وغيرهم من صناديد بني أمية. فأما عبد الرحمن بن معاوية، فلقبه رجل كان صنع به براً، وأسداً خيراً، وأولاه جميلاً. فقال له: أطعني اليوم في كلمة، ثم اعصني إلى يوم القيامة. فقال له عبد الرحمن: وما أطيعك فيه اليوم؟ فقال له الرجل: أدرك موضع سلطانك، وقاعدتك المغرب، النجاء النجاء، فإن هذا غدر من السفاح، ويريد قتل من بقي من بني أمية. فقال له عبد الرحمن: ويحك إنه كتاب أبي العباس، قدم عليه، يأمره فيه بصلتنا، ورد أموالنا إلينا، وإلحاقنا بالعطاء الكامل، والرزق الوافر. فقال له الرجل: ويحك أتغفل؟ والله لا يستقر ملك بني العباس، ولا يستولون على سلطان، ومنكم عين تطرف. فقال له عبد الرحمن: ما أنا بالذي يطيعك في هذا. فقال الرجل: أفتأذن لي أن أنظر إلى ما تحت ظهرك مكشوفاً؟ فقال له: وما تريد بهذا؟ فقال له: أنت والله صاحب الأمر بالأندلس، فاكشف لي، فكشف عبد الرحمن عن ظهره، فنظر الرجل فإذا العلامة التي

كانت في ظهره قد وجدت في كتب الحدّثان، وكانت العلامة خالاً أسود عظيمًا مرتفعاً على الظهر هابطاً، فلما نظر إليه الرجل قال له: النجاء النجاء، والهرب الهرب، فإنك والله صاحب الأمر، فاخرج فإننا معك، ومالي لك، ولي عشرون ألف دينار مصرورة، كنت أعددتها لهذا الوقت. فقال له عبد الرحمن: وعمن أخذت هذا العلم؟ فقال الرجل: من عمك مسلمة بن عبد الملك. فقال له عبد الرحمن: ذكرت والله عالماً بهذا الأمر، أما لئن قلت ذلك لقد وقفت بين يديه وأنا غلام، يوم توفي أبي معاوية، وهشام يومئذ خليفة، فكشفت عن ظهري، فنظر إلى ما نظرت إليه. فقال لهشام جدي وهو يبكي: هذا اليتيم يا أمير المؤمنين صاحب ملك المغرب. فقال له هشام: وما الذي أبكاك يا أبا سعيد؟ ألهذا تبكي؟ فقال: أبكي والله على نساء بني أمية وصبيانهم، كأني بهم والله قد أبدلوا بعد أساورة الذهب والفضة الأغلال والحديد، وبعد الطيب والدهن البقل والعقار، وبعد العز الذلّ والصغار. فقال هشام: أحان زوال ملك بني أمية يا أبا سعيد؟ فقال مسلمة: إي والله حان، وإن هذا الغلام يعمر منهم، ثم يصير إلى المغرب فيملكها. فقال له الرجل: فاقبض مني هذا المال، واخرج بمن تثق به من غلمانك. فقال عبد الرحمن: والله إن هذا الوقت ما يوثق فيه بأحد، فولى ذاهباً، وخرج لا يدري متى خرج، فلحق بالمغرب، وأقبل القوم من بني أمية، وقد أعد لهم السفاح مجلساً فيه أضعافهم من الرجال، ومعهم السيوف والأجرزة، فأخرجهم عليهم، فقتلهم وأخذ أموالهم، واستعفى عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك، وكان عبد الواحد قد بذ العابدين في زمانه، وسبق المجتهدين في عصره، فركب السفاح إلى أموال عبد الواحد، وكان عبد الواحد قد اتخذ أموالاً معجبة، تطرد فيها المياه والعيون، فأمره السفاح أن يصيرها إليه، فأبى عليه، واختفى منه، فأخذ رجالاً من أهله، فتواعدهم السفاح، وأمر بحبسهم حتى دلوه عليه. فلما قبضه أمر بقتله، ثم استقصى ماله، فبلغ ذلك أبا العباس أمير المؤمنين، وكان أبو العباس يعرفه قبل ذلك، وكان عبد الواحد أفضل قرشيّ كان في زمانه عبادة وفضلاً. فقال أبو العباس: رحم الله عبد الواحد، ما كان والله ممن يقتل لغائلة، ولا ممن يشار إليه بفاحشة، وما قتلته إلا أمواله، ولولا أن السفاح عمي، وذمامه ورعاية حقه عليّ واجب، لأقدت منه، ولكن الله طالبه، وقد كنت أعرف عبد الواحد برّاً تقيّاً، صواماً قواماً. ثم كتب إلى عمه السفاح ألا يقتل أحداً من بني أمية، حتى يعلم به أمير المؤمنين، فكان هذا أول ما نقم أبو العباس على عمه السفاح.

ذكر قتل سليمان بن هشام:

قال: وذكروا أن عيسى بن عبد البر أخبرهم قال: كان سليمان بن هشام أكرم الناس على أبي العباس أمير

المؤمنين، لحسن بلائه مع قحطبة، وقيامه معه على مروان بن عمه، وكان هو الذي تولى كبره، وقتل على يديه، فكان لذلك أخصّ الناس بأبي العباس، فبينما هما يوماً وقد تضاحكا وتداعبا، إذ أتى رجل من موالي أبي العباس يقال له سديف، فناول أبا العباس كتاباً فيه:

بالبهاليل من بني العباس

بعد ميل من الزمان وياس

واقطعن كل نخلة وعراس

وبها منكم كحر المواسي

قربهم من منابر وكراسي

وقتيلاً بجانب المهّراس

أصبح الملك ثابت الأساس

طلبوا وتر هاشم فشفوها

لا تقبلن عبد شمس عثارا

ذلها أظهر التودد منها

ولقد غاظني وغاز سوائي

واذكرن مقتل الحسين وزيداً

فقرأها أبو العباس، ثم قال له: نعم، ونعمًا عين وكرامة، سننظر في حاجتك، ثم ناول الكتاب أبا جعفر، ثم سلم سليمان بن هشام، ثم قام وخرج، فتطلع رجل من موالي بني أمية. كانت له خاصة وخدمة في بني العباس، فعرف بعض ما في الكتاب؛ فلما خرج من عند أمير المؤمنين مرّ بسليمان بن هشام في غرفة له بالكوفة فسلم، ثم قال لسليمان: من عندك يا أبا أيوب، فقال له: ما عندي غير ولدي. فقال له: إن الملاء يأثمون بك ليقتلوك، فاخرج إني لك من الناصحين. فخرج سليمان من ليلته هارباً، فلحق ببعض نواحي الجزيرة وكتب إلى مواليه وصنائه، فاجتمع إليه منهم خلق كثير، فبعث إليه أبو العباس بعثاً يقاتله، فأنهزم ذلك البعث، ثم بعث إليه بعثاً آخر، فهزمه أيضاً. قال: فتنقل سليمان عن ذلك الموضع إلى غيره، ثم بعث إليه بعثاً آخر، فأسر سليمان وولده، فأتى بهما أسيرين إلى أبي العباس، فأمر، فقطعت لهما خشبتان، رقمتا إليهما، فأمر بضرب رقابهما، وصلبهما، فقال سليمان لولده: لمقدم يا بني على مصيبي بك، فتقهقر الغلام، ثم تقدم فقتل، ثم قتل سليمان، وصلبا على باب دار الإمارة بالكوفة.

خروج السفاح على أبي العباس وخلعه

قال: وذكروا أن الهيثم بن عدي أخبرهم قال: لما ولي السفاح الشام، واستصفى أموال بني أمية لنفسه، أعجبته نفسه، وحسد بن أخيه على الخلافة فأظهر الطعن على أبي العباس، والتقص له. فلما بلغ ذلك أبا العباس، كتب إليه يعاتبه على ما كان منه، فزاد ذلك عجباً وحسداً بما فيه، فحبس الخراج، ودعا إلى نفسه، وخلع طاعته، ثم قرب موالي بني أمية وأطمعهم، وسد ثغورهم، وأبدى العزم، وأظهره على محاربة أبي العباس، فلما انتهت أخباره إلى أبي العباس، كتب إلى أبي مسلم يستغيثه، ويذكر عظيم يده عنده،

ويسأله القدوم عليه لأمر السفاح؛ فقدم أبو مسلم، فأقام عنده أياماً، ثم خرج إلى السفاح ومعه أجناده وقواده، فلقي السفاح على الفرات فهزمه، واستباح عسكره، وأخذ أسيراً، فقدم به على أبي العباس. فلما قدم إليه، وأدخل عليه قال: يا عمي أحسنّا وواسينا فحسدت وبعيت، وقد رأيت تعطفاً عليك، وصلة لرحمك، أن أحبسك حبساً رقيقاً، حتى تؤدّب نفسك، ويبدو ندمك، ثم أمر فبنى له بيت. جعل أساسه قطع الملح، فحبسه فيه. فلما كان بعد أيام أرسل الماء حول البيت، فذاب الملح، وسقط البيت عليه، فمات فيه، ورد أبو مسلم إلى عمله بخراسان، فأقام فيها بقية عامه، ثم أخرج أبو العباس أبا جعفر والياً على الموسم، وخرج أبو مسلم أيضاً حاجاً من خراسان.

اختلاف أبي مسلم على أبي العباس:

قال: وذكروا أن أبا العباس وجه أبا جعفر في ثلاثين رجلاً إلى أبي مسلم،، وكان فيهم الحجاج بن أرطاة الفقيه، والحسن بن الفضل الهاشمي، وعبد الله بن الحسين، فلما توجه أبو جعفر إلى أبي مسلم بخراسان، وقدم عليه، استخف به بعض الاستخفاف، ولم يزد الإجلال له، وجعل يعظم في كلامه وفعله الخليفة، ولم يزل أبو مسلم يتخوف أن يصنع به مثل ما صنع بأبي سلمة الخلال، وكان لا يظهر ذلك لأحد. فلما قدم أبو جعفر عليه، ومعه الثلاثون رجلاً، وفيهم عبد الله بن الحسين، قام إليه سليمان بن كثير، فقال: يا هذا إنا كنا نرجو أن يتم أمركم، فإذا شئتم فادعوا إلى ما تريدون. فظن أنه دسيس من أبي مسلم، فخاف ذلك، فبلغ أبا مسلم أن سليمان بن كثير سامر عبد الله بن الحسين بن علي. فقال لسليمان: بلغني أنك سامرت هذا الفتى. قال: أجل، له قرابة وحق علينا وحرمة، فسكت. فأتى عبد الله بن الحسين أبا مسلم فذكر له ذلك، وظن أنه إن لم يفعل اغتاله أبو مسلم. فبعث أبو مسلم إلى سليمان بن كثير، فقال له: أتخفظ قول الإمام: من أهتمته فاقتله؟ قال: نعم. قال الإمام: قد أهتمتك فقال: ناشدتك الله، قال: لا تناشدني وأنت منطو على غش فأمر فضربت عنقه، وكتب أبو مسلم إلى محمد بن الأشعث، أن يأخذ عمال أبي سلمة، فيضرب أعناقهم.

واستعمل أبو العباس عيسى بن عليّ على فارس، فأخذه محمد - بن الأشعث - فهمّ بقتله. فقيل لمحمد: إن هذا لا يسوغ لك. قال: أمرني أبو مسلم أن لا يقدم عليّ أحداً إلا ضربت عنقه. فقال: ما كان أبو مسلم ليفعل شيئاً إلا بأمر الإمام. فلما قدم أبو جعفر من عند أبي مسلم قال لأبي العباس: لست بخليفة، ولا أمرك بشيء، إن لم تقتل أبا مسلم. فقال أبو العباس: وكيف ذلك؟ قال: لا والله ما يعبأ بنا، ولا يصنع إلا ما يريد. فقال له أبو العباس: اسكت واكتمها.

قتال بن هبيرة وأخذه:

قال: وذكروا أن أبا العباس وجه أبا جعفر إلى مدينة واسط، فقدم على الحسين بن قحطبة وهو على الناس؛ وكتب أبو العباس إلى الحسين بن قحطبة: إن العسكر عسكرك، والقواد قوادك، فإن أحببت أن يكون أخي حاضراً، فأحسن موازرتة ومكانفته. وكتب إلى أبي نصر مالك بن الهيثم بمثل ذلك، وذكروا أن بن هبيرة كان قد نصب الجسور بين المدينتين، فقالت اليمانية الذين مع بن هبيرة: لا والله لا نقاتل على دعوة بني أمية أبداً، لسوء رأيهم فينا، وبغضهم لنا؛ وقالت القيسية: لا والله لا نقاتل حتى يقاتل اليمانية، فلم يكن يقاتل مع بن هبيرة إلا صعاليك الناس، وأهل العطاء. وكان كثيراً ما يتمثل وقول:

أعيا على ذي الحيلة الصانع

الثوب إن أنهج فيه البلى

فانسع الخرق على الراقع

كنا نرقعها إذا مزقت

وكان من رأي بن هبيرة أن لا يعطى طاعة لبني العباس، وكان رأيهم أن يدعو إلى محمد بن عبد الله بن الحسين، فاطلع على ذلك أبو العباس، وخاف أن يثور اليمانية مع بن هبيرة في ذلك. فكتبهم أبو جعفر، وقال في كتابه لهم: السلطان سلطانكم، والدولة دولتكم، وكتب إلى زياد بن صالح الحارثي بذلك وكان عامل بن هبيرة في المدينة، مكان عامله قبل ذلك على الكوفة، فأجاب زياد بن صالح، وذلك لما خاف أن يدخل المدينة فيقتل بها. فلما كان مغيب الشمس قاموا إليه. فلما صلى المغرب، ركب فطاف في مساحله وأبوابه، فرجع عتمة، فتعشى، ثم صلى. فأقبل علي بن الهيثم فقال: والله ما أخلف غصة أعظم ولا أهم إلي منك، لأنك مع هؤلاء، ولست أدري ما يكون بعد اليوم، وأرى الأمر قد استتب لهؤلاء القوم في المشرق والمغرب، ولكن إن لقيت أبا العباس أعلمته من أمرك مثل الذي أعلمته من أمري. قال: ما أخاف تقصيرك، ثم قال: لست أثق بولد ولا بغيره، ثقي بك فيما أريد أن أوطده، تأخذ مفاتيح هذه المدينة، حتى تصبح فتأتي بها بن هبيرة. فقلت: انظر ما تصنع في خروجك، أثق بالقوم؟ قال: نعم، قد جرى بيني وبينهم ما أثق به، وأتاني كتاب أبي العباس بكل ما أحب، وكتاب أبي جعفر. فقلت: يا أبا الربيع، أخاف أن لا يوفي لك. فلما أدهم الليل وانتصف قام فصلى ركعات، ثم أمر غلمانهم فحملوا متاعه على أربعة بغال، ثم أخرج أربعة غلمان له، وابنه ثابت على بردون له، ثم خرج وأغلق الباب. فلما انتهى الخبر إلى بن هبيرة بكى وقال: ما يوثق بأحد بعد زياد بن صالح، بعد إيثاري إياه، وإكرامي وتفضيلي له، وما صنعت به. قلت: هو هنالك، والله خير لك منه هاهنا. قال: وترى ذلك؟ قلت: نعم. قال: ثم مشت

الكتب والرسل بينهم أي بين أبي جعفر وابن هبيرة حتى صار أمرهم إلى أن يلقاه، ونهض بن هبيرة إليهم، وتخلّى مما بيده لهم.

كتاب الأمان:

قال: وذكروا أن رجلاً من قيس يقال له أبو بكر بن مصعب العقيلي، سعى في كتاب الصلح والأمان عند أبي جعفر، حتى تم له، فأتى بن هبيرة، وفيه: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من عبد الله بن محمد بن علي أبي جعفر، ولي أمر المسلمين، ليزيد بن هبيرة ومن معه من أهل الشام والعراق، وغيرهم في مدينة واسط وأرضها، من المسلمين والمعاهدين، ومن معهم من وزرائهم: إني أمنتكم بأمان الله الذي لا إله إلا هو، الذي يعلم سرائر العباد وضمائر قلوبهم، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وإليه الأمر كله، أماناً صادقاً لا يشوبه غش، ولا يخالطه باطل، على أنفسكم وذرائكم وأموالكم، وأعطيت يزيد بن عمر بن هبيرة، ومن أمنتته في أعلى كتابي هذا بالوفاء، بما جعلت لهم من عهد الله وميثاقه، الذي واثق به الأمم الماضية من خلقه، وأخذ عليهم به أمره عهداً خالصاً مؤكداً، وذمة الله، وذمة محمد ومن مضى من خلفائه الصالحين، وأسلافه الطيبين التي لا يسع العباد نقضها، ولا تعطيل شيء منها، ولا الاحتقار بها، وبها قامت السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، تعظيماً لها، وبها حققت الدماء، وذمة روح الله وكلمته عيسى بن مريم، وذمة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وذمة جبريل وميكائيل وإسرافيل، وأعطيتك ما جعلت له من هذه العهود والمواثيق، ولمن معك من المسلمين، وأهل الذمة بعد استثماري فيما جعلت لك منه عبد الله بن محمد أمير المؤمنين أعزّ الله نصره، وأمر بإنفاذه لكم، ورضي به، وجعله لكم وعلى نفسه، وتسليم ذلك من قبله من وزرائه وقواده، وأنصار الحق من شيعته، من أهل خراسان، فأنت وهم آمنون بأمان الله، ليس عليك حد، ولا تؤاخذ بذنب أتيته، وكنت عليه في خلاف أو مناوأة، أو قتل أو زلة، أو جرم أو جنائية، أو سفك دماء خطأ أو عمداً، أو أمر سلف منك أو منهم، صغيراً أو كبيراً في سر أو علانية، ولا ناقض عليك ما جعلت لك من أمان هذا، ولم أحنك فيه، ولا ناكث عنه، وأذنت لك في المقام في المدينة الشرقية إلى الأجل الذي سألت، ثم أسلك حيث بدا لك من الأرض آمناً مطمئناً، مكلوئاً أنت ومن سألته أن يؤذن له في المسير معك. ومن تبعك، وأهل بيتك. والخمس مئة رجل على ما سألت من دواهم وسلاحهم، ولباس البياض لا يخافون غدرًا، ولا إخفاراً بك حيث أحببت، من بر أو بحر، وأنزل حيث شئت من الأرض إلى أن تنتهي إلى منزلك من أرض الشام، فأنت آمن بأمان الله، ممن مررت بهم من عمالنا ومسالحنا ومراصدنا، ليس عليك شيء تكرهه في سر ولا

علانية، ولك الله الذي لا إله إلا هو، لا ينالك من أمر تكرهه في ساعة من ساعات الليل والنهار، ولا أدخل لك في أماني الذي ذكرت لك غشاً ولا خديعة ولا مكرراً. ولا يكون مني في ذلك دسيس بشيء مما تخافه على نفسك؟ ولا خديعة في مشرب، ولا مطعم ولا لباس، ولا أضمر لك عليه نفسي إلى ارتحالك من مدينة واسط إلى دخولك على عسكري، والغدو والرواح إذا بدا لك، والدخول أي ساعات من ساعات الليل والنهار أحببت، فاطمئن إلى ما جعلت لك من الإمان، والعهود والمواثيق، وثق بالله وبأمر المؤمنين فيما سلم منه، ورضي به، وجعلته لك ولمن معك على نفسي، ولك علي الوفاء بهذه العهود والمواثيق والذمم، أشد ما أخذه الله وحرمه. وما أنزل الله تبارك وتعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فإنه جعله كتاباً مبيناً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ونوراً وحجة على العباد، حتى ألقى الله وأنا عليه، وأنا أشهد الله وملائكته ورسله، ومن قرئ عليه كتابي هذا من المسلمين والمعاهدين بقبول هذه العهود والمواثيق، وإقراري بها على نفسي وتوكيدي فيها، وعلى تسليمي لك ما سألت ولا يغادر منها شيء، ولا ينكث عليك فيها، وأدخلت في أمانك هذا جميع من قبلي من شيعة أمير المؤمنين من أهل خراسان، ومن لأمر المؤمنين عليه طاعة من أهل الشام والحرب وأهل الذمة، وجعلت لك أن لا ترى مني انقباضاً ولا مجانبية ولا ازوراراً، ولا شيئاً تكرهه في دخولك علي إلى مفارقتك إياي، ولا ينال أحداً معك أمرٌ يكرهه، وأذنت لك ولهم في المسير والمقام، وجعلت لهم أماناً صحيحاً، وعهداً وثيقاً، وإن عبد الله بن محمد إن نقض ما جعل لكم في أمانكم هذا، فنكث أو غدر بكم أو خالف إلى أمر تكرهه، أو تابع على خلافه أحداً من المخلوقين في سرٍّ أو علانية، أو أضمر لك في نفسه غير ما أظهر لك، أو أدخل عليك شيئاً في أمانه، وما ذكر لك من تسليم أمير المؤمنين أو التماس الخديعة والمكر بك، وإدخال المكروه عليك، أو نوى غير ما جعل لك من الوفاء لك به، فلا قبل الله منه صرّفاً ولا عدلاً، وهو بريء من محمد بن علي وهو يخلع أمير المؤمنين، ويتبرأ من طاعته، وعليه ثلاثون حجة يمشيها من موضعه الذي هو به من مدينة واسط إلى بيت الله الحرام الذي بمكة حافياً راجلاً وكلّ مملوك يملكه من اليوم إلى ثلاثين حجة بشراء أو هبة أحرار لوجه الله، وكل امرأة له طالق ثلاثاً، وكل ما يملكه من ذهب أو فضة أو متاع أو دابة أو غير ذلك، فهو صدقة على المساكين، وهو يكفر بالله وبكتابه المنزل على نبيه، والله عليه بما وكّد، وجعل على نفسه في هذه الأيمان راع وكفيل، وكفى بالله شهيداً.

قالوا: وكان من رأي أبي جعفر الوفاء لابن هبيرة وأصحابه.

قدوم بن هبيرة على أبي العباس:

قال: وذكروا أن بن هبيرة وأصحابه لما جاءهم الكتاب بالأمان، ترددوا فيه أربعين يوماً يتدبرونه، ويستخبرون الله في الخروج إليهم، ثم عزم الله له في القدوم على أبي العباس وأبي جعفر، وكان أبو مسلم كثيراً ما كتب لأبي العباس أنه قل طريق سهل يلتقى فيه حجارة إلا أضر ذلك بأهله، ولا والله يصلح طريق فيه بن هبيرة وأصحابه، وكان أبو الجهم بن عطية عين أبي مسلم على أبي العباس فكان يكتب إليه بالأخبار، وكان أبو العباس لا يقطع أمراً دون رأي أبي مسلم، وقد كان بن هبيرة في تلك الأربعين ليلة يجمع لذلك الكتاب ممن يعبر الكلام والفقه طرقي النهار، فيترددون فيه، حتى بلغوا فيه الغاية التي يريدون، خرج بن هبيرة إلى أبي جعفر في ألف وثلاث مئة. فلما قدم أراد أن يدخل دار الإمارة على دابته. فقام الآذن فقال: مرحباً بك أبا خالد، أنزل راشداً، وقد طاف بالدار يومئذ نحو من عشرة آلاف رجل من أهل خراسان، مستلثمين في السلاح، أعينهم تزهو من تحت المغافر، على عواتقهم السيوف مشهورة، وعمد الحديد بأيديهم. فأتى بن هبيرة بوسادة، فطرحته له، فجلس عليها، ثم دعا الحاجب بالقواد، فدخلوا على أبي جعفر، ثم خرج سلام بن سلام فقال: ادخل يا أبا خالد. قال: ومن معي؟ قال: إنما استأذنت لك، فدخل، فوضعت له وسادة فجلس، فحدثه أبو جعفر طويلاً ثم نهض فركب، فأتبعه أبو جعفر بصره حتى انصرف.

قتل بن هبيرة:

قال: وذكروا أن أبا العباس كتب إلى أبي جعفر: أن اقتل بن هبيرة، فراده أبو جعفر بالكتاب. فكتب إليه أبو العباس: والله لتقتلنه أو لأبعثن إليك من يخرجك من عندك، ويتولى ذلك عليك. وكان بن هبيرة إذا ركب إلى أبي جعفر، ركب في ثلاث مئة فارس، وخمس مئة راجل، فقدم يزيد بن حاتم على أبي جعفر، فقال: أصلح الله الأمير، ما ذهب من سلطان بن هبيرة شيء، يأتينا فيتضعض به العسكر. فقال أبو جعفر: يا سلام قل لابن هبيرة لا يركب في مثل تلك الجماعة، وليأتينا في حاشيته. قال عدي: فأصبحنا، فخرج بن هبيرة أيضاً في مثل تلك الجماعة الذين كانوا يركبون معه، فخرج إليه سلام فقال: يقول لك الأمير ما هذه الجماعة؟ لا تسيرن إلا في حاشيتك، فتغير وجه بن هبيرة. فلما أصبح أتى في نحو من ثلاثين رجلاً قال له سلام: كأنك إنما تأتينا مباهياً. فقال بن هبيرة: إن أحببتم أن نمشي إليكم فعلنا. فقال سلام: ما نريد بذلك استخفافاً بك، ولكن أهل العسكر إذا رأوا جماعة من معك غمهم ذلك، فكان هذا من الأمير نظراً لك، فمكث طويلاً جالساً في الرواق. فقيل له: إن الأمير يحتجم، فانصرف راشداً، فلم يزل يركب يوماً ويطعم آخر، لا يجيء إلا في رجلين أو غلامه، وقد ختموا على الخزائن وبيوت الأموال،

وجعل القواد يدخلون على أبي جعفر فيقولون: ما تنتظر به؟ فيقول: ما أريد إلا الوفاء له حتى إذا اجتمع أمرهم على قتله، بعث إلى الحسين بن قحطبة فأتاه. فقال: لو سرت إلى هذا الرجل فأرحتنا منه. فقال: لا نريد ذلك، ولكن ابعث إليه رجلاً من قومه من مضر حتى يقتله، فتتفرق كلمتهم عند ذلك، فدعا خازم بن خزيمة، والهيثم بن شعبة. قال لهم أبو جعفر: ائتوا إلى بن هبيرة فجددوا على بيوت المال الختم، وعلى الخزائن، وبعث معهما من المضرية والقيسية أن يحضروا الإذن، وأريحونا من الرجل، ففعلوا، ثم دخلوا رحبة القصر في مئة رجل، فأرسلوا إلى بن هبيرة: إنا نريد حمل ما بقي في الخزائن. فقال: ادخلوا، فدخلوا الخزائن فطافوا بها ساعة، وجعلوا يخلفون عند كل باب عدة حتى دخلوا عليه. فقالوا: أرسل معنا من يدلنا على المواضع وبيوت الأموال. فقال: يا عثمان أرسل معهم من يريدون، فطاف خازم وأصحابه في القصر ساعة، وابن هبيرة عليه قميص له مصري، وملاءة موردة، وهو مسند ظهره إلى حائط المسجد في رحبة القصر، ومعه ابنه داود، وحاجبه، وكاتبه عمر بن أيوب، وعدة من مواليه وبنيه، وفي حجر بن هبيرة ولد صغير. فلما توثقوا من كل شيء أقبلوا نحوه، فلما رأهم قد أقبلوا إليه قال: والله إن في وجوه القوم لشراً. فلما دنوا منه قام أبو عثمان فقال: ما وراءكم؟ فنضح الهيثم بالسيوف، فأصاب حبل عاتقه، فصرعه، وقام ابنه داود فقاتل، فتفرقوا عليه فقتلوه ومواليه، ثم مضوا نحو بن هبيرة فخر ساجداً، وقال: ويحكم! نحوا عني هذا الصبي لا يرى مصري. قال: فضرب حتى مات ساجداً، ثم أخذوا رؤوسهم فأتوا بها أبا جعفر، ونادى المنادي بواسط: أمن الأمير خلق الله جميعاً إلا الحكم بن بشر، وعمر بن ذر. قال: فضاقت علي والله الأرض بما رحبت حتى خرجت، على دابتي ما لي هجير إلا آية الكرسي أتلوها، والله ما عرض لي أحد حتى تواريت، فلم أزل خائفاً حتى استأمن لي زياد بن عبد الله بن العباس فأمنه، وهرب الحكم بن عبد الله بن بشر إلى عسكره، وضاقت بخالد بن سلمة الأرض حتى أتى أبا جعفر، فاستأذن عليه فأمنه. وبلغ ذلك أبا العباس. فكتب إلى أبي جعفر: والله لو كانت له ألف نفس لأتيت عليها، اضرب عنقه، فهرب أبو علفة الفزاري، وهشام بن هبيرة، وصفوان بن يزيد، فلحقهم سعد بن شعيب فقتلهم، وقبض على أصحاب بن هبيرة، فقتل من وجوههم نحواً من خمسين، ثم أَمَّن الناس جميعاً، ونادى منادي أبي جعفر: من أراد أن يقيم فليقم بالجابية، ومن أحب أن يشخص فليشخص، وهرب القعقاع بن ضرار وحيد وعدة، حتى أتوا زياد بن عبد الله، فاستأمن لهم، فأمنوا جميعاً، وقوي ملك بني العباس، واستقرت قواعده. فلما قتل بن هبيرة، ونودي في أهل الشام: الحقوا شامكم، فلا حاجة لنا بكم، فسار أهل الشام حتى قدموا الكوفة، منهم من قدم، ومنهم من أخذ على عين التمر، ومنهم من أخذ على طريق المدائن، ثم لحقوا بالشام على طريق الفرات. واستعمل أبو جعفر على واسط ومن فيها الهيثم بن زياد، وخلف معه خيلاً، ثم انصرف أبو جعفر إلى أبي العباس، وهو

يومئذ بالحيرة، ثم وجه داود بن علي إلى الحجاز، فقتل من ظفر به من بني أمية وغيرهم، فتوجه إلى المثنى بن زياد بن عمر بن هبيرة باليمامة، فقتله وأصحابه، ثم تبعهم محمد بن عمار، وكان على الطائف فقتلهم، وتحول أبو العباس من الحيرة إلى الأنبار، فأمر أبو العباس برأس بن هبيرة فوضع بالحيرة على خشبة، ومعه غيره من عمال مروان، وبها رفع رأس مروان بن محمد، وعن يمينه رأس ثعلبة بن سلامة، ورأس عثمان بن أبي شعيب عن يساره، وانقطعت شيعة بني أمية، وطلبوا تحت كل حجر ومدّر.

اختلاف أبي مسلم على أبي العباس:

قال: وذكروا أن أبا مسلم كتب إلى أبي العباس يستأذنه في القدوم عليه فقدم عليه، فتلقاه الناس جميعاً، ومعه القواد والجماعة، والخيّل والنجائب، ثم استأذن أبا العباس في الحج، فقال: لولا أن أبا جعفر يحج لاستعملتك على الموسم. واستعمل أبا جعفر على الموسم، فقال أبو جعفر لأبي العباس: أتعني واقتل أبا مسلم، فوالله إن في رأسه لغدرة. فقال له: أي أخي، قد عرفت بلاءه وما كان منه. فقال أبو جعفر: هو أخطأ بذلك، والله لو بعثت سنوراً مكانه لبلغ ما بلغ في مئيل الدولة. قال أبو العباس: كيف تقتله؟ قال: إذا دخل عليك فحادثه، فإذا أقبل عليك دخلت فأتيت من خلفه، فضربتة ضربة آتت منها على نفسه. فقال أبو العباس: أي أخي، فكيف تصنع بأصحابه الذي يؤثرونه على أنفسهم ودينهم؟ قال: يؤول ذلك إلى خير، وإلى ما تريد. قال: يا أخي، إني أريد أن تكف عن هذا. فقال أبو جعفر: أخاف إن لم تتغده يتعشاك. فقال أبو العباس: فدونكه يا أخي.

قال: وكان مع أبي مسلم من أهل خراسان عشرة آلاف، قد قدم بهم، يأخذون العطاء عند غرة كل شهر، أوفر ما يكون من الأرزاق سوى الأعاجم. فلما دخل أبو مسلم على أبي العباس، دعا أبو العباس خَصِيّاً له. فقال: إذهب فاعرف ما يصنع أبو جعفر، فأتاه فوجده محتفياً بسيفه. فقال أبو جعفر: أجالس أمير المؤمنين، فقال الوصيف: قد قمياً للجلوس، ثم رجع الوصيف فذكر ذلك لأبي العباس؛ فردّه أيضاً إلى أبي جعفر، وقال: قل له: عزمتُ عليك أن لا تنفذ لأمر الذي عزمتَ عليه، فكف عن ذلك. فسار إلى مكة حاجاً وللموسم. وخرج أبو مسلم، فكان إذا كتب إلى أبي جعفر يبدأ بنفسه، ثم يكتب إليه: لا يهولنك ما في صدر الكتاب، فإني لك بحيث تحب، ولكني أحب أن يعلم أهل خراسان أن لي منزلة عند أمير المؤمنين.

كتاب أبي مسلم إلى أبي جعفر وقد هم أن يخلع ويخالف:

قال: وذكروا أن أبا مسلم لما رجع من عند أبي العباس، وقد قيل له بالعراق إن القوم أرادوك، لولا توقعوا ممن معك من أهل خراسان، فلما كان في بعض الطريق كتب إلى أبي جعفر: أما بعد، فإني كنت اتخذت أخاك إماماً ودليلاً على ما افترض الله على خلقه، وكان في محله من العلم، وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحيث كان، فقمعني بالفتنة، واستجهلي بالقرآن، فحرفه عن مواضعه، طمعاً في قليل قد نعه الله إلى خلقه، فمثل لي الضلالة في صورة الهدى، فكان كالذي دلي بغرور، حتى وترت أهل الدين والدنيا في دينهم، واستحللت بما كان من ذلك من الله النعمة، وركبت المعصية في طاعتكم، وتوطئة سلطانكم، حتى عرفكم من كان يجهلكم، وأوطأت غيركم العشواء بالظلم والعدوان، حتى بلغت في مشيئة الله ما أحب. ثم إن الله بمنه وكرمه أتاح لي الحسنة، وتداركني بالرحمة، واستنقذني بالتوبة، فإن يغفر فقد بما عرف بذلك، وإن يعاقب فيما قدّمت يداي، وما الله بظلام للعبيد.

فكتب إليه أبو جعفر: يا عمّ، أروم ما رمت، وأزول حيث زلت، ليس لي دونك مرمى، ولا عنك مقصّر، الرأي ما رأيته، إن كنت أنكرت من سيرته شيئاً، فأنت الموفق للصواب، والعالم بالرشاد، أنا من لا يعرف غير يدك، ولم يتقلب إلا في فضلك، فأنا غير كافر بنعمتك، ولا منكر لإحسانك لا تحمل علي إصر غيري، ولا تُلحق ما جناه سواي بي، إن أمرتني أشخص إليك، وألحق بخراسان فعلت. الأمر أمرك. والسلطان سلطانك، والسلام.

موت أبي العباس واستخلاف أبي جعفر

قال: وذكروا أن أبا جعفر لما انقضى الموسم، وانصرف راجعاً، جاءه موت أبي العباس وكان بينه وبين أبي مسلم مرحلة. فكتب إلى أبي مسلم: إنه قد حدث حدث ليس مثلك غائب عنه، فالعجل العجل. قال إسحاق بن مسلم: فقلت لأبي جعفر وأنا أسايره، ونحن مقبلون من مكة: أيها الرجل، لا ملك لك، ولا سلطان مع هذا العبد. فقال أبو جعفر: ظهر غشك، وبدا منك ما كنت تكتن، بأبي مسلم يفعل هذا؟ قلت: نعم، فإني أخاف عليك منه يوم سوء فقال: كذبت. قال إسحاق: فسكت ثم لقينته بعد ذلك من الغد، ولا والله ما عرفتها فيه، وعاونني بمثل كلامه الأول، فقلت له: أكثر أو أقل، إن لم تقتله والله يقتلك. قال: فهل شاورت في هذا أحداً؟ قلت: لا، قال: اسكت، فسكت. فقدم الكوفة، فإذا عيسى بن موسى قد سبقه إلى الأنبار، وغلب على المدينة والخزائن، وبيت الأموال والدواوين، وخلع عبد الله، وتوثب على أبي جعفر، ودعا أهل خراسان فألحقهم باليمن، وجعل لهم الجعائل الجليلة، والعطايا الجزيلة؛ فلما قدم أبو جعفر، سلم الأمر لعيسى بن موسى، وتوثب عبد الله بن علي على أهل خراسان بالشام،

فقتلهم ودعا إلى نفسه، وأتاه أبو غانم عبد الحميد بن ربعي فقال: إن أردت أن يصفو لك الأمر فاقتل أهل خراسان، وابدأ بي. فلما قدم أبو جعفر من مكة قال لأبي مسلم: إنما هو أنا وأنت، والأمر أمرك، فامض إلى عبد الله بن علي وأهل الشام. فلما سار إليه أبو مسلم، سار معه القوادر وغيرهم، فلقي عبد الله بن علي وأهل الشام فهزمهم، وأسر عبد الله بن علي، وبعث به إلى أبي جعفر، فاستنكر أبو جعفر قعود أبي مسلم عنه، فبعث إليه يقطين بن موسى ورجلاً معه على القبض. فقال أبو مسلم: لا يوثق بي بهذا ونحوه فوثب وشتم، وقال قولاً قبيحاً. فقال له يقطين بن موسى: جعلت فداك، لا تدخل الغم على نفسك، إن أحببت رجعت إلى أمير المؤمنين؛ فإنه إن علم أن هذا يشق عليك لم يدخل عليك مكروهاً. ثم قدم أبو جعفر من الأنبار حتى قدم المدائن، وخرج أبو مسلم فأخذ طريق خراسان مخالفاً لأبي جعفر. فكتب إليه أبو جعفر: قد أردت مذاكرتك في أشياء لم تحملها الكتب، فأقبل فإن مقامك عندنا قليل. فلم يلتفت أبو مسلم إلى كتابه. فبعث إليه أبو جعفر، جرير بن يزيد بن جرير بن عبد الله البجلي، وكان أبو مسلم يعرفه. فقال له: أيها الأمير، ضربت الناس عن عرض لأهل هذا البيت، ثم تنصرف على مثل هذه الحال، إن الأمر عند أمير المؤمنين لم يبلغ ما تكره، ولا أرى أن تنصرف على هذه الحال، فيقول أبو مسلم: ويحك إني ذليت بغيرور، وأخاف عدوه.

قتل أبي مسلم:

قال: وذكروا أن جريراً لم يزل بأبي مسلم حتى أقبل به، وكان أبو مسلم يقول: والله لأقتلن في الروم، فأقبل منصوراً؛ فلما قدم على أبي جعفر وهو يومئذ بالرومية من المدائن، أمر الناس يتلقونه، وأذن له فدخل على دابته، ورحب به وعانقه، وأجلسه معه على السرير، وقال له: كدت أن تخرج ولم أفض إليك بما تريد. فقال: قد أتيت يا أمير المؤمنين، فليأمرني بأمره. قال: انصرف إلى منزلك، وضع ثيابك وادخل الحمام، ليذهب عنك كلال السفر، وجعل أبو جعفر ينتظر به الفرصة، فأقام أياماً يأتي أبا جعفر كل يوم، فيريه من الإكرام ما لم يره قبل ذلك، حتى إذا مضت له أيام أقبل على التجني. فأتى أبو مسلم إلى عيسى بن موسى، فقال: اركب معي إلى أمير المؤمنين، فإني قد أردت عتابه بمحضرك. فقال عيسى: أنت في ذمتي، فأقبل أبو مسلم، فقيل له: ادخل. فلما صار إلى الزقاق الداخلي، قيل له إن أمير المؤمنين يتوضأ، فلو جلست؟ فجلس، وأبطأ عيسى بن موسى عليه، وقد هياً له أبو جعفر عثمان بن نهيك، وهو على حرسه في عدة، فيهم شبيب بن رياح، وأبو حنيفة حرب بن قيس، فتقدم أبو جعفر إلى عثمان فقال له: إذا عاتبته فعلا صوتي فلا تخرجوا. وجعل عثمان وأصحابه في ستر خلف أبي مسلم في قطعة من الحجرة، وقد

قال أبو جعفر لعثمان بن هنيك: إذا صفقت بيدي فدونك يا عثمان. فقبل لأبي مسلم: أن قد جلس أمير المؤمنين، فقام ليدخل، فقبل له: انزع سيفك فقال: ما كان يصنع بي هذا. فقبل: وما عليك؟ فترع سيفه، وعليه قباء أسود، وتحتة جبة خز، فدخل فسلم، وجلس على وسادة ليس في المجلس غيرها، وخلف ظهره القوم خلف ستر. فقال أبو مسلم: صنع بي يا أمير المؤمنين ما لم يصنع بأحد، نزع سيفي من عنقي. قال: ومن فعل ذلك قبحه الله؟ ثم أقبل يعاتبه، فعلتَ وفعلتَ، فقال: يا أمير المؤمنين، لا يقال مثل هذا لي على حسن بلائي، وما كان مني؟ فقال له أبو جعفر: يا بن الخبيثة، والله لو كانت أمة أو امرأة مكانك لبلغت ما بلغت في دولتنا، ولو كان ذلك إليك ما قطعت فتيلاً. ألسنت الكاتب إلي تبدأ بنفسك، والكاتب إلي تخطب آمنة ابنة علي بن عمي، وتزعم أنك أبو مسلم بن سليط بن عبد الله بن العباس، لقد ارتقيت، لا أم لك، مرتقى صعباً. قال: وأبو جعفر ترعد يده؛ فلما رأى أبو مسلم غضبه قال: يا أمير المؤمنين، لا تدخل على نفسك هذا الغم من أجلي، فإن قدرني أصغر مما بلغ منك هذا. فصفق أبو جعفر بيده فخرج عثمان بن هنيك، فضربه ضربة خفيفة، فأوماً أبو مسلم إلى رجل أبي جعفر يقبلها ويقول: أنشدك الله يا أمير المؤمنين، استبقني لأعدائك، فدفعه برجله وضربه شبيب على حبل العاتق فأسرعت فيه، فقال أبو مسلم: وانفساه: ألا قوة؟ ألا مغيث؟ وصاح أبو جعفر: أضرب لا أم لك، فاعتوره القوم بأسيا فقتلوه، فأمر به أبو جعفر، فكفن بمسح، ثم وضع في ناحية، ثم قيل: إن عيسى بن موسى بالباب، فقال: أدخلوه. فلما دخل قال: يا أمير المؤمنين، فأين أبو مسلم؟ قال: كان هاهنا آنفاً فخرج. فقال عيسى: يا أمير المؤمنين قد عرفت طاعته ومناصحته، ورأى إبراهيم الإمام فيه. قال له أبو جعفر: يا أنوك والله ما أعرف عدواً أعدى لك منه، ها هو ذا في البساط. فقال عيسى: إنا لله وإنا إليه راجعون، فأقبل إسحاق صاحب شرطته قال: إنما كان أبو مسلم عبد أمير المؤمنين وأمير المؤمنين أعلم بما صنع. فأمر أبو جعفر برأسه، فطرح إلى من بالباب من قواد أبي مسلم، فجالوا جولة، وهَمُّوا أن يبسطوا سيوفهم على الناس، ثم ردهم على ذلك انقطاعهم من بلادهم وتغربهم وإحاطة العدو بهم، فبعضهم اتكأ على سيفه فمات، وبعضهم ناصب وأراد القتال، فلما نظر أبو جعفر إلى ذلك، أمر بالعطاء لأصحاب أبي مسلم، وأجزل الصلات للقواد والرؤساء منهم، ثم عهد إليهم أن من أحب منكم أن يكون معنا هاهنا، نأمر بإلحاقه في الديوان، في ألف من العطاء، ومن أحب أن يلحق بخراسان كتبناه في خمس مئة ترد عليه في كل عام وهو قاعد في بيته. قال: فكأنها نار طمئت. فقالوا: رضينا يا أمير المؤمنين كل ما فعلت، فأنت الموفق. فمنهم من رضي بالمقام معه، ومنهم من لحق بخراسان.

ثورة عيسى بن زيد بن علي بن الحسين:

قال: وذكروا أن أبا جعفر لما قتل أبا مسلم، واستولى على ملك العراقيين والشام، والحجاز، وخراسان، ومصر، واليمن، ثار عليه عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فقاتله فيما بين الكوفة وبغداد، ولقيه في جموع كثيرة، نحواً من عشرين ومئة ألف، فأقام أياماً يقاتله في كل يوم، حتى هم أبو جعفر بالهزيمة، وركب فرسه ليهرب، ثم جعل يشجع أصحابه، ويعددهم بالعطايا الواسعة، والصلوات الجزيلة فقاتلوا؛ ثم إن أبا جعفر غلبته عيناه وهو على فرسه، فرأى في نومه أنه يمد يديه ورجليه على الأرض. فاستيقظ ودعا عبداً كان معه، فأخبره بما رأى فقال له: أبشر يا أمير المؤمنين، فإن سلطانك ثابت، وسيليه بعدك جماعة من ولدك، وهذا الرجل منهزم، فما كان بأسرع من أن نظر إلى عيسى بن زيد منهزماً.

هروب مالك بن الهيثم:

وذكروا أن مالك بن الهيثم خرج هارباً حتى أتى همدان، وعليها يومئذ زهير بن التركي مولى خزاعة، فكتب إليه أبو جعفر: إن الله مهرق دمك إن فاتك مالك، فجاء زهير بن التركي إلى مالك بن الهيثم، فقال له: جعلت فداك، قد أعددت لك طعاماً، فلو أكرمتني بدخولك منزلي. فقال له: نعم؛ وكان قد هياً له زهير أربعين رجلاً، فلما دخله مالك قال لزهير: عجل طعامك، وقد توثق زهير من الباب، وهياً أصحابه، فخرج عليه الأربعون، فشده ووثاقاً، ثم وضعوا القيود في رجله، ثم قال: أبا نصر، جعلت فداك، والله ما عرفت هذه الدعوة حتى أدخلتني فيها ودعوتني إليها، فما الذي يخرجك منها، والله ما أخليك حتى تزور أبا جعفر، فبعث به إليه، فعفا عنه أبو جعفر، وولاه الموصل.

قال الهيثم: وكان يقال: إن عبد الملك بن مروان كان أحزم بني أمية، وإن أبا جعفر كان أحزم بني العباس، وأشدهم بأساً، وأقواهم قلباً، ألا ترى أن عبد الملك قتل عمرو بن سعيد في داخل قصره، وأبوابه مغلقة، وأبو جعفر قتل أبا مسلم في داخل سرادقه، وليس بينه وبين أهل خراسان إلا خرقة؟ وقال الهيثم: ذكر بن عياش أن أبا جعفر قال لحاجبه عيسى بن روضة تقدّم إلى كل من دخل أن لا يذكر أبا مسلم في شيء من كلامه. قال بن عياش فاغتممت لذلك، فوقفت له خلف ستر، ومرّ ركباً مع هشام بن عمرو وعبد الله؛ طلع عمر بن عبد الرحمن صاحب شرطته ويده الحربة ركبت. قال أبو الجراح مالك؟ فقلت: أسلم على أمير المؤمنين. قال: دونك فدنوت والنهر بيني وبينه. فقلت: يا أمير المؤمنين هنيئاً لك وقفة أقعدت كل قائم. فقال بيده على فيه ولم يلتفت كالكاره لما سمع، وأقبل على صاحبيه. قال بن عياش: وكان هذا في سنة خمس وأربعين ومئة، ثم انصرف أبو جعفر إلى الحيرة، ومعه عمه عبد الله بن عليّ في

غير وثاق، وعليه الأحراس، وقد هبأ أبو جعفر بيتاً، فحبسه فيه، فلما قدم به قيل: إنه سمه. قال الهيثم: بل كان أساس البيت الذي حبسه فيه من لبن، والحيرة كثيرة السواقي، نديّة الأرض. فيقال: إنه أمر من الليل بجدول، فسرح حول البيت فتهدم عليه فمات. قال بن عياش: أقبل رجل من همدان إلى أبي جعفر في وفد من العرب فدخلوا عليه، فلما خرجوا وفاتوا بصرة، قال للآذن: علي بالهمداني، فلما مثل بين يديه قال له: يا أخا همدان، أخبرني عن خليفة أسمه على عين قتل ثلاثة، أسماؤهم على عين. فقال الهمداني: نعم يا أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان قتل عمرو بن سعيد الأشدق، اسمه على عين، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن محمد الأشعث، وأنت يا أمير المؤمنين اسمك على عين، وقتلت عبد الرحمن بن مسلم أبا مسلم، أول اسمه علي عين، وعبد الجبار الخولاني، وسقط البيت على عمك عبد الله. فقال: وما يدخل سقوط البيت على عمي لا أم لك. ثم استعمل أبو جعفر على خراسان أسيد بن عبد الله الخزاعي، وأمره بتطلب عمال أبي مسلم، ثم عفا عنهم، ثم عزل الخزاعي وولى أبا عون عبد الملك بن يزيد، ثم ولق بعد أبي عون حميد بن قحطبة، ثم ولى المسير بن زهير حتى مات أبو جعفر المنصور.

قصة سابور ملك فارس:

قال: وذكروا أن أبا جعفر دعا إسحاق بن مسلم العقيلي، فقال له: حدثني عن الملك الذي كنت حدثني عنه بجران. فقال: نعم أكرمك الله، أخبرني أبي عن حصين بن المنذر: أن ملكاً من ملوك فارس يقال له سابور الأكبر، كان لي وزير ناصح، قد أخذ أدباً من آداب الملوك، وشاب ذلك بفهم في الدين، فانتصف من أهلها فعلاً ولسناً، فوجهه سابور داعية إلى أهل خراسان، وكانوا قوماً يعظمون الدنيا جهالة بالدين، واستكانة لحب الدنيا، وذلاً لجبايرتها، فجمعهم على كلمة من الهدى يكيد بها مطالب الدنيا، واعتز بقتل ملوكهم، وتحوّله إياهم، وكان يقال: لكل ذليل دولة، ولكل ضعيف صولة. فلما استوثقت له البلاد، جعل إليه سابور أمرهم، وأحال عليه طاعتهم، فساس قوماً لا يرامونه إلى ما سبق إليه قبلهم، فلم ينتصف سابور من طاعتهم، واستمالة أهوائهم، مع ما لا يأمن من زوال القلوب، وغدرات الوزراء، فاحتال على قطع رجائه عن قلوبهم، فصمم على قتله عند وروعه عليه برؤساء أهل خراسان وفرسانهم، فقتله، فلم يرعهم إلا ورأسه بين أيديهم، فوقف بهم بين الفرقة وتخطف الأعداء، ونأي الرجعة واليأس من صاحبهم، فرأوا أن يستتموا الدعوة بطاعة سابور، ويتعوضوه من الفتنة، فملكهم ثمانين عاماً.

فأطرق أبو جعفر ملياً، ثم قال متمثلاً:

وما علّم الإنسان إلا ليعلمنا

لذي الحلم قبل اليوم ما تفرع العصا

خروج شريك بن عون على أبي جعفر وخلعه:

قال: وذكروا أن أبا جعفر لما استقامت له الأمور، واستولى على الملك، خرج عليه شريك بن عون الهمداني وقال: ما على هذا بايعتك، ولا بايعنا آل محمد على أن تسفك الدماء وأن يعملوا بغير الحق، فخالف أبا جعفر، وتبعه أكثر من ثلاثين ألفاً، فوجه إليه أبو جعفر زياد بن صالح الخزاعي، فقاتله شهوراً، ونهى أبو جعفر أن يسبى أحد منهم، أو يقتل أحد من رجالهم، لأنه كان فيهم قوم أخيار ورجال أشرف، وكان خروجهم ديانة وإنكاراً للدماء، وللعمل بغير الحق، فلذلك لم يقتلوا. وكتب إليهم: وإن عدم عدنا، وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً، وقد عفونا عنكم مرتكم هذه، فالله الله على دمائكم احقنوها.

اجتماع شبيب بن شيبه مع أبي جعفر قبل ولايته وبعدها:

قال: وذكروا أن شبيب بن شيبه قال: حججت عام هلك هشام بن عبد الملك، فبينما أنا مريح ناحية المسجد، إذ طلع علي من بعض أبوابه فتى أسمر، رقيق السمرة، موفر اللمة، خفيف اللحية، رطب الجبهة، كأن عينيه لسانان ناطقان، عليه أبهة الأملاك، في زي النساك، تقبله القلوب، وتتبعه العيون يعرف الشرف في تواضعه، والعفو في صورته، واللب في مشيته فما ملكت نفسي أن نهضت في أثره سائلاً عن خبره، فتحرمت بالطواف. فلما قضيت طوافه قصد المقام ليركع، وأنا أراعاه ببصري، ثم نهض منصرفاً، فكان عينا أصابته، فكبا كبوة دميت منها أصبعه فقعد لها القرفصاء، فدنوت منه متوجعاً لما ناله، متصلاً به، أمسح عن رجله غفر التراب، فلا يمتنع علي، ثم شققت حاشية، فعصبت على رجله، فلم ينكر ذلك، ثم نهض متوكئاً علي، وانقدت له حتى أتى بناء بأعلى مكة، فابتدره غلامان، تكاد صدورهما تنفرج من هيئته، ففتحاه له الباب، فدخل واجتذبي، فدخلت بدخوله، فخلى يدي، وأقبل على القبلة فصلى ركعتين، ثم استوى في صدر مجلسه، فحمد الله وصلى على نبيه، ثم قال: لم يخف علي مكانك منذ اليوم، فمن تكون؟ فقلت: شبيب بن شيبه التميمي. فقال: الأهتمي؟ فقلت: نعم. فرحب وقرب، ووصف قومي بأبين وصف، وأفصح لسان. فقلت: أصلحك الله، أحب المعرفة، وأجل عن المسألة. فتبسم وقال، بلطف أهل العراق، أنا عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، فقلت: بأبي أنت وأمي، ما أشبهك بنسبك، وأدلك على سلفك. وقد سبق إلى قلبي من محبتك ما لا أبلغه بوصفي لك. قال: فاحمد الله يا أخا تميم، فإننا قوم يسعد بجبنا من يحبنا، ويشقى ببغضنا من يبغضنا، ولن يصل الإيمان إلى قلب أحدكم حتى يحب الله ورسوله، ومهما ضعفنا عن جزائه قوى الله على أدائه. فقلت له: أنت توصف بالعلم، وأنا من

حملته، وأيام الموسم ضيقة، وشغل أهله كثير، وفي نفسي أشياء أحب أن أسأل عنها، أفتأذن فيها جعلت فذاك؟ قال: نحن من أكثر الناس مستوحشون، وأرجو أن تكون للسّر موضعاً، وللأمانة وإعياً، فإن كنت على ما رجوت، فهات على بركة الله. فقدمت إليه من وثائق القول والأيمان ما سكن إليه، فتلا قول الله: "قل أي شيء أكبر شهادة؟ قل الله شهيد بيني وبينكم" ثم قال: سل. فقلت: ما ترى في من على الموسم؟ وكان عليه يوسف بن محمد الثقفي، خال الوليد بن يزيد، فتنفس الصعداء، ثم قال: عن الصلاة خلفه تسأل، أم استنكرت أن يتأمر على آل الرسول من ليس منهم؟ قلت: عن كلا الأمرين أسأل. قال: إن هذا عند الله عظيم، أما الصلاة، ففرض الله على عباده، فأدّ فرضه عليك في كل وقت، فإن الذي ندبك لحج بيته ومجاهدة عدوه، وحضور جماعته وأعياده، لم يخبرك في كتابه أنه لا يقبل منك نسكاً إلا مع أكمل المؤمنين إيماناً رحمة لك، ولو فعل ذلك بك ضاق الأمر عليك، فأسمح يسمح لك. ثم كرّرت عليه السؤال، فما احتجت إلى أن أسأل عن أمر ديني أحداً بعده ثم قلت له: يزعم أهل العلم بالكتاب أنها ستكون لكم دولة لا شك فيها، تطلع مطلع الشمس، وتظهر بظهورها، فأسأل الله خيرها، ونعوذ به من شرها. قال: فخذ بحظ لسانك ويدك منها إن أدركتها. قلت: أو يتخلف عنها أحد من العرب وأنتم سادتها؟ قال: نعم، قوم يأبون إلا الوفاء لمن اصطنعهم ونأبى إلا طلباً لحقنا، فنصر ويخذلون، كما نصر أولنا بأولهم، وخذل لمخالفتنا من خذل منهم، فاسترجعت.

قال: هون عليك الأمر، سنة الله التي قد خلت في عباده، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وليس ما يكون منهم بحاجز لنا عن صلة أرحامهم، وحفظ أعقابهم فقلت: كيف تسلم لهم قلوبكم، وقد قاتلوكم مع عموكم؟ فقال: نحن قوم حبب إلينا الوفاء وإن كان علينا، وبغض إلينا الغدر وإن كان لنا، وإنما يشذ عنا منهم الأقل، فأما أنصار دولتنا، ونقباء شيعتنا، وأمراء جيوشنا فهم ومواليهم معنا، فإذا وضعت الحرب أوزارها صفحنا للمحسن عن المسيء، ووهب للرجل قومه ومن اتصل بأسبابه، فتذهب المثابرة وتحمد الفتنة، وتطمئن القلوب. فقلت: ويقال: إنه يتلى بكم من أخلص لكم الحبة. فقال: قد روي أن البلاء أسرع إلى محبينا من الماء إلى قراره. قلت: لم أر في هذا. قال: فما الذي تريد؟ قلت: توقعون بالولي وتُحفظون العدو. فقال: من يسعد بنا من الأولياء أكثر، ومن يسلم معنا من الأعداء أقل، إنما نحن بشر، ولا يعلم الغيب إلا الله، وربما استترت عنا الأمور، فنوقع بمن لا نريد، وإن لنا لإحساناً يجازي الله به مداواة ما تكلم ورتق ما تنلم فنستغفر الله بما يعلم، وما أنكر من ألا يكون الأمر على ما بلغك، ومع الولي التعزّز والإدلال، والثقة والاسترسال، ومع العدو التحرّز والتذلل والاحتياط، وإنك لمسؤول يا أخا بني تميم. قلت: إني أخاف ألا أراك بعد اليوم. قال: لكن أرجو أن أراك وتراني قريباً إن شاء الله. قلت: عجل الله ذلك، ووهب لي

السلامة منكم، فإني محبكم. فتبسم وقال: لا بأس عليك ما أعافك الله من ثلاثة. قلت: وما هي؟ قال: قدح في الدين، وهتك للملوك، وtheme في حرمة، واحفظ عني ما أقول لك: اصدق وإن ضرّك الصدق، وانصح وإن باعدك النصح، ولا تخالطن لنا عدواً وإن أحظيناها فإنه مخذول، ولا تخذلن ولياً وإن أقصيناها وأصبحنا بترك المماكرة، وتواضع إذا رفعوك، وصل إذا قطعوك، ولا تستخف فيمقتوك، ولا تنقبض فيحتشموك، ولا تبدأ حتى يبدؤك، ولا تخطب الأعمال، ولا تتعرض للأموال، وأنا رائح من عشتي هذه، فهل من حاجة؟ فنهضت لوداعه فودّعه، ثم قلت: أوقت لظهور الأمر؟ ومتى؟ قال الله المؤقت والمنذر، فخرجت من عنده، فإذا مولى له يتبعني، فأتاني بكسوة من كسوته. وقال لي: يأمرك أبو جعفر أن تصلي في هذه، ثم افترقنا، فوالله ما رأيته إلا وحرسان قابضان علي يدفعانني إلى بيعتي في جماعة من قومي لنبايعه. فلما نظر إلي أثبتني، وقال للحرسيين: خليا عمن صحت مودته، وتقدمت قبل اليوم حرمة، وأخذت بيعته، فأكبر الناس ذلك من قوله. ثم قال لي: أين كنت أيام أبي العباس أخي؟ فذهبت أعذر. فقال: أمسك، فإن لكل شيء وقتاً لا يعدوه، ولن يفوتك إن شاء الله حظ مودتك، وحق مشايعتك، واحترمني رزقاً يسعك، أو خُطّة ترفعك، أو عملاً ينهضك.

فقلت: أنا لوصيتك حافظ. فقال: وأنا لها أحفظ، إني إنما نهيتك أن تخطب الأعمال ولم أهلك عن قبولها إن عرضت عليك. فقلت: الرزق مع قرب أمير المؤمنين أحب إلي. فقال: وذلك أحب إلي لك، وهو أجمّ لقلبك وأودع لك، وأعفى إن شاء الله، فهل زدت أحداً في عيالك بعد؟ وقد كان سألني عنهم فعجبت من حفظه. فقلت: زدت الفرس والخدام، فقال: قد ألحقنا عيالك بعيالنا، وخادمك بخادمننا، ولو لم يسعني حملت لك على بيت المال، فهل تحملك مئتا دينار لكل غرة أو نزيديك؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، إن شطرها ليحملي العامين. قال: فإنها لك في كل غرة فاقبضها من عاملي في أي بلد أحببت، وإن شئت فقد ضممتك إلى المهدي، فإنه أفرغ لك مني، وأرضاه لك إن شاء الله.

حج أبي جعفر ولقائه مالك بن أنس وما قال له:

ذكروا أن أبا جعفر أمير المؤمنين لما استقامت له الأمور، واستولى على السلطان خرج حاجاً إلى مكة، وذلك في سنة ثمان وأربعين ومئة. فلما كان بمحني، أتاه الناس يسلمون عليه، ويهتئون به. بما أنعم الله عليه، وجاءه رجال الحجاز من قريش وغيرهم، وفقهائهم وعلمائهم، ممن صاحبه وجامعه على طلب العلم ومذاكرة الفقه ورواية الحديث. فكان فيمن دخل عليه منهم: مالك بن أنس. فقال له أبو جعفر: يا أبا عبد الله إني رأيت رؤيا. فقال مالك: يوفق الله أمير المؤمنين إلى الصواب من الرأي، ويلهمه الرشاد من

القول، ويعينه على خير الفعل، فما رأي أمير المؤمنين؟ فقال أبو جعفر: رأيت أني أجلسك في هذا البيت، فتكون من عمّار بيت الله الحرام، وأحمل الناس على علمك، وأعهد إلى أهل الأمصار يوفدون إليك وفدهم، ويرسلون إليك رسلهم في أيام حجهم، لتحملهم من أمر دينهم على الصواب والحق، إن شاء الله، وإنما العلم علم أهل المدينة، وأنت أعلمهم. فقال مالك: أمير المؤمنين أعلى عيناً، وأرشد رأياً، وأعلم بما يأتي وما يفر، وإن أذن لي أقول قلت، فقال أبو جعفر: نعم، فحقيق أنت أن يسمع منك، ويصدر عن رأيك. فقال مالك: يا أمير المؤمنين إن أهل العراق قد قالوا قولاً تعدوا فيه طورهم، ورأيت أني خاطرت بقولي لأهم أهل ناحية، وأما أهل مكة فليس بما أحد، وإنما العلم علم أهل المدينة، كما قال الأمير، وإن لكل قوم سلفاً وأئمة. فإن رأى أمير المؤمنين أعز الله نصره إقرارهم على حالهم فليفعّل. فقال أبو جعفر: أما أهل العراق فلا يقبل أمير المؤمنين منهم صرفاً ولا عدلاً، وإنما العلم علم أهل المدينة، وقد علمنا أنك إنما أردت خلاص نفسك ونجاتها. فقال مالك: أجل يا أمير المؤمنين، فأعفني يعف الله عنك فقال أبو جعفر: قد أعفك أمير المؤمنين، وأيم الله ما أجد بعد أمير المؤمنين أعلم منك ولا أفعه.

دخول سفيان الثوري وسليمان الخواص على أبي جعفر وما قالوا له:

قال: وذكروا أنه لما كان أبو جعفر بمنى في العام الذي حج فيه سفيان الثوري وسليمان الخواص، قال أحدهما لصاحبه: ألا ندخل على هذا الطاعني الذي كان يزاحمنا بالأمس في مجالس العلم عند منصور، والزهرى، فنكلمه، ونأمره بحق، وننهاه عن باطل، فلعل أن يقع كلامنا منه موقعاً ينفع الله به المسلمين، ويأجرنا عليه، فقال سليمان الخواص: إني لأخشى أن يأتي علينا منه يوم سوء. فقال الثوري: ما أخاف ذلك، فإن شئت فادخل، وإن شئت دخلت. فدخل سليمان الخواص، فأمره ونهاه، ووعظه وذكره الله، وما هو صائر إليه، ومسؤول عنه. فقال له أبو جعفر: أنت مقتول، ما تقول في كذا وكذا، لشيء سأله عنه من باب العلم. فأجابه، فلما خرج قال سفيان الثوري: ماذا صنعت؟ قال: أمرت ونهيت، ووعظت وذكرته فرضاً كان في رقابنا اديناه مع أنه لا يقبل، وسألني عن مسألة فأجبتة. قال سفيان: ما صنعت شيئاً، فدخل سفيان الثوري فأمره ونهاه. فقال له: هاهنا أبا عبد إليّ، ادن مني. فقال: إني لا أطأ ما لا أملك ولا تملك. فقال أبو جعفر: يا غلام أعرج البساط، وارفع الوطاء، فتقدم سفيان فصار بين يديه وقعد، ليس بينه وبين الأرض شيء، وهو يقول: "منها خلقناكم، وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى" فدمعت عينا أبي جعفر. ثم تكلم سفيان دون أن يستأذن، فوعظ وأمر ونهى وذكر، وأغلظ في قوله. فقال له الحاجب: أيها الرجل، أنت مقتول. فقال سفيان: وإن كنت مقتولاً فالساعة، فسأله أبو

جعفر عن مسألة فأجابه، ثم قال سفيان: فما تقول أنت يا أمير المؤمنين فيما أنفقت من مال الله، ومال أمة محمد بغير إذنه، وقد قال عمر في حجة حجها، وقد أنفق ستة عشر ديناراً هو ومن معه: ما أَرانا إلا وقد أبحفنا بيت المال. وقد علمت ما حدثنا به منصور بن عمار، وأنت حاضر ذلك، وأول كاتب كتبه في المجلس عن إبراهيم، عن الأسود، عن علقمة، عن بن مسعود، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "رب متخوِّض في مال الله ومال رسول الله فيما شاعت نفسه له النار غداً"، فقال له أبو عبيدة الكاتب: أمير المؤمنين يُستقبل بمثل هذا؟ فقال له سفيان: اسكت، فإنما أهلك فرعون هامان، وهامان فرعون. ثم خرج سفيان، فقال أبو عبيدة الكاتب: ألا تأمر بقتل هذا الرجل؟ فوالله ما أعلم أحداً أحق بالقتل منه. فقال أبو جعفر: اسكت يا أنوك، فوالله ما بقي على الأرض أحد اليوم يُستحيا منه غير هذا، ومالك بن أنس.

دخول بن أبي ذؤيب ومالك بن أنس وابن سمعان على أبي جعفر:

قال: وذكرنا عن مالك بن أنس قال: لما ولي أبو جعفر الخلافة، وافى إليه الملاقون المشاؤون بالنميمة عني بكلام كان قد حُفظ عليّ، فأتاني رسوله ليلاً ونحن بمخيم، قال: أجب أمير المؤمنين، وذلك بعد مفارقتي له، وخروجه عنه، فلم أشك أنه للقتل، ففرغت من عهدي، واغتسلت وتوضأت ولبست ثياب كفي وتحنطت، ثم هُضت فدخلت عليه في السرادق، وهو قاعد على فراش قد نظم بالدرّ الأبيض، والياقوت الأحمر، والزمرّد الأخضر، حكى له أنه كان من فرس هشام بن عبد الملك كان قد أهداه إليه صاحب القسطنطينية، لا يعلم ثمنه، ولا يدرى ما قيمته، والشمع يحترق بين يديه، وابن سمعان قاعدان بين يديه، وهو ينظر في صحيفة في يده فلما صرت بين يديه سلمت، فرفع رأسه، فنظر إليّ، وتبسم تبسم المغضب، ثم رمى بالصحيفة، وأشار لي إلى موضع عن يمينه أقعد فيه. فلما قعدت وأخذت مقعدي، وسكن روعي، رفعت رأسي أنظر تلقائي، فإذا أنا بواقف عليه درع، ويده سيف قد شهره، يلمع له ما حوله، فالتفت عن يميني، فإذا أنا بواقف بيده جُرْز من حديد، ثم التفت عن يساري فإذا أنا بواقف عليه درع، ويده سيف قد شهره، وهم أجمعون قد أصغوا إليه، ورمقوه بأبصارهم خوفاً من أن يأمر في أحد أمراً يخله غافلاً. ثم التفت إلينا وقال: أما بعد معشر الفقهاء، فقد بلغ أمير المؤمنين منكم ما أحسن صدره، وضاق به فرعه وكنتم أحق الناس بالكف من ألسنتكم، والأخذ بما يشبهكم، وأولى الناس بلزوم الطاعة، والمناصحة في السر والعلانية لمن استخلفه الله عليكم. قال مالك: فقلت: يا أمير المؤمنين، قال الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما

فعلتم نادمين" فقال أبو جعفر: على ذلكم أيّ الرجال أنا عندكم؟ أمن أئمة العدل، أم من أئمة الجور. فقال مالك: فقلت: يا أمير المؤمنين، أنا متوسل إليك بالله تعالى، وأتشفع إليك بمحمد صلى الله عليه وسلم وبقرابتك منه، إلا ما أعفيتني من الكلام في هذا. قال: قد أعفأك أمير المؤمنين. ثم التفت إلى بن سمعان فقال له: أيها القاضي ناشدتك الله تعالى، أي الرجال أنا عندك؟ فقال بن سمعان: أنت والله خير الرجال يا أمير المؤمنين، تحج بيت الله الحرام، وتجاهد العدو، وتؤمن السبل، ويأمن الضعيف بك أن يأكله القوي، وبك قوام الدين، فأنت خير الرجال، وأعدل الأئمة. ثم التفت إلى بن أبي ذؤيب فقال له: ناشدتك الله، أيّ الرجال أنا عندك؟ قال: أنت والله عندي شر الرجال، استأثرت بمال الله ورسوله، وسهم ذوي القربى واليتامى والمساكين، وأهلكت الضعيف، وأتعبت القوي، وأمسكت أموالهم، فما حجتك غداً بين يدي الله؟ فقال له أبو جعفر: ويحك، ما تقول. أتعقل. انظر ما أمامك. قال: نعم، قد رأيت أسيفاً، وإنما هو الموت، ولا بد منه، عاجله خير من آجله. ثم خرجا وجلسا. قال: إني لأجد رائحة الحنوط عليك. قلت: أجل، لما نُمي إليك عني ما نُمي، وجاءني رسولك في الليل، ظننته القتل، فاغتسلت وتطيبت، ولبست ثياب كفي. فقال أبو جعفر: سبحان الله ما كنت لأتلم الإسلام، وأسعى في نقضه، أو ما تراني أسعى في أود الإسلام، وإعزاز الدين، عائداً بالله مما قلت يا أبا عبد الله، انصرف إلى مصرك راشداً مهدياً، وإن أحببت ما عندنا، فنحن ممن لا يؤثر عليك أحداً، ولا يعدل بك مخلوقاً. فقلت: إن يجبرني أمير المؤمنين على ذلك فسمعاً وطاعة، وإن يخبرني أمير المؤمنين اخترت العافية. فقال: ما كنت لأجبرك، ولا أكرهك، انقلب معافى مكلوهاً. قال: فبت ليلتي، فلما أصبحنا أمر أبو جعفر بصرر دنانير، في كل صرة خمسة آلاف دينار، ثم دعا برجل من شرطته فقال له: تقبض هذا المال، وتدفع لكل رجل منهم صرة، أما مالك بن أنس إن أخذها فبسبيله، وإن ردها لا جناح عليه فيما فعل، وإن أخذها بن أبي ذؤيب فأتني برأسه، وإن ردها عليك فبسبيله، لا جناح عليه، وإن يكن بن سمعان ردها فأتني برأسه، وإن أخذها فهي عافيته. فنهض بها إلى القوم، فأما بن سمعان فأخذها فسلم؟ وأما بن أبي ذؤيب فردها فسلم، وأما أنا فكنت والله محتاجاً إليها فأخذتها. ثم رحل أبو جعفر متوجهاً إلى العراق.

كتاب عبيد الله العمري إلى أبي جعفر:

قال: وذكروا أن أبا جعفر لما قفل من حجه سنة ثمان وأربعين ومئة، سأل عن عبيد الله. بن عمر بن حفص بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وهو الفقيه المعروف بالعمري. ف قيل له: إنه لم يحج العام يا أمير المؤمنين، ولو حج لكان أول داخل عليك، فلا تقبل عليه أحداً يا أمير المؤمنين، ولا يقدر فيه عندك إلا

باطلي أو كذاب، فإنه في علمت. فقال أبو جعفر: والله ما تخلف عن الحج في عامه هذا إلا علماً منه بأني حاج، فلذلك تخفف، ولا والله ما زاده ذلك عندي إلا شرفاً ورفعةً، وإني من التوقير له والإجلال بحال لا إخال أحداً من الناس بذلك، لشرفه في قريش، وعظيم منزلته من هذا الأمر، والموضع الذي جعله الله فيه، والمكان الذي أنزله به.

فلما قدم أبو جعفر بغداد، ورد عليه كتاب عبيد الله العمري، فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله أبي جعفر أمير المؤمنين، من عبيد الله بن عمر. سلام الله عليك، ورحمة الله التي اتسعت فوسعت من شاء. أما بعد: فإني عهدتك، وأمر نفسك لك مهم، وقد أصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة، حمها وأسودها وأبيضها، وشريفها، ووضيعها، يجلس بين يديك العدو والصديق، والشريف والوضيع، ولكل حصته من العدل؟ ونصيبه من الحق، فانظر كيف أنت عند الله يا أبا جعفر، وإني أحذرك يوماً تغني فيه الوجوه والقلوب، وتنقطع فيه الحجة، لملك قد قهرهم بجبروته، وأذلهم بسلطانه والخلق داخرون له، يرجون رحمته ويخافون عذابه وعقابه. وإنا كنا نتحدث أن أمر هذه الأمة سيرجع في آخر زمانها، أن يكون إخوان العلانية أعداء السريرة، وأني أعوذ بالله أن تنزل كتابي سوء المتزل، فإني إنما كتبت به نصيحة، والسلام.

فأجابه أبو جعفر المنصور:

من عبد الله بن محمد أمير المؤمنين، إلى عبيد الله بن عمر بن حفص: سلام عليك، أما بعد، فإنك كتبت إلي تذكر أنك عهدتني وأمر نفسي لي مهم، فأصبحتُ وقد وليتُ أمر هذه الأمة بأسرها، وكتبت تذكر أنه بلغك أن أمر هذه الأمة سيرجع في آخر زمانها، أن يكون إخوان العلانية، أعداء السريرة، ولست إن شاء الله من أولئك، وليس هذا زمان ذلك، إنما ذلك زمان تظهر فيه الرغبة، والرغبة تكون رغبة بعض الناس إلى بعض، صلاح دنياهم أحب إليهم من صلاح دينهم. وكتبت تحذري ما حذرت به الأمم من قبلي، وقحداً كان يقال: اختلاف الليل والنهار يقربان كل بعيد، ويُبليان كل جديد، ويأتیان بكل موعود حتى يصير الناس إلى منازلهم من الجنة والنار. وكتبت تتعوذ بالله أن تنزل كتابك سوء المتزل، وأنت إنما كتبت به نصيحة فصدقت وبررت، فلا تدع الكتب إلي. فإنه لا غنى بي عن ذلك، والسلام.

اجتماع أبي جعفر مع عبد الله بن مرزوق:

قال: وذكروا أن أبا جعفر المنصور أمير المؤمنين لما حج ودخل في الطواف بالبيت الحرام، أمر بالناس فُتحوا عن البيت، ثم طاف أسبوعه، فوثب إليه عبد الله بن مرزوق، وقال: من جرأك على هذا. فليبه

بردائه وهزه. ثم قال له: من جعلك أحق بهذا البيت من الناس، تحول بينه وبينهم، وتنحيهم عنه. فنظر أبو جعفر في وجهه، فعرفه، فقال: عبد الله بن مرزوق؟ قال: نعم. فقال: من جرأك على هذا؟ ومن أقلمك عليه؟ فقال عبد الله بن مرزوق: وما تصنع بي؟ بيدك ضر أو نفع؟ والله ما أخاف ضرك، ولا أرجو نفعك حتى يكون الله عز وجل يأذن لك فيه، ويلهمك إلى فعله. فقال له أبو جعفر: إنك أحللت بنفسك وأهلكتها. فقال عبد الله بن مرزوق: اللهم إن كان بيد أبي جعفر ضري فلا تدع من الضر شيئاً إلا أنزلته علي، وإن كان بيده منفعتي فاقطع عني كل منفعة منه: أنت يا رب بيدك كل شيء، ومليك كل شيء، فأمر به أبو جعفر فحمل إلى بغداد فسجنه بها. وكان يسجنه بالنهار، ويبعث إليه بالليل يبيت عنده ويسامره، يلبث نهاره أجمع بالسجن، ثم يسامره بالليل ليظهر للناس أنه سجن أول من اعترض عليه، لئلا يجترئ الجاهل فيقول: قد وسع عفو أمير المؤمنين فلاناً، أفلا يسعني؟ فكان دأبه هذا معه زماناً طويلاً حتى نسي أمره، وانقطع خبره، ثم خفى سبيله، فلحق بمكة، فلم يزل بها حتى مات أبو جعفر، وولي ابنه للمهدي، فلما حج المهدي، فعل مثل ذلك، ففعل به عبد الله بن مرزوق مثل ذلك أيضاً، فأراد قتله. فقيل له: يا أمير المؤمنين إنه قد فعل هذا بأبيك، فكان من صنيعه أن حمله إلى بغداد، فسجنه بالنهار، وسامره بالليل، وأنت أحق من أخذ بهديه، واحتذى على مثاله، وورث أكروماته، فحمله المهدي معه، فمات ببغداد، رحمه الله.

ذكر ما نال مالك بن أنس من جعفر بن سليمان

قال: وذكروا أنه هاج بالمدينة هيج في ابتداء أيام أبي جعفر، فبعث إليها أبو جعفر بن عمه جعفر بن سليمان بن العباس، ليسكن هيجها وفتنها، ويجدد بيعة أهلها فقدمها وهو يتوقد ناراً على أهل الخلاف لهم، فأظهر الغلظة والشدّة، وسطاً بكل من ألد في سلطانهم، وأشار إلى المنازعة لهم، وأخذ الناس بالبيعة، وكان مالك بن أنس رحمه الله لم يزل صغيراً وكبيراً محسداً، وكذلك كل من عظمت نعمة الله عليه في علمه أو عمله، أو فهمه أو ورعه، فكيف بمن جمع الله ذلك فيه، ولم يزل منذ نشأ كذلك قد منحه الله تعالى العلم والعمل، والفهم واللب والنبيل، ووصل له ذلك بالدين والفضل، عرف منه ذلك صغيراً، وظهر فيه كبيراً، واستلب الرياسة ممن كان قد سبقه إليها، بظهور نعمة الله عليه، وسموها به على كل سام، فاستدعى ذلك منهم الحسد له، وألجأهم ذلك إلى البغي عليه، فمدسوا إلى جعفر بن سليمان من قال له: إن مالكا يفتي الناس بأن أيمان البيعة لا تحل، ولا تلزمهم لمخالفتك، واستكراهك إياهم عليها، وزعموا أنه يفتي بذلك أهل المدينة أجمعين، لحديث رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "رفع عن أمي الخطأ والنسيان وما أكرهوا عليه" فعظم ذلك على جعفر واشتد عليه وخاف أن ينحلّ عليه ما أبرم من بيعة

أهل المدينة، وهم أن ييدر فيه بما عافاه الله منه، وأنعم على المسلمين ببقائه. فقليل له: لا تبدر فيه ببادرة، فإنه من أكرم الناس على أمير المؤمنين، وآثرهم عنده، ولا بأس عليك منه، فلا تحدث شيئاً إلا بأمر أمير المؤمنين، أو يستحق ذلك عندنا بأمر لا يخفى على أهل المدينة. فحس إليه جعفر بن سليمان بعض من لم يكن مالك يخشى أن يؤتى من قبله، ومن مأمنه يؤتى الحفر، فسأله عن الأيمان في البيعة فأفتاه مالك بذلك طمأنينة إليه، وحسبة فيه. فلم يشعر مالك إلا ورسول جعفر بن سليمان يأتيه، فأتوا به إليه منتهك الحرية، مزال الهيبة، فأمر به فضرب سبعين سوطاً، فلما سكن الهيج بالمدينة، وتمت له البيعة، بلغ بمالك ألم الضرب حتى أضجعه.

إنكار أبي جعفر المنصور لضرب مالك:

قال: وذكروا أنه لما بلغ أبا جعفر ضرب مالك بن أنس، وما أنزل به جعفر بن سليمان أعظم ذلك إعظماً شديداً، وأنكره ولم يرضه، وكتب بعزل جعفر بن سليمان عن المدينة، وأمر أن يؤتى به إلى بغداد على قتب. وولى على المدينة رجلاً من قريش من بني مخزوم، وكان يوصف بدين وعقل وحزم وذكاء، وذلك في شهر رمضان، من سنة إحدى وستين ومائة. وكتب أبو جعفر إلى مالك بن أنس، ليستقدمه إلى نفسه ببغداد، فأبى مالك، وكتب إلى أبي جعفر يستعفيه من ذلك، ويعتذر له ببعض العذر إليه، فكتب أبو جعفر إليه: أن وافني بالموسم العام القابل إن شاء الله فياني خارج إلى الموسم.

دخول مالك على أبي جعفر بمنى:

قال: وذكروا أن مالكا حج سنة ثلاث وستين ومائة، ثم وافى أبا جعفر بمنى أيام منى، فذكروا أن مطرفاً أخبرهم، وكان من كبار أصحاب مالك. قال: قال لي مالك: لما صرت بمنى أتيت السراقات، فأذنت بنفسي، فأذن لي، ثم خرج إلي الآذن من عنده فأدخلني. فقلت للآذن: إذا انتهيت بي إلى القبة التي يكون فيها أمير المؤمنين فأعلمني، فمر بي من سرادق إلى سرادق، ومن قبة إلى أخرى، في كلها أصناف من الرجال بأيديهم السيوف المشهورة، والأجرزة المرفوعة، حتى قال لي الآذن: هو في تلك القبة، ثم تركني الآذن وتأخر عني، فمشيت حتى انتهيت إلى القبة التي هو فيها فإذا هو قد نزل عن مجلسه الذي يكون فيه إلى البساط الذي دونه، وإذا هو قد لبس ثياباً قصدة، لا تشبه ثياب مثله، تواضعاً لدخولي عليه، وليس معه في القبة إلا قائم على رأسه بسيف صليت؛ فلما دنوت منه، رحب بي وقرب؛ ثم قال: هاهنا إلي،

فأوميت للجلوس. فقال: هاهنا، فلم يزل يدينني حتى أجلسني إليه، ولصقت ركبتي بركبتيه. ثم كان أول ما تكلم به أن قال: والله الذي لا إله إلا هو يا أبا عبد الله ما أمرت بالذي كان، ولا علمته قبل أن يكون، ولا رضيته إذ بلغني يعني الضرب. قال مالك: فحمدت الله تعالى على كل حال، وصليت على الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم نزته. عن الأمر بذلك، والرضا به. ثم قال: يا أبا عبد الله، لا يزال أهل الحرمين بخير ما كنتَ بين أظهرهم، وإني إخالك أماناً لهم من عذاب الله وسطوته، ولقد دفع الله بك عنهم وقعة عظيمة، فإنهم ما علمت أسرع الناس إلى الفتن، وأضعفهم عنها، قاتلهم الله أنى يؤفكون، وقد أمرت أن يؤتى بعدو الله من المدينة على قتب، وأمرت بضيق مجلسه، والمبالغة في امتهانه، ولا بد أن أنزل به من العقوبة أضعاف ما نالك منه. فقلت له: عافى الله أمير المؤمنين، وأكرم مثواه، قد عفوت عنه، لقرايته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم منك. قال أبو جعفر: وأنت فعفى الله عنك ووصلك. قال مالك: ثم فاتحني فيمن مضى من السلف والعلماء، فوجدته أعلم الناس بالناس، ثم فاتحني في العلم والفقه، فوجدته أعلم الناس بما اجتمعوا عليه، وأعرفهم بما اختلفوا فيه، حافظاً لما رُوي، واعياً لما سُمع، ثم قال لي: يا أبا عبد الله ضع هذا العلم ودونه، ودون منه كتباً، وتجنب شدائد عبد الله بن عمر ورُخص عبد الله بن عباس، وشواذ بن مسعود، واقصد إلى أواسط الأمور، وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة رضي الله عنهم، لنحمل الناس إن شاء الله على علمك وكتبك، ونبشها في الأمصار، ونعهد إليهم أن لا يخالفوها، ولا يقضوا بسواها، فقلت له: أصلح الله الأمير، إن أهل العراق لا يرضون علمنا، ولا يرون في عملهم رأياً. فقال أبو جعفر: يُحملون عليه، ونضرب عليه هاماتهم بالسيف، ونقطع طي ظهورهم بالسياط، فتعجل بذلك وضعها، فسيأتيك محمد المهدي ابني العام القابل إن شاء الله إلى المدينة، ليسمعها منك، فيجداك وقد فرغت من ذلك إن شاء الله، قال مالك: فبينما نحن قعود إذ طلع بني له صغير من قبة، بظهر القبة التي كنا فيها. فلما نظر إلي الصبي فرع، ثم تفهقر فلم يتقدم. فقال له أبو جعفر: تقدم يا حبيبي، إنما هو أبو عبد الله فقيه أهل الحجاز؛ ثم التفت إلي فقال: يا أبا عبد الله، أتدري لمَ فرع الصبي ولم يتقدم؟ فقلت: لا. فقال: والله استنكر قرب مجلسك مني إذ لم ير به أحداً غيرك قط، فلذلك قهقر. قال مالك: ثم أمر لي بألف دينار عينا ذهباً، وكسوة عظيمة، وأمر لابني بألف دينار، ثم استأذنته فأذن لي، فقممت فودعني ودعا لي، ثم مشيت منطلقاً، فلحقني الخصي بالكسوة فوضعها على منكبي، وكذلك يفعلون بمن كسوه، وإن عظم قدره، فيخرج بالكسوة على الناس فيحملها، ثم يسلمها إلى غلامه، فلما وضع الخصي الكسوة على منكبي انخبت عنها بمنكبي، كراهة احتمالها، وتبرؤاً من ذلك، فناداه أبو جعفر: بلِّغها رَحْلَ أبي عبد الله.

ما قال أبو جعفر لعبد العزيز بن أبي رواد:

قال: وذكروا أن أبا جعفر لما دخل في الطواف بالبيت لقي عبد العزيز بن أبي رواد في الطواف، فقبض على يده، ثم قال له: أتعرفني؟ قال: لا. إلا أن قبضتك قبضة جبار فقال له: أنا أبو جعفر أمير المؤمنين، فسلي من حوائجك ما شئت أقضها. قال: أسألك برب هذا البيت أن لا ترسل إلي بشيء حتى آتيك طوعاً. فقال له أبو جعفر: ذلك لك، فأقبل يمشي بمشيته في طوافه، وكان شيخاً كبيراً ضعيفاً. فتأنف بقربه، وثقل عليه كلامه. فقال: أسألك بحرمة هذا البيت إلا تنحيت عني، فتنحى عنه أبو جعفر وخلى سبيله. وكان عبد العزيز بن أبي رواد هذا لا يرفع رأسه إلى السماء، تخشعاً لله، فأقام كذلك أربعين سنة.

قدوم المهدي إلى المدينة:

قال: وذكروا أن مالك بن أنس لما أخذ في تدوين كتبه، ووضع علمه قدم عليه المهدي بن أبي جعفر، فسأله عما صنع فيما أمره به أبو جعفر، فأتاه بالكتب وهي كتب الموطأ، فأمر المهدي بانتساخها، وقرئت على مالك. فلما أتم قراءتها: أمر له بأربعة آلاف دينار، ولابنه بألف دينار.

موت أبي جعفر المنصور واستخلاف المهدي

قال: وذكروا أنه لما كانت سنة ست وستين ومائة قدم أبو جعفر مكة، فلما قضى حجة احتضر ثلاثة أيام، ثم توفي في اليوم الرابع، وولى ابنه محمد المهدي وكان معه يومئذ بمكة وأخوه جعفر ببغداد، وكان قد عهد إليه أبو جعفر. فلما قفل المهدي إلى بغداد أتاه رجل فقال له: أدرك أخاك جعفر، فإنه قد هم بمنازعتك، وهو يريد خلعتك، فأخذ في السير، ومعه الجنود والأموال، وصناديد الرجال من العراق، ورجال العرب، ووجوه قريش. فلما قدم العراق اعتذر إليه جعفر مما رفع إليه عنه، وحلف له أنه ما نوى ولا أراد منازعته، ولا أشار إلى خلافه، ولا هم به، فقبل منه المهدي ذلك، وعفا عنه، وكان كريماً سخياً حليماً، فلما كان سنة سبع وستين ومائة قدم حاجاً، فدخل المدينة زائراً لقبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فدخل عليه مالك، فحضره على الإحسان إلى أهل المدينة، وحدثه بفضلها وفضل أهلها، ويقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيها: "أمرت بقرية تأكل القرى، يقولون يشرب وهي المدينة تنفي الناس كما ينفي الكبير خبث الحديد"، ثم قال يا أمير المؤمنين: أفليس هؤلاء أهلاً أن يعانوا على الصبر عليها وعلى جوار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فقال المهدي: بلى والله يا أبا عبد الله، حتى لا أجد إلا مثل هذا، ومد يده ليأخذ من الأرض شيئاً فلم يجده. ثم قال صدقت فيهم وبرزت، وحضضت

على الرشد، فأت أهل أن يطاع أمرك، ويسمع قولك، فأمر بخمسة أبيات مال، والبيت عندهم خمسمائة ألف، وأمر مالكا أن يختار من تلامذته رجالاً يثق بهم، ويعتمد عليهم، يقسمونها على أهل المدينة، ويؤثرون أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأهل بيت أبي بكر وعمر وعثمان، ثم أهل بيوت المهاجرين والأنصار، ثم الذين اتبعوهم بإحسان، ففعل فأغنى أهل المدينة عنهم ذلك.

ذكر استخلاف هارون الرشيد

قال: وذكروا أنه لما كانت سنة ثلاث وسبعين ومائة توفي المهدي، وذلك أنه خرج يوماً إلى بعض المنازل، ومعه أهله وبعض بنيه، وكان قد ذكر أن يستخلف ابنه عبد الله بعده، ثم غفل عن ذلك وتركه، فحمل عبد الله الحرص والطيش إلى أن دس على أبيه بعض الجواري المتمكنات منه بسمه، وبذل لها على ذلك الأموال، ومنها أمان الغرور. فلما سمته، ووصل إليه السم، عرف المهدي أنه قد قتل، فدعا كاتبه فقال له: عجل واكتب عهد هارون الرشيد، وخذ بيعة الجند، وأمرء الأجناد، واكتب بذلك إلى ولاية الأمصار، وكان الرشيد أصغر بنيه، وكان بن أمة، لا يطمع في خلافة، ولا يظن بها، فأدخله على نفسه وهو يجود بها، والرشيد لا يعلم أنه مستخلف. فقال له المهدي: أي بني، والله ما أردت استخلافك، ولا هممت به لحدائث سنك، وقد كان قال لي جدك أبو جعفر، وأنت يومئذ قد ترعرعت في أول رؤية رآك: إن ابني هذا الأعين سيلني هذا الأمر، ويسير فيه سيرة صالحة، فقلت: يا أبت، أتظن ذلك. قال: ما هو بالظن، ولكنه اليقين، ويكون ملكاً بضعاً وعشرين سنة، وتقتله الحمى الربع، فاندفع الرشيد باكياً فقال له: ما يبكيك يا فتى؟ قال: يا أبت، إنك والله نعت لي نفسي، وعرفتني متى أموت، ومم أموت؟ قال: هو ذاك، فشمر، واجتهد وجد، وخذ بالحزم والكرم، ودع الإحن، وانظر أخاك عبد الله فلا يناله منك مكروه، فقد عفوت عنه. فقال الرشيد: يا أبت، وتعفو عنه، وقد أتى ما ذكرت، وصنع ما وصفت؟ قال يا بني: ومما علي أن أعفو عمن أكرمني الله على يديه، وأرجو أن يغفر لي بصنيعته بي إن شاء الله. عليك يا بني بتقوى الله العظيم وطاعته، فاتخذها بضاعة يأتيك الربح من غير تجارة، وأوصيك بإخوتك خيراً، وأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أقبل حسناهم، وتجاوز عن سيئاتهم، واغفر زلاتهم، وأوصيك بأهل الحرمين خيراً، فقد علمت من هم، وأبناء من هم، أجزل لهم العطاء، وأحسن لهم الجزاء، يكافئك الله في الآخرة والأولى.

ثم توفي المهدي من يومه ذاك، واستخلف الرشيد، وخرج إلى الناس يبايعهم بوجه طلق ولسان سلط، فبايعوه ببغداد، وذلك يوم الخميس من الحرم سنة ثلاث وسبعين ومائة، وتمت له البيعة يوم الجمعة في

المسجد الجامع، فلم يختلف عليه أحد. ولا كره خلافته مخلوق، فأحسن السيرة، وأحكم أمر الرعية، وكان أوحده أهل بيته، ولم يشبهه أحد من الخلفاء من أهله، رحمه الله.

قدوم هارون الرشيد المدينة:

قال: وذكروا أنه لما كانت سنة أربع وسبعين ومائة، خرج هارون حاجاً إلى مكة، فقدم المدينة زائراً قبر النبي عليه الصلاة والسلام، فبعث إلى مالك بن أنس، فأثابه، فسمع منه كتابه الموطأ، وحضر ذلك يومئذ فقهاء الحجاز والعراق والشام واليمن، ولم يتخلف منهم أحد إلا حضر ذلك الموسم مع الرشيد وسمع وسمعوا من مالك موطأه الذي وضع، وكان قارئه يومئذ حبيب كاتب الرشيد.

فلما أتم قراءته قال هارون لفقهاء الحجاز والعراق: هل أنكرتم شيئاً من هذا العلم؟ قالوا: ما أنكرنا شيئاً إلا ما ذكر من أمر الدماء، والتدمية في القتل، فإن هذا من أنكر ما يكون من العلم وأبطله، يقول الرجل: قتلتني فلان فيقبل منه، ويحلف أولياؤه على القاتل خمسين يمينا، ثم يقتل، ولعل أولياءه لم يحضروا، ولم يكونوا بمصر، فيعرض بهم الحنث في الإيمان، فيقبل قول رجل من غيره، وهو لا يقبل في ربع دانق يدعيه إلا ببينة تقوم، إن هذا هو الضلال. وقد قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي رواه بن عباس حيث قال: "لو يعطى الناس بدعواهم، لادعى ناس لدماء أقوام وأموالهم، ولكن البينة على من ادعى واليمين على من أنكر". قال الرشيد: ويحكم، إن في كتاب الله ما يصدق ذلك، ولا إخال أبا عبد الله أخذه إلا من كتاب الله فاستثبتوه. فأرسل: إليه فأقبل. فقال هارون: يا أبا عبد الله، إن أصحابنا هؤلاء لم يختلف منهم اثنان لفي الإنكار عليك فيما وضعت في موطئك من التدمية. وتصديق قول من ادعى، وأنت وهم تزعمون بطل دعوى من ادعى على رجل دانقاً إلا ببينة تقوم له، فأخبر كالقوم، وأوضح لهم حججتك في ذلك وأنا معك عليهم، فإني لا أعلم بعد أمير المؤمنين أحداً أعلم منك، فقال مالك: يا أمير المؤمنين، إن مما يصدق القسامة ما في كتاب الله من القتل، والأخذ بالدم الذي كان في بني إسرائيل. قال الله عز وجل: "اضربوه ببعضها"، البقرة: 73، فذبحت البقرة، ثم ضربوه بعضو من أعضائها، فحبي القليل، ثم تكلم. فقال: فلان قتلتني، فقتله موسى بن عمران عليه السلام بقوله ذلك، وهو حكم التوراة، فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا، فالذين أسلموا: محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وقد حكم بالتوراة رسول الله صلى الله عليه وسلم، في المرجوم اليهودي الذي زنى، فرجحه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد ذكر أنس بن مالك رضي الله عنه أن يهودياً لقي جارية من جواري الأنصار في بعض أنقاب المدينة، وعليها أوضاع من ذهب وورق، فأخذ الأوضاح منها، وشدخ رأسها بين

حجرين، فأدركت الجارية وبها رمق، فاتهم بها اليهود، فأتي بهم، فعرضوا عليها رجلاً رجلاً وهي لا تتكلم، حتى أتى بصاحبها الذي قتلها فعرفته. فقيل له: هذا الذي قتلك؟ فأومأت برأسها أن نعم، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فشده رأسه بين حجرين، فهذا يا أمير المؤمنين حكم الدماء، والقسامة فيها سنة قائمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء، ففنعوا منه بذلك، وصاروا إلى الرضا بقوله، والتصديق لروايته، والتسليم لتأويل ما تأول من القرآن الكريم. ثم قال له مالك: إن أباك يا أمير المؤمنين بعث إلي في هذا المجلس كما بعثت إلي، وحدثته بما حدثتك به في شأن أهل المدينة، وما يصبرون عليه من البلاء، وشدة الزمان، وغلاء الأسعار، صبراً على ذلك، واختياراً لجوار قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال هارون: ذلك هو أبي وأنا ابنه، وسوف أفعل ما فعل، وأمر لأهل المدينة بعشرة أبيات مال، ضعف ما أمر به المهدي، وكان أبو يوسف القاضي مع الرشيد يومئذ، فسأله أن لجمع بينه وبين مالك، ليكلمه في الفقه. فقال الرشيد لمالك: كلمه يا أبا عبد الله، فأنف من ذلك مالك، وتتره عنه، وقال له هارون: هاهنا من فتیان قريش من تلامذتنا، من يبلغ حاجة أمير المؤمنين، ويخصمه فيما يتكلم به، ويذهب إليه، فسر ذلك الرشيد حين أضاف ذلك إلى قريش. فقال: من هو؟ فقال: المغيرة بن عبد الرحمن المخزومي، فبعث إليه الرشيد فجمعه بأبي يوسف فقال: كلمني بما بدا لك أجابوك. فقال أبو يوسف القاضي: يا أمير المؤمنين إن هؤلاء، يعني مالكا وأصحابه، يقضون بغير ما في كتاب الله، يقول الله عز وجل: "وأشهدوا ذوي عدل منكم" الطلاق: 2 وقال: "واستشهدوا شهيدين من رجالكم" البقرة: 82، وهؤلاء يقضون باليمين مع الشاهد، ولا نسمع أن الله تعالى ذكر إلا شاهدين وأربعة شهداء، ولم يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قضى به، وإنما يدور هذا الحديث الذي روى فيه سهيل عن أبي صالح عن أبيه، ثم نسبته سهيل، فكان يحدث ويقول: حدثني ربيعة عن أبي هريرة: "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى باليمين مع الشاهد فلما نسبته سهيل بطل الخبر، وأثبت أصله، فلا معنى لذكره. قال المغيرة: قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقضى به علي بالكوفة، فقال أبو يوسف: أنا أكلمك بالقرآن، وأنت تكلمني بأفعال الناس، أترك تعرفني بهذا، وبما قضى به علي وغيره. فقال المغيرة: فأنت كافر بنبي قضى باليمين مع الشاهد، أو مؤمن به. فسكت أبو يوسف فحجه المغيرة. فسر بذلك الرشيد، وأمر للمغيرة بألف دينار. ثم أرسل الرشيد إلى مالك فقال: ما تقول في هذا المنبر، فإني أريد أن أنزع ما زاد فيه معاوية بن أبي سفيان وأردّه إلى الثلاث درجات، التي كانت بعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال له مالك: لا تفعل يا أمير المؤمنين، فإنما هو من عود ضعيف قد تخرمته المسامير، فإن نقضته تفكك، وذهب أكثره، ومع هذا إنه يا أمير المؤمنين لو أعدته إلى ثلاث درجات لم آمن عليه أن ينتقل عن المدينة، يأتي بعدك أحد فيقول أو يقال له: ينبغي لمنبر

رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون معك حيث كنت، فإنما المنبر للخليفة، فينتقل كما انتقل من المدينة كل ما كان بها من آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما أعلم أنه ترك له عليه الصلاة والسلام بها نعل ولا شعر ولا فراش ولا عصا ولا قدح ولا شيء مما كان لي هاهنا في آثاره إلا وقد انتقل. فأطاعه الرشيد، وانتهى عن ذلك برأي مالك بن أنس وكان ذلك رحمة من الله لآهل المدينة، وتثبيتاً لمنبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم.

مسير الرشيد إلى الفضيل بن عياض:

قال: وذكروا أن الرشيد كان كثيراً ما يتلثم، فيحضر مجالس العلماء بالعراق وهو لا يُعرف. وكان قد قسم الأيام والليالي على سبع ليالي: فليلة للوزراء، يذاكرهم أمور الناس، ويشاورهم في المهم منها، وليلة للكتاب يحمل عليهم الدواوين، ويحاسبهم عما لزم من أموال المسلمين، ويرتب لهم ما ظهر من صلاح أمور المسلمين؛ وليلة للقواد، وأمراء الأجناد يذاكرهم أمر الأمصار ويسألهم عن الأخبار، ويوقفهم على ما تبين له من صلاح الكور وسد الثغور، وليلة للعلماء والفقهاء يذاكرهم العلم ويدارسهم الفقه، وكان من أعلمهم، وليلة للقراء والعباد يتصفح وجوههم، ويتعظ برؤيتهم، ويستمتع لمواعظهم، ويرقق قلبه بكلامهم، وليلة لنسائه وأهله ولذاته، يتلذذ بدنيته، ويأنس بنسائه، وليلة يخلو فيها بنفسه، لا يعلم أحد قُرب أو بُعد ما يصنع، ولا يشك أحد أنه يخلو فيها بربه، يسأله خلاص نفسه، وفكاك رقه. فبينما هو يوماً في مجلس محمد بن السماك، وقد قصد لرؤيته يسمع لموعظته، ولا يعلم أحد بمكانه، فسمع بعض أهل المجلس يذكر الفضيل بن عياض، ويصف فضله وعبادته، وعلمه وروعه، فاشتبهى النظر إليه، وتاقت نفسه إلى رؤيته ومحادثته، فتوجه من العراق إلى الحجاز قاصداً إليه، ومعه عبد الله بن المبارك فقيه أهل بغداد وعالمهم، وكان الفضيل بن عياض يسكن الغيران. فلما قربا من موضعه قال عبد الله بن المبارك: يا أمير المؤمنين إن الفضيل إن عرفك وعرف مكانك لم يأذن لك عليه، ويسفر عنك. فقال هارون: تستأذن أنت عليه، وتخفي مكاني عنه، حتى يأذن بالدخول فاستأذن عليه بن المبارك. قال الفضيل: من الباب؟ قال: بن المبارك. قال: مرحباً يا أخي وصاحبي، فقال بن المبارك: ومن معي يدخل؟ فقال الفضيل: ومن معك؟ قال: رجل من قريش. فقال الفضيل: لا إذن، لا حاجة لي برؤية أحد من قريش. فقال له بن المبارك: إنه من العلم والعناية والفقه فيه بمكان، فقال له الفضيل: أو ما علمت أن إبليس أفاقه الناس؟ فقال له بن المبارك: إنه سيد قريش في زمانه هذا وفوقهم، وإنما عني أنه فوقهم في الدنيا وسيدهم، فقال له الفضيل: فإن كان كما تقول: فليدخل، فدخل الرشيد فسلم عليه، ثم جلس بين يديه، فتحدثوا ساعة. فقال له بن

المبارك: يا أبا الحسن، أتدري من هذا؟ قال: لا أدري. فقال له: هذا هارون بن محمد الرشيد أمير المؤمنين، فنظر إليه الفضيل بن عياض ساعة، ثم قال: هذا الوجه الجميل يسأل غداً عن أمة محمد ويؤاخذ بها، لئن كان العفو والغفران يسعك مع ما أنت فيه، إن هذا هو الفضل المبين، وكان الرشيد من أجمل الناس خلقاً، وأحسنهم نطقاً، وأبلغهم لساناً، وأعذبهم كلاماً، وأكثرهم علماً وفهماً، ثم جعل الفضيل بن عياض يعظه ويخوفه حتى بكى هارون بكاء شديداً. قال بن المبارك: ما رأيت أحداً يبكي بكاء الرشيد يومئذ، ثم أفاق من بكائه، فجعل الفضيل يذكر مثالبه، ومثالب أهل بيته، ورفاعة سيرتهم، وخلافهم الحق، ثم لم يدع شيئاً يعيبه به، ولا أمراً ينتقصه فيه إلا واستقبله به. فقال له الرشيد: يا أبا الحسن، أما لك ذنوب تخاف أن تهلك ما إن لم يغفرها الله لك؟ فقال الفضيل: بلى. فقال الرشيد: فما جعلك بأحق الله ترجو المغفرة مني؟ وأنا على دين يقبل الله فيه الحسنات، ويعفو عن السيئات، ومع ذلك فإني والله ما كنت لأخير بين شيء وبين الله إلا اخترت الله إلى على ما سواه، الله الشاهد على قولي، والمطلع على نيتي وضميري، وكفى به شهيداً. وأنا مع هذا ألي من الإصلاح بين الناس، والجهاد في سبيل، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ما لا تليه أنت، فما جعلك أحق أن ترجو المغفرة مني؟ فسكت الفضيل ساعة ثم قال: ما ظلمك من حجاجك، ثم قام هارون للخروج. فقال الفضيل: يا أمير المؤمنين، إني أخشى أن يكون العلم قد ضاع قبلك كما ضاع عندنا، فقال الرشيد: أجل إنه ما قلت. فلما قدم الرشيد العراق كان أول ما ابتدأ فيه النظر أن كتب إلى الأمصار كلها، وإلى أمراء الأجناد، أما بعد: فانظروا من التزم الأذان عندكم، فاكتبوه في ألف من العطاء، لمن جمع القرآن وأقبل على طلب العلم وعمر مجالس العلم، ومقاعد الأدب، فاكتبوه في ألفي دينار من العطاء، ومن جمع القرآن وروى الحديث، وتفقه في العلم واستبحر، فاكتبوه في أربعة آلاف دينار من العطاء، وليكن ذلك بامتحان الرجال السابقين لهذا الأمر، من المعروفين به من علماء

عصركم، وفضلاء دهركم، فاسمعوا قولهم وأطيعوا أمرهم، فإن الله تعالى يقول: "أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم" النساء: 59 وهم أهل العلم. قال بن المبارك: فما رأيت عالماً ولا قارئاً للقرآن، ولا سابقاً للخيرات، ولا حافظاً للمحرمات، بعد أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأيام الخلفاء والصحابة أكثر منهم في زمن الرشيد وأيامه، لقد كان الغلام يجمع القرآن وهو بن ثمان سنين، ولقد كان الغلام يستبحر في الفقه والعلم، ويروي الحديث، ويجمع الدواوين، وينظر المعلمين وهو بن إحدى عشرة سنة.

ذكر الحائك المتطفل:

قال: وذكروا أن الرشيد لما انصرف من الحجاز وصار بالرفقة قال لوزير عمر بن مسعدة: مازلت تكلمني وتستلطفني في الرخجي حتى وليته الأهواز، فقعد في سرّة الدنيا يأكلها خضماً وقضماً، ولم يوجه إلي درهماً، فأخرج إلي من ساعتك هذه، حتى تحل ساحتها، ثم لا تدع له حرمة إلا انتهكتها، ولا أكرومة إلا أهنتها. ثم لا تسمع له حجة يرفعها، ولا تقبل منه كلمة ينهيها، إن اعتذر فلا تقبل له عذراً، وإن قال فلا تقبل له قولاً، فشر قائل، وأكذب متظلم، فقلت في نفسي: أبعد الوزارة أصير مستحثاً على عامل خراج؟ ولكن لم أجد بداً من طاعة أمير المؤمنين، إذ كانت ولايته بسبي. فقلت: أخرج يا أمير المؤمنين؟ قال: فاحلف أنك لا تلبث في بغداد إلا يوماً، فحلفت له، ثم انحدرت إلى بغداد، ثم خرجت، فلما صرت بين دير هرقل وبين دير العاقول، إذا رجل يصيح: يا ملاح، يا ملاح، رجل منقطع. فقلت للملاح: قرب إلى الشط. فقال: يا سيدي هذا رجل شحاذ وإن قعد معك آذاك، قال الوزير: فلم يلتفت إليه ولقوله، وأمرت الغلمان فأدخلوه فقعد، فلما حضر الغداء دعوته، فكان يأكل أكل جائع بنهامة، إلا أنه نظيف الأكل؟ فلما رفع الطعام، أردت أن يقوم ويغسل يديه في ناحية، فلم يفعل، فغمزه الغلمان، فلم يفعل، فتشاغلت عنه ليقوم؛ ثم قلت له: يا هذا ما صناعتك؟ قال لي: حائك، فقلت في نفسي: هذه شر من الأولى، ما ألوم غير نفسي، إذ لم أقبل ممن نصحني، وصرت أواكل الحوكة. فقلت: توضع يا أخي، فتوضع؟ ثم قال لي: جعلت فداك: قد سألتني عن صناعتي، فما صناعتك أنت. فقلت في نفسي: هذه شر من الأولى، وكرهت أن أذكر الوزارة، وقلت: أقصر على الكتابة. فقلت له: كاتب. فقال: إن الكتابة على خمسة أصناف: كاتب رسائل، يحتاج أن يعرف الفصل من الوصل، والصدور ورقيق الكلام، والتهاني والتعازي، والترهيب والترغيب، والمقصود والممدود، وجمالاً من العربية. وكاتب جند يحتاج إلى أن يعرف حساب التقدير، وشيات الدواب، وحلي الناس ونعوتهم، وكاتب قاض، يحتاج أن يكون عالماً بالشروط والأحكام، عارفاً بالناسخ والمنسوخ من القرآن، والحلال، من الحرام، والفروع والموايظ. وكاتب شرطة، يحتاج أن يكون عالماً بالجروح والقصاص والديات، فقيهاً في أحكام الدماء، عارفاً بدعوى التعدي. وكاتب خراج، يحتاج أن يعرف الزرع والمساحة وضروب الحساب، فأيهم أنت أعزك الله؟ قلت: فوالله ما قضى كلامه حتى صار أعظم الناس في نفسي وأحبهم إليّ، وصار كلامه عندي أشهى من الماء البارد العذب على الظمان. فقلت له: أصلحك الله، تقدم إلي، وادن مني أكلمك، وأقعدك المقعد الذي يقعه مثلك، فلولا أن من البر ما يكون عقوقاً لأقعدتك مقعدي هذا. قال: مقعدي الذي أنا به أولى بي. فقلت: أمتع الله بك، أنا كاتب رسائل. قال: فأخبرني لو كان لك صديق تكتب إليه في المحبوب والمكروه، ويكتب إليك في جميع الأشباب، فتزوجت أمه، كيف كنت تكتب إليه. تهنته أم تعزّيه؟ قلت: نقص الصفحة 214، 215.

لمثلته لك حتى تراه

فتعلم أنني امرؤ شاكر

قال عمرو بن مسعدة: ثم قال لي هارون: ويحك، لما أبطأت حلفتُ بالمشي إلى الكعبة أن ينالك مني يوم سوء ولا والله ما هذا جزاؤك لدي فما الرأي؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، أنت أعلى عيناً، وأولى من بر يمينه. فقال: والله ما أريد ذلك. قلت: فليكفر أمير المؤمنين عن يمينه، فإن النبي عليه الصلاة والسلام قال: "من حلف على يمين فرأى خيراً منها فليكفر، وليأت الذي هو خيراً" فقال: ويحك، إن العلماء لم يروا الكفارة في هذا، وإنما تأولوا قوله عليه الصلاة والسلام في الإيمان بالله تعالى، وقد أجمعت على المشي، والمضي إلى الكعبة راجلاً. فقلت: أنى لك بذلك؟ وكيف تصل راجلاً؟ قال: لا بد من ذلك. فقال عمرو: يا أمير المؤمنين، فأمهل عامك هذا حتى أسهل لك طريقاً، وأحدد لك مراحل، وأوقت لك مواقيت يسهل عليك ذلك إن شاء الله. قال: ذلك لك. فأمر عمرو بالأهجار فخرجت عن مسيلها، وبالأكام والجبال فسويت، وبالحنادق والأودية فردمت، حتى صار ما بينه وبين مكة كالراحة الموزونة، وصارت الأهجار والأودية تسايره على طريقه، ثم صنع له مراحل، قد حدد له عند كل مرحلة حداً، وابتنى في كل مرحلة داراً، وكانت المرحلة بريداً، قدرها اثنا عشر ميلاً، ثم أمر بالمراحل ففرشت بالبسط الرهاوية، ونصب له جداراً بالستور، وسمكها بأكسية الخز الرفيع الملون، وقد ضرب عند كل فرسخ قبة مزوقة، قد أقام فيها الفرش الممهدة، وقد أحاط بها الظلال الممدودة بالرواقات الكثيفة، فيها أنواع الطعام والشراب وألوان الفواكه. فلما تم صنعه ذلك، وأبرم أمره، قال: يا أمير المؤمنين، قد تم ما أردته، وكمل ما حاولته، فانهض على اسم الله العظيم؛ وكانت زبيدة زوجته التي أغرتة عليه، وحملته على اليمين لمعاقبته، فخرج الرشيد ماشياً، ومعه دابته وزبيدة، فكانت المرحلة تفرش، والستور تنصب، والسُمك ترفع، فيمشي ثلاثة أميال، ثم يتزل في قبة أمامها رواق، فينال راحته، ويصيب ما انتهى من لذة في مأكلاً ومشرب، ثم ينهض ثلاثة أخرى، فيتزل على مثل ذلك، فإذا استكمل مشى أربعة فراسخ، نزل في قصر قد شيد له، ودار قد بنيت، فيها حمام طيب، ينال فيها راحته مع أهله، ويصيب لذته مما شاء وكيف شاء، ثم يكسر فيه يوماً، ثم يخرج في اليوم الثاني إلى مثل ذلك، قد شايعه في طريقه الوزراء والقواد، وأمراء الأجناد والعلماء والفقهاء، والجنود والعساكر قد صاروا منه بمعزل يحاذونه في طريقه. إذا نزل في الرواق صار الحصيان حوله، بحيث يسمعون كلامه، ولا يرون شخصه، فلا يشتهي شيئاً من معرفة أخبار الأمصار والبلدان، إلا وخط فيه كتاباً، يأمر

فيه بإيصاله لحيث شاء من الأماكن، مسيرة الأيام والليالي، فيأتيه الجواب من يومه على النجائب من مسيرة ثمانية أيام، ويأتيه الجواب من يومه من مسيرة شهر ونحوه على أجنحة الحمام، يعلق الكتاب في جناحه فيرتفع في الجو ارتفاعاً يغيب شخصه عن في الأرض، وينقض على وطنه، وموضع فراخه، فإذا نزل لا يستقر نزوله، حتى يؤخذ الكتاب من جناحه، فيجواب بما أحب، ثم يسرح غيره، فيرتفع في الجو حتى يوازي وطنه وموضعه من بعد تلك الأماكن التي عليها طريق أمير المؤمنين، فيؤخذ الجواب منه، وقد صار الموكلون بذلك لا يهتمون بغير ما قلدوا، ولا يتشاغلون بغير ما حملوا، فلم يزل كذلك ماشياً، حتى وصل إلى مكة في ثلاثة أشهر، فقضى حجه، وشهد مناسكه ومشاعره، ثم انصرف قافلاً إلى بغداد، وذلك في آخر شهر في الحجة من سنة ثمانين ومئة. فلما هم بالانصراف، وذكر القفول إلى العراق، رفع إليه أهل مكة كتاباً يسألونه فيه أن يولي عليهم قاضياً عدلاً، فأدخلهم على نفسه، فقال: إن شئتم فاختروا منكم رجلاً صالحاً أوليه قضاءكم، وإن أحببتم بعثت إليكم من العراق رجلاً لا آلوكم فيه إلا خيراً، فخرجوا فاختاروا رجلاً، فاختلفوا فيه، فاختارت طائفة منهم رجلاً، واختارت أخرى رجلاً آخر؛ فلما اختلفوا ارتفعوا إلى الرشيد يذكرون اختلافهم. فقال لهم هارون: أدخلوا علي هذين الرجلين اللذين اختلقتم فيهما، فإذا برجلين، أحدهما شيخ من قریش، والآخر غلام حدث من الموالي. فلما نظر إليهما الرشيد قال للشيخ: ادن مني، فدنا منه، فقال له الرشيد: أيها القاضي، إن بيني وبين وزيرٍ هذا خصومة وتنازعاً، فاقض بيننا بالحق. فقال الشيخ: قصا علي قصتكما، فقصا عليه، فقال الشيخ: تقيم البينة يا أمير المؤمنين على ما ذكرته، أو يحلف وزيرك هذا. فقال له هارون: إن أخي لا يدافعني ما أقول، ولا ينكر إلا قليلاً مما أدعي، فلم يزالا يرفدان القول بينهما ويتنازعان، حتى قضى القاضي لأمر المؤمنين على الوزير. فقال له: قم، فقام عنه. ثم دعا بالغلام الحدث، الذي دعت الطائفة الأخرى، فدخل عليه. فقال له: ادن مني، فدنا منه. فقال لها هارون: إن بيني وبين وزيرٍ تنازعاً وخصومة، فاسمع منا قولنا، ثم اقض بيننا بالحق. قال لهما: إن مقعدكما مختلف، ومجلسكما متناء، وأخشى إذا اختلف مجلسكما أن يختلف قولكما، فإذا تفاضل مجلس الخصوم اختلف بينهما القول، وكان صاحب المجلس الأرفع الحن بحجته، وأدحض لحجة صاحبه، وكان إصغاء الحاكم إلى صاحب المجلس الأرفع أكثر، وإليه أميل. ولكن تقومان من مجلسكما هذا الذي قد استعلتما فيه، فتجلسا بين يدي، ثم أسمع منكما قولكما، وأقضي لمن رأيت الحق له، ثم لا أبالي على من دار منكما. فقال الرشيد: صدقت وبررت في قولك؛ فقام الرشيد، وقام عمرو بن مسعدة، حتى صارا بين يديه جالسين. فلما جلسا بين يديه ذهب الرشيد ليتكلم. فقال له القاضي: لو تركت هذا يتكلم، فإنه أسن منك. فقال الرشيد: إن الحق أسن منه. فقال القاضي: بلى، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحويصة ومحبيصة: كبر كبر. يريد ليتكلم عمكما، لأنه أسن منكما وأكبر، فتكلم

عمرو بن مسعدة، ثم تكلم الرشيد، وتنازعا الخصومة، وترافعا الحجة بينهما، حتى رأى القاضي أن الحق لعمرو، ف قضى له به على الرشيد، فلما قضى عليه قال لهما: عودا إلى مجلسكما، فعادا، فعجب الرشيد من قضائه وعدله واحتفاظه، وقلة ميله، فالتفت إلى عمرو فقال: إن هذا أحق بقضاء القضاة من الذي استقضيناه. فقال عمرو: بلى والله، ولكن القوم أحق بقاضيتهم إلا أن يأذنوا فيه، فدعا الرشيد برجال مكة، فأدخلهم على نفسه، وأجزل لهم العطاء، وأحسن على قاضيتهم الثناء. ثم قال لهم: هل لكم أن تأذنوا أوليه قضاء القضاة، فيسير إلى العراق يقضي بينهم؟ فقالوا: نعم يا أمير المؤمنين أنت أحق به نؤترك على أنفسنا. فأرسل إليه الرشيد فقال: إني قد وليتك قضاء القضاة، فسر إلى العراق لتقضي بينهم، وتولي القضاة في البلدان والأمصار من تحت يدك، وتوليتهم إليك، وعزلهم عليك. فقال القاضي: إن يخبرني أمير المؤمنين على ذلك فسمعاً وطاعة، وإن يخبرني في نفسي اخترت العافية، وجوار هذا البيت الحرام. فقال الرشيد: ما ينبغي لي أن أدع المسلمين وفيهم مثلك، لا أوليه عليهم، فخذ على نفسك فإني مصبح على ظهر إن شاء الله. فخرج الرشيد ومعه الفتى حتى قدم العراق، فولاه القضاء، وجعل إليه قضاء القضاة، فلم يزل بها قاضياً حتى توفي، وذلك بعد ثلاثة أعوام من توليته. فلما توفي اغتم الرشيد وشق عليه، فجعل الناس يعزونه فيه علماً منهم بما بلغ منه الغم عليه. فسأل عن قاض يوليه قاضي القضاة في العراق بعد ذلك، فرفعت إليه تسمية عشرة رجال من خيار الناس وعلمائهم وأشرفهم، فلما رفعت إليه التسمية، أمر بهم فأدخلوا عليه رجلاً رجلاً، ليتفرس فيهم من يوليه القضاء، فنظر إلى رجل منهم توسم فيه الخير والعلم فأمر به فقدم إليه. فلما صار بين يديه، قال له: ما اسمك؟ قال: معشوق. قال: فما كنييتك؟ قال: أبو الهوى. قال: فما نقش خاتمك؟ قال: دام الحب دام، وعلى الله التمام. فقال له: قم لا قمت. ثم دعا بالآخر، وكان قد تفرس فيه ما تفرس في صاحبه فقال له: ما نقش خاتمك؟ فقال: "مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين" فقال له أخرج. فدعا الرشيد بيحيى بن خالد بن برمك، وكان ممن رفع إليه أسماءهم، فعنفه بهم، وقال: رفعت إلي أسماء المجانين. قال له: والله ما في العراقيين أعقل من الرجلين اللذين سألت، ولا أفضل منهما. فقال: ويحك إني اخترت منهما جنوناً. قال يحيى: إلهما والله كانا كارهين لما دعوتهما إليه وإنما أرادا التخلص منك. قال: ويحك، أعدهما علي، فطلبنا فلم يوجدا.

ذكر الأعرابي مع هارون الرشيد:

قال: وذكروا أن أعرابياً قدم على هارون الرشيد مستجدياً، فأراد الدخول عليه، فلم يمكنه ذلك، فلما

رأى أنه لم يؤذن له، أتى عبد الله بن الفضل الحاجب، فقال له: توصل كتابي هذا إلى أمير المؤمنين، وكان الرشيد قد عهد إلى حاجبه أن لا يحبس عنه كتاب أحد قرب أو بعد، فأعطاه الأعرابي كتاباً فيه أربعة أسطر. السطر الأول فيه: الضرورة والأمل قاداني إليك. والثاني العدم يمنع من الصبر. والثالث: الانقلاب عنك بلا فائدة شماتة الأعداء. والرابع: فإما نعم، ثمرة! وإما لا مريحة. فلما وصل الكتاب إلى الرشيد قال: هذا رجل قد ساقته الحاجة، ووصلت إليه الفاقة، فليدخل، فدخل فقال له الرشيد: ارفع حاجتك يا أعرابي. فقال الأعرابي: إن مع الحاجة حويجات. فقال له الرشيد: ارفع حاجتك وحويجاتك تقض كلها. قال الأعرابي: تأمر لي يا أمير المؤمنين بكلب أصيد به، فضحك الرشيد ثم قال له: قد أمرنا لك بكلب تصيد به. فقال: تأمر لي يا أمير المؤمنين بدابة أركبها. فقال الرشيد: قد أمرنا لك بدابة تركبها. فقال: تأمر لي يا أمير المؤمنين بغلام يخدم الدابة. فقال له الرشيد: قد أمرنا لك بغلام. قال الأعرابي: تأمر لي يا أمير المؤمنين بجارية تطبخ لنا الصيد، وتطعمنا منه، فقال الرشيد: قد أمرنا لك بجاريتين، جارية تؤنسك وجارية تخدمك. فقال الأعرابي: لا بد لهؤلاء، من دار يسكنونها. فقال له الرشيد: قد أمرنا لك بدار، فقال الأعرابي: يا أمير المؤمنين يصيرون فيها عالة على الناس، وعلي كلاله، لا بد لهم من ضيعة تقيمهم. - فقال له الرشيد: قد أقطعتك مئة جريب عامرة ومئة جريب غامرة، فقال الأعرابي: ما الغامرة يا أمير المؤمنين؟ قال الرشيد: غير معمورة تأمر بعمارها. فقال الأعرابي: أنا أقطعتك ألف ألف جريب من أرض أخوالي بني أسد بالحجاز تأمر بعمارها، فضحك الرشيد وقال: قد أقطعتكها عامرة كلها. ثم قال الرشيد: تمت حويجاتك كلها يا أعرابي؟ فقال: نعم، وبقيت حاجتي العظمى. فقال له الرشيد: ارفعها تقض. فقال أقبل رأسك يا أمير المؤمنين، فقال له الرشيد: هذا لا سبيل إليه. فقال الأعرابي: أتمنعي حقاً هو لي، وتدفعي عما بذلت لي يا أمير المؤمنين! فقال الرشيد: هذا الأمر لا يكون يا أعرابي، ولا سبيل إلى مثل هذا. فقال الأعرابي: لا بد من أن أصل إلى حقي، إلا أن أغصبه. فقال له الرشيد: يا أعرابي أشتري منك هذا الحق الذي وجب لك. فقال له الأعرابي: هذا الحق مما لا يشتري، وهل في الأرض من المال ما يكون ثمناً لهذا أو عوضاً منه؟ لا والذي نفسي بيده ما في الدنيا صفراء ولا بيضاء يشتري بها هذا. فقال الرشيد: تبعه ببعض ما تراه من الثمن، فإنه لا يكون ولا يتوصل إليه. فقال له الأعرابي: فإذا قد أبيت فأعطني مما أعطك الله، فأمر له بمئة ألف دينار، فأتي بها إليه. فقال الأعرابي: ما هذه؟ فقيل له: هذه مئة ألف دينار تأخذها. فقال الأعرابي: هي للغرماء، علي، وهم أولى بها مني، فضحك الرشيد، ثم أمر له بمئة ألف أخرى. فقال: ما هذه؟ فقيل له: مئة ألف ثانية، والأولى للغرماء، وهذه لك. فقال الأعرابي: هذه لضعفاء أهلي، يصلهم بها أمير المؤمنين، فبم أوسع على نفسي؟ فأمر له الرشيد بمئة ألف ثالثة. فقيل له: هذه مئة ألف ثالثة، توسع بها على نفسك في معيشتك، أرضيت يا أعرابي؟ فقال: نعم رضيت، فرضي الله عنك يا

أمير المؤمنين، وابني فضالة يقرأ السلام عليك، ويسألك مئة ألف، يستعين بها في نكاحه، ويتزين بها في ديناه، وإنه قد جمع القرآن وعرف شرائعه وأحكامه، وعلم ناسخه ومنسوخه، وتفنن في ضروب من العلم، وأحكم أنواع الأدب، وقد جمع الدواوين والكتب، وتبحر في فهم الحديث والأثر، قد أخذ من كل علم أهذه ومن كل ضرب أمحضه إلى لب لبيب، وعقل رصين، وعلم ثابت، ونظر عجيب، وفضل ودين، يصوم النهار كله، ويقوم الليل أكثره، وقد صار في كثير من الأهل والعيال، وعدد من البنين والصبيان. فقال الرشيد: أولست تذكر يا أعرابي أنه يريد الاستعانة على النكاح، والتوسع في المعاش، ثم أراك تصفه بكثرة العيال، وعمد البنين والصبيان؟ فقال الأعرابي: يا أمير المؤمنين إنه ذو ثلاث نسوة من حرائر النساء، وتسعة من سرائر الإماء، وهو ذو خمسة من الولد من كل حرة، وذو سبع بنات من كل أمة، وبيتني نكاح الرابعة الحرة استتماماً لما أمر الله به في التزويل المحكم، وأباح في كتابه الناطق، بكلامه الصادق. فقال الرشيد: يا أعرابي لقد سألت كثيراً، فهلا سألت مئة ألف درهم فتعطاه؟ قال الأعرابي: فأعطه يا أمير المؤمنين تسعين ألف دينار، واحطط عنك عشرة آلاف دينار. فقال الرشيد: والله لقد سألت كثيراً، وحطط قليلاً. قال الأعرابي: إنما سألتك يا أمير المؤمنين على قدرك، وحططت على قدري، فاختر ما شئت. فقال الرشيد: يا أعرابي إنما تريد مغاليتي، لا غلبتي اليوم، فأمر له بمئة ألف دينار ذهباً. فقال له أمير المؤمنين: أرضيت يا أعرابي؟ فقال: ما بقي لي شيء يا أمير المؤمنين إلا الحملان والكسوة، وطرائف الكوفة، وتحف البصرة، وجوائز الضيافة وحقها. فقال الرشيد: وما يصلح لك من الحملان يا أعرابي؟ فقال: أقصد ما يكون دابة للجمال، وأخرى للحملان وثلاثة للاسترحال، ولابني مثل ذلك، ومن الكسوة ما لا بد منه من ثياب المهنة والاستشعار، وما لا غنى عنه من الوطاء والدثار، مع رائع الثياب التي تكون للجمال والجماعات والأعياد، ولابني وبني ابني مثل ذلك. فدعا الرشيد بجعفر بن يحيى وقال: أرحني من هذا، وأمر له بما سأل من الحملان، وما أراد به من ثياب المهنة والجمال، وأغدق عليه من التحف والطرائف ما ترضيه به، وأخرجته عني؛ فخرج جعفر فأمر له بما سأل وأعطاه ما أراد. ثم انصرف الأعرابي راجعاً إلى الحجاز بأموال عظيمة، لا يوصف أكثرها، ولا يعرف أقلها، وكل هذا يقل عندما عرف من تجود الرشيد وسخائه، وجزيل عطائه.

قتل جعفر بن يحيى بن برمك:

قال عمرو بن بحر الجاحظ: حدثني سهل بن هارون، قال: والله إن كان سجاعو الخطب، ومحبرو القريض لعيالاً على يحيى بن خالد بن برمك وجعفر بن يحيى، ولو كان كلام يتصور درأً، ويحيله المنطق السري

جوهراً، لكان كلامهما، والمنتقى من لفظهما، ولقد كانا مع هذا عند كلام الرشيد، في بديهته، وتوقعاته في أسافل كتبه، عيين، وجاهلين أميين، ولقد عبرت معهم، وأدركت طبقة المتكلمين في أيامهم، وهم يرون أن البلاغة لم تستكمل إلا فيهم، ولم تكن مقصورة إلا عليهم، ولا انقادت إلا لهم، وأنهم محض الأنام، ولباب الكرام، وملح الأيام، عتق منظر، وجودة مخبر، وجزالة منطق، وسهولة لفظ، ونزاهة أنفوس، واكتمال خصال، حتى لو فاخرت الدنيا بقليل أيامهم، والمأثور من خصالهم كثير أيام من سواهم، من لدن آدم أبيهم إلى نفخ الصور، وانبعث أهل القبور، حاشا أنبياء الله المكرمين، وأهل وحيه المرسلين، لما باهت إلا بهم، ولا عولت في الفخر إلا عليهم، ولقد كانوا مع تهذيب أخلاقهم، وكريم أعراقهم، وسعة آفاقهم، ورفق ميثاقهم، ومعسول مذاقهم، وسني إشراقهم، ونقاوة أعراضهم، وطيب أغراضهم، واكتمال خلال الخير فيهم إلى ملء الأرض مثلهم، في جنب محاسن المأمون كالنقطة في البحر، وكالخرحلة في المهمة القفر. قال سهل: إني لحصل أرزاق العامة بين يدي يحيى بن خالد في داخل سرادقه، وهو مع الرشيد بالرقعة، وهو يعقدها جملاً بكفه، إذ غشيت سامة، وأخذته سنة، فغلبته عيناه. فقال: ويحك يا سهل، طرق النوم شفري عيني، فأظلمت وأكلت السنة حواطري، فما ذاك؟ قلت: طيف كريم، إن أقصىته أدركك، وإن غلبته غلبك، وإن قربته روحك، وإن منعت عنتك، وإن طردته طلبك. فنام أقل من فواق بكية أو نزع ركية، ثم انتبه مذعوراً، فقال: يا سهل، لأمر ما كان، ذهب والله ملكنا، وفل عزنا، وانقطعت أيام دولتنا. فقلت: وما ذاك أصلح الله الوزير. قال: كأن منشداً أنشدني:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

فأجبتة عن غير روية ولا إجمالة فكر:

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العوائر

فوالله ما زلت أعرفها فيه، وأراها ظاهرة منه إلى الثالث من يومه ذلك، فإني لفي مقعدي ذلك بين يديه، أكتب توقعات في أسافل كتبه لطلاب الحاجات إليه، فقد كلفني إكمال معانيها بإقامة الوزن فيها، إذ وجدت رجلاً ساعياً إليه، حتى ارتقى مكباً عليه، فرفع رأسه وقال: مهلاً وشك، ما اكتم خير، ولا استتر سر. قال له: قتل أمير المؤمنين الساعة جعفرًا. قال: أو فعل؟ قال: نعم، فما زاد أن رمى بالقلم من يده، وقال: هكذا تقوم الساعة بغتة. قال سهل: فلو انكفأت السماء على الأرض ما تبرأ منهم الحميم، أو استبعد عن نسبهم القريب، وجحد ولائهم المولى، واستعبرت لفقدهم الدنيا، فلا لسان يخطر بذكرهم، ولا طرف ناظر يُشير إليهم، وضم يحيى وبقية ولده الفضل، ومحمداً وخالداً بنيه، وعبد الملك ويحيى وخالداً بني جعفر بن يحيى، والعاصي ويزيد، ومعمراً بني الفضل بن يحيى، ويحيى وجعفرًا وزيداً، بني محمد

بن يحيى، وإبراهيم ومالكاً وجعفرًا وعمراً بنى خالد بن يحيى، ومن لف لفهم، أو هجس بنفسه أمل فيهم. قال سهل: وبعث إلي الرشيد فوالله لقد أعجلت عن النظر، فدخلت ولبست ثياب أحزاني، وأعظم رغبتني إلى الله الإراحة بالسيف، وإلا نعتُ كما نُعي جعفر فلما دخلت عليه، ومثلت بين يديه، عرف الذعر في تجريض ريتي، والتمايد في طريقي، وشخوصي إلى السيف المشهور ببصري. فقال هارون: إيهأ يا سهل، من غمط نعمتي، واعتدى وصيتي، وجانب موافقتي أعجلته عقوبي. فوالله ما وجدت جوابها حتى قال: يُفرخ رَوْعك، وليسكن جأشك، ولتطب نفسك، ولتطمئن حواسك. فإن الحاجة إليك قربت منك، وأبقت عليك بما ييسط منقبضك، ويطلق معقولك، فاقصر على الإشارة قبل اللسان، فإنه الحاكم الفاصل، والحسام الناصل، وأشار إلى مصرع جعفر وهو يقول:

من لم يؤدبه الجميلُ ففني عقوبته صلاحه

قال سهل: فوالله ما أعلمني أي عييت بجواب أحد قط غير جواب الرشيد يومئذ، فما عزلت في شكره والثناء عليه، إلا على تقبيل يديه، وباطن رجليه. ثم قال لي: اذهب فقد أحللتك محل يحيى بن خالد، ووهبتك ما ضمته أبنته، وحوى سرادقه، فاقبض الدواوين، وأحص حباءه، وحباء جعفر لنأمر بكقبضه إن شاء الله. قال سهل: فكنت كمن نشر عن كفن وأخرج من حبس، فأحصيت حباءهما فوجدت عشرين ألف دينار، ثم قفل إلى بغداد راجعاً، وفرق البرد إلى الأمصار بقبض أموالهم وغلاتهم، وأمر بجيفة جعفر، فنصبت مفصله على ثلاثة جذوع، رأسه في جذع على رأس الجسر مستقبل الفرات، وبعض جسمه في جذع آخر في آخر الجسر الأول وأول الجسر الثاني، مما يلي بغداد، قال سهل: فلما دنونا من بغداد، طلع الجسر الذي فيه وجه جعفر لنا أولاً، واستقبلنا وجهه، واستقبلته الشمس، فوالله لخلتها تطلع من بين حاجبيه، وأنا عن يمينه، وعبد الملك بن الفضل عن يساره. فلما نظر إليه الرشيد، كأنه قنئ شعره، وطلعي بنور بشره، واربد وجهه، وأغضى بصره. قال عبد الملك بن الفضل: لقد عظم ذنب لم يسعه عفو أمير المؤمنين. فقال الرشيد، واغرورقت عيناه حتى لعرفنا الجھش في صدره: من يرد غير مائه يصدر بمثل دائه، ومن أراد فهم ذنبه يوشك أن يقوم على مثل راحلته. علي بالنضاحات. قال سهل: فنضح عليها حتى احترقت عن آخرها، وهو يقول: أما والله لئن ذهب أثرك، لقد بقي خبرك ولئن حط قدرك لقد علا ذكرك.

قال سهل: وأمر بضم أموالهم، فوجد من العشرين ألفاً التي كانت مبلغ حوائهم اثني عشر ألف ألف

مكتوباً على بِقرها صكوك محتومة، بتفسيرها وفيمن حبوا بها، فما كان منها حباء على غريبة أو استطراف ملحّة تصدّق يحيى بها، وأثبت ذلك في ديوانها على تواريخ أيامها، وساعات أعطياتها، فكان ديوان إنفاق، واكتساب فائدة، وقبض من سائر أموالهم ثلاثين ألف ألف وست مئة ألف وستين ألفاً إلى سائر ضياعهم وغلاتهم ودورهم ورباعهم ورياشهم، والدقيق والجليل من مواعينهم، فإنه لا يصف أقله، ولا يعرف أكثره إلا من أحصى الأعمال، وعرف منتهى الآجال. وأبرزت حرمه إلى دار البانوقة ابنة المهمي، فوالله ما علمته عاش ولا عشن إلا من صدقات من لم يزل متصدقاً عليه، وصار من مودة الرشيد فيما لم يعلم من ملك قبله على آخر ملكه. وكانت أم جعفر بن يحيى وهي، فاطمة بنت محمد بن الحسن بن الحسن بن قحطبة بن شبيب قد أرضعت الرشيد مع جعفر، وكان ربيّ في حجرها، وغُذي برسلها، لأن أمه ماتت عن مهده، فكان الرشيد يشاورها مظهرًا لإكرامها، والتبرك برأيها، وكان قد آلى على نفسه، وهو في كفالتها أن لا يحجبها، وأن لا تستشفعه لأحد إلا شفّعها، وآلت عليه أم جعفر أن لا دخلت عليه إلا مأذوناً لها، ولا تشفعت لأحد لغرض دنيا. قال سهل: فكم أسير فكت، ومبهم عنده فتحت، ومستغلق منه فرّجت. قال: واحتجب الرشيد بعد قدومه، فطلبت الإذن عليه من دار البانوقة، وامت بوسائلها إليه، فلم يأذن لها ولا أمر بشيء فيها، فلما طال ذلك بما خرجت كاشفة وجهها، واضعة لثامها، محتفية في مشيتها، حتى صارت بباب قصر الرشيد، فدخل عبد الملك بن الفضل الحاجب، فقال ظئر أمير المؤمنين بالباب، في حالة تقلب شماتة الحاسد إلى حنين الولد وشفقة أم الواحد، فقال له الرشيد: ويحك يا بن الفضل: أو ساعية؟ فقال: نعم أصلح الله الأمير حافية. فقال: أدخلها يا عبد الملك، فرب كبد كريم غدتها، وكربة فرجتها، وعورة سترتها. قال سهل: فوالله ما شككت في شيء قط ما شككت يومئذ في إجابة طلابها وإسعافها بحاجتها. فلما دخلت ونظر إليها داخله محتفية قام محتفياً حتى تلقاها بين عمد المجلس، فأكب على تقبيل رأسها ومواضع ثديها، ثم أجلسها معه. فقالت: يا أمير المؤمنين، أيعدو علينا الزمان، ويجفوننا خوفاً لك الإخوان، يحرّك بنا البهتان، ويوسوس لك بأذانا الشيطان، وقد ريبتك وأخذت برضاعي لك الأمان من دهري. فقال لها: وما ذلك يا أم الرشيد. قال سهل: فأيسني من رأفته بتركه كنيتهما آخرًا ما كان أطمعني منه في بره بها أولاً. قالت: له: ظنرك يحيى وأبوك بعد أبيك، ولا أرشحه بأكثر مما عرفه به أمير المؤمنين من نصيحته له، وإشفاقه عليه، وتعرضه للحتف في، شأن موسى أخيه. فقال: يا أم الرشيد، قدر سبق، وقضاء حم، وغضب من الله نزل. قالت: يا أمير المؤمنين: يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب. فقال الرشيد: صدقت، فهذا مما لا يحويه الله. فقالت: الغيب محبوب عن النبيين، فكيف عنك يا أمير المؤمنين؟ فأطرق الرشيد يسيراً ثم قال:

وإذا المنية أنشبت أظفارها

ألفيت كل تميمة لا تنفع

فقال بغير روية: ما أنا ليحيى بتميمة يا أمير المؤمنين. وقد قيل:

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد

نخراً يكون كصالح الأعمال

هذا بعد قول الله: "والكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس، والله يحب المحسنين"، آل عمران: 134، فأطرق هارون قليلاً ثم قال:

إذا انصرف نفسي عن الشيء لم تكذب

إليه بوجه آخر الدهر تقبل

فقلت: يا أمير المؤمنين وهو يقول:

سنتقطع في الدنيا إذا ما قطعني

يمينك فانظر أي كف تبذل؟

قال الرشيد: رضى. فقلت: يا أمير المؤمنين، فهبه الله تعالى، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من ترك شيئاً لله لم يوحده الله" فأكب الرشيد ملياً، ثم رفع رأسه وهو يقول: لله الأمر من قبل ومن بعد. قالت: يا أمير المؤمنين: "ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم" الروم: 5. واذكر يا أمير المؤمنين أليتك: ما استشفعت إلا شفعتني.

قال: واذكري يا أم الرشيد أليتك: أن لا شفعت لمقترف ذنباً. قال سهل بن هارون: فلما رآته صرخ بمنعها، ولأذ من مطلبها، أخرجت له حقاً من زمردة خضراء، فوضعت بين يديه، فقال الرشيد: ما هذا؟ ففتحت عنه قفلاً من ذهب، فأخرجت منه خفضه وذوائبه وثناياه، قد غمست جميع ذلك في المسك. فقلت: يا أمير المؤمنين: أستشفع إليك، وأستعين بالله عليك، وبما صار معي من كريم جسمك، وطيب جوارحك، ليحيى عبدك. فأخذ هارون ذلك فلفه، ثم استعبر وبكى بكاء شديداً. وبكى أهل المجلس، ومر البشير إلى يحيى، وهو لا يظن إلا أن البكاء رحمة له، ورجوع عنه. فلما أفاق رمي جميع ذلك في الحق، وقال لها: لحسن ما حفظت الوديعة. قالت: وأهل للمكافأة أنت يا أمير المؤمنين. فسكت، وطبع الحق، ودفعه إليها، وقال: "إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها" النساء: 58، قالت: يا أمير المؤمنين وقال عز وجل: "وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل"، النساء: 58، وقال تعالى: "وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم" النحل: 91، فقال لها: وما ذاك يا أم الرشيد؟ قالت: ما أقسمت لي به يا أمير المؤمنين، أن لا يحجبك عني حاجب. فقال لها: يا أم الرشيد، أحب أن تشتريه محكمة فيه. قالت: أنصفت يا أمير المؤمنين، وقد فعلت غير مستقيلة لك، ولا راجعة عنك. قال: بكم؟ قالت: برضاك عمن لم يسخطك. قال: يا أم الرشيد، أما لي عليك من الحق مثل الذي لهم؟ قالت: بلى يا أمير المؤمنين، إنك

لأعز علي، وهم أحب إلي، قال: إذا فتحكمي في ثمنه بغيرهم. قالت: بلى وقد وهبتكه وجعلتك في حل منه، وقامت عنه، فبقي الرشيد مبهوتاً، ما يحير لفظه. قال سهل: وخرجت عنه فلم تعد إليه، ولا والله إن رأيت عيني لعينها عبرة، ولا سمعت أذني لنعيتها أنة.

قال سهل: وكان الأمين رضيع يحيى بن جعفر، فمت إليه يحيى بن خالد بذلك، فوعده استيهاب أمه إياهم، ثم شغله اللهو عنهم، فكتب إليه يحيى، وقيل: إنها لسليمان الأعمى أخي مسلم بن الوليد:

ومجيري من الخطوب الشداد

يا ملاذي وعصمتي وعمادي

زاد فيه البلاء كل مزاد

بك قام الرجاء في كل قلب

أنعم نفعها لكل العباد

إنما أنت نعمة أعقبتها

ر ما زين حسنه بانعقاد

وعد مولاك أتممته فأبهى الد

خلت في كشفها عليك اعتمادي

ما أظلت سحائب اليأس إلا

أكلنتي الأيام أكل الجراد

إن تراخت يدك عني فواقاً

وبعث بها إليه، فبعثها الأمين إلى أمه زبيدة، فأعطتها الرشيد وهو في موضع لذاته، وفي إقبال من أريجته، وتحيات للاستشفاع لهم، وهيأت جواربها ومغنياها، وأمرهن بالقيام إليه معها. فلما فرغ الرشيد من قراءتها لم ينقض حبوته حتى وقع في أسفلها: عظيم ذنبك أमत خواطر العفو عنك. ورمى بها إلى زبيدة، فلما رأت توقيعه علمت أنه لا يرجع عنه.

قال: واعتل يحيى، فلما شفي دعا برقعة فكتب في عنوانها: ينفذ أمير المؤمنين أبقاه الله عهد مولا يحيى بن خالد، وفيه: بسم الله الرحمن الرحيم، قد تقدّم الخصم لموضع الفصل، وأنت على الأثر، والله الحكم العدل. فلما ثقل قال للسجان: هذا عهدي، توصله إلى أمير المؤمنين، فإنه ولي نعمتي، وأحق من نفذ وصيتي فلما مات أوصل السجان عهد يحيى إلى الرشيد. فلما قرأه استمد، فكتب، ولا أدري لمن الرقعة. فقلت: يا أمير المؤمنين، ألا أكفيك؟ قال: كلا، إني أخاف عادة الراحة أن يقوى سلطان العجزة فيحكم الغفلة، ويقضي بالبلادة. قال سهل: فوقع فيها: الحكم الذي رضيت به في الآخرة لك، هو أعدى الخصوم عليك في الدنيا، وهو من لا يناقض حكمه، ولا يرد قضاؤه، ثم رمى الكتاب إليّ، فلما رأيته علمت أنه ليحيى، وأن الرشيد أراد أن يؤثر الجواب عنه.

قال سهل: قلت لبعض من أثق بوفائه، وأعتقد صدق إخائه من خصيان القصر المتقدمين عند أمير المؤمنين، والمتمكنين من كل ما يكون لديه. ما الذي نعى جعفر بن يحيى وذويه عند أمير المؤمنين، وما

كان من ذنبه الذي لم يسعه عفوّه، ولم يأت عليه رضاه؟ فقال: لم يكن له جرم، ولا لديه ذنب، كان والله جعفر على ما عرفته عليه، وفهمته عنه من اكتمال خصال الخير، ونزاهة النفس من كل مكروه ومحذور، إلا أن القضاء السابق، والقدر النافذ لا بد منه. كان من أكرم الخلق على أمير المؤمنين، وأقربهم منه، وكان أعظمهم قدراً وأوجبهم حقاً فلما علم ذلك من حسن رأي أمير المؤمنين فيه وشديد محبته له، استأذنته أخته، فاخته بنت المهدي وشقيقته في إتحاف جعفر ومهاداته، فأذن لها، وكانت قد استعدت له بالجواري الرائعات، والقيينات الفاتنات، فتهدى له كل جمعة بكرة يفتضحها، إلى ما يصنع له من ألوان الطعام والشراب والفاكهة، وأنواع الكسوة والطيب، كل ذلك بمعرفة أمير المؤمنين ورأيه، فاستمرت بذلك زماناً، ومضت به أعواماً. فلما كانت جمعة من الجمع، دخل جعفر القصر الذي استعدت به، ولم يُرَ جعفر إلا بفاخته ابنة المهدي في القصر، كأنها جارية من الجواري اللاتي كن يُهدَيْن له، فأصاب منها لذته، وقضى منها حاجته، ولا علم له بذلك. فلما كان المساء، وهم بالانصراف، أعلمته بنفسها، وعرفته بأمرها، وأطلعته على شديد هواها، وإفراط محبتها له، فازداد بها كلفاً، وبها حباً، ثم استعفاها من المعاودة إلى ذلك. وانقبض عما كان يناله من جواريتها، واعتذر بالعلة والمرض، فأعلم جعفر أباه يحيى. فقال له: يا بني أعلم أمير المؤمنين ما كان معجلاً، وإلا فأذن لي فأعلمه، فإني أخاف علينا يوم سوء إن تأخر هذا، وبلغه من غيرنا، وإعلامك له في هذا الوقت يسقط عنا ذلك الذنب، فهي أحق بالعقوبة منك قال جعفر: لا والله لا أعلمته به أبداً، فلموت علي أسر منه، وأرجو الله أن لا يطلععه عليه، فقال له يحيى: لا تظن هذا يخفى عليه، فأطعني اليوم وأعلمه. فقال جعفر: والله لا أفعل هذا أبداً ولا أتكلم به، وبالله أستعين، فلم يَرِ الرشيد إلا أن رفعت إليه جارية من جواريتها رقعة، وأعلمت ذلك فيها فاستحق ذلك عند الرشيد باستعفاء جعفر لما كان من إتحافها، واعتذاره بالعلة من غير مرض ينهكه، فغفل عنه الرشيد، ولم ير لذلك حذوة، ولا زاد له إلا كرامة، ولا لديه إلا حرمة ورفعة، حتى قرب وقت الهلاك، ودنا منقلب الحتف، والله أعلم.

قد تم بعون الله تعالى ما به ابتدأنا، وكمل وصف ما قصصنا، من أيام خلفائنا وخير أئمتنا، وفتن زمانهم، وخروب أيامهم، وانتهينا إلى أيام الرشيد، ووقفنا عند انقضاء دولته، إذ لم يكن في اقتصاص أخبار من بعده، ونقل حديث ما دار على أيديهم، وما كان في زمانهم كبير منفعة، ولا عظيم فائدة، وذلك لما انقضى أمرهم، وصار ملكهم إلى صبية أعمار، غلب عليهم زنادقة العراق، فصفوهم إلى كل جنون، وأدخلوهم إلى الكفر، فلم يكن لهم بالعلماء والسنن حاجة، واشتغلوا بلهوهم، واستغنوا برأيهم. وكان الرشيد مع عظم ملكه، وقدر شأنه، معظماً للخير وأهله، محباً لله ورسوله، ولما دخلت عليه سنة تسعين

ومئة أخذته الحمى التي أخبر بها جده أبو جعفر المنصور، وهو في المهد صغيراً، فعرف أنه قد دنا أجله، وحن هلاكه، فاجتمع إليه أطباء العراق يعالجونه، ثم استعان بأطباء الروم والهند، واستجلبهم من الآفاق، فلم يزالوا يداوونه حتى مضت له ثلاثة أعوام، وما أقلعت عنه، ولم يزد العلاج إلا شدة. فلما دخلت سنة أربع وتسعين ومئة أثرت به، وأهكت بدنه، واشتد ألمه، وتماس به وجعه، فذكر البيعة لابنه المأمون. فلما سمعت بذلك زبيدة، وكان ابنها منه محمد الأمين، هجرته وتغاضت عنه، وأكرها ذلك وغمها، حتى ظهر ذلك عليها، وبدا أثر الغم في وجهها، ودخلت عليه تعاتبه في ذلك أشد المعاتبة، وتواخذه أعنف المؤاخذة. فقال لها الرشيد: ويحك! إنما هي أمة محمد، ورعاية من استرعاني الله تعالى مطوّفاً بعنقي وقد عرفت ما بين ابني وابنك، ليس ابنك يا زبيدة أهلاً للخلافة، ولا يصلح للرعاية. قالت: ابني والله خير من ابنك، وأصلح لما تريد، ليس بكبير سفيه، ولا صغير فهيه، وأسخى من ابنك نفساً، وأشجع قلباً. فقال هارون: ويحك! إن ابنك قد زينه في عينك ما يزين الولد في عين الأبوين، فاتقي الله، فوالله إن ابنك لأحب إلي، إلا أن الخلافة لا تصلح إلا لمن كان لها أهلاً، ولها مستحقاً، ونحن مسؤولون عن هذا الخلق، ومأخوذون بهذا الأنام، فما أغنانا أن نلقى الله بوزرهم، وننقلب إليه بإثمها، فاقعدي حتى أعرض عليك ما بين ابني وابنك، فقعدت معه على الفراش، فدعا ابنه عبد الله المأمون، فلما صار بباب المجلس سلم على أبيه بالخلافة، فأذن له بالجلوس فجلس، وأمر له فتكلم، فحمد الله على ما من به عليه من رؤية أبيه، ورغب إليه في تعجيل الفرج مما به، ثم استأذن في الدنو من أبيه، فدنا منه، وجعل يلثم أسافل قدميه ويقبل باطن راحتيه، ثم انثنى ساعياً إلى زبيدة، فأقبل على تقبيل رأسي، ومواضع ثدييها، ثم انحنى إلى قدميها، ثم رجع إلى مجلسه. فقال الرشيد: يا بني إني أريد أن أعهد إليك عهد الإمامة، وأقعدك مقعد الخلافة، فإني قد رأيتك لها أهلاً وبها حقيقاً، فاستعبر عبد الله المأمون باكياً، وصاح منتحباً يسأل الله العافية من ذلك، ويرغب إليه أن لا يريه فقد أبيه. فقال له: يا بني إني أراي لما بي وأنت أحقّ، وسلم الأمر لله، وارض به، واسأله العون عليه، فلا بد من عهد يكون في يومي هذا. فقال عبد الله المأمون: يا أبتاه، أخي أحقّ مني وابن سيدي، ولا إخال إلا أنه أقوى على هذا الأمر مني، ثم أذن له فقام خارجاً. ثم دعا هارون بابنه محمد، فأقبل يجرّ ذيله، وتبختر في مشيته، فمشى داخلاً بنعليه قد نسي السلام، وذهل عن الكلام، نخوة وتجبراً، وتعظماً وإعجاباً، فمشى حتى صار مستو، مع أبيه على الفراش. فقال هارون: ما تقول أي بني، فإني أريد أن أعهد إليك؟ فقال: يا أمير المؤمنين ومن أحقّ بذلك مني، وأنا أسن ولدك، وابن قرّة عينك. فقال هارون: اخرج يا بني، ثم قال لزبيدة: كيف رأيت ما بين ابني وابنك. فقالت: ابنك أحقّ بما تريد، فكتب عهد عبد الله المأمون، ثم محمد الأمين بعده.

فلما كان سنة خمس وتسعين ومئة، توفي الرشيد رحمه الله، وعبد الله المأمون خارج عن العراق، وكان

وجّهه أبوه بالجيش إلى بعض الفرس لشيء بلغه عنهم، فلظّم محمد الأمين قوم من شرار أهل العراق. فقبل له: معك الأموال والرجال والقصور، فادفع في نحر أخيك المأمون، فإنك أحقّ بهذا الأمر منه، وأعانتة على ذلك أمه زبيدة، فقدم أخوه عبد الله من بغداد ومعه الجيش قد أخذ بيعتهم، فنهض إليه الأمين قاصداً ومعه الجيش، فلم يرجع ولم يمانع، ولم يختلف عليه أحد، ثم إنه غدر بأخيه الأمين لما بلغه عنه.

فنهض المأمون إلى القصر فدخله، فأخذ أخاه وشد وثاقه وحبس، وأشار إلى أمه لما أعانتة عليه، فهرب محمد من الحبس، فبعث المأمون في طلبه، فأخذ وقتل والله تعالى أعلم. انتهى الجزء الثاني من كتاب الإمامة والسياسة.

الفهرس

2	مقدمة المؤلف
2	فضل أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما:
3	سؤال عمر بن عبد العزيز عن استخلاف الرسول لأبي بكر
3	استخلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضي الله عنه:
4	استخلاف أبي بكر رضي الله عنه في الصلاة بالناس
4	اختلاف الصحابة على موضع دفنه صلى الله عليه وسلم:
4	محاولة العباس مبايعة الإمام علي
5	ذكر السقيفة وما جرى فيها من القول
7	مخالفة بشير بن سعد ونقضه لعهدهم
8	بيعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه:
8	تحلف سعد بن عباد رضي الله عنه عن البيعة
9	إبابة علي كرم الله وجهه بيعة أبي بكر رضي الله عنهما:
10	كيف كانت بيعة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:
13	خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه:
14	مرض أبي بكر واستخلافه عمر رضي الله عنهما:
16	ولاية عمر بن الخطاب رضي الله عنه:
16	قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه:
18	تولية عمر بن الخطاب الستة الشورى وعهده إليهم
20	ذكر الشورى وبيعة عثمان بن عفان رضي الله عنه:
21	ذكر الإنكار على عثمان رضي الله عنه:
22	ذكر القول والمجادلة لعثمان ومعاوية رضي الله عنهما:
24	ما أنكر الناس على عثمان رحمه الله:
26	حصار عثمان رضي الله عنه:
27	تولية محمد بن أبي بكر على مصر:

- 28 رجوع محمد بن أي بكر إلى المدينة:
- 28 حصار أهل مصر والكوفة عثمان رحمه الله:
- 29 مخاطبة عثمان من أعلى القصر طلحة وأهل الكوفة وغيرهم:
- 30 رؤية عثمان أبا بكر وعمر في المنام:
- 32 قتل عثمان رضي الله عنه وكيف كان:
- 34 دفن عثمان بن عفان رضي الله عنه:
- 34 بيعة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وكيف كانت:
- 38 خطبة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:
- 38 اختلاف الزبير وطلحة على علي كرم الله وجهه:
- 39 خلاف عائشة رضي الله عنها على علي:
- 39 اعتقال عبد الله بن عمر وسعد بن أي وقاص ومحمد بن مسلمة عن مشاهدة علي وحروبه: ..
- 40 هروب مروان بن الحكم من المدينة المنورة:
- 40 خروج علي من المدينة:
- 42 كتاب أم سلمة إلى عائشة:
- 42 استنفار عدي بن حاتم قومه لنصرة علي رضي الله عنه:
- 43 استنفار زفر بن زيد قومه لنصرة علي:
- 44 توجه عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة:
- 47 نزول طلحة والزبير وعائشة البصرة:
- 48 نزول علي بن أبي طالب الكوفة:
- 48 خطبة أبي موسى الأشعري:
- 49 خطبة عمار بن ياسر:
- 49 كتاب علي إلى أهل الكوفة:
- 49 خطاب شريح بن هانئ:
- 50 دخول طلحة والزبير وعائشة البصرة:
- 50 خطبة عائشة رضي الله عنها:
- 51 قتل أصحاب عثمان بن حنيف عامل عليّ على البصرة:
- 52 تعبئة الفتيين للقتال:

52	كتاب علي إلى عائشة.....
54	رجوع الزبير عن الحرب
54	قتل الزبير بن العوام:
55	مخاطبة علي لطلحة بين الصفيين:
56	التحام الحرب
58	مبايعة أهل الشام معاوية بالخلافة
59	كتاب معاوية إلى علي
59	رد الإمام علي على معاوية
60	قدوم عقيل بن أبي طالب على معاوية
61	نعي عثمان بن عفان إلى معاوية
62	قدوم بن عم عدي بن حاتم الشام:
63	استعمال علي عبد الله بن عباس على البصرة:
63	ما أشار به الأحنف بن قيس على علي:
64	كتاب الأحنف إلى قومه يدعوهم به إلى نصره علي:
64	كتاب أهل العراق إلى مصقلة:
65	جواب مصقلة إلى قومه:
65	لحوق عبد الله بن عامر بالشام:
65	ما أشار به عمار بن ياسر على علي:
66	ما أشار به الأشتر على علي:
66	خطبة زفر بن قيس:
67	خطبة جرير بن عبد الله البجلي:
67	كتاب علي إلى الأشعث بن قيس:
67	خطبة زياد بن كعب:
67	خطبة الأشعث بن قيس:
68	مشورة الأشعث ثقاته في الحقوق بمعاوية إلى الشام:
68	كتاب جرير إلى الأشعث:
68	إرسال علي جريراً إلى معاوية:

- 68 كتاب علي إلى معاوية مرة ثانية:
- 69 قدوم جرير إلى معاوية:
- 69 إشارة الناس على عليّ بالمقام بالكوفة:
- 70 مشورة معاوية أهل ثقته:
- 70 كتاب معاوية إلى عمرو بن العاص:
- 70 ما سأل معاوية من علي من الإقرار بالشام ومصر:
- 70 كتاب علي إلى جرير بن عبد الله:
- 70 استشارة عمرو بن العاص ابنه ومواليه:
- 71 قدوم عمرو إلى معاوية:
- 72 مشورة معاوية عمرًا رضي الله عنهما:
- 72 كتاب معاوية إلى أهل مكة والمدينة وجوابهما:
- 72 جوابهما:
- 73 كتاب معاوية إلى ابن عمر:
- 73 جوابه:
- 73 كتاب معاوية إلى سعد بن أبي وقاص:
- 73 جواب سعد بن أبي وقاص لمعاوية:
- 74 كتب معاوية إلى محمد بن مسلمة الأنصاري:
- 74 جوابه:
- 74 كتاب معاوية إلى علي رضي الله عنه:
- 75 جواب عليّ إلى معاوية:
- 75 قدوم عبيد الله بن عمر على معاوية:
- 75 تعبئة معاوية أهل الشام لقتال علي:
- 76 تعبئة أهل العراق للقتال
- 77 منع معاوية الماء من أصحاب علي:
- 77 غلبة أصحاب علي على الماء:
- 78 دعاء علي معاوية إلى البراز:
- 78 براز عمرو بن العاص لعلي

- 78 قطع الميرة عن أهل الشام:
- 79 قدوم أبي هريرة وأبي الدرداء على معاوية وعلي:
- 80 وقوع عمرو بن العاص في علي:
- 80 كتاب معاوية إلى أبي أيوب الأنصاري:
- 80 ما خاطب به النعمان بن بشير قيس بن سعد:
- 81 كتاب عمرو إلى ابن عباس:
- 82 جواب عبد الله بن عباس إلى عمرو بن العاص:
- 82 أمر معاوية مروان بحرب الأشر:
- 82 كتاب معاوية إلى بن عباس:
- 83 جوابه:
- 83 خطبة علي كرم الله وجهه:
- 84 قدوم ابن أبي محجن على معاوية:
- 84 رفع أهل الشام المصاحف:
- 85 ما تكلم به عبد الله بن عمرو وأهل العراق:
- 85 ما خاطب به عتبة بن أبي سفيان الأشعث بن قيس:
- 86 كتاب معاوية إلى علي رضي الله عنهما:
- 86 جوابه:
- 87 اختلاف أهل العراق في الموادة:
- 87 ما رد كردوس بن هانئ على علي:
- 87 ما قال سفيان بن ثور:
- 87 ما قال حريث بن جابر البكري:
- 88 ما قال خالد بن معمر السدوسي:
- 88 ما قال الحصين بن المنذر:
- 88 ما قال عثمان بن حنيف:
- 88 ما قال عدي بن حاتم:
- 89 ما قال عبد الله بن حجل:
- 89 ما قال صعصعة بن صوحان:

- 89 ما قال المنذر بن الجارود:
- 90 ما قال الأحنف بن قيس:
- 90 ما قال عمير بن عطار:
- 90 ما قال عليّ رضي الله عنه بعده:
- 90 نداء أهل الشام واستغاثتهم علياً رضي الله عنه:
- 91 ما أشار به عدي بن حاتم:
- 91 ما قال الأشتر وأشار به:
- 91 ما قال عمرو بن الحمق:
- 91 ما قال الأشعث بن قيس:
- 91 ما قال عبد الرحمن بن الحارث:
- 91 ما رآه علي كرم الله وجهه:
- 92 ما قال عمار بن ياسر:
- 92 قتل عمار بن ياسر:
- 93 هزيمة أهل الشام
- 93 ما قال الأشعث بن قيس:
- 93 ما قال الفراء:
- 94 ما قال عثمان بن حنيف:
- 94 ما قال الأشتر وقيس بن سعد:
- 94 ذكر الاتفاق على الصلح وإرسال الحكمين:
- 95 اختلاف أهل العراق في الحكمين:
- 95 ما قال أهل الشام لأهل العراق:
- 96 ما قال الأحنف بن قيس لعلي:
- 96 ما قال علي كرم الله وجهه:
- 96 الاختلاف في كتابة صحيفة الصلح:
- 97 ما وصى به شريح بن هانئ أبا موسى:
- 98 ما وصى به الأحنف بن قيس أبا موسى:
- 98 ما قال معاوية لعمرو:

98	ما قال شرحبيل لعمرو:
99	اجتماع أبي موسى وعمرو:
99	ما قال سعيد بن قيس للحكمين:
99	ما قال عدي بن حاتم لعمرو:
99	ما قال عمرو لأبي موسى:
101	كتاب بن عمر إلى أبي موسى:
102	كتاب معاوية إلى أبي موسى:
102	جوابه:
102	كتاب علي إلى أبي موسى:
102	جوابه:
103	ذكر الخوارج على علي بن أبي طالب
103	كرم الله وجهه:
104	الجواب:
104	خطبة علي كرم الله وجهه:
104	كتاب علي كرم الله وجهه للخوارج
105	كتاب علي إلى بن عباس:
105	ما قال بن عباس إلى أهل البصرة:
106	ما قال علي كرم الله وجهه لأهل الكوفة:
106	ما قال علي كرم الله وجهه في الخثعمي:
107	إجماع على الذهاب إلى صفين:
108	مسير علي إلى الخوارج وما قال لهم:
108	قتل الخوارج
109	خطبة علي كرم الله وجهه:
111	كلام أبي أيوب الأنصاري:
112	ما كتب علي لأهل العراق:
116	مقتل علي
116	عليه السلام:

- 118.....فصل: 118.....بيعة الحسن بن علي رضي الله عنه لمعاوية.
- 119.....إنكار سليمان بن صرد: 120.....كراهية الحسين رضي الله عنه للبيعة: 120.....ما أشار به المغيرة بن شعبة على معاوية من البيعة ليزيد: 120.....ما حاول معاوية في بيعة يزيد: 121.....ما تكلم به الضحاك بن قيس: 121.....ما قال عبد الرحمن بن عثمان: 121.....ما قال ثور بن معن: 122.....ما تكلم به عبد الله بن عصام: 122.....ما تكلم به عبد الله بن مسعدة: 122.....ما قال الأحنف بن قيس: 123.....ما رد الضحاك بن قيس عليه: 123.....ما أجاب به الأحنف بن قيس: 123.....ما قال عبد الرحمن بن عثمان: 124.....ما قال معاوية بن أبي سفيان: 125.....قدوم معاوية المدينة وما خاوض فيه العبادلة: 125.....ما تكلم به عبد الله بن عباس: 125.....ما تكلم به عبد الله بن جعفر: 126.....ما تكلم به عبد الله بن الزبير: 126.....ما تكلم به عبد الله بن عمر: 126.....ما تكلم به معاوية: 127.....موت الحسن بن علي رضي الله عنهما: 127.....بيعة معاوية ليزيد بالشام وأخذ أهل المدينة: 127.....عزل مروان عن المدينة: 128.....خطبة مروان بن الحكم بين يدي معاوية: 129.....كراهية أهل المدينة البيعة وردهم لها:

129.....	كتاب معاوية إلى سعيد بن العاص:
129.....	ما كتب به إلى بن عباس:
130.....	ما كتب به إلى عبد الله بن جعفر:
130.....	ما كتب به إلى الحسين:
130.....	ما كتبه إلى بن الزبير:
130.....	ما أجابه القوم به رضي الله عنهم:
132.....	قدوم معاوية المدينة على هؤلاء القوم وما كان بينهم من المنازعة:
137.....	ما قال عبد الله بن الزبير لمعاوية:
138.....	ما قال سعيد بن عثمان بن عفان لمعاوية:
139.....	قدوم أبي الطفيل على معاوية:
140.....	ما حاول معاوية من تزويج يزيد:
146.....	وفاة معاوية
146.....	رحمه الله:
147.....	كتاب يزيد بالبيعة إلى أهل المدينة
148.....	إبابة القوم الممتنعين عن البيعة:
149.....	خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية
150.....	كتاب يزيد إلى أهل المدينة:
150.....	ما أجمع عليه أهل المدينة ورأوه من إخراج بني أمية:
151.....	قدوم الجيوش إلى المدينة:
152.....	غلبة أهل الشام على أهل المدينة
155.....	عدة من قتل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وغيرهم:
156.....	كتاب مسلم بن عقبة إلى يزيد:
157.....	موت مسلم بن عقبة ونبشه:
157.....	فضائل قتلى أهل الحرة رحمهم الله تعالى:
158.....	ذكر اختلاف الرواة في وقعة الحرة وخبر يزيد:
159.....	ولاية الوليد المدينة وخروج الحسين بن علي:
161.....	قتال عمرو بن سعيد الحسين وقتله:

- 162..... قدوم من أسر من آل علي على يزيد: 162..... إخراج بني أمية عن المدينة، وذكر قتال أهل الحرة: 164..... حرب بن الزبير رضي الله عنهما: 165..... خلافة معاوية بن يزيد: 166..... غلبة بن الزبير رضي الله عنهما وظهوره: 167..... حريق الكعبة: 167..... اختلاف أهل الشام على بن الزبير: 168..... بيعة أهل الشام مروان بن الحكم: 168..... موت مروان بن الحكم: 169..... بيعة عبد الملك بن مروان وولايته: 170..... غلبة بن الزبير على العراقيين وبيعته: 170..... بيعة أهل الكوفة لابن الزبير وخروج بن زياد عنها: 173..... قتل المختار عمرو بن سعد: 174..... قتل مصعب بن الزبير المختار بن أبي عبيد الله: 174..... خلع ابن الزبير: 175..... قتل عبد الملك عمرو بن سعيد: 176..... مسير عبد الملك إلى العراق: 177..... قتل مصعب بن الزبير: 177..... ذكر حرب بن الزبير وقتله: 179..... ولاية الحجاج على العراقيين: 180..... خروج بن الأشعث على الحجاج: 182..... حرب الحجاج مع بن الأشعث وقتله: 190..... الحجاج والشعي: 192..... ذكر قتل سعيد بن جبير: 195..... ذكر بيعة الوليد وسليمان ابني عبد الملك: 197..... موت عبد الملك وبيعة الوليد: 198..... تولية موسى بن نصير البصرة:

199.....	دخول موسى بن نصير على عبد الملك بن مروان:
199.....	تولية موسى بن نصير على إفريقية:
200.....	خطبة موسى بن نصير رحمه الله:
200.....	دخول موسى بن نصير أفريقية:
201.....	خطبة موسى بأفريقية:
201.....	فتح زعوان:
202.....	قدوم كتاب الفتح على عبد العزيز بن مروان:
202.....	إنكار عبد الملك تولية موسى بن نصير:
202.....	جوابه:
203.....	كتاب عبد العزيز بالفتح إلى عبد الملك:
203.....	جوابه:
203.....	فتح هواره، وزناته، وكتامة:
204.....	فتح صنهاجة:
204.....	فتح سجوما:
205.....	قدوم الفتح على عبد الملك بن مروان:
206.....	غزوة موسى في البحر:
207.....	غزوة السوس الأقصى:
207.....	قدوم الفتوحات على الوليد بن عبد الملك:
208.....	فتح قلعة أرساف:
208.....	فتح الأندلس:
210.....	اتهم الوليد موسى بالخلع:
210.....	دخول وفد موسى على الوليد بن عبد الملك:
211.....	غزوة موسى بن نصير البشكنس والأفرنج:
213.....	خروج موسى بن نصير من الأندلس:
213.....	قدوم موسى أفريقية:
214.....	قدوم موسى إلى مصر:
214.....	قدوم موسى على الوليد رحمهما الله تعالى:

- 215.....خلافة سليمان بن عبد الملك وما صنع بموسى بن نصير:
- 216.....عدة موالي موسى بن نصير:
- 216.....ذكر ما رآه موسى بالمغرب من العجائب:
- 218.....تولية سليمان بن عبد الملك أخاه مسلمة وما أشار به موسى عليه:
- 218.....سؤال سليمان موسى عن المغرب:
- 219.....ذكر قدوم موسى على الوليد:
- 220.....ذكر اختلاف الناقلين في صنع سليمان بموسى:
- 221.....نسخة القضية:
- 222.....ذكر يد موسى إلى المهلب:
- 223.....ذكر قتل عبد العزيز بن موسى بالأندلس:
- 224.....قدوم رأس عبد العزيز بن موسى على سليمان:
- 226.....سؤال سليمان بن عبد الملك موسى عن أخباره وأفعاله:
- 228.....ذكر ولاية الأندلس بعد موسى بن نصير:
- 229.....ذكر حج سليمان مع عمر بن عبد العزيز:
- 229.....ما قال طاووس اليماني لسليمان بمكة:
- 230.....ما قال أبو حازم لسليمان:
- 234.....ذكر وفاة سليمان واستخلافه عمر بن عبد العزيز
- 237.....أيام عمر بن عبد العزيز:
- 238.....ذكر قدوم جرير بن الحطفي على عمر بن عبد العزيز:
- 239.....دخول الخوارج على عمر بن عبد العزيز:
- 241.....وفاة عمر بن عبد العزيز:
- 241.....ذكر رؤيا عمر بن عبد العزيز:
- 242.....ما علم به موت عمر رحمه الله في الأمصار:
- 243.....ولاية يزيد بن عبد الملك بن مروان:
- 244.....ولاية هشام بن عبد الملك:
- 245.....قدوم خالد بن صفوان بن الأهمم على هشام:
- 248.....بدء الفتن والدولة العباسية:

- 249..... دخول محمد بن علي على هشام: 249..... ولاية الوليد بن يزيد وفتن الدولة: 250..... قتل خالد بن عبد الله القسري: 250..... وثوب أهل دمشق على الوليد بن يزيد وقتله: 252..... ولاية مروان بن محمد بن مروان بن الحكم: 252..... خروج أبي مسلم الخراساني: 254..... ذكر ما أمال أصحاب الكرمانى إلى أبي مسلم: 256..... تولية أبي مسلم قحطبة بن شبيب قتال مروان: 256..... ذكر البيعة لأبي العباس بالكوفة: 257..... حرب مروان بن محمد وقتله: 258..... قتل أبي سلمة الخلال: 259..... قتل رجال بني أمية بالشام: 260..... ذكر قتل سليمان بن هشام: 261..... خروج السفاح على أبي العباس وخلعه: 262..... اختلاف أبي مسلم على أبي العباس: 263..... قتال بن هبيرة وأخذه: 264..... كتاب الأمان: 265..... قدوم بن هبيرة على أبي العباس: 266..... قتل بن هبيرة: 268..... اختلاف أبي مسلم على أبي العباس: 268..... كتاب أبي مسلم إلى أبي جعفر وقد هم أن يخلع ويخالف: 269..... موت أبي العباس واستخلاف أبي جعفر: 270..... قتل أبي مسلم: 271..... ثورة عيسى بن زيد بن علي بن الحسين: 272..... هروب مالك بن الهيثم: 273..... قصة سابور ملك فارس: 274..... خروج شريك بن عون على أبي جعفر وخلعه:

274.....	اجتماع شبيب بن شيبه مع أبي جعفر قبل ولايته وبعدها:
276.....	حج أبي جعفر ولقائه مالك بن أنس وما قال له:
277.....	دخول سفيان الثوري وسليمان الخواص على أبي جعفر وما قال له:
278.....	دخول بن أبي ذؤيب ومالك بن أنس وبن سمعان على أبي جعفر:
279.....	كتاب عبيد الله العمري إلى أبي جعفر:
280.....	فأجابه أبو جعفر المنصور:
280.....	اجتماع أبي جعفر مع عبد الله بن مرزوق:
281.....	ذكر ما نال مالك بن أنس من جعفر بن سليمان
282.....	إنكار أبي جعفر المنصور لضرب مالك:
282.....	دخول مالك على أبي جعفر بمئ:
284.....	ما قال أبو جعفر لعبد العزيز بن أبي رواد:
284.....	قدوم المهدي إلى المدينة:
284.....	موت أبي جعفر المنصور واستخلاف المهدي
285.....	ذكر استخلاف هارون الرشيد
286.....	قدوم هارون الرشيد المدينة:
288.....	مسير الرشيد إلى الفضيل بن عياض:
289.....	ذكر الحائك المتطفل:
293.....	ذكر الأعرابي مع هارون الرشيد:
295.....	قتل جعفر بن يحيى بن برمك:
304.....	الفهرس

To PDF: www.al-mostafa.com